

محمّد المجذوب

علماء ومفكرون عرفتم

الجزء الثاني

الطبعة الرابعة

دار الشواف

• أصدرته عام ١٩٩٢ دار الشواف للنشر والتوزيع
رقم الإيداع بجمهورية مصر العربية ٩٢/٧٨ ٥٥
طبع بالمطبعة الفنية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩١١٨٦٢
• حقوق الطبع محفوظة .

الناشر: دار الشواف للنشر والتوزيع
السعودية - الرياض - العليا - شارع الثلاثين - شرق بنده
ت/ ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧ - فاكس/ ٤٦٢٢٨٦٦

دار الشواف للنشر والتوزيع

الرياض - العليا - شارع الثلاثين - شرق بنده ت : ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧ فاكس : ٤٦٢٢٨٦٦
Riyad - Olaiya, Thalatheen St., (East to Panda) Tel.: 4622630 - 4622667 - Fax.: 4622866

هذا الكتاب

منذ صدور الطبعة الأولى من (علماء ومفكرون عرفتهم) كانت النية متجهة إلى العمل في تحضير الجزء الثاني من هذه التراجم ، ولكن الأعباء الكثيرة في الجامعة الإسلامية ، وفي الأعمال الأخرى من كتابه البحوث وإعداد بعض المؤلفات للنشر ، قد حالت دون إخراج المواد إلى حيز الواقع ، حتى شاء الله إنهاء سنيّ العشرين في خدمة الجامعة بنهاية العام ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ فكانت فرصة أتاحت لي التفرغ لذلك العمل وما يتصل به ..

وها هو ذا الكتاب المنشود ينتهي بمعونة الله إلى مرحلة الطبع بعد جهود متصلة لم تكد تنقطع طوال عام كامل ، وهو لا يختلف عن توأمة السابق من حيث الموضوع ، إذ ليس هؤلاء الفضلاء سوى نماذج أخرى من أولئك العلماء والمفكرين الذين قدمتهم إلى القارئ في المجلد الأول ..

بعض هذه التراجم كان من حقها أن تأخذ مكانها في الكتاب الأول ، لكن تأخر أجوبة المترجمين نقلها إلى الكتاب الثاني ، وهناك تراجم أخرى كان من حقها أن تظهر في هذا الجزء إلا أن تأخر أجوبتها حتى اليوم أخل بالخطّة المرسومة فخلا ممن كنا نحب ألا يخلو من ترجمتهم ..

أما ترتيب التراجم فقد استقر على سبيله في الكتاب الاول ، من حيث الحروف الأولى من أسماء المترجمين ، دون اعتبار لتاريخ كتابتها ..

وكذلك الأمر في منهج العرض لم نفارق به خطة سابقة ، فهو تعريف واستطلاع وتحليل ، وحوار يتسع للمناقشة في كل ما نراه قابلاً للمراجعة . لأن الغرض من كلا الكتابين هو تسجيل واقع عمل في نسجه وتأليفه علماء ومفكرون أسهموا في إنارة الطريق لمن عاصروهم ولمن يعقبهم من أجيال المسلمين ، وقد نختلف مع بعضهم في بعض أفكاره فلا نكتم مرقفنا منه فنراجع بالصراحة القائمة على التقدير الواجب الذي يرضى المنصفين ، وإن أسخط بعض المتعجلين ، الذين لم يروضوا أنفسهم

على احترام حرية الآخرين .

وكلمة أخيرة أسرُّ بها إلى القارئ الكريم ، وهى أنى لم أرد بكتابه مدحاً ولا قدحاً ، ولم أبتغ من وراء ذلك ربحاً ، وأى مردود ماذى يكافىء ما استهلكاه من عمرى ، وإنما هى رغبة خالصة فى رصد المسيرة الفكرية ، التى يسهم فى قيادتها جمهور من أولى الفضل المعاصرين ، فإن وُفِّقْتُ إلى ما أريد من الخير فبنعمة الله ، وإن أخطأته فى بعض ما كتبت فرجاني أن يشمله بعفوه ورحمته التى وسعت كل شيء .

والحمد لله رب العالمين . .

المدينة المنورة - ساحة مسجد قباء

محمد المجنوب

أبو الأعلى المودودي

لو جرت الأمور في طريقها الصحيح لاحتلت ترجمة الأستاذ أبي الأعلى المودودي ، تغمده الله برحمته ، مكانها في المجلد الأول من (علماء ومفكرون عرفتهم) ولاتخذت هذه الترجمة صورة الحوار الذي انتظم ذلك الجزء جميعاً ، ولكن حالت دون ذلك حوائل ، أهمها مسئوليات المعمة الطويلة التي شغلت الأستاذ وإخوانه حتى عن أنفسهم في مواجهة أعداء الإسلام ، فلم يجد متسعاً للإجابة على الاستطلاع الذي وجهناه إليه ، ولم يفرغ مرافقه الأستاذ خليل أحمد الحامدي لتحقيق مواعيده المتلاحقة لنا بالحصول على أُمليات الشيخ التي انتظرناها حتى قبيل تقديم الكتاب الأول إلى المطبعة . . .

ومن هنا كان اتجاهنا في كتابة ترجمته إلى استخلاص عناصرها من أوثق المصادر التي تحدثت عنه ، وفي مقدمتها أحاديث الأستاذ الحامدي نفسه ، الذي هو من أعلم الناس بالراحل العزيز ، وأكثرهم اطلاعاً على دقائق تلك الحياة الحافلة بالجهاد لإعلاء كلمة الله . . . وهكذا استحال الاستطلاع نوعاً من العرض التاريخي الموثق ، ممزوجاً بالدراسة التحليلية التي سلكنا سبيلها في الكتاب الأول ، كلما وجدنا للرأى الخاص مجالاً في أثناء ذلك العرض .

وأقف لحظة لأنفي عن عملي الادعاء باستيفاء الصورة الكاملة عن تلك الحياة الباهرة ، وعذري في كل قصور يؤخذ علي أن الكلام عن مثل المودودي يقتضى الإحاطة أولاً بأبعاد ثقافته العالمية ، التي تناولت أهم مشكلات الإنسان على ضوء التطورات التي حققتها البشرية في مختلف جوانب الحياة ، ثم الإحاطة كذلك بمسلسل الوقائع التي واجهها وعالجها على مدى عشرات السنين ، وفي مختلف الميادين ، وكل من الأمرين يتطلب ما تضيق عنه المجلدات فكيف بالصفحات ! . . .

ثم وقفة أخرى أستعيد فيها بعض الذكريات عن لقاءى الأول والأخير لهذا العلامة ،
الذى جدد به الله شباب الإسلام ، وملأ علمنا الإسلامى المعاصر ألواناً من
المعرفة النيرة المستقيمة . .

حدث هذا اللقاء قبل خمس عشرة سنة فى رحاب الجامعة الإسلامية ، ولم
أكن قد رأيته قط ، ومع ذلك شعرت كأنى قديم المعرفة به ، إذ كانت صورته
قد انطبعت فى خيالى عن طريق كتبه . فلما واجهته لم أستغرب هيئته ، التى لم
تختلف كثيراً عن صورته المكنونة فى نفسى ، فهو إلى هيكله الوسيط الممتلئ ،
وبلحيته التى تملأ ترقوته ، يُطل على الناظر فى جذية وقور ، يحس من خلالها أنه
تلقاء واحد من الأئمة الذين طالما قرأنا أوصافهم فى كتب التراجم . ولعل
لا أجنب الواقع إذا قلت إن أبرز سماته ذلك الوقار الذى يجعله كله ، حتى
مشيته ونظراته ولهجته ، فيذكرك بقول عبد الله بن المبارك فى إمام المدينة :

يأبى الجواب فما يراجع هيةً والسائلون نواكس الأذقان
عز الوقار ومجد سلطان النهى فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولم يطل لقاءنا يومئذ ومضيت ، ثم لم أره بعد ذلك ، بيد أنى لم أفارق
أفكاره التى تغنينى عن الاجتماع بشخصه وظللت أتتبع أخبار النضال الذى
ما ينفك يخوضه فى سبيل تثبيت الطابع الإسلامى على الدولة ، التى ما كان لها
أن تكون لولا الإسلام . . إلى أن توفاه الله يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩ .

وبعد ، فهذه لمحة رأيت تقديمها قبل الدخول فى غمار تلك الحياة الحافلة
بجلائل الأعمال ، والله المستعان .

البيئة الصالحة :

كان مولد الأستاذ المودودى عام ١٩٠٣ فى إحدى مدن ولاية حيدر أباد
الدكن من شبه القارة الهندية ، ويرجع بنسبه البعيد إلى الشيخ قطب الدين
مودود صاحب الطريقة الجشتية المعروفة منذ القرن السادس الهجرى فى منطقة
(هرات) من ديار الأفغان ، وقد اختير لهذا المولود اسم أحد أجداده من
شيوخ هذه الطريقة ، الذى كان اسمه أبا الأعلى المودودى ، وهو اختيار لا بد
أن يكون فيه نزعة الأسرة إلى التصوف الذى تحدر إليها بطريق الوراثة ، فطبعها

بمخصاته المميزة ، التي برزت جلية في سلوك والده السيد أحمد حسن .
الذى على الرغم من ثقافته الإنجليزية التي تلقى مبادئها من جامعة عليكرة ،
وعمله مدة في المحاماة التي حاول أن يتخذها مهنة لتأمين المعيشة ، لم يلبث أن
انصرف عن التفكير بالدنيا كي يتفرغ للعبادة والأذكار ورياضة النفس مكتفياً
من الحياة بالمتيسر من القوت . .

وبدأ أبو الأعلى مرحلة التعليم على يد والده الذى تلقى منه دروسه الأولى
في العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية ، وبلغ من نباهته واجتهاده
في هذه المرحلة أن استظهر موطاً مالك عن ظهر قلب . .

وقد عنى السيد أحمد حسن بتربية ولده على أفضل ما يتصور من
الأخلاق . ويتحدث الأستاذ عن عناية ذلك الوالد قائلاً : إنه كان يأخذه
بالتوجيه الشامل ، حتى لينعمه من استعمال الألفاظ الدارجة ، ويدرب لسانه
على أفضل الأساليب ، وفي الليالي يقص عليه من أخبار الأنبياء ، وتاريخ
الإسلام ، والأحداث الشهيرة من أيام الهند ، ويكشف له عما وراءها من
الدروس والعبر .

ويقول الأستاذ أيضاً : لقد ضربت ذات يوم طفلاً لأحد الخدم في
حارتنا ، ولما انتهى الخبر إلى والدى دعانى وجاء بذلك الطفل وأمره بأن يقتص
منى . .

وهكذا أحيط أبو الأعلى منذ نعومة أظفاره بالكريم من التربية العملية ،
التي طبعت حياته بالأكرم من الخلال . .

أما من حيث نباهته فأبى جانب حفظه للموطأ في سنه المبكرة كان تقدمه
في العربية التي — يقول — إنه بلغ من إلمامه بها خلال بضعة شهور ما مكنه من
ترجمة كتاب (المرأة الجديدة) تأليف الكاتب المصرى الشهير قاسم أمين ، إلى
اللغة الأردنية بطريقة نالت الإعجاب .

ومن تلك المرحلة انتقل إلى المدرسة الثانوية فألحق بالسنة الثامنة
ولما يتجاوز الحادية عشرة من العمر واستحصل على شهادتها وهو في الرابعة
عشرة بتفوق بالغ . .

ولقد أدى زهد والده إلى ضيق في معيشتهم شديد ، اضطر الوالد للزروح إلى مدينة بهوبال ، تاركاً ابنه يتابع دراسته في (أورنك آباد) . ويصف الأستاذ المودودي هذه الفترة من حياته قائلاً : كان مسكنه على مبعدة خمسة عشر كيلاً من مدرسته ، وعليه أن يجتازها على قدميه ذهاباً وإياباً كل يوم . . وربما فعل ذلك وهو طاوى البطن لا يجد ما يأكله^(١) . . وبعد نصف سنة جاءته الأخبار عن شلل أصاب والده ، فلم يتمالك أن يترك المدرسة ليعود مع والدته إلى بهوبال حيث قاما برعاية والده الصالح حتى وافته المنية عام ١٩١٧ .

من البؤس إلى الصحافة :

ويصف الأستاذ الحامدي أيام المودودي^(٢) بعد وفاة أبيه بأنها فترة قائمة ، إذ لم يبق له سند من الناس وبات عليه أن يضرب في الأرض طلباً للرزق ، فهو مشتبك الفكر ، دائب الرحلة من بلد إلى بلد آخر ، إلى أن ألقى عصا التسيار في مدينة (بجنور) وهناك ألفى بعض الاستقرار إذ وجد عملاً في إحدى الصحف إلا أنه لم يستمر فيها سوى قليل حتى تركها إلى مجلة أسبوعية في المدينة نفسها . والظاهر أن الدافع له إلى إيثار هذه المجلة هو التزامها (حركة المحافظة على الخلافة الإسلامية) وقد انتفع بموهبته الإنشائية فجعل يكتب لها الافتتاحيات اللاهية في موضوع الخلافة ، الذي كان مشغلة نفوس مسلمي الهند في ذلك العهد ، ولم يكتف بنصرة الحركة عن طريق الكتابة فقط بل جعل يقتطع من أجوره ما يتبرع به لصندوقها .

وفي هذا الجو المتأجج بالحماسة الإسلامية ألف اثنين من أوائل كتبه ، أحدهما (النشاطات التبشيرية في تركية) والثاني بعنوان (مجازر اليونانيين في

١ - في خطاب من أمير الجماعة الإسلامية إلى المؤلف يقرر كل ما كتبه عن الفقيه إلا أنه يتوقف عنده هذه الفقرة عن دراسته الابتدائية وحفظه موطأ مالك ، وقد نقلنا الخبرين من كتاب الأستاذ الحامدي

سمرنا) وفي هذين العنوانين ما يكفي لتصوير قلق مسلمي الهند على إخوانهم في تركية ، التي كانت ترزح أثناء إذ تحت كابوس الاحتلال الصليبي ، وتعانى من عدوان اليونانيين على مناطقها التي أغرقوها بدماء الأبرياء . .

وفي العنوانين إلى ذلك دلالة أخرى على ما في قلب هذا الفتى ، الذى لم يتجاوز السابعة عشرة بعد من تفاعل مع أحداث العالم الإسلامى ، وبخاصة فى دولة الخلافة ، التي كانت ، على ضعفها الذى أطمع بها أعداء الإسلام ، مطمح أنظار المسلمين على تباعد أقطارهم ، والمركز الذى يستقطب مشاعرهم الروحية ، فيؤلف قلوبهم حول الخليفة الذى يعتبر الرمز المقدس لوحدة العالم الإسلامى . .

الطريق إلى القمة :

ولقد كان لاتصال المودودى بحركة الخلافة ، ولمقالاته البليغة فى نصرتها ، أثر شد أبصار الشخصيات السياسية إليه ودفعهم إلى تقدير مواهبه . وفى رحلة إلى دهلى اجتمع باثنين من أكابر جمعية علماء الهند المتعاونين مع غاندى فى نطاق النضال ضد الاستعمار البريطانى ، وكانا من المعجبين بكتاباته المثيرة ، وأسلوبه الأخاذ ، وعن طريق هذين العالمين الكبيرين توثقت صلته بجمعية العلماء ، حتى أسندت إليه رئاسة التحرير لأول صحيفة أصدرتها باسم (المسلم) عام ١٩٢١ وفى عام ١٩٢٤ أصدرت صحيفة أخرى باسم (الجمعية) وأسندت إليه كذلك أمر تحريرها ، وقد استمر فى عمله ذاك إلى عام ١٩٢٨ .

وكفى بهذا دليلاً على ما بلغه المودودى الشاب من مكانة فى أوساط أهل العلم والعاملين فى ميدان القضية الإسلامية وحركة التحرير الوطنية جميعاً . جعلته موضع الثقة من أفاضل العلماء وكبار الساسة . . وهى ثقة من شأنها أن تفسح السبيل لمستقبل أبعد وأعمق .

ثم لا ننسى أن عمله فى الصحافة قد أتاح له الإطلاع على خفايا الأحداث وأنواع النفوس ، وفى ذلك زاد لا غنى عنه للرجل الذى يعده القدر للإسهام فى قيادة الفكر الإسلامى على المستوى العالمى . . .

مزید من الثقافة :

ودہلی فی الہند کالبصرۃ فی دولۃ بنی العباس ، ملتقى الثقافتین الغربیۃ والإسلامیۃ ، فلا معدی للرجل الطَّلَعِ ، ذی النہم الذی لا یخمد إلی المرفۃ ، من الانتفاع بہذہ البیئۃ إلی أقصى الحدود ، وكذلك فعل صاحبنا ، فأقبل علی تکثیف معرفتہ العربیۃ بدراستہ علوم البلاغۃ والأدب علی أحد المختصین فی ذلک البلد ، وقرأ أمہات من کتب الحدیث علی آخر من المشہورین بہذا الفن ، واغترف ما أمکنہ من التفسیر والفقہ والمنطق من أحد کبار علماء ذلک البلد ..

ولم یغفل أمر العلوم الغصریۃ فتعلم الإنجلیزیۃ علی أحد أساتذتہا فی أربعۃ أشهر ، وعن طریق الإنجلیزیۃ أطل علی الكثير من علوم الغرب کالتاریخ والفلسفۃ والعلوم الاجتماعیۃ ، وبذلک أتبع له أن یعلم من مواضع التلاقی والافتراق بین الثقافتین ، ما لم یکن لیحیط بہ لولا هذا التضلع الذی وفقہ اللہ إلیہ .

وفی هذا الغمار من کتابتہ فی شئون المسلمین ، والدراسۃ المتصلۃ لمختلف الفنون والعلوم ، تمكن المودودی من إخراج کتابین آخرین أحرزا الكثير من الإعجاب والرواج ، وهما (مصدر قوۃ المسلم) و (الجہاد فی الإسلام) . . وقد نشرہما أولاً حلقات متسلسلۃ فی جریدۃ الجمعیۃ ثم أخرجهما فی طبعتین مستقلتین .

وکان لهذا التوسع الثقافی أثرہ العمیق فی نفس الأستاذ المودودی ، إذ تحصل لديه من العلم ما أتاح له أن یُکَوَّنَ تصوراً متکاملاً عن الإسلام ، یختلف عن المفہوم الذی جمد علیہ المشایخ التقليديون . وکان لكل من کتابین علی وجہ الخصوص أثرہ الفعال فی عقل مؤلفہ ، إذ کان علیہ أن یراجع الكثير من المصادر ، لیستمد منها الركائز الأساسیۃ للموضوع الذی یزعم کتابتہ ، فیستکشف أثناءئذ من الحقائق ما لم یقع علیہ من قبل ، وبذلک تتسع مساحۃ أفکارہ ، وتمتد أشواطہ خلالها ، حتی بلغ کل من کتابین الحجم الذی لم یتصورہ .. وتولی طبع کتاب الجہاد للمرة الأولى العلامة الإسلامی السید سلیمان الندوی فی خمس مائۃ صفحۃ من القطع الکبیر ، وبلغ من إعجاب شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بهذا کتاب أن جعل ینصح للشباب المسلم باقتنائه

والانتفاع به . . بل إن الأستاذ المودودي نفسه يرحمه الله يقول عنه : (إن كتاب الجهاد نفعتني أكثر من أى قارئ له ، فقد بدأت تأليفه وأنا على حمية القومية ، وفرغت منه وأنا على حمية الإسلام . . حتى لقد آليت ألا أعود إلى ممارسة الصحافة في المستقبل إلا على أساس أن أجعلها وسيلة للخدمة الإسلام (١) . .) .

في طريق الدعوة :

وتحت هذا التأثير الفكرى قرر الأستاذ أجزل الله أجره أن يقف حياته على الدعوة إلى الله ، ولكنه كان على أتم القناعة بأن الإقدام على هذه المهمة يقتضى استعداداً خاصاً من الزاد العلمى يتناسب مع مستوى العصر . . هذا العصر المليء بالأفكار والتيارات المذهبية مما لم يسبق له مثيل حتى في العصور العباسية .

وهكذا انقطع الفتى إلى المطالعة الواسعة العميقة ، مكتفياً من العمل الدنيوى بالقليل الذى يكفه عن الحاجة ، لينصرف بكل طاقته إلى الدعوة عن طريق مجلته (ترجمان القرآن) وقد صور لنا مدى تصميمه بالكلمة التالية التى افتتح بها العدد الأول منها :

«إن هذه المجلة تضع قدمها اليوم في طريق مخوف بالمصاعب والمحن ، ويتولى عبئها رجل يعترف بأنه ضعيف فاقد القيمة صفر اليدين . ولكنه على الرغم من وعورة الطريق استعد لحمل هذا العبء يقيناً منه بأن الله الذى نور قلبه بالإسلام ، وخلق في نفسه حب الدعوة إليه ، هو الذى سوف يؤازره بنصر من عنده ، ويمنحه الرسوخ في العلم ، والصحة في الفكر ، والسلامة في القلب ، والطهارة في النفس والسمو في الروح (٢) . . » .

وبهذه العزيمة الفذة يمضى الشاب الفقير الأعزل ، إلا من سلاح الإيمان والرؤية الواضحة والتصميم الحاسم ، في طريق الدعوة التى وهب لها نفسه ، ووقف

١ — بتصرف عن كتاب الحامدى ص ١٨ .

٢ — المرجع نفسه ص ١٩ .

عليها مجلته التي لم يكن لها مؤنس سواه ، فهو مديرها ومحررها ، ومصصح طبعاتها والساعى الذى يحملها إلى البريد . . . والمجيب على كل استفسار يتعلق بها . . . فمن أجلها يسهر الليالى يطالع ويكتب إلى صلاة الفجر ، ومن أجلها يتحمل شظف العيش حتى لتأق عليه أيام لا يتاح له من الطعام إلا العدس والماء^(١) . . .

وعلى غلاف المجلة كتب عهده للقراء بأن « غايتها إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الجهاد فى سبيله ، ووسيلتها إلى ذلك نقد الأفكار المنحرفة ومبادئ الحضارة الغربية بمحك القرآن ، ثم عرض المبادئ التى جاء بها كتاب الله وسنة رسوله فى كل مجال من الفلسفة والعلوم والسياسة والاقتصاد والاجتماع . . . إن هذه المجلة تدعو الأمة المسلمة إلى حياة جديدة ، وخلاصة دعوتها : أيها الناس . اجعلوا قلوبكم وأذهانكم مسلمة خاضعة لله ، وتخلوا عن نظم الجاهلية واسلكوا صراط الله المستقيم ، وخذوا كتاب الله بالقوة لتكونوا سادة العالم وأئمة الحضارات » .

وسرعان ما انتشرت هذه الأفكار فى مواطن المسلمين على مدى القارة ، كما ينتشر شعاع الفجر فى ليل كثيف الظلمات . . . وأخذت كلماته سبيلها إلى القلوب والعقول تتداولها وتتأملها وتتفاعل معها . . .

المودودى وإقبال :

والأحداث التى شاء الله أن تنضج على نارها شخصية المودودى وأفكاره ، هى نفسها التى مازجت عقل إقبال وقلبه ، فتشابهت الشخصيتان إلى حد بعيد ، وتلاقت أنكارهما فى إطار يكاد يكون واحداً . . . ولعل أبرز نقاط التلاقى بين العملاقين هى إيمان كل منهما بعظمة الإنسان المسلم ، واحتقارهما للضعف الذى مسخ ذاتيته فى أتون النوائب ، التى أطبقت عليه فى كل مكان من وطن الإسلام ، فكان من الأهداف الفكرية لكل منهما إيقاظ تلك الذوات المخدرة ، وإعادة الثقة بالنفس إليها ، وبعث وعيها لحقائق هذا

الدين ، التي غيرت مسيرة الإنسانية من قبل ، وهى على أتم الاستعداد لتغييرها من بعد . .

وأحسن شاعر الإسلام إقبال من خلال مقالات المودودى فى « ترجمان القرآن » قوة الوشائج التى تجمع بينهما ، فكتب إلى صديق له فى حيدر أباد ليبلغه رغبته فى مقابلته ، فلم يتلبث حتى شخص لزيارته فى لاهور . . وكان لقاء ضاعف من قوة تلك الوشائج ، إذ وجد كل منهما أفكاره فى صدر صاحبه وتم الاتفاق بينهما على أن ثمة ركيزتين أساسيتين لانهاج بدونهما : إحسان العرض لعظمة النظام الإسلامى بالأسلوب العلمى المقنع ، وإعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكراً وعملاً . .

واستجاب الأستاذ لاقتراح إقبال بالهجرة إلى البنجاب ، التى تعتبر مهد الحركات والدعوات والتيارات الفكرية ، واتخذ فيها موطنه منذ ذلك العهد ، بيد أن الأجل سرعان ما وافى الشاعر العظيم ، فحرمه القدر الحكيم فرصة التعاون مع ذلك القلب الموار بنور الإيمان وهدايته .. وسجل المودودى مشاعره بإزاء هذه المصيبة فى قوله : « فقدت أكبر سند فى الدنيا بموت هذا الرجل العظيم . . » .

وكان على المودودى أن يستفيد من جو لاهور العلمى فاستجاب لدعوة كلية « حماية الإسلام » وشرع فى العمل بها محاضراً دون أجر لمدة عام . . ومن ثم اتجه إلى العديد من المدن يلقى فيها المحاضرات على الطبقات المثقفة ، فكان منها واحدة فى قاعة بلدية لاهور بعنوان « الجهاد فى سبيل الله » وأخرى فى « مجلس الأخوة الإسلامية للطلبة الجامعيين » بلاهور أيضاً ، ثم محاضرتان بعنوان « منهاج الانقلاب الإسلامى » و « معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها فى الإسلام » ألقاهما فى جامعة عليكره عام ٤٠ و ٤١ ثم أخرى فى « دار العلوم لندوة العلماء » بعنوان « منهج جديد للتربية والتعليم » وواحدة بعنوان « الإسلام والجاهلية » فى « مجلس الدراسات الإسلامية » بالكلية الإسلامية فى بشاور .

الجماعة الإسلامية .:

والتحدث عن الإمام المودودي ملتزم بأمرين اثنين أحدهما أفكاره التي انعكست في مقالاته ومؤلفاته الموسوعية والثاني هو الجماعة التي أراد أن يجعل منها مجالاً حياً لتطبيق مخططة في تكوين الرجال المؤهلين لحمل رسالة الإسلام ، وقد شاء الله أن يخلد أعمال هذا الرجل ، فحفظ أفكاره وجعل منها منارة تستمد من أنوار الوحيين ، كما يستمد القمر من ضوء الشمس فينقل عطاءها للناظرين . .

لقد آمن المودودي بطريقة إمامه وقائده المصطفى ، صلوات الله عليه وسلامه ، القائمة على الجمع بين التربية والتعليم جميعاً ، كما وصفها كل من عثمان وابن مسعود وابن عمر ، عليهم رضوان الله ، بما مؤداه : « كنا نتعلم الآي من كتاب الله فلا نتقل منها إلى غيرها حتى نتعلم العمل بها » فكان من ثمرات ذلك الإيمان أنه لم يكتف بالعلم يثبه في الكتب والصحف ، فأقام لترجمته ذواتاً تحمل طابعه ، وتمثل معالمة في سلوكها وسائر تصرفاتها . . . وهكذا نشأت الجماعة الإسلامية ، التي على الرغم من انقسام القارة إلى دولتين ، ونجزتها أخيراً إلى ثلاث جماعات ، فقد احتفظ كل منها بطابعه الإسلامي الراسخ الرصين .

وقد تم أول اجتماع لتأسيس هذه الجماعة عام ١٩٤١ وبعد الاتفاق على نظامها الأساسي أعطى كل من أعضائه الخمسة والسبعين عهده بتنفيذ ذلك الميثاق ذي الفقرات الثانی عشرة ، الشاملة المحددة لهويتها الإسلامية . . مجدداً أولاءه لكتاب الله وسنة رسوله ومؤدياً شهادة التوحيد في خشوع المتأمل في أبعادها المدرك لعظيم تبعاتها . . . وكان من أوائل التزاماتهم لمبادئ الجماعة انسحاب كل موظف بينهم من خدمة الحكومة البريطانية والوقوف في سائر تصرفاتهم عند حدود الشريعة المطهرة ، ورفض محاميتهم المرافعة أمام المحاكم التي تقضى بغير ما أنزل الله (١) .

والمتبع لأعمال هذه الجماعة يتبين أنها تنظيم غير مسبوق يتناول بأنشطته سائر جوانب الحياة ، من تعليم وتعاون واقتصاد ، وتنمية وسياسة ، وطاقات

بشرية تشمل الأستاذ والطبيب والتاجر والطالب والفلاح والنساء والرجال على
السواء . . .

وقد يقف التأمل في هذا التنظيم وهو يتذكر نظيره الذى قام بمصر على يد
الإمام حسن البنا وإخوانه ، في نفس الفترة من حياة العالم الإسلامى ،
فيتساءل : أيهما الذى اقتبس من الآخر ؟ ! . كما يقف مشدوهاً أمام التلاقى
المائل بين أفكار المودودى والشهيد سيد قطب ، دون أن يستطيع فصلاً تاماً
بين المؤثر والمتأثر . ولقد أكرمنا الله بقاء العديد من هذه الجماعة سواء في
المدينة الحبيبة ملتقى المؤمنين ، الوافدين من أربعة أقطار الدنيا ، أو حواضر
الهند وباكستان حيث قمنا بزيارات لبعض مؤسساتها ، فلمسنا عن كثب ثمرات
الجهود التى بذلها رائدها في تربية الرجال ، الذين لا نبالغ إذا قلنا إن بينهم من
ينطبق عليه وصف الفضلاء الذين يقال في الواحد منهم : إنه قرآن يمشى على
الأرض .

وفي مقر هذه الجماعة بدهلى — حاضرة الهند — التقينا بأمرها ومعاونيه
على وضع يذكرنا بحياة السلف من أمراء رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ،
قبل أن يتحول الحكم النبوى إلى الملك العضوض ومما ضاعف سرورنا بهذا
اللقاء ما وقفنا عليه من استمرار المسيرة التى بايعوا عليها الإمام الرائد ، إذ
﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر
وما بدلوا تبديلاً ﴾ فهم مواصلون خطة الجماعة في التبليغ والتذكير والتعليم ،
في معزل تام عن كل عون مشبوه ولا سيما من ناحية الدولة ، وقد بلغت
معاهدهم التعليمية المثات للذكور والإناث ، وتتابع منشوراتهم ومؤلفاتهم
وصحفهم على مستوى الهند كلها وبمختلف اللغات . . ولا يزالون على
أسلوبهم المعهود ، يضيئون طريق الناس بنور الله ، ويدفعون هجمات المفرضين
والشائمين ، بالكلمة الطيبة والدعاء لهم بالهداية والتسديد ، لأنهم ينوؤن بأعباء
الواجب فلا متسع لديهم للغو والمراء . . .

ولا شك أن لهذا التميز الخلقى أثره السلمى في نفوس مخلصيهم ، الذين
عجزوا عن استدراج الجماعة إلى الدخول في معاركهم المثارة ، فراحوا يؤلبون
عليها بسطاء المشايخ ، فيصدرون الفتاوى بتسفيه أفكارها وتشويه دعوتها ، وتحريم

المطالعة لمنشوراتها ، ويحرضون الحكام على الإيقاع بها ، ولم يضمنوا على مؤسسها حتى بالتكفير أو ما يشبه التكفير . .

مرحلة الصراع :

كانت المسيرة حتى الآن في حدود الفكر والعلم ، تتوسل إلى تحقيق أهدافها العليا بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن . . أما بعد تقسيم الهند وقيام الباكستان باسم الإسلام . فقد تعددت الحلقات ، وتكاثفت المشكلات ، وتحركت الأهواء يريد كل منها أن يفرض نفسه على المجتمع الجديد . .

وأخطر هذه المشكلات هو في اضطراب الرؤية عند الساسة الذين قادوا حركة الانفصال ، فهم يتكلمون عن دولة إسلامية ، ويتحدثون عن مميزاتها القومية ، ولكنهم لا يملكون أى فهم لمضمون الإسلام ، من حيث كونه نظاماً مستقلاً بذاته عن كل نظام آخر عرفه الإنسان الحديث في شرق أو غرب . .

ومن هنا تدفق سيل البلاء على دعاة الحق ، إذ أصبحوا يشكلون الجبهة الوحيدة المقاومة لتلك الشواذ الخطيرة ، والمتصدية لتصحيح الأفهام ، ولنشر التوعية بمحقائق الإسلام ، والمعارضة لكل انحراف عن جادته في أوساط الحكام .

ومن البدييات المألوفة في عالم السياسة الميكافيلية أن أصحاب الحكم المطلق لا يقرون معارضة تُحدُّ من سلطانهم ، فكل محاولة لتغيير وجهتهم من قبل الآخرين إنما هي بنظرهم تطاول على كرامتهم ، واستهانة بشأنهم ، لا مندوحة من القضاء عليها بكل الوسائل الممكنة .

وهكذا وجدت الجماعة الإسلامية وقائدها الملهم أنفسهم في أثون من المحن المتلاحقة لا يفرغون من الواحدة حتى تتلفههم الأخرى . . .

إنهم يرون اتجاه الدولة في الطريق نفسه الذى طالما عانوا من شروره في ظل الاستعمار الإنجليزي بل إنهم ليرون هؤلاء الحكام المحسوين على الإسلام أشدَّ عداءً له من الإنجليزي أنفسهم ، وأشدَّ منهم اندفاعاً في تأييد قوانينهم المنافية

لدين الأمة ، فعلام إذن حدث هذا الانفصال ، وفي سبيل أى شيء تحمل المسلمون تكاليفه التى ذهبت بعشرات الآلاف من إخوانهم وبآلاف الملايين من ممتلكاتهم ؟ ! . .

كلا . . إن الله لن يعذر مسلماً يرضى بهذه الخيانة التى ستقرر مصير المسلمين إلى أحقاب طويلة وإذا كانت التبعة على قدر الإدراك فعلى عاتق الجماعة الإسلامية يقع العبء الأكبر منها .

في معركة الدستور :

وهكذا أخذ المودودى زمام المبادرة لمواجهة كل تدبير يضاد الخط الإسلامى ، وكان سلاحه فى هذه المعركة ذلك القلم الذى استطاع بتوفيق الله أن يوقظ النائمين ، ويُقضى مضاجع الظالمين ثم تلك الجماعة التى احتضنت أفكاره ، من خلال إيمانها بكتاب الله وسنة رسوله ، وشاركته التصميم على تحمل كل مسئولية فى سبيل الله .

ومن الطبيعى أن يقع ثقل المعركة بين الطغيان الجديد ، والجماعة الإسلامية ، بين علمانية المتسلطين وإسلامية المودودى وإخوانه العاملين .

وحشد كل من الفريقين أعوانه فى التحام غير متكافئ من حيث الإمكانيات ، فبينما يقود رجال السلطة مرتزقة الغوغاء من السياسيين والعسكريين وأتباعهم ، من عميان العامة والحاquدين على الإسلام ، ليضربوا بهم جنود الحق العزل بكل ضروب الإرهاب ، كان هؤلاء يدفعون الشر بالخير والحماسة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد وطَّنوا أنفسهم على التضحية بكل شيء من أجل الإسلام ، الذى باسمه ولأجله قامت باكستان .

وتفاقم الصراع بين الطغيان والجماعة الإسلامية ، على تفاوت ما بين وسائل كل من الفريقين ، وقد تجلّى ذلك أكثر ما يكون فى معركة الدستور ، التى حفزت كلا منهما لتعبئة أقصى ما يملك من الطاقات . ولا غرو ، فالدستور هو المنطلق الذى سيحدد الخط النهائى لنظام الحكم . . وهو الفيصل الحاسم فى حياة المجتمع الباكستانى وفى مسيرته العامة ، فإما أن يكون إسلامياً

ينسجم مع طبيعة السواد الأعظم من الأمة ، التي دفعت فداء إسلامها عشرات الألوف من الشهداء والمشوهين ، فازدادت به تشبهاً ، يقيناً منها بأنه لها بمنزلة الروح من الجسد ، والمأمن الذى ليس وراءه إلا العار والدمار . .

وإنما مخطط شيطاني تُمليه أهواء الأقليات الضالقة من متسلطين نشقوا في محاضن الاستعمار فلا يستسيغون سوى طريقته في الحياة ، ووثنيين خُلِفوا في باكستان ليكونوا « الطابور الخامس » لأعدائها المتربصين بها الدوائر
ماركسيين فقاديانيين يدعون الإسلام وهم ألد أعدائه ، الذين أعطوا ولاءهم لبريطانية التي حطمت كيان الدولة الإسلامية في الهند ، وملأت شوارعها بجثث العشرات من آلافهم . . .

وكان على الجماعة العزلاء إلا من سلاح الإيمان أن تثبت للمتسلطين تأييد السواد الأعظم من الأمة لدعوتها إلى الدستور الإسلامى ، فراحت تعقد الاجتماعات الشعبية هنا وهناك ، فتهاقت الجموع المؤمنة لتأييدها في تصميم لا يعتريه خوف الموت . .

وصدرت الأوامر إلى مرتزقة السلطة وجنودها بمهاجمة هذه الاجتماعات بكل وسائل الإرهاب ، وثبتت الجماعة بوجه الجرمين ، معتصمة بالصبر والهدوء والرد بالتى هى أحسن . .

وهكذا يمضى الفريقان كل في الطريق الذى ارتضاه أو سيق إلى
وكان أشد الجميع إيذاء للجماعة الإسلامية جمهور القاديانيين من أنصار وزير خارجية باكستان ، التى يقول أول رئيس لوزرائها لياقات على خان : « إنها هبة الإسلام » ومع ذلك لا يتورع حكامها أن يشهروا الحرب على الإسلام وأن يسلطوا عليه أشرس أعدائه . .

وعلى الرغم من المنهج السلمى الذى أخذ به الإمام المودودى جماعته لم يجد بدا من مواجهة القوى الشريرة بالتظاهرات السلمية المصممة تملأ شوارع البنجاب هاتفة بسقوط القاديانية . وغرّ القاديانيين سلطانهم فى قوى الأمن فأنهالوا على المؤمنين بالنار التى حصدت من المتظاهرين عدة مئات ولكن الإيمان كان كشأته دائماً أقوى من الموت ، فلم يقف الزحف السلمى حتى

سقط قائد القاديانية ظفر الله خان ، وتضاءلت قواته حتى كادت تنحصر في حوك الدسائس من وراء الستور . .

أكبر من الموت :

في هذه الظروف ألف الأستاذ المودودي رسالته في موضوع القاديانية ففضح عقائدها ومؤامراتها الرهيبة على المسلمين ، ولكن حاكم باكستان غلام محمد ما لبث أن اتخذ منها مسوغاً لإعلان الحكم العرفي وإلغاء الجمعية التأسيسية ، ولوقف البحث في الدستور الجديد ، الذي يوشك أن يأخذ طابعه الإسلامى تحت ضغط الشارع ، الذى يقوده المودودى وأنصار فكرته . . وتلا ذلك اعتقال الكثيرين من رجال الإسلام ، وعلى رأسهم المودودى بتهمة تأليف كتيب وُصِف بأنه ضاعف من أسباب الاضطرابات والقلق . . وهى مناسبة تتيح لأولئك المتسلطين فرصة التخلص من الرجل الذى يشكل بنظرهم العقبة الكبرى في طريق الدولة العلمانية ، التى تطلق أيديهم في رقاب الشعب ، وتمكنهم من العبث بكل قيمه الإسلامية . .

وأصدرت محكمة العسكر قرارها بإعدام المودودى ، في محاكمة صورية كالتى يساق، إليها الإسلاميون في مصر وتركيا وإندونيسية ، والعديد من أقطار المسلمين الرازحة تحت كابوس العسكرين .

ويصف مرافقه خليل أحمد الحامدى موقفه وهو يتلقى ذلك الحكم الظالم فيقول : لقد استمع إلى هذا القرار بوجه باسم وقلب مطمئن ، ولم يزد على قوله « الحمد لله على كل حال . . » .

وجاء الضابط ليسلمه نص القرار وهو يقول : يمكنك أن تقدم الاسترحام خلال أسبوع . ولعل هذا الضابط كان يظن أنه يقدم بذلك بشرى سارة إلى ذلك المحكوم بالموت ، وهو يجهل أنه تلقاء نوع من الرجال لم يسمع بمثله قط ، لذلك لا بد أنه فوجيء بقول الشيخ في الرد على عرضه : « لن أسترحم أحداً لأن أحكام الموت والحياة لا تصدر من الأرض ، بل من السماء ، فإذا قدر الله لى موتى فلن يستطيع أحد إنقاذى ، وإذا قدر الله الحياة فليس بمقدور أحد أن يضرنى قيد شعرة » ثم توجه الأستاذ إلى إخوانه الحاضرين تلك المحاكمة بقوله :

« لا يقدم أحدٌ منكم أى استرحام بشأنى ، وأؤكد بذلك على والدتى وأخى وزوجتى وأولادى جميعاً . . . » .

ولكن . . . وعلى الرغم من استنكاف الأستاذ عن طلب الرحمة فقد أعادت المحكمة العسكرية نفسها النظر فى قرارها واستبدلت به حكماً بالسجن لمدة إحدى وعشرين سنة . . . ولعلها قد فعلت ذلك بإيعاز من السلطة التى تدرك مدى الخطر فى إعدام الإمام المودودى ، الذى استحوذ بشخصيته المثالية على حب المسلمين ، وعرف الطريق إلى قلوبهم فهو يؤلهم لتوكيد انتابهم الإسلامى ، فأقدمت على ذلك التغيير تفادياً للعواقب التى لن تستطيع دفعها . . .

إلى المحكمة العليا :

وقد قضى الأستاذ خمسة وعشرين شهراً فقط من تلك السنين فى السجن . . . إذ انتهز إخوانه فرصة قيام وزارة جديدة فرفعوا إلى المحكمة العليا بـلاهور اعتراضاً على ذلك الحكم بالبطل متذرعين بالبراهين القانونية التى لا تُدفع . . .

يقول الأستاذ الحامدى^(١) : « لما دخل الإمام المودودى قاعة المحكمة العليا وقف قضاتها احتراماً له . . . وهو موقف لم يعرف له مثيل فى تاريخ القضاء . . . » .

فى هذا المشهد الرائع سمع الإمام المظلوم قرار المحكمة العليا بالإفراج عنه ، مصحوباً بالتكريم الأسمى من أعلى هيئة قضائية وثقافية فى باكستان ، فكان ذلك إدانة دامغة لعهد خان قضية الإسلام ، الذى لولاه لما كان لباكستان من حق فى الوجود . . .

وإن كل ذى ضمير حى فى العالم الإسلامى ليشعر بالتوقير البالغ لأولئك القضاة الذين أثبتوا أنهم فوق الأهواء ، وأنهم مع الحق الذى لم يوجد القضاء لإلحمايته من عسف البغاة والمستبدين . . .

١ - ص ٦٤ من كتابه « الإمام أبو الأعلى المودودى » ط المكتبة العلمية بـلاهور .

ولقد كان لهذه الظاهرة أثرها العميق في ارتفاع معنويات المسلمين ، فإذا بالمسيرات والمواكب والحفلات تعم أرجاء لا هور بمظاهر الفرح والاستبشار ، وأقيمت الاحتفالات العديدة لاستقبال البطل الظافر ، وفي أحد هذه التجمعات رد على كلمة الترحيب بقوله :

لقد ذكرتم ما قدر الله علينا من محن الحكم بالإعدام إلى امتحان السجن ، وأحب أن أقول لكم إن هذه الأحداث لم تفاجئنا قط ، بل إنى كنت أتوقع أمثالها منذ أن وضعت أول خطاى في هذا الطريق قبل اثنين وعشرين عاماً . . . إذ من خصائص العقيدة التى نؤمن بها أن تواجه بالحن ، وقد علمنا التاريخ أن الدعوة امتحنت في الماضى ، ولا بد أن يتكرر الامتحان في الحاضر والمستقبل ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً . . .

المفاجأة الرهيبة :

وكانت هدنة تحرر المسلمون أثناءها من كابوس الإرهاب العسكرى ، وبخاصة بعد أن عادت الجمعية التأسيسية الجديدة إلى أعمالها ، وصدقت على الدستور الإسلامى ، الذى أجمعت عليه الأمة بلسان علمائها وجماعاتها وجماهيرها الشعبية ، واعتبر يوم صدوره من عام ١٩٥٦ منطلق حياة سعيدة للمسلمين جميعاً ، لم يشدّ عنهم إلا قلة من المستغربين والشيوعيين والقاديانيين والنفعيين ، الذين ألقوا بأقدامهم إلى مزلة الإثم ، فلم يعودوا بقادرين على التوقف قبل أسفل الهاوية . . .

وعبر الإمام المودودى أيامئذ عن فرحة المسلمين بذلك التصريح الذى يصور مدى أمل المسلمين في مستقبلهم المنشود :

« نبدأ اليوم حياة جديدة ، حياة شعب حر قرر بلسان مثليه أن الحاكمة في باكستان لله عز وجل ، وأن السلطة أمانة في عنق الأمة لا تراوها إلا في نطاق ما حدد الله ورسوله . . . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . . » .

ولكن . . شاء الله ألا تقف محنة باكستان عند هذه النهاية البهيجة ، لأن أعداء العدالة والخير قد صمموا على ألا يلقوا سلاحهم وفيهم عرق ينبض ، وهكذا فوجئت باكستان ذات صباح بمثل الحال التي أشار إليها قول الشاعر :
قد ساءلتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر
ففي الثامن من أكتوبر عام ١٩٥٨ أغار الجنرال محمد أيوب ، وكان رئيساً لأركان الجيش الباكستاني ، على أمنها في انقلاب عسكري ألغى البرلمان ونقض الدستور ، وأدخل البلاد في تيار المحن والمتاعب المتلاحقة طوال إحدى عشرة سنة ، لم تعرف لها باكستان نظيراً في كثافة البلاء وجرأة الحكام على دينها وشريعتها . .

لقد صمم محمد أيوب على اجتثاث المعارضة لحكمه بكل الوسائل الممكنة ، وبدا له أن يجرب أسلوب المكر مع الإمام المودودي ، وكان ذلك عام ١٩٦٠ حين جاء مدينة لاهور ، وهناك بعث إليه يدعوه لمقابلته في قصر الحكم ، وبعد تردد بين الإجابة والرفض قرر مقابلته رجاء أن تكون المقابلة في صالح الدعوة ، واستقبل أيوب الشيخ بترحيب حار وأحاطه بحفاوة جميلة ، وراح يطرى جهود الشيخ ويكثر الثناء على خدماته للإسلام ، وقدرته البارعة في اكتساب العقول والقلوب . . . حتى إذا انتهى إلى ما يريد قال :

أيها الشيخ الفاضل . أقترح عليك التفرغ للدعوة والتبليغ بعيداً عن التورط في السياسة والانغماس في أوحالها . . . وبذلك تكون أكثر نفعا لقومك ووطنك . . . ولكن الشيخ سرعان ما أبطل مكره حين أجاب :
« حقاً إن السياسة قد استحوالت أوحالاً ، ولذلك دخلتها لأطهرها من الأوساخ ، وأجعلها نظيفة سديدة لا تدنس الأذيال بل تعود رحمة على الوطن وأهله . . . » .

مؤامرة على الإسلام :

وكان هذا الجواب بمثابة النذير بمعركة جديدة بين الطغيان والإيمان . . وقد امتازت هذه المعركة بضروب من العنف والهول أكبر من كل التجارب

السابقة ، ذلك أن محمد أيوب قد دخلها في برنامج صريح يستهدف حرباً للإسلام لا هوادة فيها . . فقد قرب إليه منكرى السنة من أتباع المدعو أبرويز ، وما أدري أذلك اسم له أو لقب ، ولكن المعروف أنه اسم لآخر أكاسرة الفرس ، ذلك الأحمق الذى مزّق كتاب رسول الله فمزق الله ملكه وقتله بيد ولده ، ولعل هذا الخائب قد اختار لنفسه ذلك اللقب إعلاناً لنيته بتمزيق الكيان الإسلامى في باكستان . .

لقد راح هؤلاء الخائبون يثيرونها حرباً شعواء على السنة النبوية فيصدرون الكتب والمجلات المشحونة بالظعن عليها ، وتتولى أجهزة الإعلام الحكومية توزيعها وإشاعتها ، وأقبلت على وضع تفسيرات مضللة لمعانى الكتاب الحكيم ، تصرفها عن مقاصدها الإلهية إلى توجيهات هدامة ، كتفسيرها القطع للسارق بتأديبه في السجن والغرامة ، وتفسيرها للصلاة بالحركة والنشاط والتزام الدوام الرسمى في مواعده المحدد ، وقولها في الزكاة إنه استثمار المال في المشروعات الإنمائية . وأتموا مؤامرتهم باعتبار رئيس الدولة بمثابة الرسول في امتلاك السلطة المطلقة في التشريع والتقنين وتفسير الأحكام القرآنية بما يراه مصلحة لعصره دون مراجعة لسنته ﷺ . .

وبهذه القمحة أصدر محمد أيوب عدداً من القوانين المضادة للشريعة المطهرة ، وبخاصة في نطاق الأحوال الشخصية ، التى يعتبر الإخلال بها سلباً للمسلم من صبغته الإسلامية ، ومن ذلك حظر الزواج على الفتى الذى لم يبلغ السادسة عشرة مع إباحة الزنى والخالة له مع أى شئ من النساء . . .

وفي هذا الجو الخائق أُغْلِقَتْ أفواه العلماء ، وحيل بينهم وبين إبداء مرئياتهم في هذه التصرفات الخرقاء ، ولم يبق في الساحة من يرجى للتنفيس عن صدور المسلمين سوى الرجل الذى وهب حياته للإسلام ، فلا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه . .

لقد انبرى المودودى لعدو السنة أبرويز وجعل يفند أضاليله الواحدة بعد الأخرى في مجلته « ترجمان القرآن » حتى أتى عليها جميعاً ، فكشفه للناس عدواً مبيناً لدين الله ، وهو يعلم يقيناً أنه لا يهاجم أباطيله وحدها ، بل يهاجم من ورائه السلطة التى تمدّه بكل أسباب القوة . . ويهاجم كذلك كل من أخذ

بترّاه من أعداء السنة . وهذا كتابه « مكانة السنة في التشريع » يجعل من هؤلاء في كل زمان ومكان أضحوكة العقلاء ، بما يُعرى من جهلهم لحقائق الإسلام ، القائمة على الكتاب والسنة دون أى انفصام .

وتصدى لقوانين أيوب المنافية لشريعة الله بالنقد العلمى الذى قطع ألسنة كل المدافعين عنها . . مما أثار حنق الطاغية فأمر باعتقال بعض قادة الجماعة الإسلامية ، وزج بالسجن صاحب المطبعة التى أقدمت على نشر ذلك النقد . . . ولكنه لم يتعرض لشخص المودودى ، ولعله توهم أن تجريده من إخوانه فى ذلك الجو الرهيب كاف للحد من نشاطه ، ومُلقى فى قلبه الرعب فيمسك عن مهاجمة دستوره الهدام ، ولكن خاب فأله ، حين رأى البطل المؤمن يتناوله بالتشريح الفاضح ، فيبرز بوائقه ، ويبين أخطاره على الحرية ، وما يستهدفه من توطيد النظام الاستبدادى وعلى الرغم من إحجام الصحف الباكستانية عن نشر ذلك النقد الفاضح ، فقد حملته الألسن إلى كل مكان فتردد صداه على مستوى الدولة كلها .

تصميم أعظم من الإرهاب :

وبذلك تهيأت الأذهان لحضور الاحتفال الذى أعدته الجماعة الإسلامية لإعلان قرارها الحاسم فى ذلك الدستور البغيض . . واستحصلت على إذن من النيابة بعقد ذلك الاجتماع الذى ضم ما يزيد على عشرة آلاف مندوب وعزّ على السلطة الاستبدادية أن تمر تلك المناسبة الهامة بسلام ، فدفعت أدواتها من رجال المباحث لإحداث البلبلة ، فاندسوا خلال المجتمعين ، وجعلوا يثيرون الشغب ويطلقون الشعارات المعادية للجماعة ولقائدها . . وهو قائم يلقي خطابه فى الجمهور ، وعمدوا إلى أسلاك المكبر فقطعوها لكى يمتنعوا صوته من الوصول إلى الأسماع . . إلا أن الجماعة سرعان ما تداركت هذا الحال بالعودة إلى طريقة المبلّغين ، الذين نهضوا فى جوانب الحفل ، وجعلوا يستقبلون كلمات الأستاذ ليوصلوها إلى الحضور كاملة مفصلة . . وساء المشاغبين إخفاقهم فى إفساد الاجتماع فعمدوا إلى السلاح يطلقون النار لمجرد الإرهاب أولاً ، ثم وجه أحدهم طلقة إلى الإمام نفسه ، ولكن شاء الله أن تصيب رجلاً

آخر من الجماعة فيسقط شهيدا في الحال ، ويظل الأستاذ منتصب القامة
بتربق الفرصة لاستئناف خطبته ، وأحاط به بعض إخوانه يدعونه للجلوس
حفاظاً على سلامته ، ولكنه أبى وأجاب « لو جلست فمن سيبقى واقفاً ؟ ! »
ولم يذهل حرج الموقف عزيزته ، وأخذ يوجه تنبيهاته لأفراد الجماعة بالتزام
الهدوء ، والاكتفاء بإخراج المشاغبين دون أذى . . . وما هي إلا دقائق حتى
عاد الوضع إلى طبيعته ، وهنا أرسل المودودي الحكيم كلمته التي ذهبت مثلاً :
« إن مثل الحركة الإسلامية كمثل الماء المتدفق ، إذا واجه صخرة في طريقه
لا يضعف جهده في تحطيمها ، بل ينعطف يميناً ويساراً حتى يترك الصخرة
وراءه تعض أناملها من الغيظ . . . » .

قضاء فوق الأهواء :

ولقد سَـرَّ أحقاد محمد أيوب إخفاق أدواته التخريبية في إفساد ذلك
الاجتماع ،الذى حقق واحداً من أكبر الانتصارات الإسلامية في معركة
الدستور ، إذ شحن صدور المسلمين وغيرهم من ذوى الضمائر المنصفة ،
بالنقمة من عهده وأساليبه ووحشية أتباعه ، حتى لم يجد مندوحة من محاولة
القضاء على الجماعة بأجمعها ، فصدرت الأوامر بحلها ومصادرة أموالها واعتقال
زعمائها وعلى رأسهم الإمام المودودي . . ولكن ذلك التدبير الآفن لم يستمر
سوى ثمانية أشهر حتى نقضته المحكمة العليا في لاهور بقرار يرثيهم من جميع
التهم الموجهة إليهم ، ويرد إلى الجماعة حرية العمل كاملة . .

وهذه المرة الثانية التي يثبت القضاء العالى في باكستان أنه فوق أهواء
المتسلطين ، وأن في رجاله من قوة الشخصية والإيمان بشرف المهنة ما يجعلهم
ضماناً للعدالة في بلد استولى الطغيان فيه على كل شيء . . وهو الضمان الذى
فقدته معظم الشعوب الإسلامية في جحيم الديكتاتوريات ، التي جعلت من
القضاء ، الذى طال صموده من قبل في وجه الاستعمار الأجنبي ، مجرد تابع
لأهواء السلطة الباغية ، لا عمل له إلا تنفيذ الأحكام التي تصدرها مراكز
القوى من مباحث ومخابرات وما يسمونه بأمن الدولة .

على أن من الإنصاف للحق أن نتذكر هنا موقف بعض رجال القضاء

المصرى ، الذين لم يقصروا عن مستوى إخوانهم من قضاة تلك المحكمة العليا في لاهور ، حين أطلقوا صيحتهم المُنذِرة في وجه الظلم ، بقرارهم الذى فضحوا به طغمة السجن الحرى في عهد جمال عبد الناصر ، اذ اعتبروه وصمة عار في جبين مصر ، توجب على خلفاء الطاغوت إزالة معاملة . . .

ويستتبع ذلك موقف محامى مصر الأشاوس بجانب جماعة الجهاد ، ومرافعاتهم النبيلة في الدفاع عن فدائيتها ، الذين أنقذوا كرامة وطنهم من عبث صاحب كامب ديفيد ، فاثبت هؤلاء الشرفاء من حماة العدالة قضاة ومحامين ، أن في مصر رصيذاً من العزة يمكن أن يحجبه الطغيان بالمرتزقة والمنافقين وفنون الإرهاب إلى حين ، ولكنه لا يلبث أن يتنفض ليعلم أن الحق أقوى من جبروت الظالمين . . .

وهكذا القول في إخوان هؤلاء وأولئك في أقطار عربية أخرى هالهم أن تغرق أوطانهم في غياهب الذل والرعب والقمع ، فوقفوا يعلنون بإضرابهم ومقرراتهم استنكارهم لأنظمة الطوارئ ، التى يتخذها المتسلطون ستارا لإمرار المؤامرات على مصالح شعوبهم وحرىاتهم . . ثم لم يتوقفوا عن كفاحهم العظيم حتى رجهم الطغيان في ظلمات السجون فقطع ما بينهم وبين العالم منذ سنين . .

الكفر ملة واحدة :

ولعل من غرائب الاتفاق أن تتكرر الصورة الواحدة من عدوان الطغاة في أكثر من دولة إسلامية ، فهذا التحرش الذى أحدثه عملاء محمد أيوب بانداسهم في صفوف الجماعة الإسلامية ، ومحاولاتهم إفساد الحفل بالمشاغبات الشريرة حتى إطلاق النار على الأبرياء . . هو نفسه الذى قام به عملاء العهد الناصرى بتسللهم داخل تجمع الإسلاميين في أحد الاجتماعات المعارضة ، حيث راحوا يتحرشون ويهددون ويشوشون على الخطباء ، حتى اضطر الإسلاميون إلى إخراجهم بالقوة ، وإتلاف شحناتهم من السياط التى أعدوها للعدوان عليهم . . .

ويذكرنا هذا وذاك بمشهد آخر من العينة نفسها ، واجهه مصلو الجمعة في دولة عربية أخرى بلغ التعسف العسكرى فيها حد تهديم المساجد على روادها ، واقتحامها بالآليات المعدة لحرب إسرائيل . .

لقد علم أولئك الانقلابيون عن طريق عملائهم أن ثمة خطيباً عرف بالجرأة في الحق ، قد يتعرض لبعض تصرفاتهم الحمقاء ، فَقَدَفُوا بهؤلاء العملاء لتخريب الجمعة على المصلين ، واندفع هؤلاء إلى قلب المسجد يهتفون بالشعارات المثيرة ، ويتحدون الخطيب والناس ، يريدون بذلك استفزازهم لمواجهةهم بالرصاص . . ولكن حكمة الخطيب قد قوّت عليهم الفرصة .

ولولا ذلك لفرق المسجد بدماء المصلين ، كما فعل ظاهر شاه يوم سلط القتلة على علماء الأفغان المعتصمين في مسجد « بل خشتي » احتجاجاً على تحكيمه الشيوعيين برقاب المسلمين . . فقطع العملاء الكهرياء عن المسجد ، فأضاه المسلمون بالمصابيح ، ومنعوا العلماء من الماء ، ولكن الناس ادركوهم به في الدلاء . . ولما نفذت حيلة هؤلاء في إكراه المشايخ عمدوا إلى رشاشاتهم فحصدوا بها الأنفس ، حتى استحال المسجد بركة من دماء العلماء ، ولم ينج منهم إلا من توهموا موته . . .

اللعبة الماكرة :

بإزاء هذه الوقائع لم يجد محمد أيوب بُدّاً من تعديل أسلوبه الاستبدادي ، فاعتزم سلوك الطريق الأقرب إلى إرادة الجماهير ، وذلك بترشيح نفسه للرئاسة ، وليكن ما يكون موقف الناخبين منه ، ففي يديه الوسائل التي تفرض نجاحه على الأمة ولو لم ينل سوى أصوات من حوله من المرتزقة ، وكفى بهذا تدبيراً يسبغ ستار الشرعية على سائر تصرفاته الدموية ! . ولم يتردد في قراره فأعلن عن ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة .

وكان على الأستاذ المودودي وإخوانه وأنصار فكرته من أهل العلم والرأى أن يقرروا موقفهم من هذه المناسبة دون تأخير ، فاتفقت الآراء على اتخاذ كل الأسباب لإسقاط الطاغية في هذه المعركة ، إذ إن خروجه منها بالنجاح المزور

سيمكنه من القضاء على أمل الأمة بإقامة المجتمع الطاهر الصالح تمثيل الإسلام . . ولكن هذا يتطلب منهم أن يقدموا للجمهور شخصية تملك من الشهرة ما يساعدها على التفاف الناخبين حولها . . ومن هنا كان إجماعهم على ترشيح فاطمة جناح ، أخت محمد علي جناح ، الذي اقترن استقلال باكستان باسمه حتى صار لقبه الغالب على كل لسان هو « القائد الأعظم » . .

ولتأكيد المصلحة الإسلامية أخذوا على فاطمة جناح الميثاق الغليظ بأنها ستدع الحكم لأهل الإسلام يقيمون على ضوئه كيان البلاد المقبل . . .

وكان لا بد لأشباع الطاغية من استغلال هذه الظاهرة الاضطرارية المتمثلة في ترشيح امرأة لرئاسة الدولة ، فراحوا يثيرون الخواطر ، ويستحصلون على الفتاوى البريئة لتشويه عمل أهل الإسلام ، إذ يطرحون أسئلتهم الملقومة على ثقافت العلماء بمثل هذه الصيغة : ما حكم الإسلام في إمارة المرأة ؟
فيأتي الجواب الطبيعي بأن ظاهر الحديث الصحيح يعارضها . . . وهو جواب سليم لأنه بمقدار السؤال . وكان الوجه الحق أن يقال : طاغية يحول دون إقامة حكم الله في الأرض ، ويشجع الملاحدة على الطعن بصلاحيته ، ولا سبيل لكف بغيه إلا بتأخير امرأة مسلمة عاهدت الله على أن تسلم الحكم إلى أهل الإيمان بمجرد انتخابها للرئاسة . . أفيصح تأخيرها صيانة لمصلحة المسلمين ، أم يترك المجال لإنجاح الطاغية ، وتَمَكُّنُه من رقاب الأمة ، وحرمانها من تحكيم شريعة الله ؟ !!

ولو عرضت هذه الصيغة المعللة على أهل العلم لكانت الفتوى في غير مصلحة العملاء بلا شك . . .

ولقد تسللت دعاية الطاغية إلى جامعتنا يومئذ عن طريق بعض هؤلاء ، والمؤسف أنها لقيت استجابة من بعض المدرسين المؤيدين لذلك الجانب ، فانطلقوا يرفعون عقائدهم بالطعن على المودودي وإخوانه ، ويشنعون على موقفهم من ترشيح تلك المرأة حتى ضيقوا الخناق على أنصاره في الجامعة وهم كثرة الطلبة الباكستانيين وخيرتهم . .

وكنت أشهد هذه المعركة بكثير من الأسى المكظوم ، ولا أملك لأنصار الإسلام في باكستان سوى الدعاء ، وهو في مثل تلك الحالة أضعف الإيمان .

بين الخرافة والغرور :

وبلغ الغرور بمحمد أيوب بعد فوزه الصورى فى ذلك الانتخاب حدّه الأقصى . . وكان ذلك فى آخر رمضان من عام ١٩٥٧ إذ حلّ عيد الفطر فى يوم الجمعة ، فكبر على الرئيس أن يجتمع على المسلمين خطبتا الجمعة والعيد فى يوم واحد ، وذلك بنظر الخرافيين فى باكستان نذير بانتهاء الحكم القائم ، لذلك بادر بمحاولة تغيير موعد العيد فأصدر الأوامر بوجوب إفطار المسلمين يوم الخميس ، مع التهديد بالاعتقال لكل من يخالف ذلك الأمر . ولم يكن للميدان غير فارسه المُعلّم ، فأعلن الأستاذ رحمه الله استنكاره لتلك الخرافة ، وأكد للمسلمين بأن موعد العيد موقوف على ثبوت الرؤية ، وليس لأحد أيّاً كان مركزه أن يقدم فى ذلك الموعد أو يؤخره بعد الرؤية الثابتة بالشرع . . واعتبر محمد أيوب هذا التصريح من المودودى تحدياً لمقامه وإلغاء لكلامه ، فأمر بإعادة اعتقاله ، حيث لبث فى السجن شهرين ، غادره بعدها ليشهد عقيب أشهر قليلة سقوط الطاغية وزوال عهده الأسود . . ولكن لم ينته إلى هذا المصير إلا بعد أن مهد السبيل لخليفته ذى الفقار بهوتو ، ومجيب الرحمن ، اللذين قضيا على وحدة باكستان .

نظرة فى مؤلفات الإمام :

وطبيعى أن القارئ الذى يريد الإحاطة بشخصية الإمام المودودى ، لن يكفيه الاطلاع على ما كتبه عنه وعن جهاده الكاتبون ، حتى يرجع إلى مؤلفاته نفسها فيُنعم فيها الفكر والتأمل ، ويتغلغل من خلالها فى أعماق تلك الشخصية الفذة ، التى أعدها القدر إعداداً خاصاً لإيضاح معالم الإسلام ، وإيقاظ الوعى لحقائقه الجامعة المانعة على ضوء العصر ، فكان بها أحد المجددين لهذا الدين . .

ولننظر الآن فى عنوانات بعض هذه المؤلفات التى تتجاوز المئة عدداً ، والتى تُرجم بعضها إلى أكثر من أربعين لغة :

- ١ — الحضارة الإسلامية : أصولها ومبادئها .
- ٢ — نحن والحضارة الغربية .
- ٣ — الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة .
- ٤ — مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة .
- ٥ — في محكمة العقل .
- ٦ — الرسول والرسالة .
- ٧ — حقوق الزوجين .
- ٨ — تحديد النسل .
- ٩ — مبادئ الإسلام .
- ١٠ — أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة .
- ١١ — الحجاب .
- ١٢ — الإسلام كما جاء به الرسول .
- ١٣ — نظرة الإسلام السياسية .
- ١٤ — نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية .
- ١٥ — موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه .
- ١٦ — منهاج الانقلاب الإسلامى .
- ١٧ — استفسار ذو بال .
- ١٨ — المصطلحات الأربعة في القرآن .
- ١٩ — الإسلام والجاهلية .
- ٢٠ — منهج جديد للتعليم والتربية .
- ٢١ — معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام .

وفي هذه العنوانات الرامزة لمضموناتها تصوير جامع لطاقة فكرية تناولت أسس الحياة الإنسانية في ضوء الإسلام . فالحديث عن الحضارة الإسلامية — في الكتاب الأول — يتطلب علماً يتسع لأبعاد الحياة البشرية وموقف الإسلام من كل جزء فيها ، ولا يقل عن ذلك أهمية تحديد موقف الإسلام من حضارة الغرب ، التي يراد فرضها على المجتمعات الإسلامية ، ثم عناصر الصمود الإسلامى في وجه التحديات العصرية . . وهكذا نلاحظ من مجموع

هذه الأسماء التي اختارها المؤلف لكتبه طابع الشمول الذي يتصف به ذلك العقل الجبار ، الذي ترك بصماته عميقة في ثقافة العالم الإسلامي المعاصر . ولا عجب فقد رأينا من حديث الأستاذ عن مصادره الثقافية ما أقتنعنا بأن لديه من نعمة الله وتوفيقه القدرة على معالجة مختلف المشكلات التي تشغل الفكر البشري في هذا الزمن ، ومواجهتها بالحلول الشافية المستمدة من كتاب الله الخالد وسنة رسوله الذي علمه ما لم يكن يعلم ، وزوده من الحكمة بكل المؤهلات التي تؤكد أنه الرحمة المهداة . .

خلوات مباركات وكرامات :

ومع أن الميزة الأولى لهذه المؤلفات سواء الصغير منها أو الكبير ، هي الجدة والعمق والنسق المنطقي ، الذي يخاطب عقل القارئ وقلبه جميعاً ، فقد لفت انتباهي منها حديث الأستاذ الحامدي عن كتاب « مبادئ الإسلام » الذي يقول إنه ترجم إلى ثلاثين لغة ، وصدرت منه ملايين النسخ ، وكان من المهتمين به شاب أسباني كتب إلى الأستاذ عقيب قراءته إياه في ترجمته الأسبانية يقول : إنه كان قد اختار حياة الترهّب فما إن اطّلع على كتابه هذا حتى أخذ به وانتقل من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . . لا إيمان الوادع بل إيمان من لا يخلد إلى الراحة حتى يُخضّع الصليب في أسبانية لله الواحد الأحد الصمد (١) .

ولئن صح ما يقوله الأستاذ الحامدي رواية عن الإمام المودودي بأنه قد أتم تأليف هذا الكتاب لإدارة التربية والتعليم في حيدر أباد ، خلال أسبوع واحد فقط ، فلا أشك أنها كرامة قد قيضها له الله ، من نوع تلك الكرامات التي كانت توافي شيخ الإسلام بن تيمية فينتج من الأعمال العلمية في اليوم الواحد ما يعجز الآحاد من العلماء في الأسابيع والأشهر . .

ولم يلتق المودودي وابن تيمية على هذا فحسب بل كان بينهما أكثر من جانب مشترك واحد . فقد كان السجّان لشيخ الإسلام خلوة تساعد على

المزيد من التأمل والإنتاج العلمى، وكذلك المودودى إذ بارك الله عليه في سجنه، فقدّر له إخراج العديد من الكتب الصالحة، منها كتابه المشهور عن « الربا » و « مسألة ملكية الأرض في الإسلام » كما أتم المجلد الأول من تفسيره الذى يسميه « تفهيم القرآن » في غياهب السجن أيضاً . . وقد شاء الله أن يشاركهما في هذه الفضيلة الشهيد سيد قطب، إذ أتاحت له خلوة السجن أن يكتب أروع مؤلفاته في ظلماته . . وصدق الله القائل في كتابه الكريم ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (١).

دسائس وأحقاد

كثيرون الذين قبلوا أفكار المودودى كلها عن قناعة لا يعترها الشك، وفريق آخر رفضها كلها لغير سبب سوى أنها تخالف ما ألفه من تهاويم لا يريد تغييرها، وآخرون تجاوزوا في رفضها حدود الأخلاق، فلم يكتفوا باستنكارها، بل راحوا يؤلفون المفتريات حول صاحبها، ويصدرون الفتاوى بتكفيره، ولا يتورعون أن يقولوه ما لم يقل . . وكان بين هؤلاء مشايخ لهم ألقاب علمية، ولهم مؤلفات . . ولكنهم استهوتهم الدنيا فأعلنوا انحيازهم إلى بعض مراكز القوى، التى تشن غارات القتل على دعاة الإسلام، وتعمل ليل نهار لمحاربة شريعته . .

وفي مقال ضاف، كتبه السيد زهير الشاويش عن أبى الأعلى المودودى في جريدة اللواء الأردنية يتحدث عن بعض هؤلاء الذين يدينون بكرهية المودودى، ممن ينتسبون إلى العلم في الهند، فينسب إلى أحدهم قوله: إن المودودى يتكلم في أمور الدين ويفتى الناس وهو لم يتخرج في مدرسة شرعية . . ويتكلم في أمور الدعوة ولم ينتسب إلى طريقة صوفية! . .

ويذكر لقاء آخر مع عالم هندى كبير كان أكثر اعتدالاً من ذاك في كراهية المودودى، وقد صرح له بأن المستقبل في الهند وباكستان هو للجماعة

الإسلامية بشرط أن تُعَدَّل موقفها من السادة العلماء . . وليس له على المودودي من مأخذ سوى عدم التعاون مع العلماء ويعتبر ذلك منه غروراً يحسن أن يقلع عنه ويقدم الاحترام اللازم لهم ! . .

ثم يقول : والظاهر أن المودودي لم يُعَدَّل موقفه من هذا الشيخ وأضرابه فقام بتأليف رسالة يكفره بها .^(١)

وأنا أيضاً لقد لقيت شيوخاً من هؤلاء يحسنون الكلام في الكثير من محتويات كتب الفقه والحديث ، ويعتبرون كل كلام خارج حدودها نوعاً من التجديف ، لأن مؤلفي تلك الكتب قد استوفوا بنظرهم الكلام عن كل شيء . . فإذا ذكر لديهم المودودي لم يحسنوا البيان المقنع ، فعمدوا إلى مثل هذا الطعن الذي قرأته في جواب الشيخ الأول ، وقد يخشى بعضهم أن تُردَّ مطاعنه بما يفضح جهله ، فإذا هو يكشف عن حسده للمودودي ، لانتشار آثاره ، ويعبر عن نغمته الشخصية لإعراض المودودي عن أمثاله .

وقد قرأت رسالة هذا الشيخ فلم تزدني به علماً لأني عرفته من قبل واحداً من أعوان الطواغيت الذين يبيعون دينهم بدنيا غيرهم . . بيد أن الذي هالني منها جرأته على تحريف الكلم عن مواضعه ، وإقدامه ومن معه على إصدار الفتاوى التي تصل إلى حد التكفير . . بحق الرجل الذي أضاء الله به الظلمات . .

وشد ما أضحكتني دسائسه على المودودي وتهوين أمره لدى علماء المملكة ورابطة العالم الإسلامي ، ظناً منه أنه يحط من مكانته لديهم . . وقد فاته أن مكانة المودودي إنما بناها إخلاصه للحق ، وما فتح الله عليه من العلم الذي قدم به الحلول لمشكلات الإنسان في هذا العصر . وما أحكم قدر الله الذي ألهم مقدري فضله في المملكة السعودية أن يمنحوه جائزة الملك فيصل ، وما أروع استقبال المودودي لذلك التكريم حين حوّل الجائزة بأسرها إلى حساب الجماعة الإسلامية ، لتنفقها في خدمة الدعوة إلى حقائق الإسلام ! ! .

١ — انظر المقال في جريدة اللواء الأردنية ت ٢٤ / ١٠ / ٧٩ ص ٣ .

الحوار البناء :

بقى أن نحدث القارئ عن ذلك الفريق الآخر الذى حفظه الله من نزغات الشيطان ، فوقف من الإمام المودودى وأفكاره موقف المؤمن الذى يراقب الله فى حكمه على الأحداث والأشخاص ، فكان نظره إلى أعمال المودودى موزوناً بقسطاس العدل والإنصاف .

لقد وقف هؤلاء على أفكار هذا الرائد المجدد ، فاقنعوا بأكثرها ، وأعطوه حقه من التقدير والثناء ، ووقفوا من قليلها موقف الغيور الناصح ، الذى يرى فى هذا القليل بعض الشطط عن الأصول التى التزم بها الإمام فى بحوثه الأخرى ، فكان عملهم نوعاً من التعاون على تأييد الحقيقة التى هى رائد الجميع ، ولا جرم أنه اجتهد مأجور أخطأ أو أصاب .

من هؤلاء الفضلاء المنصفين سماعة الأخ الشيخ أبى الحسن الندوى ، صاحب التأليف ، التى قلت وأقول إنها مع مؤلفات المودودى ، المركب الذى باركه الله ليكون دليل الجيل المسلم المعاصر فى مسيرته الجديدة الهادية إن شاء الله .

فى كتاب « التفسير السياسى للإسلام » الصادر فى رمضان ١٣٩٨ هـ يناقش الأستاذ أبو الحسن الندوى بعض أفكار أخيه المودودى ، فيترجم إعجابه الكبير « بمقالاته القيمة التى كان يكتبها فى مجلته الغراء « ترجمان القرآن » فى نقد الحضارة الغربية ونظام الحياة الغربى ، التى تتميز بأسلوبها الهجومى ونقدها اللاذع لحركة التقدمية والتجدد وفكرة القومية المتطرفة ، التى نجمت وباضت وفرخت فى حضن الثقافة الغربية ، وكذلك موضوعات وقضايا فى صميم الشريعة الإسلامية . . . وسطر قلمه مقالات قوية مؤثرة معضدة بالدلائل أمثال « الربا » و « الحجاب » و « الجهاد » و « الأضحية » و « الرق » و « حجية الكتاب والسنة » و « الأحوال الشخصية » وما إليها من المسائل الهامة . . . حتى ينتهى إلى القول بأنه « سيكون من الإجحاف الكبير إذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه . . . ومؤلفاته ووسائله المستقلة من دور رائع فى إعادة الثقة إلى الطبقة الذكية المثقفة ثقافة غربية بالإسلام ،

وبقيمه وتصوراته وفي تخليصها من مركب النقص ونفسية الهزيمة الداخلية
حيال الإسلام وتعاليمه ، مما جعل بعض الكتاب يدعونه « متكلم الإسلام » .

النقد البريء :

ومن ثم يقف على بعض النقاط التي يرى شذوذها عن الخط الذي يطريه
في كتابات المودودي ، فيقول : إن الأستاذ المودودي من خلالها « يمارس عملاً
آخر نستطيع أن نسميه « الصياغة الجديدة للفكر الإسلامي » أو « الصياغة
الجديدة للالهيات الإسلامية » .

ويشرح ذلك بأنه يعني كتابه « المصطلحات الأربعة في القرآن » الذي
فسر فيه تلك المصطلحات تفسيراً خاصاً يتميز بالطابع السياسي ، ويدور حول
« حاكمية الإله » و « سلطان الرب » يحدد علاقة العبد بربه في حدود . . .
« تأسيس « الحكم الإسلامي » و « إقامة الحكومة الإلهية » فحسب . .

والمصطلحات الأربعة التي يدور حولها كتاب الإمام المودودي هي :
الإله والرب والدين والعبادة ، وخلاصة ما ذهب إليه بشأنها هي أنها المحور
الذي عليه يدور الكيان الإسلامي كله ، وأن مفهومها الصريح الواضح في
الحقبة الأولى قد تغير في تصور المسلمين اللاحقين تغيراً أفقدها روحها
وفاعليتها . . حتى باتت العقيدة في الألوهية والربوبية محدودة الأثر في حياة
جماهير الأمة ، بل أقرب إلى الموات ، لا تحرك ساكناً لتنفيذ شريعة الله ، وبذلك
استحالت العبادة حركات لا مردود لها في نطاق الطاعة الواجبة لأوامر الله
ونواهيه . .

فالمسلم في عبادته الخالية من روح الوعي لحقائق الإسلام والعمل بها شأنه
كشأن الخادم الذي يكتفى من تعظيم مخدومه بترديد اسمه والقيام بين يديه
دون أن يقوم بتنفيذ أى من تعليماته الحاسمة . . وفي تمثيل آخر يشبهه المريض
الذي كتب له الطبيب الحاذق وصفة شافية ، لكنه بدلاً من استعماله الدواء
الموصوف اكتفى بقراءة الوصفة وترديد كلماتها . . .

ولكى يتم القيام بمضمون المصطلحات الأربعة بنظر المودودى لا بد من الجمع بين التلبس بالعقيدة السليمة فى الألوهية والربوبية والتزام العبادة الحقة مع النهوض بواجب التنفيذ لأوامر الله ، التى فى رأسها السعى لإقامة حكم الله فى الأرض ، وإزالة ظلمات الشرك عن عباده . . حتى ليجعل أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين . . مقررات تدريبية لتحقيق ذلك الهدف .

ومأخذ سماحة الشيخ أبى الحسن الندوى على هذه الأفكار المتحدة عند المودودى وسيد قطب ، أنها تفرغ العبادة من صفتى الذل والحب التى يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أنها — العبادة — « تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، إذ تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له . . » وهو مأخذ لا مندوحة من النظر إليه ، لأن تجربة المؤمن الذاتية ، بل اليومية ، تؤكد له أن علاقته بربه قائمة على الرهبة والرغبة ، وأن ثمة لحظات من التجلى تمر به فتغمره بحبه ، حتى ليكاد يذهل فى غمار نشوتها عن كل معانى الرهوت والجبروت . . .

ولكن . . كيف فانت عقل المودودى البعيد الغور هذه الحقيقة ؟ . . ألم يحسها فى ذاته قط ؟ ! . . أو لم يلاحظها فى والده الذى أثرها على متاع الدنيا كله ؟ ! ! . .

والكلام عن الحب متصل حتماً بموضوع التصوف السليم الذى لا يزال بصاحبه حتى تصفو روحه من كدورات الأرض فتتألق بوهج الحب الأعلى . .

التصوف بين الخير والشر :

والحق أن للأستاذ المودودى رأياً جميلاً فى هذا النوع من التصوف ، الذى لا يتجاوز سبيل المجاهدة لنوازع النفوس ، ورياضتها على حب الله وطاعته ، للتحقق بالتزكية التى قرن الله بها فلاح المؤمن فى سورة الشمس . فإذا تعرض للتصوف بالنقد فإنما يريد به ذلك الذى يشاهده فى بعض مدّعيه من الذين يتولون تخدير الاتباع يقطعهم عن الاهتمام بشئون الدنيا ، حتى يصبح التصوف بهذا الضرب من السلوك عبارة عن مدرسة مهمتها تخريج الكسالى وأحلاس البطالة .

حتى والده . . ذلك الرجل الطيب النظيف . . ألم يدع الدراسة العصرية خوفاً من تلويث عقله بثقافة الإنجليز ؟ ! . ثم ألم يرفض عمله في المحاماة حفاظاً على دينه من الانحراف إلى غير طريق العدالة ؟ ! . .

وماذا نتج عن هذه السلبية سوى البؤس والحرمان وتعريض الأسرة كلها للتعاسة والشقاء ! ! . . .

إن الثقافة العصرية ضرورة لا بد منها لحماية الإسلام من طغيان أهلها ، وقد كان على والد الإمام أن يُحصِّن قلبه بما تُقَفِّه من العلوم الإسلامية إلى جانب تلك الروافد الأجنبية ، فتكون له قوة لخدمة دينه وأمته كما فعل ولده النابغة ! . .

وكذلك المحاماة ، فإذا كانت مشبوهة السلوك لدى المستهترين من معظم أهلها ، فلمَ لا يرفعها عن حضيضهم ، فلا يدافع إلا عن حق ، ولا يجابه إلا الباطل ، وبذلك يخدم الإسلام من خلال المحاماة ، إذ تكون استقامته في مهنته بمثابة الدعوة إلى ملته ! ! .

ومهما اختلف في موضوع التصوف فالاتفاق واقع على أنه ليس لوناً واحداً ، وليس أصحابه على سواء . . وأى منا لا يعلم أن كثيرين من رجال التصوف المستقيم قد نهضوا بالعظيم من إحياء الجهاد في سبيل الله ، كما نعلم أن كثيرين من مدعى التصوف قد سَخَّروا ويسخِّرون طاقاتهم وأتباعهم لخدمة الطواغيت ، فيعطون بذلك الحجة المرية لأعداء الإسلام .

وأى مؤمن سليم الرؤية ينكر على الأستاذ المودودي قوله عن غلاة الطريقين في كتابه « واجب الشباب المسلم » : « وإن تعجب فعجب حال الصوفية فلا تجد بينهم من عمل بالإسلام الحقيقي وعلمه إلا عدداً يسيراً ، وأما معظمهم فكانوا يدعون إلى تصوف مزاجه الفلسفات الإشراقية والمانوية والرواقية ، التي اختلطت بالتصوف حتى لم تبق له علاقة مع عقائد الإسلام وأعماله الخالصة إلا قليلاً . . . » .

وهل نحن بحاجة إلى التذكير برواسب هذا المزيج الهندي والفارسي واليوناني ، في مذاهب أولئك الطريقين ، الذين شحنوا أذهان مريديهم بأفكار

الحلاج وابن عربى والتجاني والجيلي ، والعشرات من أمثالهم ، الذين أصبحوا قادة السواد الأعظم من عامة المسلمين . . . وأصبحت أضاليلهم أعمق أثراً في قلوبهم من كلام الله ورسوله والأئمة من علماء الإسلام ! ! .

أما ذلك العدد اليسير من أهل الرياضة النفسية الزكية المستقيمة على طريق الوحي . فقد رأى سماحة الشيخ أبى الحسن مدى تقدير أخيه لهم فيما نقله من كلامه عنهم^(١) . . . فهم موضع احترامه وتكريمه ، ولكن هذا لم يمنعه من التوكيد على أن الإقبال حتى على هذا الضرب من التصوف النقي لا يتفق مع مصلحة الإسلام في الظروف الراهنة ، فهو بنظره كالماء الذى استيقن المريض ضرره ، فيجب عليه تركه على الرغم من إباحته الأصلية^(٢) . . . وقديماً قال الحكماء « الحكم في الشيء فرع عن تصوره » ولا جرم : أن لقسوة الإمام على بعض المتصوفة صلة وثيقة بواقعهم الذى نشهده في كل مكان من بلاد العرب والإسلام ، إلا ما رحم الله وقليل ما هم . . .

تعاون لا تشاحن :

وهكذا القول في تركيز الإمامين المودودى وسيد قطب على الجانب السياسى من موضوع المصطلحات الأربعة ، لا يكفى النظر إليه في معزل عن الواقع الرهيب ، الذى يعانىة الإسلام تحت سلطان الحكومات الجاهلية ، التى لا تدخر وسعاً في تحطيم الطاقات الإسلامية بالقتل والتعذيب ، واختراع التهم الباطلة لتشويه سمعة رجال الدعوة . . . فذلك هو الذى استقطب تفكيرهما إلى موضوع الحكم حتى أغفلهما عن ناحيتي الحب والذل ، اللتين لا كمال لعبادة المسلم بدونهما . وأحسب سماحة الشيخ أبى الحسن ، حفظه الله وأمتع بحياته ، لو راجع ذاكرته لوجد في معلوماته عن مؤلفاتهما — خارج المعالم والمصطلحات — ما يؤكد أنهما على رأيه في موضوع الحب والذل . . .

وعلى ضوء هذا التصور يغدو موضوع الخلاف بين أبى الحسن الندوى وأخويه لا يزيد عن كونه خلافاً لفظياً ، واختلاف الرأى . . . لا يفسد للود قضية .

١ — انظر ص ١١٧ من « التفسير السياسى للإسلام » .

كما يقول شوقي

ونحن على أتم الثقة بأن نقد أبي الحسن للمودودي وقطب لا يعدو أن يكون كما أسلفنا نوعاً من التعاون على البر والتقوى ، فالأجر مضمون على كل حال إن شاء الله .

وقد رأينا الإمام أبا الأعلى — أعلى الله مكانه في الجنة — يولى نقد أخيه أبي الحسن كل التقدير ، ويوجه إليه أطيب الثناء . وذلك من منطلق إيمانه بالشورى التي تجعله رحب الصدر لكل نقد بناء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

كلمة أخيرة :

بقيت نقطتان من موضوع هذا الخلاف أرى من الخير إيضاح غامضهما .

إحدى النقطتين تفسير الشيخ أبي الحسن لكلام المودودي بشأن مفهوم الأمة للمعاني المصطلحات القرآنية الأربعة عقيب الصدر الأول .

فالشيخ يرى في كلام أخيه عن هذه المصطلحات تعميماً يتهم بجهلها طبقات الأمة كلها . . . والذي نراه أن الأستاذ المودودي إنما أراد بوصفه ذاك سواد الأمة دون أئمة العلم فيها ، وهي قوله حق ، لأن كثرة المسلمين شغلت عن تلك المعاني العلوية بالزلازل التي خضت بها الأرض ، وبالتطورات الاجتماعية والثقافية التي غزت من كل جانب ، فعزلتها عن حقائق دينها ، حتى كان أكبر هم العلماء الأعلام ضبط مسيرة الشعوب الإسلامية في نطاق الأصول التي تحفظ عليهم انتماءهم العام . . .

وقد رأينا سماحة الشيخ كذلك يكاد يجزم باستمرار توافر العلم الجامع المانع لآيات الكتاب المبين ، مع أنه يعلم أن بين كبار علماء الإسلام من تعذر عليه أن ينفذ إلى أبعاد الكثير منها ، فاضطربت رؤيته حتى أنكروا ما يعتبر اليوم من بدييات الأمور . فهو مصر مثلاً على أن الأرض ساكنة لا تدور ، مع أنه يقرأ في كتاب الله ذكر الأرض قبل كل آية أخبر بها الله سبحانه عن حركة

الشمس والقمر بقوله الحق : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ (سورة الأنبياء وسورة ياسين) ، وهو كذلك متشيث بالظن أن الكواكب من متعلقات السماء الدنيا ، حتى بعد أن هبط الكفار على سطح القمر ، وأرسلوا مكتشفاتهم الصناعية باتجاه المريخ والزهرة وزحل ! . .

وفهم كذلك من كلام سماحته — ص ٤٠ — أن القول بخفاء معاني بعض الآيات ينافي إخباره تعالى بحفظه القرآن لأن « الوعد بالحفظ في موضع الامتنان وتذكير الفضل والإحسان يستوجب الفهم والشرح » وعندى أن هذا التقرير خارج حدود المحكمات من آيات الأحكام يتنافى مع قوله تعالى آخر سورة « فصلت » ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وهو إخبار صريح بأن في القرآن أسراراً يعجز العقل عن الإحاطة بها إلا على ضوء الكشف العلمية ، التي تبرز كل يوم جديداً من كنوز هذا الكتاب الذى لا تنفد عجائبه . .

وما أحكم قول القائل :

وكل العلم فى القرآن لكن تقاصر عنه أفهام الرجال

أما النقطة الثانية فحول رأى الشيخين المودودى وقطب عن مفهوم العبادة والحكم فى المصطلحات الأربعة . وقد رأيت أن أعرض لرؤيتى فى الموضوع فإن كان صواباً فمن توفيق الله ، وإلا فمن نفسى وأستغفر الله .

١ — يقرر ربنا تبارك اسمه أن الغاية من خلقه الثقلين إنما هى عبادته وحده ، فيفهم من ذلك أن كل حركة وسكنة من وجودهما داخلية فى نطاق العبادة ، ولكى تكون العبادة مقبولة وموافقة للحكمة التى تحدد غاية الخلق يجب أن تكون خالصة لله ومنسجمة مع الوحي الإلهى . أى كما يقول الفضيل بن عياض يجب أن تجمع بين الإخلاص والصواب .

وإذن فلن تكون العبادة قاصرة على أركان الإسلام الخمسة ، ولا على أركان الإيمان الستة ، بل شاملة لكل عمل يأتيه المؤمن وحسبنا أن نتذكر هنا قوله ﷺ عن الإيمان أنه « بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق . . . » فاماطتك

الأذى عن الطريق رغبة في مرضاة الله من فروع الإيمان ولا عبادة بغير الإيمان .

٢ - ويزيد ذلك إيضاحاً قول ربنا تبارك اسمه لنيه : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ (الأنعام) وهو خطاب يعم الرسول ﷺ والأمة كلها من ورائه ، فيعلمهم أن وجودهم كله ينبغى أن يكون في الاتجاه الذى يحبه الله ، يستوى في ذلك أنواع العبادات المحضة ، والأعمال العامة ، التى تتحول بنية الطاعة إلى عبادة .

٣ - أن الله جل ثناؤه يقرن نصره لعباده بطاعتهم إياه فيقول : ﴿ وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مِنْ نِصْرِهِ . . . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (الحج) ونصر العبد لربه إنما هو استغراقه في طاعته ، حتى يكون ذلك الربانى الذى ينسجم وجوده كله مع مرضاة ربه ، كما ورد وصفه في صحيح البخارى ، بقوله ﷺ عن ربه « . . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيننه (١) . . » .

فهذا العبد السعيد لم يكتف بالفرائض حتى ضم إليها النوافل ، فهو يتتبع في عمله كل ما يقربه إلى الله . وفي فتح البارى نقول كثيرة في شرح هذا الحديث ، ومن أجمعها قول بعضهم : « لا تتحرك له جارحة إلا في الله والله ، فهى كلها تعمل بالحق وللحق » ومن هنا كان استحقاقه للإجابة والإعادة ، وهما مفتاح النصر الذى وعد الله به ناصريه . .

ونظرة أخيرة إلى عاقبة هذا النوع من الطاعات تؤكد لنا أن إقامة حكم الله في الأرض لقيادة الإنسانية إلى السبيل الأقوم ، ولحمايتها من الانحراف السالب للأمن والعدالة والكرامة ، حقيقة بأن تكون هى غاية

١ - من حديث أخرجه البخارى في صحيحه انظر كتاب « الرقائق » ص ٣٤٤ ط السلفية ج ١١ .

العبادة بمعناه الشامل لكل تصرفات المؤمن . . أو على الأقل لا يعتبر القائل بذلك مجانباً لسبيل المؤمنين .

ونحن لا نستطيع استيعاب هذه القضية على الوجه الصحيح ما لم نستحضر واقع الإسلام في ظل الجاهليات القديمة والحديثة ، والخطر الهائل الذى يهدد الإسلام والمسلمين بالزوال ، إذا لم يكن لهم الكيان الذى تحكمه شريعة القرآن ، على النحو الذى تصوره الآية الكريمة التى نحن بصدددها . . فأنا إذن مع الإمامين المودودى وسيد فى تركيزهما على موضوع الحكم ، ولكنى لا أعتبر حديثى هذا رداً ولا نقاشاً للشيخين الأعزىن الهضيبى تغمده الله برحمته ، وأبى الحسن أمد الله بحياته . . ولكنه حوار أخوى أرجو عليه من الله العذر والأجر .

والحمد لله رب العالمين ، الذى جعل كتابه المبين حجته العظمى إلى يوم الدين . . وإياه نسأل أن ينفعنا بجهود المودودى وسيد وأبى الحسن وإخوانهم أجمعين ، وأن يجزيهم عن الإسلام والمسلمين خير ما يستحقه من فضله المصلحون المخلصون . . .

* * *

جماعة ائمة اسلامي هندا

Jamaat-e-Islami Hind

بازار مفتي كفاتوللا، دلهي-110008

BAZAR MUFTI KIFAYATULLAH, DELHI-110008

Ref. No.

Dated

فضيلة الاخ في الله الشيخ محمد المجذوب الموقر : حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ارجو لكم اتم الصحة والعافية في الدنيا وحسن المتآب في الآخرة، وبعد .

لقد سررت كثيرا بلقاءكم والحوار معكم في سفرى هذا . واعتبر

هذا اللقاء الاخوى والزيارة الودية نعمة كبيرة انعم الله بها على في سفرى هذا
و كنت على ذكر من اللقاء السابق ، اذ اسعدنى الله بهذا اللقاء ، و اتمنى منه تعالى
ان يمدنى به مرارا .

و انا مؤسف جدا لاننى لم اجد فرصة خلال سفرى لقراءة المقالة القيمة - و بعد
المودة آخرت كثيرا من الاعمال الضرورية الفورية ، و قرأت المقالة و بعد نهاية القراءة
خرجت كلمة دعائية من قلبى "اشابكم الله ثوابا جريلا" و انا ما قرأت حتى الان
مقالة جامعة لكاتب مربي حول شخصية المودودى رحمه الله مثل هذه المقالة و انها
لتمتاز بايجازها وشمولها ، و تحتوى على معلومات صحيحة وفق علمى الا فى امس
او امرين ، فانى لا اعلم ان المفقور له الاستاذ المودودى قرأ العلوم الابتدائية من
القرآن والحديث والفقه على ابيه ، كذلك لا اعلم انه كان حافضا للموطأ بكامله .
فالتمس من الاخ الكريم اعادة النظر فى مأخذ هذه الامور .*

و كل من يقرأ انطباعاتكم خلال هذه المقالة يقدر تقديرا جيدا لحكم العميق
للاسلام و اهله .

و سرنى كثيرا ما كتبتم فى شرح كلمة العبادة ، و انه لتعليق خالص عادل حار
على البحث الذى قدمه صديقنا و صديقكم فضيلة الامتاذ ابو الحسن على الندوى لى
كتاب له . و انا اتوقع نظرا الى مؤهلاته و حبه للحق انه لا يجد اى فحافة بهد
قراءة هذه المقالة ، ان شاء الله .

و هنا يجدر بالذكر ان الاستاذ سيد احمد القادري رئيس التحرير لمجلة "زندگى"
الشهرية كتب، تعليقا على كتابه هذا . و قد تم نشره من قبل بكثير . و الان ارفق
مع هذا الخطاب نسخة من ترجمته باللغة العربية ، و نرجو من فضيلة الاخ السادتنا
وصول الكتاب .

و اخيرا اود لكم ما يود اخ لاهيه من خير الدنيا و الآخرة .
و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اخوكم فى الله

اراه

ابواليث الاصلاحي الندوى

أمير الجماعة الإسلامية الهند

١٤ / ١٠ / ١٩٨٢ هـ

١٤ / ١٠ / ١٩٨٢ هـ

* انظر تبليغا في الصفحة الثانية منه ترجمة الدمام
(المجدد)

الأستاذ أنور الجندى

قبل ثلاثين سنة ، وكنا مجموعة من أساتذة العربية ، قد حضرنا للمشاركة فى تدقيق الامتحانات بثانوية جودة الهاشمى فى دمشق . . وفى إحدى فترات الراحة دار الحديث حول مختلف الشئون وكانت لى هناك كلمة عابرة ، ولكننى لا أزال على يقين من صحتها ، إذ قلت : من غرائب الأشياء أن معظم الذين نؤثرهم بمحبتنا هم الذين لم نرهم قط . . .

وكانت هناك مُدْرَسَة من المأخوذات بكل جديد من أسباب التطور ، فلم يعجبها ما قلته وقالت فيما قالت : وكيف يكون ذلك ؟ . . فقلت : أعلم ذلك من خلال تعاملى مع الذين أحبهم ، فأحب هؤلاء إلى إطلاقاً هم الذين عرفتهم عن طريق مآثرهم المتفوقة ، وعلى رأسهم محمد رسول الله والراشدون من بعده حكماً وعلماء وأبصاراً فى مختلف ميادين الحياة . . .

ولم تستطع المدرسة الصبر على مواصلة الحديث فتركنا وانصرفت ..

وفى ظل هذه القاعدة الواقعية أتحدث عن الصديق الفاضل الأستاذ أنور الجندى ، فقد عرفت الرجل من خلال مقالاته الطريفة التى يعالج بها الحساس من مشكلات الجيل المسلم . . وحفزنى ذلك على قراءة بعض كتبه فازددت له تقديراً وبه إعجاباً . . ثم لقيت له لأول مرة أثناء زيارتى « دار الاعتصام » فى القاهرة ، فلم أجد فى هيئته وحديثه ما يخالف الصورة التى كونتها عنه ، ثم شاء الله أن نتلاقى فى مؤتمر السيرة والسنة ، الذى عقدته مصلحة الشئون الإسلامية فى دوحة قطر عام ١٤٠٠ هـ وأتيح لنا أثناء هذا اللقاء أن نتناول من الأحاديث ما لم يتسع له لقاءنا العابر فى القاهرة . . ، فكان ذلك مدعاة لعمق المعرفة ، واكتشاف ما بيننا من توافق فى الخط الإسلامى الذى اتخذه كل منا .

أول ما يلفت نظرك من الأستاذ أنور الجندى بساطة مظهره ، وصفاء نظره ، الذى يصور لك ما وراءه من صفاء النفس . وخلال لحظات قصيرة تشعر بأنك تلقاء إنسان سلمت طبيعته من التعقيد والالتواء ، فلا تلبث أن تنساق إلى مودته والثقة به .

ودفعت إليه بورقة الأسئلة التى أعددتها له . .

فلم يلبث أن وافانى فى اليوم التالى بالأجوبة على نحو من الإيجاز لا يكاد يفى بالمنشود ، فكان على أن أقرأ كلماته وما وراءها مما اكتفى بالإشارة إليه دون أن يقول فيه شيئاً .

م : لو تفضلت بتقديم نفسك إلى القارئ : الاسم والمولد والنشأة الأولى .

ج : إسمى أحمد أنور سيد أحمد الجندى . . ولدت فى الخامس من ربيع الأول من العام خمسة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة ، فى مدينة ديروط من مديرية أسيوط بمصر ، ولقد نشأت فى بيت علم ودين ، وتفتحت عيناي منه على كتب التراث الجميلة مكتوبة بالمداد الشينى الأسود ، وقد ميّزت عنواناتها باللون الأحمر ، مما ترك فى نفسى هوى خاصاً لهذا النوع من كتب التراث .

وكان والدى رحمه الله إلى جانب عنايته بتلك الأسفار متابعاً للحديث من مقالات المعاصرين التى تنشرها الصحف والكتب الجديدة .

فكان من إيجاء ذلك الجو أن بدأت اتصالى بالكتب عن طريق مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدى وما إليهما من مؤلفات بعضها فى مكتبة الوالد ، وأستعير بعضها من الآخرين . . فكنت أقرأ ما يتيسر من هذه الكتب دون الإحاطة الكاملة بما تحتويه ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوينى الإنشائى والفكرى ، حتى لقد أقدمت على إلقاء محاضرة عن الأدب العربى الحديث أثناء دراستى الابتدائية ، كان لها ردود فعل غريبة ، إذ تعذر على مستمعيها أن تكون من عملى ، ولذلك عمد بعضهم إلى إجراء البحث عن مصادر هذه المحاضرة ، وقد علمت ذلك من أوضاع الغرفة التى أسكنها ، إذ عدت ذات يوم فوجدت آثارهم على

درجى وأوراقى . فقد قدرُوا أن المحاضرة منقولة لا محاله ، لأن أسلوبها الأدبى فوق طاقة تلميذ من تلك المرحلة ، فأرادوا التيقن من ذلك . . . » .

ويذكرنى حديث الصديق عن محاضرتة تلك بالوضع الذى بلغه التعليم الابتدائى والإعدادى أثناء الأبعينات فى مصر وسورية ، وفى خريجى الأزهر فى تلك العهود أمثلة حية لارتفاع مستوى تلاميذه فى المرحلة الابتدائية ، إذ كان من شروط القبول فيه أن يكون التلميذ من حَفَظَةِ القرآن ، ولا يتصور أن يتم هذا الحفظ دون أن يصاحبه زاد مناسب من القراءة والكتابة والفقه فى الكُتَّابِ الذى أهله لتلك المرحلة .

ولا أزال أذكر جيداً أن بعض تلميذاتى فى المرحلة الإعدادية بسورية قبل أربعين سنة قد بلغن فى الإنشاء الأدبى مستوى أهلهن لتقدير بعض الأدباء ، الذين تحدثوا عن إنتاجهن ضمن مُذاعاتهم عن الأدب الحديث فى إذاعة الشرق الأوسط . .

فالجو المدرسى الذى عايشه الأستاذ أنور الجندى أيامئذ كان مهيباً لترقية المواهب ومشجعاً للأذكياء من التلاميذ على المحاولات الأدبية . . .

فلا يستغرب أن يوجد بين أفرادہ الناشئين من يحسن الكلام عن الأدب العربى الحديث . . . ذلك لأنهم لا يجدون ما يشغلهم عن التحصيل الجدى ، بشئ من العوامل الصارفة التى تواجههم هذه الأيام فى المسلسلات التلفازية ، ومشاهدة الكرة ، ورسوم الرقعة على أغلفة المجلات وصدور الصحف . . . فتستهلك أوقاتهم دون فائدة ، وتقطعهم عن روافد العلم الذى لا سبيل إليه إلا عن طريق الكتاب الجاد .

ويتابع الأستاذ الجندى حديثه عن نشأته وعوامل تكونه الفكرى قائلاً :

كانت صلتى وثيقة بأئمة المساجد فى بلدنا ، وهى التى ساعدت على اتجاهاى فى اختيار نوعية الأصدقاء الذين تركوا آثارهم عميقة فى سلوكى الشخصى . . ففى ذاكرتى صور لا تنسى عن ذلك الوسط الطيب يتمثل فى

أجواء المساجد وهيئات المصلين ومواسم العبادات . . . وما زلت أتذكر مجلساً للعلم في مسجد ديروط الكبير بين العصر والمغرب من كل يوم ، وألمح من وراء السنين ذلك الشيخ الوقور الذى يمس بإشراق وجهه وملاحمه أعمق المشاعر . . ، وأستعيد ذكرى والدى وأنا أصحابه إلى حلق الذكر ، وأستشف تلك النشوة الروحية التى كانت تغمرنا نحن الصغار إذ نتنادى للخروج إلى المسجد ، قبيل الفجر ، فرافق المؤذنين إلى المنائر ، وندير السواقي القائمة على البئر لنستخرج المياه للمتوضئين .

ولا أتمالك وأنا أراجع كلمات الأستاذ الصديق عن ذلك الجو الآمن الآسر ، الذى لم يكن ليفقده بلد إسلامى فى هاتيك الأيام ، فأجدنى مسوقاً إلى التساؤل : كم بقى لأبنائنا وأحفادنا من جمال ذلك الماضى حتى الآن ؟ . . !

لقد تغير كل شيء ، ويا ليتة تغير للأفضل ، فإن التغير سنة الحياة ، ولكنه تغير موشك أن يقطع صلتنا بكل ذلك الماضى ، حتى لنستشعر الغربة الكالحة تضرب بسدودها بيننا وبين أبنائنا بله أحفادنا .. فلا يكادون يفهمون عنا شيئاً ، ولا يتصورون أن لدينا ما يستحق أن يُستمع إليه . . ولا غرو فقد بدأنا أول الحروف التى تعلمناها من كتاب الله فى كتابتيب تؤدّيها صباح مساء بألحان القرآن ، وترعرعنا فى أحياء يكثر فيها الآمرون بالمعروف ويقل فيها الراغبون فى المنكر . . ثم انتقلنا إلى مدارس كان معظم مدرسيها من شيوخ الكتاب أنفسهم ومن زملاء لهم لا يختلفون عنهم من حيث الالتزام بأخلاق الإسلام ، ثم تدفقت علينا أمواج الشواذ من أخلاق لا عهد لنا بها ، وتصرفات لا مسوِّغ لها فى موارثنا ، وتولى تربية أبنائنا أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، ولكنهم آمنوا بغير أفكارنا ونشئوا على غير سبيلنا ، فإذا نحن تلقاء هذه الأجيال التى غلب عليها الاستهتار بتراث الآباء والأجداد ، إلا من رحم الله وقليل ما هم ، وكثير بلاؤهم فى سبيل الحق الذى هداهم الله إليه . .

ويتابع الصديق سرده لمؤثرات النشأة فيذكر اتصاله بمصادر الفكر الحديث عن طريق الصحف والمجلات ، التى كانت معرض التطورات الثقافية ، التى يمثلها أفراد من كبار كتاب تلك السنين ، وكان لهذا الاتصال أثره العميق فى إثارة التفاعل بين قراءاته السابقة والحديثة . .

ويقول الأستاذ : لقد بدأت هذه الخيوط تتجمع لتشكّل نوعاً من التركيز الفكرى حتى هدى الله قلبه إلى المفهوم الإسلامى الجامع ، ومن ثم تفتحت له آفاق السنة والسيرة النبوية بعد القرآن ، وفى ضوء هذه المصادر العليا جاءت مؤلفات الإمام الغزالي لتثبت له المؤشر الحاسم بأن الإسلام منهج حياة ونظام اجتماعى عالمى متكامل . . .

وهنا لا بد من وقفة قصيرة نقارن خلالها بين اتجاهه الفكرى هذا ، وبين دراسته وعمله . . فقد كانت دراسة الأستاذ كما يفهم من الاستطلاع ، مقصورة على التجارة والاقتصاد ، فساقه التخصص إلى العمل فى « مصرف مصر » وهو مسلك لا يكاد يتصل بالاتجاه الذى صار إليه ، ولا ندرى كيف استطاع التخلص من التناقض بينه وبين عمل فى مصرف يقوم على أساس الربا ، الذى يلعن الإسلام آكله ومؤكله وكتابه وشاهديه . . . وهى نقطة لا تزال غامضة المفهوم بالنسبة إلينا ، على الرغم من قوله فى ذلك الاستطلاع إن دراسته وعمله لم يكونا سوى مرحلة من مراحل التكوين والتشكيل ، ولعلنا نجد فرصة لاستيضاحه عن هذا الإشكال قبل تقديم هذه الترجمة إلى النشر . .

وسألنا الصديق عن أكثر الشخصيات تأثيراً فى تكوينه الفكرى ، وعن أهم الأحداث التى ساعدت على هذا التكوين . . فأجاب بما خلاصته :

لقد قابلت عشرات من أعلام الفكر والكفاح أثناء رحلاتى فى البلاد العربية ، وتابعت دراسة الكثيرين من أعلام الإسلام المعاصرين ، أمثال شيخ العروبة أحمد زكى باشا ، واحمد تيمور ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى صادق الرافعى ، وحسن البنا ، وعبد العزيز الثعالبي ، وعبد العزيز جادوى ، وأمين الرافعى ، ومحمد فريد وجدى ، ومن لا أحصى من طبقتهم ، فكان لرحلاتى ومقابلاتى ودراساتى لأعمال هؤلاء الأفذاذ آثارها العميقة فى كيانى كله . .

ويتابع : فى مرحلة تكوينى عرفت رجلاً جليلاً هو الشيخ فخر الدين ، وكانت معرفتى إياه عاملاً أساسياً فى إعطائى الاتجاه الفكرى لونه الأصيل ومنهجه الصحيح ، وبخاصة فى الإنتاج الذى كنت أنشره فى الصحافة العامة ، ثم فى الصحافة الإسلامية التى أوصل الكتابة فيها . .

أما من هو الشيخ فخر الدين . . فما نعلم عنه إلا اسمه هذا . .
وعن مجالات هذا الاتجاه الأصيل يقول الأستاذ الجندى :
لقد تعددت أنحاء هذا الاتجاه ولكن الإطار الذى يضمها جميعاً هو الأدب
والصحافة ثم الدراسات الإسلامية .
ويحدد أهم منتجاته فى الموسوعات التالية :

- ١ — معالم الأدب المعاصر ، وقد بلغت حتى الآن سبعة عشر مجلداً .
- ٢ — تراجم الأعلام فى ثلاثة مجلدات .
- ٣ — مقدمات العلوم والمناهج فى أربعين جزءاً يقدر لها عشرة مجلدات .
- ٤ — معلمة الإسلام ، وقد ظهر منها حتى تاريخ هذا الاستطلاع خمسون جزءاً .

ويقول الصديق معقّباً على ما تقدم : إن هذا العطاء ، عطاء القلم الذى أقسم الله تبارك اسمه به ، قد بدأت بواكيره منذ السنوات الأولى من حياتى الفكرية ، ثم أخذ سمته نحو التكامل والعمق ، ثم شاء الله أن يخلصه لوحه الكريم ودعوته المنقذة . . .

وأهم التحديات التى واجهتها خلال هذه المراحل هى قضية الغزو الفكرى المهادف إلى تغريب التصورات والمناهج والصبغة الاجتماعية ، بالتشويش عليها أولاً ، ثم باستبعادها عن المرتكزات الإسلامية فى النهاية وقد استخرت الله ، فوهبت نفسى لمقارعة هذا الغزو بالحجة والمناقشة وتعرية الأهداف المبيتة من خلفه وهكذا يكاد ينحصر جهدى فى معالجة قضايا الاستشراق والتبشير ، والتهجمات الموجهة إلى الإسلام فى نطاق الشريعة والاقتصاد والسياسة والتربية جميعاً .

ويقول أبو غسان — المسجل لهذا الاستطلاع — إن القارئ المتبع لإنتاج الأستاذ أنور الجندى لا تفوته رؤية هذه الملامح فى سائر ما يطلعه من آثاره سواء فى مقالاته المتلاحقة بمختلف الصحف الإسلامية ، أو كتبه على اختلاف أحجامها ، بل إنه يشعر أن أجوبته على أسئلتنا كانت مسرفة فى

الإيجاز ، وكان بمقدوره أن يتوسع في بسط بعض النقاط أكثر مما فعل ، ولعله أثر هذا الإيجاز استحياء من إطالة الحديث عن نفسه أو اكتفاء بما يحمله إنتاجه القلمى من موضوعات تغنى عن المزيد من التفصيل .

والحق أن قارئ الأستاذ الجندى ليشعر بقوة أنه تلقاء كاتب شديد الإحساس بمسئوليته تجاه الأصالة الإسلامية في كل ما يتناوله من بحوث . . وكأنه حارس على ثغرة لا يلمح شبحاً ولا حركة إلا تناولها بالتحليل والتصوير والاستنباط والتحذير . . .

وهذه العناية الدقيقة بمتابعة الوافدات الدخيلة قد أفرغت على الأستاذ الجندى طابعه المميز ، الذى يصلك بملاحه الشخصية من خلال أى مقال يكتبه ، أو رأى يعرضه فى أى مشكلة . .

إن فى طبيعة هذا الكاتب الإسلامى خصائص المحلل الكيميائى ، الذى لا يكتفى بالنظر إلى ظواهر المادة ، حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيفصل بين جزئياتها ، فيعين لكل منها نسبتها ووظيفتها وأثرها . . وبهذه الخاصة التحليلية تنفرد بحوثه بطابع الطرافة والجدة ، وتنفرد شخصيته بالملاح التى تميزها فلا يختلط بغيره من حَمَلَةِ الأقلام .

وقَدَّرَ الله لى زيارة القاهرة ، وسعدت بقاء الأستاذ الجندى فى دار الاعتصام ، فقدمت إليه صورة من ترجمته ليرى إذا كان لديه ما يزيده فيها ، فلما كان ضحى الغد جاءنى بالتعقيب التالى :

فى أواسط الصفحة الثالثة ألفتكم تقفون عند عملى فى مصرف مصر . . وحق لكم أن تجدوا فى ذلك إشكالاً يقتضى الاستيضاح . . وقد فتح موقفكم هذا فى ذاكرتى صفحات مطوية رأيت أن أخصها فى ما يلى :

الحقيقة أننى مررت بمحتتين لا محنة واحدة ، الأولى هى « المصرف الربوى » والثانية هى « الصحافة » وهى أشد خطراً من ذلك .

أما المصرف فقد حرصت أن يكون عملى بعيداً عن حسابات الربا ويكون قاصراً على الأعمال التجارية وحدها ، مع خوفى وحذرى من الخطر الذى يلحق بى . وكنت حريصاً على نظافة اليد وطهارة التعامل ، وبث روح

الإيمان فيمن حولنا ، وكنا في هذا أشبه بالمضطرب الذى لا يفغل عن مصدر الخطر ، ويدعو الله أن يحرره منه ، فلما جاء العمل الصحفى كان أول أمره إسلامياً خالصاً ثم تحول إلى الصحافة الحزبية والسياسية ، وقد كنت حريصاً على أن لا تأكلنى الصحافة فى خضمها الخطير فاقترعت على صفحات الأدب أول الأمر ثم الصفحات الإسلامية .

وقد امتحنت فى العمل الصحفى بمحنة العمل مع الماركسيين ، واستطعت بعون الله أن أتجاوز إغراءاتهم ، وأن أحضر نفسى فى حيز قليل مضحياً بكل أسباب الكسب والترقى ، حتى أتى أمضيت عشر سنوات كاملة دون أن أحصل على مكافأة واحدة ، وكان عزائى فى ذلك عملى الفكرى الذى كنت أعده وأتفرغ له .

لقد ولدت فى خضم الأحداث فعام مولدى ١٩١٧ كان عام وعد بلفور ، وفى مطالع الشباب ١٩٢٤ سقطت الخلافة الإسلامية ، ثم كان وصول الماركسيين فى مصر إلى السيطرة على الإعلام عام ١٩٦٢ ثم كانت نكسة ١٩٦٧ التى ضاعت بها القدس عاملاً خطيراً فى ظهور دعوة العودة إلى الله وبوادر الصحوة الإسلامية التى تحتاج إلى الترشيد والتوجيه فى الانتقال بالأجيال المسلمة الجديدة إلى الأصالة والرشد الفكرى ، وكان هذا من أهم مشاغلى . . ولا ريب كانت أخطر الأزمات النفسية التى أصبت بها هى أزمة سيطرة الماركسيين على الصحافة والإعلام والمسرح والثقافة فى مصر . . فقد أحدثت لى حالة من أشد الحالات خطورة ، غير أن الله تبارك وتعالى وجهنى إلى العمل لإعادة بعث التاريخ الإسلامى على نحو جديد ، وتجديد الثقافة الإسلامية ومواجهة التحديات .

ولقد كنت فى الحقيقة قد اكتشف نفسى منذ الثلاثينات عندما رفع الغطاء عن خطة « التغريب » التى يجرى العمل بها فى البلاد الإسلامية بترجمة كتاب « وجهة الإسلام » للمستشرق جيب ، والهدف منه دراسة ما وصل إليه « تغريب البلاد الإسلامية » والخطط التى سيتم العمل بها حتى يتم هذا التغريب وواضح أن هذه الخطة كان قد رسمها لويس التاسع بعد هزيمته واعتقاله فى المنصورة ، فقد دعا إلى ما سماه « حرب الكلمة » بعد هزيمة حرب السيف

في الحروب الصليبية ، وكان ذلك مبدأ العمل الخطير الذي تم تحت أسماء التبشير والاستشراق والغزو الفكرى ومحاولة إثارة الشبهات والسموم حول الإسلام عقيدته وقرآنه ونبئه وتاريخه ولغته ، ومنذ ذلك الوقت الباكر توجه قلمي إلى هذا العمل ، ومعنى هذا أننى بعون الله قد أمضيت الآن أكثر من أربعين عاماً فى الكشف عن هذه الخطط والرد عليها فى عديد من الدراسات ، التى نشرت فى الصحف أو قدمتها فى مؤلفات أو ألقيتها فى مؤتمرات عالمية امتدت من إندونيسية إلى الجزائر . .

كانت خطة التغريب التى هى بمثابة التحدى الفكرى لشباب فى السابعة عشرة هى مفتاح حياى الفكرية الحقيقى غير أننى لم أصل إلى الفهم الحقيقى لذلك إلا عندما استوعبت مفهوم الإسلام الجامع بكونه ديناً ودولة وعبادة ومنهج حياة ، ومن هنا اكتشفت خطورة المؤامرة التى قادها التغريب عن طريق « التبشير والاستشراق الغربى والصهيونى والماركسى » التى ترمى إلى تفريغ الإسلام من محتواه كدعوة عالمية ، ومن منهجه لبناء المجتمع ، ومن أصالته وذاتيته القدرة على حفظ ببيضته ، وبناء أجياله على مفهوم الجهاد والمراطة والإعداد فى مواجهة الخطر الخارجى المترىص الذى واجهته القارة الإسلامية منذ فجر الإسلام ، والممتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الحقائق لا بد أن نربى عليها أبناءنا وأجيالنا الجديدة ، حتى لا تستسلم للتحلل والخضوع لأى قوة مهما كانت .. » .

وشكر الله للأخ الفاضل إضافته النفيسة هذه إذ أمدتنا بما لا ينبغى أن تغفله ترجمة من حياة صاحبها تأثيراً وتأثراً ، فليس بالشئ اليسير تلك الفترة المزعجة التى قضاه فى جو الصحافة يسيطر على توجيهها عناصر مدخولة لا تقيم للقيم الإسلامية التى نشأ عليها وزناً ، وهو جو من الحدة والشدة بحيث لا يتوقع أن يسلم من فاعليته معاش له ، ولو تصورنا أن ذلك المعاش أقل حصانة روحية من فتانا — الجندى — لابتلعه التيار المركز دون أن يجد فرصة للنجاة من قبضته ، ولكن شاء الله أن يكون موقفه كموقف الجسم المنيع من هجوم الوباء يتلقاه ميكروباً فيحيله عذاء . . وشئ آخر لا ينفصل من حيث الأثر عن ذلك الجو وهو ما أتاحه له من فرص الاطلاع على خفايا العوامل المؤثرة فى

كيان المجتمع المصرى ، ما كان له أن يعلم عنها الكثير لولا وجوده هناك . .
ومن هنا برزت اهتماماته بتتبع تلك المؤثرات وبخاصة فى تضاعيف المؤلفات التى
جعلت تغزو رؤوس الجيل العربى عن طريق مؤلفيها من مدرسى الجامعات
ودعايات أشياعهم لها ولهم . .

وحسبك من ذلك عنايته بآثار أبى كلود — الدكتور طه حسين — حتى ليكاد
يحيط بها جميعاً كتباً ومقالات وخطباً ومحاورات ومحاضرات ، وخصائص
ومميزات وما إليها . . . ولسنا بحاجة إلى تذكير القارئ بأهمية هذا التتبع لآثار
رجل لم يُقدَّر لواحد من معاصريه أن يبلغ ما بلغه فى تفكير ذلك الجيل ، ولم
يلغ كاتب من الغموض ما بلغه من تقديره ، حتى أصبح ركيزة المولعين
بالتجديد يطوفون حولها ، ويقدسون موحياتها ، ويدودون عن سمعتها بكل
ما أوتوا من بلاغة وقوة ، على الرغم من كل البيانات الشاهدة عليه . .

فى كتاب « طه حسين : حياته وفكره فى ميزان الإسلام » يحشد الأستاذ
الجندي خلاصة مركزة عن نشأة ذلك « العميد » الساحر واعترافاته وأفكاره
وتناقضاته وأقوال خصومه وأنصاره ، وخلفيات كل هؤلاء وأولئك . . وقد
وفق إلى إزالة الستور التى طالما خدعت ولا تزال تخدع الكثيرين من
« الدكاترة » والمأخوذون برق ذلك الساحر الساخر ، تلك الستور التى غلف
بها كتبه ذات الطابع الإسلامى حتى حجب أغراضه الحققة عن الأعين الكليلة ،
فالتخذه المخدوعون والمعجبون دليلاً لا يرد على إسلامية كاتبها ، فإذا هى
— كما قدرها العارفون فى وقتها — سموم مغشاة بالعسل ، تريد الإجهاز على
مصادقية السيرة النبوية وإثارة الشك فى براءة الرعيل الأول من خير أمة
أخرجت للناس ، وإذا مؤلفها لا يزيد على كونه حرباً دُست على جماع
الإسلام قرآناً ونبياً وسيرة وتاريخاً ، لغرض واحد هو بعث الريبة وتكثيفها فى
كل هذه الحقائق . . وبدافع واحد هو تنفيذ المخطط الذى وضعته اليهودية
والصليبية ، وقامت على تعهده عن طريق المبشرين والمستشرقين وأذئاب هؤلاء
وأولئك من أبناء المسلمين . : ويا لها من حرباء لا أقدر منها على تغيير صبغتها
وفق تغير الأحوال .، حتى لم تدع حزباً سياسياً دون أن تنضوى إليه فتملاً
الصحف بمدحه ثم تتسلل منه إلى خصومه فتدبح الروائع فى إطاره وتعظيمه . .

وليس في صدرها ذرة حب أو إخلاص لهؤلاء أو أولئك ، وإنما هو الاحتيال للوصول إلى طريقة أنجح لتنفيذ ما هي مكلفة به من قبل أعداء الإسلام . .
وأنا حين أشير إلى مضمون هذا الكتاب القيم ، الذى جمع في صفحاته المثبتين والخمسين ما لا غنى لباحث عن معرفته من حياة طه حسين ، فقدم له بذلك خدمة تغنيه عن مراجعة العشرات بل المئات من الكتب والصحف ، ولا أنسى أن أضُم إليه كتابه الآخر الذى لا يزال تحت الطبع بعنوان « محاكمات طه حسين » وبهذا أو ذاك تنقطع حجة كل من يتصدى للدفاع عن أبى كلود من أصحاب النوايا الصالحة . . أما أولئك المواطنون له في أهدافه بل أهداف مصطنعية الهدامة فليس لهم عندنا وعند الأستاذ الجندى سوى أن ندعو لهم بالهداية إلى التى هى أقوم . . .

والآن ونحن في صدد التقييم لمميزات هذا المفكر الإسلامى يحسن بنا أن نختم هذه الصفحات ببعض النماذج من إنتاجه لنرى إلى أى مدى تتراءى خصائصه الأسلوبية والفكرية والمنهجية من خلاله وليكن هذا النموذج مما تقع عليه اليد دون بحث ولا استقصاء ولا انتقاء .

يقول الأستاذ الجندى في مقالة له نشرتها مجلة الدعوة الصادرة بالرياض في العدد ٨٨٩ تحت عنوان « خطران » :

« عمالان خطيران قذف بهما التغريب في وجه الأمة الإسلامية فأفقدوها قوة التماسك بإزاء ذاتيتها الخاصة المتميزة : القانون الوضعى في وجه الشريعة الإسلامية ، ومبدأ القوميات في وجه الوحدة الإسلامية ، وقد ولدت القومية في أحضان الإرساليات التبشيرية ، واتخذت وسيلة لهدم الخلافة ، وليس كذلك العروبة التى لجأ إليها العرب بعد سقوط الخلافة ، وكانت في تقديرهم حلقة تالية للوحدة الإسلامية بعد الوطنية والإقليمية التى فرضها تمزيق العالم الإسلامى ، وصولاً إلى الوحدة الإسلامية مرة أخرى ، ولكن العروبة بمفهومها الإسلامى وانتائها الأصيل كان مكروهاً عند التغريب الذى حاول أن يطرح مفهوم القومية بالمفهوم الغربى ، وهو يعنى الانسلاخ عن الإسلام تحت شعارات ومسميات شتى ، وبأساليب وأفكار ترمى إلى هدم التراث والأصول التى قام

عليها البناء الاجتماعي ، وتهدف إلى الفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والإسلام ، وإقامة حاجز من الحقد والكراهية بدلاً من بناء جسر للأخوة الإسلامية بين العرب والأمم التي تقول لا إله إلا الله ، ولقد تساءل كثير من الباحثين المخلصين ، لماذا ركز الفكر الغربي على مفهوم القوميات والإقليميات في البلاد الإسلامية ؟ . وكانت الإجابة واضحة : إنها من أجل إسقاط الجامعة الإسلامية ، ومن أجل إقامة القومية اليهودية ، وفي نفس الوقت للدعوة إلى إنشاء دولة علمانية للقضاء على الذاتية الإسلامية الخاصة التي شكلها الإسلام ، ومن أجل صهر وحدة المسلمين الفكرية في أتون الأمية العالمية .

وقد أدى ذلك التركيز الخطير على الإقليمية والقومية إلى بعثرة وحدة الأمة الإسلامية إلى سبعين جنسية معزولة عن الأخرى ومحبوسة وراء أسوار ، وعروبة مقطوعة عن الإسلام فكراً وعن المسلمين جغرافياً . . وحاولت الدعوة إلى القومية أن تصبغ كل شيء بلونها كأنها أيديولوجية مستقلة حتى بالنسبة للقيم العامة ، التربية العربية ، القانون العربي ، المجتمع العربي . . حتى في دراسات التاريخ . . فهناك الفقه المصري والفقه الشامي والفقه العراقي ، وهناك في التراث إقليمية وقومية ، دور مصر في النحو ودور الشام في الصرف ودور العراق في البلاغة ، وتراوحت القضايا بين الإقليمية والعروبة ، وأخذ كل قطر يفخر بنفسه ، وكلها دعوات حول الأجناس والدماء والعناصر ، وفصل اللغة عن الإسلام كفصل التاريخ عن الإسلام ، والهدف هو إخفات صوت الإسلام بالادعاء أن التاريخ عرني ، والحضارة عربية ، والثقافة عربية ، والجامعة عربية ، باستهداف التركيز على القوميات الضيقة ، وإعلاء التاريخ القديم الذي أهדרه الإسلام ، وقال المؤرخون : بأن هناك انقطاعاً حضارياً بين الإسلام وما قبله ، فظهرت دعوات الفرعونية والفينيقية والقول بأن العربية لغة العرب وحدهم ، وتمصير القانون والأدب واللغة ، أو مغربته والإشادة بالمؤرخين الوطنيين وحدهم في كل قطر على حدة ، وإعادة تفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ مناطق وأقاليم وأنه تاريخ قومي ، والبحث عن سبيل لوضع صيغة القومية العازلة فيه منذ أولى عصوره ، وقبل أن تعرف كلمة القومية أو مدلولها ، قال أحدهم : العروبة دين عبر القوميين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا ، وإن

كان لكل نبوته المقدسة فإن القومية العربية هي نبوة هذا العصر في محفلها العربى ، وأن الوحدة العربية تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل ووحدة الله من قلوب قوم مؤمنين) وهذا الكلام يعنى إقامة القومية كدين ينافس الإسلام ، وقد تعالت هذه الصيحات ثم انهارت وليس لها إلا بقايا قليلة لا بد أن تنهار .

لقد تعالت صيحة القومية بين اليهود لتفصح مجالاً للصهيونية ولتحقيق البقاء لإسرائيل ، وقد أقيمت جهود سنوات طويلة لبناء القومية العربية الوافدة ، ولكنها فشلت لأنها عارضت الفطرة والعقل والعلم وتراث أربعة عشر قرناً من الإيمان بالله . نعم إن العالم الإسلامى المركب من أجناس شتى يقدر للعرب دورهم الرائد فى حمل رسالة الإسلام إلى العالمين ، ويقدر لغتهم لأنه بها نزل القرآن ، ويعلم أن العرب دماغ الإسلام وقلبه ما دام القرآن عربياً والنبي عربياً ، ولكن هذا لا يعطى العرب امتيازاً خاصاً يجعلهم جنساً فوق الأجناس .

والمعتقد أن مرحلة القومية العربية التى جاءت بعد الحرب العالمية الثانية قد انطوت ، وأن المسلمين والعرب اليوم يواجهون مرحلة أخرى تختلف عن المراحل السابقة ، وهى مرحلة التماس مفهوم إسلامى لإقامة المجتمع الربانى ، وآية ذلك ما قاله المستشرقون الغربيون أنفسهم وفى مقدمتهم « ويلفرد كيتول شميث » حيث قال إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود البتة ، وفى هذا المعنى ما قاله « جارودى » من أن كل حركات الجهاد الوطنية والقومية التى قامت من أجل تحرير البلاد الإسلامية ، كانت فى الأصل إسلامية الجذور . ولقد استخدمت كل الوسائل السياسية لإعلاء شأن القومية ولكن المجتمع الإسلامى لم يقبلها على هذه الصورة الوافدة التى دعا إليها « ساطع الحصرى » وغيره ، والتى استمدتها من مفهوم القومية التركية فى البلقان وغيره ، وسيظل المسلمون قادرين على الأصالة وعلى رفض كل المذاهب والأيدولوجيات الوافدة ، وسيجعلون مفهومهم فى العروبة الأصل المستمد من الإسلام والقائم على الوحدة والإخاء الإنسانى وعلى التجميع دون التفريق ، وعلى الالتقاء الجامع لكل المسلمين ، هو

الأساس الحقيقى . ومن هنا كانت قضية القومية إحدى التحديات التى حاولت تحطيم الكيان الإسلامى » .

فمن خلال المقالة الصغيرة التى نقلناها لك كاملة ، دون تنقيب ولا مفاضلة ولا سابق علم بها ، تتضح لعينيك ملامح هذا المفكر الإسلامى مميزة بارزة بكل خصائصها . . فهو يحدثنا عن جانب من الغزو الفكرى والنفسى يمثل فى الواقع اثنين من أهم الأخطار التى تثيرها حركة التغريب .

فالقوانين الوضعية التى فرضها الاستعمار لتكون البديل لشريعة الله ، قد أحدثت ثغرة هائلة فى حصن المجتمع الإسلامى ، إذ جرته بالقسر إلى الاحتكام لغير المبادئ التى ميز الله بها أمة القرآن ، وما هى سوى خطوة بعد خطوة حتى ألفت هذا الانحراف ، وجاءحكامها الجدد من تلاميذ ذلك الاستعمار ، فكانوا به أشد تشبهاً من الذين فرضوه ، وكان لذلك التحول آثاره البعيدة فى تغيير الصبغة الربانية الخاصة بأهل الإسلام . والويل لكل من يتصدى للمطالبة بالتححرر من تلك القوانين الهدامة ، لأن أمامه ألوان البلاء التى بعضها. ولعل أهمها الموت . .

وليس من باب الصدف أن يرافق قوانين الجاهلية ذبوع الدعوة إلى الاتحاد القومى ، الذى بدأ على أساس الجنسية العربية ، ثم ما لبث أن تحول إلى أنواع من الروابط الفرعية ، فرعونية وفينيقية وإقليمية فقطرية ، ومن ثم إلى فرق محلية تبعث موات العصبية البلدية والقبلية فى تقاليع من « الفولسكلور » والعادات التى عفى عليها الإسلام . . .

وهكذا تلاقى الخطران القانونى والعصى على تفكيك وحدة العالم الإسلامى ، ليسهل القضاء على طاقاته كلاً على حدة ، ولينفسح المجال أمام القومية اليهودية ، التى ما كان لها أن تقوم لو بقى للعالم الإسلامى ، — وفى قلبه الشعوب العربية — تماسكه الذى فرضه الإسلام منذ حدد الله هويته بقوله الحكيم فى القرآن العظيم ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . .

ومن هنا انطلقت سيول الأفكار الهدامة على ديار الإسلام ، وزاد طغيانها إلقاء المسلمين أفلاذ أكبادهم إلى أيدي الصليبية والصهيونية والماركسية تصنع

منها الركائز التي تدعم حضورها في صميم وجودهم .

وسرعان ما تفجرت هذه الألفام مولدة ما لا حصر له من الشعارات المعمّقة للفرقة ، والمتناولة لكل شيء من حياة المسلمين ، حتى لتضع لكل إقليم من عالم الإسلام ، بل من الأقطار العربية نفسها ، مصطلحاتها الخاصة المتمايزة ، في التعليم والقانون والتاريخ والتربية ، وما إلى ذلك من شئون لا غاية لها في النهايات البعيدة سوى القضاء التام على وشائج القرى في عالم الإسلام . . .

ويلاحظ القارئ أن الأستاذ الجندى لا يلقي الكلام على عواهنه ، بل يقدم أفكاره واستنباطاته في إطار من الوقائع المنظورة ، ومؤيدة بشهادات المنصفين من المستشرقين الذين هُذوا إلى الحقيقة المحررة . . فنشعر أنه موضوعي الرؤية ، وأنه على اتصال بحركة الفكر العالمى . .

وما أشك أن هذه الخاصة الواعية الواسعة هي التي دعت الفكر الإسلامى المغربى الأستاذ عبد الله كنون الى ترشيح الأستاذ أنور الجندى للجائزة الملك فيصل الإسلامية .

ولعمري إنه لتحقيق بهذه الجائزة التي وضعت لتكريم الفكر الإسلامى المجاهد لإعلاء كلمة الله .

* * *

الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك

لقيته لأول مرة عام ١٣٩٧ هـ وكان ذلك في مجلس شيخنا الجليل عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، أثناء مؤتمر الدعوة والدعاة الذي عقد في الجامعة الإسلامية ، وقد استرعى انتباهي من حديثه ذلك العمق الذي يعالج به ما يتناوله من بحث ، فيشعرك بأنك تلقاء رجل يختلف عن الكثيرين من الشيوخ ، الذين حجبوا أعينهم عن كل منظور خارج حدود الكتب التي ألفها السابقون من أهل العلم ، إذ رأوا فيها كل شيء ولا حاجة بهم لتجاوزها ، ولا جديد وراءها يستحق أن يسأل عنه أو يلتفت إليه . ثم قدر الله أن أطلع على كتابه « حول الإسلام والمسلمين » فازددت له تقديراً إذ لمحت من خلال فصوله — التي هي مقالات ومذاعات كتبت في مختلف المناسبات — عقلاً حياً يطل على طائفة من مشكلات العالم الإسلامي ، فيستبطن وقائعها ويستكشف أسرارها ، ثم يقدم لها العلاج الحاسم من صيدلية الإسلام .

ولست بصدد دراسة هذه الفصول لأرصد قيمتها في ميزان العلم ، ولكنني لا أرى مانعاً من عرض بعض عناواناتها التي تدل على مضمونها الحى .

من سيرته « صلى الله عليه وسلم » .

الحاكمية لله تعالى .

في ميدان التربية .

من شئون الأسرة .

الصهيونية .

التراث الإسلامى والواقع الاجتماعى .

الإسلام هو المنهاج الأمثل .

لماذا ضعف شأن المسلمين ؟ . .

والقارىء بمجرد النظر إلى هذه العنوانات وأخواتها يتصل ذهنه مباشرة بالأفكار التى تشغل بال المؤلف ، لأنها تمس أشد المشكلات التى يعانىها المسلمون حساسية فى مرحلتهم الراهنة ، وهكذا يثبت الشيخ أنه من النوع الذى يعيش أحداث عصره ومآسى أمته ، فلا يكتفى بالشكو المهموس ، والآهة المنخوقة ، ولكنه يفكر ويقدر فيتحرك فى حدود ما يملك من جهد للتنبيه والتذكير والتوجيه ، منطلقاً فى كل ذلك من رؤية إسلامية تحدد مزالق الخطأ وترشد بمنطق الوحي إلى معالم الحق . .

من هنا انبثقت رغبتى فى الترجمة لهذا الفاضل وهأنذا أقدمه إلى قارىء هذا الكتاب على صورته الطبيعية ، التى عرفتها من خلال لقاءين ، أحدهما ذلك الذى جمعنا فى الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٧ والآخر فى دوحة قطر أثناء مؤتمر السنة والسيرة عام ١٤٠٠ ، ثم من خلال المعلومات التى تلقيتها منه ، أو وقفت عليها فى بعض مؤلفاته .

إنه الشيخ أحمد عبد العزيز بن حمد عبد اللطيف من أسرة آل المبارك التيممية المعروفة منذ القديم فى مدينة الاحساء بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

وفى الاحساء كان مولده عام ١٩٣٠ ، والاحساء من الهفوف المعروفة فى التاريخ الإسلامى باسم « هجر » التى اشتهرت بنخيلها حتى ضرب بها المثل فقيل « كجالب التمر إلى هجر . . » .

وقد عرفت أسرته آل المبارك بإقبالها على خدمة العلم والعمل على نشره ، عن طريق مدارسهم المنسوبة إليهم ، وظهر منهم العديد من الشعراء ، وكثر ذكرهم على ألسنة الشعراء الذين صاغوا القصائد فى مدائحهم وفى كتاب « شعراء هجر » للأستاذ عبد الفتاح الحلو المطبوع عام ١٣٩٧ هـ الكثير من تلك القصائد ، وفى إحداها يروى الشيخ عبد الله آل عبد القادر أحد رجال هذه الأسرة وهو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل مبارك ، فيقول فى بعضها موجهاً خطابه إلى الأسرة .

آل المبارك حاز السبق أولكم فهل لكم بعد فى الغابات تشمار

بنوا لكم بيت مجد لا يطاوله	بيت بناه لنعمان سنار
فشيدوا بيتكم لله دركمو	لا تهملوه ففي إهماله عار
أقول هذا وعندي أنكم خَلَف	فيكم على السلف الماضين إبرار
وكلكم في طلاب المجد منبعث	وكلكم لذبول الفضل جرار
والخير ما زال خيراً في معادِنِه	توارثته عن الأخيار أخيار
فأفرغوا في بناء العلم وسعكم	فإنه لمريد سبق مضمار
هذي السعادة لا زلتم بساحتها	بهديكم يهتدى الأهلون والجار

ومن هذه الإشارات يتبين للقارئ فضائل البيئة التي درج فيها مترجمنا ، فهي من أوساط العلم والوجاهة والفضل ، التي لا بد أن تترك أثرها عميقاً في نشأته وبناء شخصيته .

يقول فضيلة الشيخ : لقد بدأ تعلمه من السابعة إذ أسلمه والده إلى معلمة فاضلة هي الشبيخة كلثم بنت الشيخ شبيب ، فقرأ عليها بعض كتاب الله ، ومن ثم انتقل إلى دُبَيّ التي كان والده كثير التردد عليها لنشر العلم ، فتعلم الكتابة على أحد شيوخها عبد الله بن موسى ، ولما أتقن الكتابة ، أعاده والده إلى الاحساء حيث لازم الشيخ عبد الله بن سلطان القحطاني ، الذي أتم على يديه حفظ القرآن الكريم ، ومن هناك انتقل مرة ثانية إلى دُبَيّ ليلتحق بالمدرسة الأحمدية فيها ، وهي التي أنشأها بعض الفضلاء لوالده ليتخذ منها معهداً يُدرّس فيه علوم العربية والدراسات الإسلامية ، وخلال هذه الفترة كان يتابع تحصيله في هذه المواد على والده وعمه الشيخ ابراهيم عبد اللطيف ، وقد استمر على ذلك حتى العام ١٣٥٠ حيث بدأت المرحلة الثانية من حياته فاستكمل شطر دينه بالزواج ، وانقطع عن الدراسة ليتولى التدريس فجعل يستقبل في داره طلاب العلم الذين هرعوا إليه ليتلقوا على يديه مختلف العلوم التي زُود بها .

وفي العام ١٣٥٥ أسندت إليه مهمة الخطابة في مسجد المديرية بمدينة الهفوف ، حتى إذا كان العام ١٣٧٢ هـ عُين قاضياً بالقطيف ، وعُهد إليه بالخطابة في مسجد الظهران ، واستمر على ذلك حتى العام ١٣٨٤ هـ حيث نقل قاضياً إلى محكمة الظهران . . وظل في عمله هذا حتى العام ١٣٨٩ ، حين طلبه سمو الشيخ زايد بن سلطان من المغفور له الملك فيصل

ابن عبد العزيز ، فانتدبه للعمل في محاكم « أبو ظبي » وكان ذلك بناء على صلاته القديمة مع الشيخ زايد ، أيام كان يتردد مع والده على تلك المناطق . ومنذ ذلك العهد حتى ساعة تحرير هذه الأسطر لا يزال قائماً في خدمة دولة الإمارات ، فهو رئيس القضاء الشرعى ، ومستشار دينى لصاحب السمو ، وإمام للجمعة بمسجد أبو ظبي الكبير ، وذلك بالإضافة إلى إمامة العيدين في مُصَلّى الدولة الرئيسى .

وقد عرف فضيلته بالنشاط الجَم فى خدمة الإسلام ، فألى جانب مهامه الرسمية فى القضاء وديوان الإمارة ، وفى الوعظ والإرشاد عن طريق المنابر المسجدية والإعلامية المختلفة ، ما انفك يشارك فى المؤتمرات الإسلامية ممثلاً لدولة الإمارات ، وقد حضر من هذه المؤتمرات خمسة خلال عام ١٣٩٦ هـ ، أحدها فى لكنو بالهند ، والثانى فى بغداد ، ثم مؤتمر رسالة المسجد الذى عقد بمكة المكرمة ، ثم مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى المنعقد فى طرابلس ليلية ، وكان خامسها مؤتمر القمة الإسلامى الذى عقد بالرياض ، وفى العام التالى ٩٧ حضر مؤتمر الدعوة وإعداد الدعاة بالمدينة المنورة ، الذى قدم فيه بحته النفيس « أجهزة الإعلام ودورها فى توجيه المجتمع » وكان ذلك المؤتمر هو المناسبة الأولى التى أتاحت لنا الاجتماع بفضيلته كما أسلفنا ، وبقي أن نذكر كونه أحد الأعضاء الدائمين فى مؤتمر البحوث الإسلامية بالقاهرة .

على أن نشاط الشيخ لم يقف عند حدود المشاركات الشفهية فى خدمة الفكر والمجتمع الإسلاميين ، بل امتد إلى نطاق التأليف والنشر فكان من ثمراته عدد من الكتب نذكر منها :

- ١ — حول تعليم المرأة المسلمة .
- ٢ — حول الإسلام والمسلمين « جزآن » .
- ٣ — الخطب التنبوية — صدر منها أحد عشر جزءاً فى عامى ١٣٧٢ و ١٣٧٤ .
- ٤ — نظام القضاء فى الإسلام .
- ٥ — العلاقة الزوجية فى ضوء الإسلام .

٦ — رسالة المسجد .

٧ — الأساس الإسلامى لمناهج التربية والتعليم .

٨ — الطريق إلى الله .

٩ — مراحل تدوين السنة .

١٠ — الفتاوى الفقهية .

هذا إلى العديد من البحوث والمقالات التى اقتصر نشرها على بعض الصحف والمجلات .

وأحب أن أقف بالقارئ قليلاً على الإشارات الفكرية التى ترسلها العنوانات التى اختارها لكتبه ، من حيث صلتها بواقعه وممارساته العملية .

فموضوع تعليم المرأة يعتبر صورة جديدة من التطور الذى تشهده منطقة الخليج فى هذه السنين ، لا من حيث المقدار بل من جهة النوع ، فالمرأة المسلمة أياً كانت لا يمكن تصنيفها مع الجاهلات اللواتى حُرِمْنَ ضياء المعرفة ، ما دامت ملتزمة بقيم دينها وممارساته اليومية ، حتى ولو حيل بينها وبين الكتابة والقراءة ، لأن هذين العنصرين ليسا كل شئ فى دنيا العلم ، فكثير من الأكفاء الذين لا يملكون القدرة على فك الحرف ، قد تسنموا المقام الأعلى بين أولى العلم ، وقد أشرنا إلى أول تلقية لكتاب الله على يد امرأة ، وروينا عن شيخنا محمد الأمين الشنقيطى ، تغمده الله برحمته ، أن بين شيوخه العديد من فضليات العالمات ، فالتطور الذى نشير إليه هنا هو الذى يشد المرأة فى الخليج إلى المناهج الحديثة ، التى ربطت ذهن الدارس بمقومات الثقافة الغربية البحتة ، التى أخرجت لنا حتى الآن أفواجاً من حاملات الشهادات العليا لا يكدن يتصلن بتراث أمتهم إلا بخيوط ضئيلة لا تغير من طابعه الاستغرائى ، حتى فى العبارة الإنشائية التى لا تتصل من قريب أو بعيد بأساليب البيان القرآنى ، إلا من رحمهن الله وهُدىن إلى الحقيقة ، فهن يبدلن قصارى الجهد للعودة إلى المنبع الأصيل .

فليس المقصود إذن بقضية « تعليم المرأة المسلمة » مجرد الخروج من ظلام

الجهالة إلى نور المعرفة ، بل إيضاح رأى الإسلام فى نوعية المعرفة التى يجب أن تتميز بها المرأة المسلمة لتوكيد ذاتها فى بناء المجتمع الإسلامى المتميز . وهو موضوع جدير بأن تتمثل فيه الأعلام المؤمنة حتى يتضح الطريق للتفريق بين الحق والباطل والأصيل والدخيل .

وليس موضوع « الإسلام والمسلمين » بعيد عن هذا الاتجاه ، فقد عظم خطب الغزو الفكرى والاجتماعى فى حياة العامة ، حتى اختلطت عليهم المفهومات والمعايير ، فلا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، فهم أحوج ما يكونون إلى الرواد الذين يضيئون لهم السبيل إلى الحقائق ، التى توشك أن تنطمس فى غمرة الضباب الذى ينشره ذلك الغزو .

أما الخطب المنبرية فهى إحدى أهم وسائل الإعلام الإسلامى ، الذى من شأنه إيقاظ العقول والقلوب لضبط مسيرة المجتمع فى الطريق السوى ، وقد كادت هذه الخطب تفقد تأثيرها الفعال فى جماهير المسلمين ، منذ صارت المنابر إلى من لا يحسن قيادتها ، فلا بد إذن من تزويد هؤلاء بنماذج تنقذهم من العمى وتأخذ بأيديهم إلى المنهج الصحيح فى حوار المصلين .

وبحث يكتبه الشيخ عن « نظام القضاء فى الإسلام » لا بد أن يكون انعكاساً حياً لتجاربه فى هذا الجانب الهام من حياة المجتمع الإسلامى ، وبخاصة فى مثل هذه الديار التى لا يزال قضاؤها ملتزماً بمنهج الشريعة السمحة فى أصوله الراسخة ، ولن يستطيع القاضى المسلم تحقيق مهمته الدقيقة ما لم يلم بخصائص القضاء الإسلامى وبحياة رجاله الأفذاذ ، الذين كانوا مضرب المثل بين قضاة العالم فى العلم والنزاهة والفطنة النافذة .

وطبيعى أن العلائق الزوجية أول ما يواجهه الحاكم الشرعى من المشكلات اليومية فى حياة المسلمين ، فلتجاربه فى معالجتها أثر كبير فى تكوين أفكاره عنها ووسائل إصلاحها . .

وكذلك الأمر فى موضوع المسجد فهو مجال الشيخ الأسبوعى الذى يلتقى فيه بأصناف المستمعين ، فهو من أحق الناس بالحديث عنه وعن آثاره وموجباته وتعميق فاعليته فى حياة الناس ، ولا جرم أن لذلك كله علاقته

الوثيقة بمنهج التربية والتعليم ، التي يجب أن تكون أحد أهم الأسس التي عليها تنهض صياغة الأجيال المسلمة .

ومن هذا وذاك يتضح لنا طابع الواقعية التي تربط بين أفكار الشيخ وحياته ، فهو لم يعالج بأي من كتبه تلك قضية نظرية تقبل الإبرام والنقض ، ولكنه يعالج كياناً متكاملأ يعيش أحداثه ويلاحظ مجاريه ويرصد نتائجه فيصدر عليها أحكامه في اطمئنان المحرب الحكيم الواقق مما يقول .

وكان لنا مع فضيلة الشيخ حوار نوجزه في ما يلي :

م : لو تفضلتم برأيكم في مستقبل الأجيال المسلمة على ضوء الأحداث التي يواجهونها في مختلف جوانب الحياة .

أ — أقول دائماً إنه لا فلاح ولا نجاح ولا صلاح للأمة الإسلامية إلا إذا استمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فبذلك تقوم نهضة الشعوب الإسلامية على هدى وبصيرة ، وينشأ الجيل المسلم البصير بواجباته ، الواعى لمتطلبات الفترة التي تمر بها الأمة ، حيث يواجه الإسلام حرباً ضروساً من قبل أعدائه في الشرق والغرب ، وبأسلحة فتاكة ليست مقصورة على العتاد الحربي وحده ، ولكن إلى جانب ذلك تلك الحرب الحضارية الموجهة إلى العالم الإسلامي بالكلمة المصورة والسموعة ، وبوسائل الصناعة الحديثة الضروري منها وغير الضروري . وإنها لحرب لن يصمد بوجهها سوى إحياء الحضارة الإسلامية نبعثها من جديد ، متمثلة في الحكم بكتاب ربنا وسنة نبينا ، نتحاكم إليهما فيما جل وقل من شئوننا حتى تعود الحاكمية لله رب العالمين ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ونعود بحق خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

م — وعن مسئولية علماء المسلمين بالنسبة إلى مسيرة الجيل .

أ — من واجب العلماء في المقام الأول نشر العلم النافع بكل الوسائل المتاحة لهم ، حتى يكون العلم في متناول جميع الراغبين فيه والمحتاجين إليه ، وذلك بالأسلوب السهل المتناسب مع روح العصر ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . ﴾ .

وكذلك على العلماء تقديم النصيح والمشورة للملوك والرؤساء حتى يتقوا الله في شعوبهم ، فلا يُبخس ضعيف لضعفه ، ولا يُعظم قوى لقوته ، فتسود الفضائل ، وتختفى الرذائل من العالم الإسلامى بحول الله وقوته وبطاعة المسلمين لربهم ونيهم .. » .

وأخيراً .. لقد شاء الله أن أفرغ من هذه الصفحات ولما تُزل من نفسى بعد صدمة ذلك النبأ الموجه الذى ينعى كبير وَلَدَى هذا الشيخ الوقور الأستاذ خليفة المبارك ، سفير دولة الإمارات العربية المتحدة فى رومة ، إذ صرعتة رصاصة غادر من أولئك القتلة الذين ما برحوا يفسدون فى الأرض ويروعون أمن المسلمين فى مختلف أنحاء العالم .

فإلى الوالد المفجوع وآله الخزانى أرفع تعزيتى القلبية فى هذه النكبة التى هدد بمثلها كل برىء من العاملين فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وللشيخ الوقور ما قاله المتنبى لسيف الدولة معزياً :

أنت يا فوق أن تُعزى عن الأحـ باب فوق الذى يعزىك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عَزَ رَاكَ قال الذى له قلت قبلا

وإنا لله وإنا إليه راجعون . .

* * *

أحمد عبد الغفور عطار من خلال بعض آثاره

أول ما عرفت الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار يوم وقعت على كتاب « آداب المتعلمين . . » الذى قام بتحقيقه وتجميع متفرقاته ، وقرأت مقدمته فأحسست من خلال ذلك أن ثمة قرابة تشدنى إليه وتؤلف بينى وبينه على نسب من الأدب والفكر . . فليس بالجهد اليسير أن يقوم بجمع هذه الآثار القيمة من « رسائل أئمة الفكر الإسلامى » ليقدمها مآدبة شهية دسمة للمشتغلين أمثالى بشئون التعليم والأدب ، وبخاصة فى هذه الظروف التى تكاثفت فيها ظلمات الضياع ، فكاد الناس يجهلون كل شئ من أوليات سلفهم فى أصول التربية والتعليم ، ليقفوا إيمانهم على كل ما يقوله الغربيون فى هذا الميدان .

ومنذ ذلك اليوم وجدتنى شديد التوق إلى الاطلاع على كل ما يكتب ويؤلف ويحقق . . ومما ضاعف احتفالى بآثاره تلك البحوث الرصينة التى ينشرها تباعاً فى مجلة « التضامن الإسلامى » بعنوان « الأنجيل المختارة » فلا أرضى أن تفوتنى حلقة منها ، وطبيعى أن تشدد من شعورى بتلك القرابة بينى وبينه ، لأننى أحد المعنيين بهذا الجانب من الدراسات الدينية ، إذ كان أول كتاب نشرلى قبل نصف قرن هو « فضائح المبشرين » الذى رددت به مفترسات أحد المنتصرة من المبشرين ، الذين احتموا بالاحتلال الفرنسى للشام ، فراحوا يشنون غاراتهم على الإسلام قرآنًا وسنة وتاريخاً . . ثم كان من عملى فى هذا المضمار ما انطوى عليه كتاباى « مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام » ثم « أفكار إسلامية » ثم « أضواء على حقائق » .

وقد شاقنى من بحوثه فى الأنجيل ذلك الجهد الجبار الذى يبذله الأستاذ فى تقصى الدلائل ، وتفلية النصوص ، والرجوع إلى العديد من المصادر والوثائق . . وإنه لجهد لا يصبر عليه إلا محقق وهب نفسه للعلم ، ووقف

قلمه على تجلية الحقائق . .

والحق أن سمة التحقيق والصبر هذه هي الميزة البارزة في نتاج الأستاذ العطار ، سواء كان هذا النتاج كلاماً في الأدب ، أو آراء في اللغة ، أو بحثاً في التاريخ ، أو حديثاً في النقد ، أو حجاجاً بالفقه مستنبطاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأنها لسمة تنبئ المتتبع لآثاره أنه بإزاء طراز لا يكاد يشتهه بسواه من كتاب جميل ، بله الناشئين على أعقاب ذلك الجيل . . ولا غرابة في ذلك ، فالأستاذ العطار من بقايا الرجال الذين رضعوا أفوايق الثقافة الإسلامية من ينابيعها الأصيلة ، حتى إذا تزود منها بالعميق الدقيق مضى يضرب في آفاق الفكر الإنساني على بصيرة ، لا يخدعه البهرج عن الجوهر ، ولا يصرفه الهوى عن الحق ، بل إنه ليقع على الباطل المزوق ، فيعمل فيه عمل الجسم السليم بالميكروب العقيم ، إذ يحيله غذاء نافعا ، بعد أن كان سماً ناقعاً .

أجل إن تلك الخاصة بارزة في كتب الأستاذ ومقالاته ، يلمسها القارئ الحصيف في كل أثر خطه قلمه ، وتطل عليه من خلال الجدول الطويل لعنوانات مؤلفاته وتحقيقاته في كتب التراث فهي غنية بنفسها عن التدليل عليها ، حتى إذا قرأ وصفه لثقافته أو وصف غيره ممن عرفه لهذه الثقافة لم يزد بأمرها علماً .

يقول الأستاذ في كتابه « الزحف على لغة القرآن » : « لست خصماً للآداب العالمية ، ولعل من أكثر القراء في العالم العربي تفرغاً وقراءة لها ، وما لي عمل غير الدراسة والقراءة والتحصيل والكتابة » ص ٢٨١ وفي نهاية ص ٣٩ يعلن أنه يقرأ أربع عشرة ساعة في اليوم ، ولا جرم أن مثل هذا الإقبال الكبير على روافد الفكر هو بقية الإرث العقلي الذي قبسناه عن سلفنا الصالح ، الذين سئل أحدهم من أين جئت بهذه العلوم الكثيرة العميقة فأجاب ، وهو يشير إلى زاوية في المسجد : « من جلوسى تحت هذه القنطرة ثلاثين عاماً » وإنها لإجابة حقة لا يرتفع إلى مستوى فهمها إلا من عرف قيمة العلم ، وتذوق لذائد الصحة للصفوة المختارة من عمالقة الفكر والبيان خلال آثارهم العبقريّة .

ومن إضاعة الجهد أن يحاول الدارس مقارنة ما بين هذا الطراز المميز من ذوى الأدب العربى الأصيل ، والآخرين الذين غرت قلوبهم بوارق الغرب ،

وهم خلو من الحصانة العقلية والذوق ، الذاي عصمهم من الذوبان في بوتقة غيرهم ...

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة أدينا الكبير حين تحدث عن مصادر ثقافته الأولى بقوله عن أدباء جيله : « فالأدباء الذين سبقوا هذا الجيل الجديد عاشروا القرآن الكريم طويلاً ، وعكفوا على قراءته ليل نهار ، وهذه المعاشرة الطويلة أكسبت أساليبهم لوناً رائعاً أصيلاً ، وجعلتها أساليب وثيقة التركيب سليمة البنين » وقد سئل عن الكتاب الذي ترك أعرق الأثر في نفسه وعقله فكان جوابه « إنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم الحديث الشريف ، فهما وحدهما اللذان ينفردان في إيجاد آثار لا أجدها في أى من الكتب التي قرأتها (١) .

وطبيعى أن السالك في ظلمات الحياة ، وهو يستضيء بنور الله ليس كالضارب وراء كل ناعق ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .

من هنا كانت سبيل الأستاذ العطار واضحة هادية ، منذ خطواته الأولى حتى انتهى إلى موقعه المرموق من منازل المفكرين .

إنك لتقرأ كلامه فتحس نفحات الوحي تهب عليك في ألفاظه المنتقاة ، وتراكيه المختارة ، ومعانيه المتزنة المؤثرة . . لا تكاد تخطئها في أى من ألوان نتاجه الكثير المتشعب . . وبديهي أنه الطابع الفطرى الذى لا يملك تلميذ القرآن عنه انفصاماً . . كما أن المستغربين ، من جيل الضياع ، لا يستطيعون الانسلاخ من صبغتهم التي استحوز بها الفكر الغربى على كيانهم كله ، فلا يصرون إلا من خلال نظاراته ولا يفكرون إلا بمقاييسه . .

ويذكرنى هذا بذلك الحوار الذى جرى ذات يوم بينى وبين أحد هؤلاء ، إذ قال لى : ألا تستطيع التخلّى عن الاستشهاد بالقرآن وبالحديث ؟ . . فقلت : إن الإنسان ابن بيئته ، وإنهما لبيئتى التى لا أم لك عنها انفكاكاً ، كما أن بيئتك هى « روز اليوسف » فلا تملك حجة خارج منطقها ! . .

والإنسان المتلمذ للقرآن والحديث هو الذى يدرك أهمية اللغة التى اصطفاه الله لحاتمته رسالاته ، وأنزل بها الكتاب الخالد ، الذى به نقل العرب من رعاية الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم ، وأخرج به البشرية من عبودية الظلمة والفجار ، ومن عبادة الأشجار والأحجار ، إلى آفاق الحرية الكريمة التى هى سبيلها إلى سواء السبيل . . ومن هنا كانت عناية الأستاذ العطار بلغة العرب وبيانها الأصيل .

فى حراسة العربية :

بين الكتب السبعة والأربعين التى يقدمها فهرس مؤلفاته فى آخر كتابه « آراء فى اللغة » المطبوع عام ٨٤ هـ ، أسماء أحد عشر كتاباً تتصل بموضوعات اللغة والأدب بين مؤلف ومحقق . . وهى ظاهرة ذات دلالة كافية على وثيق صلته بلغة القرآن وغيرته عليها . . ومثل هذه الغيرة لا يتوقع من صاحبها أن يقف مكتوف اليدين أمام أى محاولة تستهدف^(١) الإساءة إلى قداسة هذه اللغة ، ولا سيما فى مثل هذه الظروف الشاذة ، التى كثر فيها الخابطون فى ميدان الهجوم عليها ، حتى كنا معهم كشأن القائل :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

وإنك لتنظر إلى العطار فى هذه الحلبة فتراه الفارس المجلى ، المحسن استخدام أنواع الأسلحة فلا يغفل شائئاً ولا يرحم عادياً . . ويتناول كل مدع بما يكشف عواره ، ويهتك أستاره . .

إنه ليسمع أصوات « النشاز » الخادعة تهتف بقصور العربية عن التهوض بحاجة العصر ، فيصرخ بوجههم : « . . وكيف تهتم — العربية — بهذا — الضيق والعجز — وقد وسعت كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ ووسعت آداب العرب وعلومهم وفلسفاتهم وفنونهم وحضاراتهم . . . ووسعت مطالب الإنسان كلها عندما كان هذا الإنسان سيد الأرض . . »^(٢) .

١ — العرب لم تستعمل هذا الفعل لما يراد به الآن ، ولكن مقاييس اللغة العربية تؤيد سلامة هذا الاستعمال إذا لوحظ أن حروف الزيادة فيه لقصد الطلب .

٢ — الزحف على لغة القرآن .

وهو في تقريره لهذه الحقائق لا يصدر عن تعصب أو هوى ، بل عن إدراك دقيق عميق لعوامل التقدم والتأخر في نطاق الحضارة وصلتها باللغة « فاللغة العربية ليست جامدة في حقيقتها بل الذى جمدها هم أهلها وحدهم ، الذين حبسوها في قالب لا تستطيع الخروج عنه . . »^(١) وذلك لأن « اللغة ظاهرة اجتماعية . . تابعة للمجتمع ، والمجتمع المتقدم المتطور يستطيع أن يحملها معه في تقدمه ووثبه وطره . »^(٢) وإذن فكل جمود أو عجز يزعمه الزاعمون في لغة القرآن فهو صورة عن جهلهم أو عن تخلف العرب أنفسهم ، الذين تخلوا عن الحضارة ، فاتهموا لغتهم ، وكان عليهم — لو أدركوا الواقع — أن يهتموا أنفسهم . .

والأستاذ في دفاعه عن العربية وآدابها على أتم اليقين أن هدف الزارين عليها من أغربة الشؤم ليس هو الإصلاح ، لأنهم لو أرادوا ذلك لوجهوا اهتمامهم إلى دراسة هذه اللغة ، والدعوة إلى الإحاطة بأسرارها ، وحفز الناس للسمو بمواقعهم إلى المستوى الذى تؤهلهم له ، ولكنهم « إذا هزئوا برفعة البيان ورقى الأسلوب ، وحاربوا أصحابها ، فإنما يحاربون أو يقصدون النفاذ إلى القرآن . . »^(٣) والدعاة الحاقدون على الإسلام يريدون إلغاء الأدب العربى وإلغاء القرآن وإلغاء الشعر العربى وإلغاء الحرف العربى . . ومتى تم لهم ذلك لم يبق للإسلام والعروبة ما يدل عليهما . »^(٤) وأسمح لنفسى أن أضيف إلى تقرير الأستاذ العطار هذا أن تجريد المسلمين والعرب من قداسة هذه المقومات الروحية والعقلية ، إنما يراد به تجريدهم من أسلحة الدفاع عن البقاء ، وتفريغ حياتهم من القيم العليا ، لتكون صالحة للاستجابة إلى كل ناعق . . إنها ضرب من عملية الغسل للأدمغة يؤهلها لقبول أى دعوة يتقيؤها أعداء الحق . .

العطار والتغريب :

وانطلاقاً من هذا الإدراك الواعى لأبعاد المؤامرة ينظر الأستاذ العطار إلى دعوة المتأمرين والمخدوعين باسم الفن ، فيذكر بما آلت إليه هذه الضلالة في جوانب أخرى من هذا الوطن الإسلامى المهدد فينذر « بأن طريق الفن الذى

نسلكه سيفضى إلى مثل ما أفضى إليه في البلدان الغربية . وليس يبعد عنا ما أحدثه من تمزق في الأعراض وتلويث في الأعراق ، وفساد في الأخلاق و (بوظان) في المجتمع ، بل انتهى إلى الأبرياء والبريئات في المدارس والكتليات فأفسد البراءة ودنس الطهر . » (١) .

وينفذ بفراسته المستضيئة بنور الإيمان إلى ما وراء المهزلة الجديدة التي يسمونها « الفولكلور » فيشرح بواعثها، ويعرى باطلها ، ويسفه أحلام المغرورين بزيفها إذ يقول لهم : « إن في المأثورات الشعبية ما بعث الإسلام لمحاربته والقضاء عليه ، كالأساطير والخرافات والوثنيات والشركيات وما إليها ، فكيف يطلب في مجتمعنا إحياء ما قضى عليه الإسلام ؟ ! » (٢) ويعلن الحرب على هذه التفاهات ، ويطلب إلى الدولة أن تحاربها . .

وحق للأستاذ العطار أن يحذر قومه مخاطر الدعوة الخبيثة إلى مهازل الفنون الهابطة التي تجعل من حثالات المخلوقات أبطالاً ونجوماً ، ومن الردة إلى مستنقعات الجاهليات مجادة وسمواً . . . وما هي لعمر الله إلا دسيسة نسجت خيوطها في ليل ، ولا هدف لها سوى سلخ هذا الجيل المنسوب إلى الإسلام من كل مقوماته ، التي حفظت له هويته إلى هذه الأيام . . وهذا ما لمسناه في اعترافات المسؤولين عن حماية هذا الهبوط في بعض الأقطار العربية ، إذ أكدوا لنا أنه السبيل التي لا مندوحة من سلوكها لدعم القيم الجديدة التي على أساسها سيرفعون قواعد المجتمع الجديد . .

فالقضية إذن ليست قضية تقليد وعبث فقط ، بل هي قضية الإسلام الذي يراد استئصال فاعليته من حياة المسلمين وتفكيك بنيهم الاجتماعية القائمة على أسسه ، ليعيد المتآمرون إنشاءه على قواعد من تلك الحضارة الغربية ، التي لا سبيل إلى التوفيق بينها وبين الإسلام بأي حال . . .

إن هؤلاء المضللين والمضللين جميعاً ليستغلون أوسع مساحة من الطاقات الإعلامية لعرض النماذج الساقطة من صعاليك الغرب وأشياهم لأنهم يعلمون — أو لا يعلمون — أن الاستمرار في مشاهدة المنكرات تسوق إلى إلها ثم

إلى استساغتها ، ثم إلى ممارستها . . . فإذا كان من ثمرات الحضارة الغربية مثلاً إطلاق حرية الجنس حتى لتنصيد الفتاة رفيقها ، فتقدم به إلى مقر أهلها لتفرض عليهم قبوله ، « فالإسلام سبيله القويم الذى يغاير سبيل الغربيين . فهما على غير وفاق فى الزواج ، وما يسبقه من خطبة ، وما يقوم عليه من عشرة^(١) » وعلى هذا فلا ينبغي لمثل هذه الأفكار الخبيثة الدخيلة أن تجد مستقراً فى الوسط الذى يجب أن يظل أبداً منطلق الإسلام .

فالأستاذ العطار إذن يرفض هذه المنكرات ، لأنها تتنافى مع الخلق الكريم ، وبوجه أخص لأنها تصادم المقومات الأساسية لدينه ، الذى له حضارته الممتازة ، التى لا تقبل التجزئة ، ولأنه بالتالى حريص على أن يبقى لهذه البقعة المقدسة طابعها الربانى المشرق . .

الثقافة والحرية :

وقد يتوهم قارئ لأول وهلة أن هذا الكاتب الفحل يدعو إلى إغلاق المنافذ بوجه الفكر الإنسانى . . على حين أن الواقع على الضد من ذلك ، فهو من العلم بحقائق الإسلام بحيث لا يخشى عليه أى لون من الفكر القائم على المنطق ، وعلى أسس من السنة الكونية الصحيحة ، بيد أنه يريد من الصحف التى تعنى بأدب الغرب والشرق وثقافتهما ألا تغفل العناية بأدب الإسلام ومفهوماته الحضارية ، وأن تهب للفكر الإسلامى مثل المساحة التى تعطىها الأفكار الأخرى على الأقل .

يقول الأستاذ : « اقرأ فى صحفنا حكماً وأمثالاً مستوردة من الشرق والغرب ، وأنا لا أخاصم فى نقل الثقافات ، فذلك ضرورة لا غنى عنها فى هذا العصر وفى غيره ، ولكن الذى لا أرضى به أن نغفل الحكيم والأمثال العربية والإسلامية إغفالاً شديداً ، بحيث نغير معالم مجتمعنا العربى الإسلامى ، ونصبغه صبغة غربية نفتقد معها طبيعتنا وسماتنا الخاصة التى تميزنا عن غيرنا . . . » (٢) .

١ ، ٢ - الزحف على لغة القرآن .

وموقفه هذا من الثقافة الدخيلة يتصل بمفهومه للحرية ، التى يريدھا الضائعون منطلق شهوات وغرائز ، على طريقة الحُمُر التى تنهق حيث تشاء ويريدھا هو نظاماً يضبط الغرائز والشهوات فى نطاق الكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية ، فيقول : « أنا لا أدعو إلى (إعدام) الحرية ، بل أجاهد من أجلها ، لأنها هبة الله للإنسان ، ولكنى أطلب أن تكون الحرية تحت قوامة الإسلام الذى يصونها من الزلل ، والحرية التى تملى لصاحبها أن يعبث بحريات الآخرين هى حرية حيوان وليست بحرية إنسان(١) .

ولا ريب أن مجرد كون الحرية تحت « قوامة الإسلام » هو الضمان الوحيد لحماية الفضيلة ولردع المتآمرين عليها . . وإنه لمذهب فكرى لا طاقة لكثير من حكام المسلمين بقبوله ، وهم الذين — فى ظل التحرر الذى أحرزته بلادهم — مكَّنوا — على رأى الأستاذ — لمذاهب الشر والتخريب أن تفعل بها ما عجزت عن تحقيقه قوى المستعمرين جميعاً . . ذلك « لأن الذين بيدهم مصائر شعوب الأمة العربية والأُمم الإسلامية ومقاليدهم من الجهلة بالإسلام(٢) ولو شاء التحديد لقال إنهم أشد أعداء الإسلام ضراوة لأنهم أشد أعدائه جهلاً له . .

العطار فقيها :

والناظر فى أدب الأستاذ العطار لا يسعه تجاهل الملكة الفقهية التى كونتها ثقافته الإسلامية الشاملة ، فهو بهذا الروح الذى يستولى على قلمه يعالج المشكلات المتصلة بحياة الناس على ضوء الكتاب والسنة ، فلا يملك التغاضى عن أى انحراف عن سبيلها ، كائنه ما كانت المشكلات .

لقد تورط أحد الكتاب فى الاستخفاف بتعبير نبوى عن المرأة ، إذ رفض تشبيه رسول الله ﷺ إياها بالقارورة ، وراح يداور ويحاوّر ليوهم قارئه بأنها ليست كذلك ، ويستشهد لرأيه ببعض الأجنبية اللواتى شذذن عن بنات جنسهن ، ليتخذ من ذلك الشذوذ قاعدة تغير وضع المرأة كلياً . . وتثور ثائرة

(١) الزحف على لغة القرآن . .

(٢) المسلمون أمة لا أُم والأستاذ يوافقنا على ذلك.

الكاتب الإسلامي الفقيه فيصرخ بهذا الكاتب وبالصحيفة التي سمحت لنفسها بنشر خطئه : « أليس هذا نقضاً صريحاً وشديداً لكلام محمد ﷺ ؟ . إن محمداً ﷺ يسمى المرأة قارورة ، ومقال — هذا الكاتب — يرد على الرسول الأعظم هذه التسمية ويفندها ، ويسخر بكلمة خير الخلق سخرية بالغة قدرة متحديا شعور كل مسلم ، في وقاحة بالغة وأسلوب مقيت جاهلاً معناها . . » (١) .

ولم يقف الأستاذ عند حد الرد الشرعى على تلك المغالطة ، بل راح يهتك ماوراءها من تهجم على آداب الإسلام ونظامه الاجتماعى ، الذى يقضى بتنزيه المرأة عن مظان السوء ، حتى لا يخاطبها أجنبى إلا من وراء حجاب . . فيقول لذلك الكاتب : « إن الرسول ﷺ أدرك قبل علوم العصر الحاضر أن المرأة مع شدة احتمالها الآلام قارورة في اللطف والرقه والشف والحس . . وأن الحجاب — الذى ميزها به الإسلام — تكريم للمرأة . . إنه شارة تكريم وليس سجنًا — كما يزعم — مثله في ذلك كمثل الرداء الجامعى (٢) .

ويقراً في إحدى الصحف ضرباً آخر من اللغو يدور حول اللقطاء في بريطانيا ، وقد عنون للخبر بآية من كتاب الله ، فينبى للتعقيب عليه بتوجيه الأذهان إلى البون الشاسع بين واقع هؤلاء اللقطاء ومدلول الآية قائلاً : « والآية الكريمة لا وجه لذكرها هنا ، وأسباب نزولها معروفة ، والاستشهاد بها في هذا الخبر في غير موضعه لاختلاف الدين على الأقل ، والآية لا تبيح النسبة إلى غير الأب الحقيقى ، وإن في الاستشهاد بها في هذا السياق مخالفة لأسباب النزول وللمعنى . . » (٣) .

ونشر أحدهم رثاء لفقيه عزيز على الأستاذ العطار . . ولكن الرأى يأبى الوقوف عند معالم الشرع فيحكم للفقيه بالمغفرة والاطمئنان والجنة . . فما كان من الأستاذ العطار إلا أن يعقب على ذلك بالرأى الصحيح ، مبيناً حكم الإسلام الذى لا يضمن لأحد من خلق الله جنة أو ناراً إلا بخبر من الوحي وثيق « إن لنا أن ندعو الله للفقيه بأن يجعله صاحب نفس مطمئنة ، أما أن ندعى له ذلك فهو الباطل (٤) . ولعل في مثل هذا التعقيب ما يسوء بعض

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — الزحف على لغة القرآن .

الناس ، ولكن الكاتب المؤمن لا يرضيه أن يتعرض للفتوى في أمور شرعية من لم يتزود لها بالعلم العاصم ، وبخاصة في هذه الديار التي يتطلع إليها مسلمو العالم ليقبسوا من فضائلها ، ولينسجوا على منوالها ، ومن أجل ذلك يؤلمه ويشقيه « أن يكون ببلادنا المقدسة ، التي أكرمها الله وفضلها على كل بلدان الدنيا ، ما لا يتفق مع قدسيتها وشرفها وجلالها ، ولا يتفق مع القرآن الذي نزل بها ، والرسول الذي بعثه الله منها رحمة للعالمين . . » .

وبهذا الحافز الإيماني يتابع الكاتب الإسلامي الكبير سقطات الكتاب والصحف ويحاول بكل طاقاته تذكيرهم وتحريك غيرتهم على دينهم وواجبهم « يعلم الله أنني اتصلت بكل جريدة من جرائدنا ناصحاً وراجياً أن تنصر الإسلام وتغزه ، وتعلي كلمة الله ، وتشغل نفسها بما يعود عليها وعلى وطننا وعلى أمتنا وعلى المسلمين بالخير . . فبعضها يتظاهر بالرضا ، وبعضها تأخذه العزة بالإثم . . » (١) .

ومثل هذه الغيرة اللاهبة على حرمان الإسلام لا تستطيع الجمود بإزاء التصرفات الشاذة التي تنطلق من بعض مراكز الإعلام . فهو يرى أن « وسائل النشر والإعلام كلها تستخدم لهدم الإسلام وإفساد الأخلاق وما انتشرت الفواحش والإلحاد إلا عن طريقها ، فإذا كان بيت المسلم حصناً فإن الراديو يدك أشد الحصون مناعة ، ويصل الحرائر ، وكذلك التليفزيون ، بل هو أشد وأفظع . . وما أكثر شكاوى المصلحين في بلدان العربية منهما ! . . فهما ينشران الفاحشة ، ويحببان الرذيلة ، ويخدعان الشاب والشابة باسم الحرية والحق الطبيعي وبنظرية — اليهودى — فرويد وغيره ليندفعوا إلى الرذيلة ويزهيا بممارستها . . » (٢) .

ولا شك أن في عبارة الأستاذ هذه بعض الشدة يثيره الألم على أمته وبلاده ، وإلا فإن الموبقات قديمة معروفة قبل وسائل الإعلام الحديثة ، فهي لم تنشرها ابتداءً ، ولكنها ساعدت على فشوها بمغريات . . وكذلك الشأن في حصر آثارها ضمن نطاق المفاسد ، مع أن في الإذاعة والتلفاز خيراً كثيراً إلى

جانب ذلك الشر الكثير . . وإنها في يقينى لمن النعم التى بد لها المفسدون كفرة ، ولو عهد بها إلى أولى النهى والدين لأحدثت من الخير ما لا يحصى ولا يقدر . .

العطار أدياً :

وقد آن لنا أن نقف عند الجانب الأدبى من ميادين هذا الكاتب الفحل . إن الأستاذ العطار أديب مطبوع ، تغلب عليه صفته هذه فى كل ما يكتب ، وقد لاحظنا ظواهر هذه الحقيقة فى كل ما أوردنا له من نماذج . . فلننعم النظر الآن فى بعض نماذجه الأدبية .

سئل الأستاذ عن الفرق بين الكاتب والأديب فأجاب « . . كل أديب كاتب ، وليس كل كاتب أديباً ، ودرجة الأديب أعلى من الكاتب . . أما الأديب فهو الذى يوسع لك نطاق الحياة ، ويعمل على إرباء إحساسك بالوجود . وندر بين العباقرة وأصحاب المواهب من يوصف بهذا اللقب العظيم^(١) . »

وهو تعريف يذكرنا بقول غوت — الشاعر الألمانى « إننى أقرأ بعض شعر هوميروس فيخيل إلى أنى أذهب بعيداً فى الفضاء . .

حقاً إن الأدب الحق ليوسع آفاق الحياة ، ويمد نطاق المشاعر ، فيغير من أوضاع النفس المتفتحة له ، لأنه يمازج طاقاتها الروحية فيضاعفها ويرفعها إلى ما فوق الواقع . .

وإذا كان الشرط الأساسى لنجاح الأديب فى أى عمل أدبى من النثر أو الشعر بعد التضلع من ملكة اللغة ، هو صدق الشعور الصادر عن الانفعال العميق بالأحداث الخارجية ، أو للتصورات الذاتية ، فلا جرم أن الصديق العطار من أحق الناس بهذا اللقب . . فأنا لم أقرأ له بحثاً أو خاطرة أو مقالاً إلا شعرت بدء العاطفة يتدفق من خلالها ، وبالفكر النافذ يشع فى

١ — كلام فى الأدب .

جوانبها . . وربما كان ذلك عائداً بالدرجة الأولى إلى سلطان الإيمان المالىء جوانحه ، فهو أديب إسلامى له فراسة المؤمن الذى ينظر بنور الله ، ومن كان هذا شأنه ، لن يستطع تفريغ نتاجه من حرارة الصدق فى أى موضوع تناوله . .

ولاستيفاء الحديث عن أدب الأستاذ العطار ينبغى الإحاطة أولاً بكل ما كتب ونظم وألف وحقق وهو عمل متعذر ، لأنه يقتضى استنفاد الزمن الطويل ، ولهذا لا بد من الاجتزاء بالقليل عن الكثير ، والنفحة من الورد تنبىء بفضل الحديقة . . .

إن حس الأستاذ بجمال البيان الأصيل يؤجج فى قلبه الغضب على الأدياء الذين حرموا ذلك الحس ، فراحوا يخبطون فى الدعوة إلى ما يسمونه « الأدب الجديد » ذلك الذى لا يعدو أن يكون رصفاً من الألفاظ الخاوية الشاحبة ، كالخرز الذى يزعم صاحبه أنه لؤلؤ . . وهم قد لصقوا به لأنهم لم يملكوا الشعور الذى ينفخ فى اللفظ من روحه ، فيجعله حياً يمجج بالألوان والظلال والجمال . . ومع ذلك يهزؤون بكل طراز من البيان يخالف خرزهم هذا . .

والأستاذ العطار يرى أن هذا الضرب من اللغو قد وفد على العربية مع لفحات المادية الحمراء ، التى تريد أن تطفئ فى الإنسان أشواقه الروحية ، لتحصر همومه فى الكلام عن الخبز ، لذلك يعلن خشيته على مستقبل الأدب العربى لأنه « بدأ يفقد استقلاله وشخصيته ، وأخذ يمثل الروح اليسارية حتى فى كارهيها . . وما أشك أن هذا جعل حياتنا الفكرية فى قلق ، وآدابنا الحديثة فى ضعة وانحدار ، حتى صار الجمال نقيصة يؤخذ بها الإنسان ، وصار النقص مزية تحسب فى عداد الحسنات . . . وكما قيل فى الاقتصاد : إن العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة ، فقد أصبحت السوق الأدبية لهؤلاء الذين لا يحسنون التفكير والتعبير . . وأكاد أشم فى أكثر من هذا الإنتاج رائحة الشيوعية التى تريد هدم الأدب العربى الصحيح ، ليسهل عليها بعده الانقضاض على الشعوب » (١) .

والمادية الكافرة لا تستطيع أن ترضى عن الأدب الرفيع ، الذى تسميه
سخرية بأدب البرج العاجى ، لأنها لا تحس الجمال ، ولا تملك أن تتطلع إليه .
إنها مشدودة البصر إلى التراب فليس بوسعها النظر إلى الأعلى . ولذلك تريد
حبس الأدب فى نطاق الضرورات العضوية ، لأن العصر بنظر دعايتها عصر
العلم والعمال ، فلا مكان فيه للحديث عن الزهور والقمر وخدور النجوم ،
وقد نسى هؤلاء ، أو أريد لهم أن ينسوا أن « الحيوان والإنسان فى عالم المعدة
سواء . . نحن نطلب ما يملأ المعدة ، والحيوان كذلك . وميزتنا على الحيوان
الشعور الإنسانى والتفكير فى الغد . . »^(١) ولكن هؤلاء المسوخ يرمون إلى
أبعد مما يقولون ، إنهم يريدون التسلل إلى مقومات الحياة الروحية ليتمكنوا من
إفسادها ، ذلك « أن الإزراء بالأدب خطوة إلى إنكار جميع المثل والقيم ،
وقضاء على الحرية والكرامة ، وخنق لصوت الدين »^(٢) .

إن وراء هذا التفكير لا اعتزازاً بروح الإيمان فحسب ، ولكن فيه كذلك
توكيداً على مفهومه الدقيق لمنزلة الأدب الأصيل ، وأثره فى تصعيد الطاقات
الإنسانية نحو الكمال الذى هو مطلب الفطرة الأعلى . .

الطار ناقدًا :

والنقد — فى حسابى — روح الأدب الأصيل ، لأنه الرقيب الذى يأخذ
بيد صاحبه فى طريق الأفضل ، فيحاسب نفسه على اللفظة والعبارة والصورة ،
حتى يبلغ بهن الشأ الذى يرتضيه . . وبقدر الزاد الذى يملكه الأديب ، من
الثقافة والملاحظة والتذوق ، يكون حظ نقده من القوة أو الضعف ، والسداد
أو الفساد . . والأديب الذى لا يحسن نقد عمله الأدبى أعجز من أن يحسن
تقويم عمل سواه .

والمتتبع لأسلوب الأستاذ فى النقد الأدبى يدرك أنه يملك الذوق والأداة إلى
حد بعيد . . ولا أزعج أنى ألمت بكل ما كتب فى هذا الجانب ، ولكن الذى
أطلعت عليه من آثاره كاف لإعطائى الأنموذج الذى يمكننى من الحكم عليه .

لقد تسرب وطيس المعركة حول شوق إلى صحف هذه البلاد العالية ،
فإذا أصحاب الأقلام فريقان مغال في تعديله ، وغال في تجريجه . . . ذلك ينكر
عليه كل فضل وكل عطاء جديد ، وهذا يرفعه إلى أعلى المنازل بين شعراء
العرب . . .

وفي هذا المأزق المتلاحم يتقدم العطار الناقد لينه من غرب المتصاولين ،
وليناقش رأى كل من الفريقين ، في أناة تثير الإعجاب والرضى في آن .

يقول للقادحين والمادحين : « إن شوق يعد من فحول شعراء العربية ،
ومن نقلوا الشعر العربى بعد جموده إلى شعر يتدفق قوة وحيوية وجمالاً ،
ولكننى لأستطيع أن أضعه في مكان واحد مع المتنبي والمعري وابن الرومي
والشريف الرضي ، لأن هؤلاء أعلى منه وأصدق . . . » .

ويرد على أحد هؤلاء تحامله على شوق بالمنطق الذي لا يخرج عن الحق
« . . . فقد اتهم شوق بالقدارة وبأنه شركسى دخيل . . . وما كان شوق
إلا نظيفاً وعظيماً وعربياً مسلماً ، وأحد مفاخر العربية » وهو يعلم أن
المتنكرين لشوق إنما يستندون إلى تجريج العقاد وزملائه إياه ، فيقول في هذا :
« إن ما أخذه العقاد على شوق حق ، وإن كان العقاد مؤاخذاً في أسلوبه الذي
ينم عن السخبط والغضب » (١) .

فهو يدخل المعركة مسلحاً بأدواتها الصحيحة : ذوقاً ناضجاً واطلاعاً
واسعاً ، وحكماً منصفاً . . .

وفي دفاعه عن أدب الأستاذ عبد القدوس الانصارى يقول لخصمه « إن
كلمتك حوت قذائف ومن استهدفته يملك مثلها . . . » فهو يذكر ناسياً بأول
حقوق النقد الصحيح ، وهو أن يكون الناقد موضوعياً كالقاضي لا يصلح
للحكم إلا إذا كان ضابطاً لأعصابه متحكماً في أهوائه . . .

وينكر ذلك الخصم على الأستاذ الأنصارى صلاحية قصة قديمة له ،
فيقول الأستاذ العطار له .

« إن التوأمين — اسم القصة — لا تقرأ على أنها قصة اليوم ، ولكن

عندما ألفها عبد القدوس كان كل زملائه الأدباء لا يحسنون صنعه ، ولا يسعهم تأليف قصة مثله . . إن طالباً في الابتدائية الآن يعرف أكثر من فيثاغورس في الحساب . . وطريقته أصبحت مضحكة بالنسبة لقواعد هذا العصر ، ولكن هذا لا يقذف به خلف الطالب الابتدائي ، بل يضعه في أعلى القمم التي ينزها العباقرة . . « (١) » .

وأقل ما يلحظ على هذا التنبيه أنه « كلام سليم » كما يقول المذيعون . . لأنه يرشد محاولي النقد إلى الطريق المستقيم . .

مقالان لا ينسيان :

على أن أفضل ما قرأته للصادق العطار في مضمار النقد الأدبي مقالان ، أحدهما على الصفحات الأخيرة من كتابه « كلام في الأدب » ويتناول به مجموعة قصصيه من عمل الأستاذ توفيق الحكيم بعنوان « أرنى الله » . . ففى هذه الصفحات يعالج الأستاذ عدداً من تلك القصص بأسلوب الخبير ، الذى اجتمعت له أدوات النقد من الثقافة وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة ، والإحاطة بعناصر القصة الناجحة . . وموطن الضعف والقوة في بنائها . وعلى دأبه في التحقيق الواعى لم يحف فيما أنكر ، ولم يسرف في ما استحسّن ، بل أعطى كل جانب حقه من الإنصاف . . ومن ذلك تحليله لإحدى هذه القصص فيقرر أنها « ليست طبيعية » بل تقوم على حوار مفتعل أفقد القصة نهايتها الطبيعية ، فتشبه المرأة بالوفاء للشيطان بعد تطهرها الروحي والجسدى وتوبتها الصادقة النصوح ، أمر لا يتفق مع عمل أهل الجنة الذى وفقها الله له . . « (٢) » .

ثم طفق يحاكم عمل المؤلف قائلاً : « هنا خالف الأستاذ — الحكيم — الطبيعة وند عن طريقها القويم ، وأسرّه سحر المنطق والفكرة فأخذ يفعل الحوار ، ظناً منه أنه يقدم البطلة في صورة رائعة المثال عندما يحملها على الإصرار على الوفاء — للشيطان — وهى أمام أبواب الجحيم ، وملائكة الرحمة

تمسك بها لتأخذها إلى الجنة . . » (١) .

فالنقاش بارع ، والنقد محكم . . وليست المرة الأولى ولا الأخيرة التي يخالف فيها الأستاذ الحكيم قوانين القصة الفنية . . وبخاصة في المسرحيات التي يعترف هو بأنه لم يكتبها للتمثيل ، لأن في حوارها من الشذوذ والجمود ما يفسد الجو المسرحي : ولو انتبه الأستاذ العطار إلى عنوان القصة فلم يبق فيها الكاتب بالإخفاق دون تراث ، لأن العنوان كشف غاية القصة فلم يبق فيها ما يستحق أن يقرأ . نبيد أن على خاتمة القصة هذه ملاحظة لا أدرى رأى الصديق العطار فيها . فهي تدور على الصراع بين الزيف والاستقامة ، ومصير كل منهما بالنسبة إلى مبدأ العقاب والثواب على ضوء الأحكام الدينية . . وهو أمر لا يوفق إلى الصواب فيه سوى المتمكن من علم الشريعة ، وهو العلم الذي تفتقده مدرسة الحكيم وزملائه . . فما إن يواجهوا هذه المواقف حتى تضطرب بهم السبل فيهرفون . . ولعل الأستاذ يتذكر بدعة الأستاذ محمود تيمور المضحكة يوم دعا إلى تصوير أحداث القصص القرآنية على جدران المساجد ، كما صنع الفاتيكان بتصوير أحداث القصص الإسرائيلية على جدران بيعة بريشة أساطين الفن . . ويوم أقدم بعض المسؤولين في مصر على « إخراج » النصوص القرآنية مصحوبة بالموسيقى ، كما تصنع الجوقات الكنسية بالنصوص الإنجيلية . . إنهم جميعهم يرفعون عقائرهم بهذه الدعوات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويخدمون رسالة القرآن ! . . وما كانوا ليقدموا على مثل هذا اللغو ، لو أعطوا بعض وقتهم لدراسة القرآن والسنة على الأسلوب النبوي ، كما أعطوا أعمارهم كلها لدراسة الفنون على الأسلوب الأجنبي . ومن هنا يكون موضع الخلاف بين الحكيم والعطار هو انطلاق كل منهما عن مدرسته الفكرية ، فالحكيم أثر خاتمته لأنها ترجمة لاتجاهه ، على حين أن العطار يحكم عليها من خلال موازينه الإسلامية . . وشتان بين الفريقين والطريقين .

أما ثاني المقالين فموضوعه عدد رمضان لعام ١٣٩٢ من « قافلة الزيت » وظاهر من عنوانه « تعقيب على تعقيب » أنه حلقة تابعة لسابقة لها ، أنشأها

ليرد عل ما كتبه عبد الرحمن صدق في التعقيب على ما سبق أن علق به هو على بعض أفكار صديقه هذا . .

ففى هذا المقال تبرز ميزات العطار التى ترمست بألوان التحقيق العلمى . . كما تطل عليك شخصيته من مختلف جوانب البحث ، حاملة طوابعها المعروفة من العمق والدقة والشمول . . ولا جرم إن مقالاً كهذا ليتكىء على مطالعات لا يستطيعها مجموعة من حملة الأقلام « التقديمية » الذين تسميهم المؤتمرات المشبوهة « أدباء » ! . . ولولا ضيق المقام لعرضت نماذج من تلك الصفحات الأربع ، التى تستحق أن تكتب بماء الذهب .

العطار محققاً :

لم يتح لى أن أطلع على تحقيقات الأستاذ كلها ، ولكن مجرد النظر إلى عنواناتها كاف لتحديد ميوله وتقييم^(١) مجهوده :

- ١ — تهذيب الصحاح للزنجاني « ثلاثة أجزاء » .
- ٢ — الصحاح للجوهري « سبعة أجزاء » .
- ٣ — « ليس » فى كلام العرب لابن خالويه .
- ٤ — مقدمة « تهذيب اللغة » للأزهري .
- ٥ — كشف الظنون .
- ٦ — شرح مقصورة ابن دريد لابن هشام .
- ٧ — الأزمنة لقطرب .
- ٨ — ما اتفق لفظه واختلف معناه لأبى العَمَيْثَل .
- ٩ — مجموعة المعانى .

١ — ينكر بعض المعنيين بالعربية هذا الاستعمال فيعدلون عنه إلى الأصل « التقويم » والذى نراه قبول الضيغة الجديدة أسوة بـ « التعيد » التى لا اعتراض عليها ، فكما أن ياء « التقييم » مقبولة عن واو كذلك ياء « التعيد » .

١٠ — آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية .

وينسلك في نظام هذه المحققات كتاب « الصحاح ومدارس المعجمات » وقد علمت أن لدى الصديق كتابين ضخمين يمكن اعتبارهما من هذه البابة ، أحدهما « المسيحية والمسيح » والآخر « الديانات والعقائد في مختلف العصور » إذ لا بد في مثل هذه البحوث من اعتماد الأسلوب الوثائقي ، القائم على ضروب عميقة وواسعة من التحقيق ، كما هو الملاحظ في مقالاته عن « الأنجيل . . » التي ينشرها تباعاً في مجلة التضامن الإسلامي « وهي أجزاء من الكتاب الأول .

ويضطرنى ضيق المجال ، والبعد عن المراجع ، إلى الوقوف عند عاشر هذه المؤلفات لتبيين مبلغ الجهود التي بذلها هذا العلامة الغيور على تراث الإسلام ولغة القرآن .

يقول الأستاذ في مقدمته لهذا الكتاب النفيس : « فهذه رسائل في التربية الإسلامية ، وكل منها تبين ناحية فيها وطريقة من طرقها ، وتصور كل جوانبها وأراء العلماء فيها ومدارسها . . وبعض هذه الرسائل قد نشر ، وبعضها لم ينشر من قبل ، وقد جمعناها لوحدة الموضوع ووحدة الغاية ، وليرى القارئ مختلف وجهات التفكير الإسلامي في التربية ومدارسها في مكان واحد (١) .

ثم يعقب على ذلك بقوله : « . . والرسائل — هذه — تثبت سبق المسلمين والعرب ، وأن أئمة المسلمين هدتهم تجاربهم وثقافتهم وعلومهم وخبرتهم إلى طرق التربية والتدريس قبل الغرب بمئات السنين . . وأن مناهج التربية الحديثة ليست غريبة كما يظن من لا علم عنده ، بل هي في جملتها وصميمها مناهج عرفت التربية الإسلامية ، التي أجحف بها الظالمون المنتقصون لأقدار العرب والمسلمين (٢) . .

فالهدف من تجميع هذه الرسائل إذن هو خدمة الفكر الإسلامي ، وإنه لعمل مشكور أن يؤلف بين هذه المتفرقات ، فيوفر بذلك ، للمعنيين بشئون التربية والتعليم والتاريخ الإسلامي ، فرصة صالحة للإلمام بجانب غير يسير من

تراثنا ، الذى كادت الصلة تنبت بيننا وبينه .

والمقدمة التى دمجتها يراعة المحقق ، وهى تقارب الثلاثين من الصفحات ، جديرة بأن تقرأ من ألفها إلى يائها ، لأنها دراسة دقيقة لطبيعة الإنسان ، وقابليته الفطرية للتعلم والتطور ، وأصول النظم التربوية فى المجتمعات البشرية . . وأثر الإسلام فى دفع هذه النظم إلى قمة التكامل . ونظرة إلى المراجع الكثيرة التى ذيلت بها هذه المقدمة توضح لنا مدى إخلاص كاتبها للعلم ، وحجم الدأب الذى اقتضته إياه . .

فغرض التعليم عند الكاتب « إعداد الفرد إعداداً صالحاً للحياة ، بحيث يكون قوة من قوى المجتمع وقواعده وأأسسه ، وبحيث يستطيع أن يواجه الحياة وكل ما فيها من حالات وأحداث ونظم وآراء وثقافات . . . و . . حتى يوجه السلوك الإنسانى توجيهاً صالحاً حسناً وتنمو الشخصيات وتركو المواهب ، وتقوم موازين الخير والفضيلة والحق والجمال فى المجتمع (١) .

ولا خلاف فى أنه تحديد إسلامى قد يلتقى مع بعض الدراسات الغربية إلى حد ، ولكنه يفارق معظمها ، لأن تحقيق قيم الخير والفضائل آخر ما يخطر فى بال رجال التربية الغربية . . ولا غرابة « فالتربية عند المسلمين هى غيرها عند النصارى واليهود و . . المجوس ، وفى الأجواء الباردة تختلف عنها فى الأجواء الحارة أو المعتدلة ، والتربية فى المجتمع الفاضل المتدين غيرها فى المجتمع الذى لا يعترف بدين وعقيدة وفضيلة (٢) » .

ذلك هو التعليل الطبيعى لاختلاف أساليب التعليم فى المجتمعات المختلفة ، ولكن هذه الفوارق سرعان ما تمحى فى ظل الحضارة الإسلامية ، التى قامت على « تقوية الأساس الدينى ، والاستغناء به عن العصبية القبلية . وقد نتج عن تأثر التربية بالنظم والتقاليد الإسلامية فقدان الاختلاف فى نظم التربية فى الأمصار الإسلامية . . وساعد على ذلك تماسك الامبراطورية الإسلامية سياسياً وعقلياً . . ثم استمرار الوحدة الروحية والعقلية ، وقد ساند ذلك الانتعاش الفكرى ، ونمو حركة النشاط العقلى ، حين صارت العربية لغة الثقافة

١ - ص ٥ .

٢ - ص ٩ .

والتخاطب . . (١) « وسواء كانت هذه التقارير من قلم الكاتب ، أو نقلاً عن المصادر الأخرى (٢) فهي دلالة قاطعة على أنها انعكاسات لأفكاره نفسه . . واتجاه عقلى منه إلى الإيمان بتفوق الفكر الإسلامى الذى سجل أعظم نجاح فى إزالة الحواجز العنصرية بين أصناف البشر وأعراقهم . .

والمهم فى هذه المقدمة وفى ما قدمت له — من الرسائل الست — أنها تعيد إلى نفس الدارس المسلم ثقته بحيوية التراث الإسلامى واستلائه ، ووجوب العودة إليه لتنظيمه وتنسيقه ، وإخراجه فى أسلوب علمى جديد وفى اعتقادى أن عملاً كهذا جدير بتحرير الفكر العربى والإسلامى — الحديث — من هذه التبعية الحبيثة ، التى تسيطر على مناهج التعليم فى معظم أقطار المسلمين . .

العطار صحفياً :

فى رسالة تلقاها الأستاذ العطار من قارئ شامى لجريدته « عكاظ » يعاتبه بل يقرعه فيها على انحرافها بعدما عهده بها من الاستقامة فيقول : « وكنت كتبت فى (عكاظ) ورددت فى صفحاتها أنها قلعة من قلاع الإسلام ، ومنبر من منابر محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ذلك صحيحاً وحقاً فقد كانت عكاظ كذلك . فماذا حدث لك الآن . . إن الأمر مختلف جداً ، فالحاضر ينكر الماضى ...

وكان رد الأستاذ على تلك الرسالة المطولة « أننى لست مالكاً لعكاظ الآن ولا دخل لى فيها . . فلست صاحب امتيازها ولا رئيس تحريرها ، ولا علاقة لى بها » « وبعثت إليه قصاصات من الصحف الكويتية التى كنت أنشر فيها كلماتى ليعلم أنى كما يعهد ، بل يزيدنى مرور الأيام اعتصاماً برى وتمسكاً برسولى الأعظم محمد عليه صلوات الله وسلامه »

فها هنا صورة واضحة وكاملة لعمل الأستاذ العطار فى الصحافة ، إنه يقتحم ميدانها أديباً إسلامياً ومفكراً مؤمناً ، ليتخذ منها وسيلة لخدمة الإسلام

وإعلاء كلمة الله . وهو واقع يشهد به أهل الفضل من قراء صحيفته ، وإنى
لأتصور بناء على ذلك أن قارئ صحيفة العطار لن يجد فيها إلا ما يجده زائر
القلعة الإسلامية ، من الاستعدادات اليقظة لحماية الأمانة الربانية من كل عبث
ومحاولة للإفساد . .

وأكاد أقطع بأنها لن تفتح أعمدها لأية صورة فاجرة ، أو إعلان مسيء
للأخلاق ، أو مناقض لأدب الإسلام . . وقلم كهذا لا ريب سيكون ربحاً كبيراً
للدعوة الإسلامية ، ورفيقاً كريماً للثلة المؤمنة المجاهدة في سبيل تثبيت القيم ،
التي تريد التبعية الغربية أن تقضى عليها . . ومع ذلك فإن الأستاذ العطار غير
راض عن انتسابه إلى هذه الحرفة القلمية « نعم . . جنت الصحافة علي ! إذ
أجبرتني أن أترك الأدب الحق فلا أنظم الشعر الذي كنت أنظمه ، ولا القصة
التي زاوت ، ولا الدراسات التي اتجهت إليها ، ولا التحقيق العلمي الذي
أخذت به ولا البحوث الدقيقة في الأدب والتاريخ »^(١) .

وتذمر الأستاذ من العمل الصحفي معقول للأسباب التي أشار إليها ،
ولسبب لم يذكره وهو كون الصحافة التي لجأ إليها — ابتغاء العيش كما
يصرح — هي من اللون الإخباري ، الذي يفرض على الكاتب توزيع طاقاته
على عشرات الجهات . . ولو هو قد لاذ بالصحافة العلمية أو الأدبية
— كشأن الأستاذين الأنصارى في « المنهل » والجالس في « العرب » — لما
اختلف عليه الجوّ النفسي والعقلي كثيراً ، بل لوجد كل شيء هناك مساعداً له
على تحقيق هوايته الأصلية . .

ولعل أسوأ ما تركته الصحافة الإخبارية من أثر في واقع الأستاذ هو طابع
السرعة الذي شرع يلوح على أسلوبه ، فجعل يصرفه عن الأناقة الأدبية
المتخيرة إلى « الدفع » العجلان ، الذي لا مندوحة عن الاصطباغ به لكل قلم
عمل في هذا الضرب من الميادين الصحفية . . وقد أشار هو إلى هذه الحقيقة
بصراحة مؤثرة حين أعلن « أن العمل الصحفي يأكل وقت صاحبه أكلًا لما ،

١ — كلام في الأدب ص ٤١ ، ٤٢ .

وتلتهم الصحافة ، وتجبره المطبعة ، التي لا تشيع بل تطلب المزيد ، على أن يتعد عن الأدب الحق والدراسات . . لأن كل جوهر نفيس لا يأتي بسهولة ، بل لا بد له من التفرغ والدؤوب والدراسة والاطلاع . والصحافة — الإخبارية — لا تنتظر ، بل تريد كل يوم غذاء جديداً^(١) . . « على أن لهذه المهنة — مع حيفها على أصالة الأدب — فضلاً على المفكر إذ تطل به على ضروب من الأحداث اليومية ما كان ليتفقهها لو اعتزلها . . وقديماً قيل : رُبُّ ضارة نافعة .

أجل . . إن « صحفية » الأستاذ العطار أفرغت على أساليبه بعض التباين . . فهو من ناحية أقرب إلى البساطة ، على طريقة جرير الذى لم يكن يتسع وقته ومعاركه لإعادة النظر فى أسلوبه ، ومن ناحية أخرى كما وصف المنفلوطى أسلوب شوق إذ شبهه بسبحة الزاهد فى صومعته . . وهذا الضرب من كتابته ممتاز أبداً بالفخامة والكثافة والاستهواء . .

ويحسن بنا ونحن فى أواخر البحث أن نخلى هذه الخاتمة ببعض تعابير العطار المتألفة :

تعابير مشعة :

يقول الأستاذ فى نقده لخبر صحفى مسموم :

واليد التى تمتد إلى الكأس الأولى تتعودها ، والعادة قهارة ظلوم ، وإلف المنكر يفقد صاحبه الضمير والوازع ، ويصم أذنيه عن سماع كلمة الحق . . فإذا وهنت قوة الوازع النفسى أو ضعف تأثير الكلمة لم تبق إلا قوة السلطة ، فإذا وهنت مع وهن الوازع النفسى وأثر الكلمة سوغ المرء لنفسه المنكر ، وأتاه فى غير حياء وخجل . . وعندئذ تسود الحيوانية علاقة الرجل والمرأة . . فأعداء الإسلام لا يتركون مثل هذا الخبر الصغير ، بل يبحثون له عن مكان بالصحيفة ، فإذا لم يجدوه أوجدوه وبذلوا كثيراً ، لأنهم يدركون أن القطرة التى تنزل على الصخرة تجرحه إذا توالى سقوطها عليه . والذى يسير

١ — كلام فى الأدب ص ٤١ ، ٤٢ .

ألف ميل يبدأ بخطوة واحدة .

ويجب ألا نستهن بما صغر ، فالنار من مستصغر الشرر ، ومن الحق أن نترك الشرر على الديباج . .

ووسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة وغيرهن قوى فعالة ، فيجب أن نضعها في أيد أمينة ، وإلا فتكت بنا شر فتك . والتساهل يفضي إلى ما لا خير فيه ، والحرية من غير قوامين يحفظونها تمكن المنحرفين من السيطرة^(١) .

ففى هذه التعابير المشعة صور حية من أدب العطار الذى لم تلينه الصحافة الإخبارية . . إنها أفكار بعيدة الغور ، تعكس عمق التجربة وقوة الملاحظة وسعة الدراسة لأبعاد النفس . . وإنها لصيغ جامعة تؤدى مضمونها فى ملح ساحر ، تكفى إشارته فتغنى عن طويل الخطب . .

وفى كلمات قليلة من هذا الضرب يصف الأستاذ محصول الكدح اليسارى لتخريب العقل الإسلامى ، وإفساد موازينه البلاغية « . . واشتد نشاط الشيوعيين فى العالم العربى والإسلامى ، وانتصروا فى ميادين الثقافة والفكر والأدب ، حيث استطاعوا أن يجعلوا لعملائهم أسماء لامعة يخدع بها الجيل العربى^(٢) » .

ويسمع دعاوى هؤلاء المتآمرين على دين العرب وقيم العرب ولغة العرب ، ويقرأ سخرياتهم بأساليب البيان الرفيع ، ودعوتهم الجهنمية إلى هلهلة الأدب فيهلك أسرارهم ويكرر الحكم عليهم قائلاً : « إذا هزئوا برفعة البيان ورق الأسلوب ، وحاربوا أصحابهما فإنما يحاربون أو يقصدون من هذه المحاربة النفاذ إلى القرآن^(٣) » .

* * * *

وأخيراً . . . هذه بعض الجوانب التي أتيج لي التحدث عنها من شخصية العالم الأديب المصلح المؤمن أحمد عبد الغفور العطار . . . ولو اتسع لي الوقت ، وتوافرت المراجع ، لكان مجال الكلام أوسع وأعظم . . .

ولقد أغنانا جلالة الفيصل — تغمده الله برحمته — عن التفصيل الطويل في شأن هذا النابغة بما أوجزه في قوله له : إني والله أعزك لأنك أدينا الكبير . . . والله إنه في يقيني لأدينا الإسلامى الكبير^(١)

وألف تحية لأولى الفضل ، الذين قدروه فكرموه « وإنما يعرف الفضل ذووه » .

استدراك :

يلاحظ القارئ في هذا الموضوع أسلوباً غير الذى سلكناه في التراجم الأخرى ، ذلك أنه كُتب في الأصل ليكون فصلاً في كتاب يشارك في تأليفه عدد من مقدري فضل الأستاذ العطار ، فهو إذن بحث في فكر الأستاذ وأدبه أكثر منه ترجمة له .. وقد ختمنا ذلك البحث يومئذ بالأبيات التالية موجهة إلى اللجنة التي تولت الدعوة إلى تكريمه :

يا عصبة الأدب الأصيل، وإخوة	الضاد الأثير.. تحية الإكبار
أكرمتم القلم الذى قد طالما	سحر النهى بروائع الأفكار
وبذتمو حسن الشاء لمحسن	ما انفك يدع خالد الآثار
أبلى سنيه على الكفاح ولا يزا	ل يصارع الغمرات دون قرار
ذوداً عن الذكر الحكيم ونصرة	للحق تصفع أوجه الأغرار
أو غصبة لله تدفع عادياً	ركب الهوى عن سنة المختار
فجزاكم الرحمن عن تكريمه	ما تستحق صنائع الأبرار
لا غرو أن يجد البيان بظلكم	أهل الوفاء وصفوة الأنصار
فأولو الحجي والدوق دون سواهم	أدرى الورى بنفائس العطار

ثم شاء الله أن تأتى الخطوة الثانية في تكريمه من قبل الهيئة المشرفة على

« جائزة الدولة التقديرية » إذ اختارته أحد مستحقيها الثلاثة للعام ١٤٠٤ هـ وهم صاحب السمو الملكي الشاعر الأمير عبد الله الفيصل ، والأديب الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار والشاعر الأستاذ طاهر عبد الرحمن الزمخشري .. وكفى بجائزة الدولة تكريماً وتقديراً .

واستدراك آخر :

هو أننا حتى الآن قد اكتفينا بتقديم الأستاذ من خلال آثاره الفكرية والأدبية ، ولا بد في الترجمة من إلمامة أخرى تعرف القارئ بشخصه وبيئته ونشأته ، ولئن حالَّت طبيعة الموضوع دون إثباته في المقدمة لقد بات علينا أن نستدركه في خاتمته . وها نحن أولاء نستخلص هذه المعلومات مما نشرته مجلة « القافلة » بهذه المناسبة في عدد ذى الحجة ١٤٠٤ هـ .

« وُلد الأستاذ في مكة المكرمة عام ١٣٣٥ هـ وبدأ تعلمه في المدارس النظامية حتى حصل على الشهادة الثانوية من المعهد السعودي في العاصمة المقدسة ، ومن ثم أوفدته الحكومة السعودية إلى القاهرة لاستكمال دراسته في كلية دار العلوم ، فكان يجمع بين الانتظام فيها والاستماع بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول .. ولكن ظروف عائلية اضطرته إلى العودة .

بيد أن هذا لم يقطعه عن متابعة التحصيل العلمي ، إذ اندفع مع هوايته من القراءة في الأدب والدين واللغة ومختلف المعارف . وقد عمل في نطاق الوظيفة ثلاث سنوات تحول بعدها إلى العمل في الصحافة والتأليف ، ومن الصحف التي أنشأها « عكاظ » ثم مجلة « كلمة الحق » ثم لم يتوقف عن التأليف والترجمة والكتابة في مختلف الصحف والمجلات حتى اليوم ..

ولا حاجة لإعادة الحديث عن رحلته الفكرية والأدبية خلال هذه العقود ، فلقد أسلفنا من ذلك ما يكفي لبيان أثرها في إثراء الأدب السعودي والعربي ، وفي النفاح عن حرمة العربية وحقائق الإسلام .

والله المسئول أن يجزيه عن ذلك ما يستحقه العاملون المخلصون .

الشيخ أحمد عيسى عاشور

تبدأ معرفتى به قبل أربع سنوات ، إذ كنت نزيراً على فضيلة اللواء محمود شيت خطاب فى منزله بالقاهرة ، وما كان لى مندوحة عن الاتصال بالأخ العزيز الأستاذ حسن عاشور للاستفسار عما وصلت إليه كتبى ، التى سبق الاتفاق معه على نشرها او إعادة طبعها فى دار الاعتصام ، فما إن علم بوجودى هناك حتى أقبل لزيارتى ثم أصر على اصطحابى إلى دارتهم فى حى المعادى . . وهناك لقيت والده الذى أقدمه الآن إلى قراء هذا الكتاب . .

والزائر لمنزل آل عاشور هذا ليس بحاجة إلى طويل وقت حتى يشعر بأنه واحد من أهله فالسمات البارزة هناك هى الأنس الذى ينسبك غربتك ، والكرم الفطرى الذى يستقبلك فى كل شىء وأكمل صور الأنس والكرم هو ما يطالعك به مُحَيًّا ذلك الشيخ الوقور الذى لا أعرف وصفاً أحق به من أنه بقية من السلف ، الذين من حياتهم نستمد القدوة الحسنة ، ونتعلم ما يميز المسلم من فضائل الأخلاق .

استمر لقائى هذا الشيخ الصالح طوال الأيام التى أقمتها فى القاهرة ضمن ذلك المنزل ، وفى قاعته الحافلة بمئات المجلدات ، فما أذكر أنى رأيته فى دار الاعتصام أو مكتبته قط ، وما أدرى أهو دأبه أبداً فى لزوم البيت أم كان ذلك عارضاً بسبب انشغاله فى العبادات والمطالعة . .

وأشهد لقد فارقت القاهرة حين فارقتها وفى نفسى العميق الحار من مشاعر الود والتقدير لكل من لقيته فى ذلك البيت المصرى العريق فى موارثه الأخلاقية المفضلة ، ولكن صفوة هذا الود وذلك التقدير كانت موقوفة على ذلك الشيخ الجليل الذى لا أشك بأنه كان المنبع الأصيل لكل تلك المميزات الكريمة ، وما أدرى كيف وثبت إلى ذاكرتى الآن تلك الأبيات التى بعثت بها إلى أهل

ذلك البيت عقيب مغادرتي القاهرة ، مسجلاً فيها بعض ما جاش في صدرى
من هاتيك المشاعر :

يا آل عاشور أثقلت عواتقنا بما بذلتم من المعروف والكرم
وكيف نشكر أو نجزي صنيعكم وقد عدا كل مختار من الكلم
سجية تلك فيكم غير محدثة لو رتمو كفها أعيت ولم ترم
دامت عليكم ولا زالت مؤيدة من الإله بموصول من النعم
فإن أمثالكم في الأرض زيتتها إذا خبا ضوءها أفضت إلى الظلم

ولكم كان سرورى كبيراً يوم قدّر الله لقاءنا الثانى فى مدينة المصطفى ،
صلوات الله عليه وسلامه بعد أكثر من سنتين فكانت مناسبة سعيدة شددنا فيها
حبل المودة التى بدأت فى القاهرة ، وستستمر بفضل الله ومنه حتى نلقى
الأحبة محمداً وصحبه حيث ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو
إلا المتقين ﴾ وكل ما أتمناه الآن هو أن أحسن تقديم هذا الشيخ إلى قراء كتابى
على الصورة التى رأيتها والانطباعات التى أحملها عنه .

يقول فضيلته إن اسمه الكامل أحمد عيسى عاشور وقد ولد فى بلدة
« الشنباب » من أعمال محافظة الجيزة يوم التاسع من شهر إبريل عام تسعة
وتسعين وثمانمائة وألف . . وفى كُتّاب تلك البلدة تلقى الكتابة والقراءة على
عادة الناس بمصر ذلك العهد ، وبعد أن أتم هذه المرحلة اتجه إلى حرفة والده
الذى كان يعمل فى الزراعة والتجارة ، فكان له بعض النشاط فيهما حتى أتم
السابعة عشرة ، إلى أن شاء الله أن تكون بدء اتجاهه الجديد فى مواصلة
طلب العلم وقد حدث ذلك بعد تعرفه أحد فضلاء المشايخ الذين زاروا بلدته
تلك الفترة ، وأنس منه تشجيعاً على استعادة ما أنسته المشاغل من محفوظاته
القرآنية ، فأقبل على تجديدها وواصل سبيله فى حفظ الكتاب الكريم . . ولقى
من والده تشجيعاً آخر ضاعف من رغبته فى الالتحاق بالأزهر ، وقد تم له
ما أراد من ذلك الخير بعد أن ناهزت سنه الثامنة عشرة ، وصبر نفسه على
الدراسة حتى تخرج عام ١٩٣١ وأحرز شهادة العالمية النظامية .

يقول الشيخ : أثناء دراستى بالأزهر وفى العام ١٩٢٧ أسندت إلى وظيفة

المأذونية في بلدتي وما زلت أمارسها حتى السنة الخمسين ، حيث عينت إمام مسجد من قبل وزارة الأوقاف .. وأثناء دراستي كذلك التقيت مع رئيس تحرير مجلة « الفضيلة » الإسلامية وتم بيننا التعاون على المشاركة في تحريرها ، ووجدت في العمل الصحفي مجالاً للدعوة إلى الخير والحق ، فأقبلت عليه برغبة ، وأسهمت إلى جانب مجلة الفضيلة في تحرير صحيفة أخرى هي « المجلة الشرعية » التي استمر عملي فيها لمدة سنة ثم حدث خلاف في وجهات النظر بيني وبين صاحبها ، فصح عزمي على إصدار مجلة خاصة أؤدي من خلالها واجبي بحرية واستقلال . . وهكذا تم فضل الله فأصدرت العدد الأول من مجلة « الاعتصام » الأسبوعية في ١٥ / ٧ / ١٩٣٨ ولما تزل حتى الساعة تتابع سبيلها في خدمة الإسلام والمسلمين ، لم تتوقف إلا فترات محدودة لظروف ، معلومة خارج طاقتنا . . وقد كانت الاعتصام وما تزال والله الحمد مجالاً صالحاً لتعاون ذوى الأقاليم النظيفة من أهل العلم والعمل ، الذين لا يخافون في الحق لومة لائم ، فكان لهم عميق الأثر في توجيه الشباب المسلم إلى التي هي أقوم ، وفي مقدمة هؤلاء الشيخ الجليل أمين محمود خطاب السبكي رئيس الجمعية الشرعية رحمه الله ، والشيخ أبو الفاسم إبراهيم أحد علماء الأزهر الأفذاذ ، الذين نبغوا في علوم التفسير والحديث والتاريخ الإسلامى ، وكذلك الشيخ محمود عبد الوهاب فايد من علماء الأزهر ، الذين لهم في تاريخ الدعوة مواقف مشرفة في الدفاع عن منهج الله ، وتنفيذ أحكامه وهيمنة شريعته ، والتصدي بشجاعة وحزم وفهم لكل المؤامرات التي تحاك في ليل للتوهين من مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة . .

ويقول أبو غسان : لا شك أن وجود الاعتصام ربح كبير للصحافة الإسلامية الملتزمة ، وهي ماثرة تذكر بالتقدير لفضيلة المترجم ، وفي إقبال أولئك المفكرين المشهود لهم بالفضل والنزاهة على تغذية مضمونها الإسلامى نوع من الجهاد الذى لا يوفيه إلا رضوان الله ومثوبته . . ولكن الذين يمارسون هذا الضرب من الصحافة النقية يعلمون ثقل الأزمات التي تنوء بأعبائها ، فنحن الذين نتقاضى مكافآت كل كلمة نكتبها في الصحف العلمية والأدبية والإخبارية — تقريباً — ترانا ملزمين بأن نقدم ما نستطيع صياغته من أعمالنا الفكرية والأدبية إلى تلك الصحف الإسلامية دون أى مقابل ، بل ربما

عرضنا عليها ما نستطيع من إسهام مادي لتأمين استمرارها في خدمة الإسلام . . . والشيخ مؤسس الاعتصام من أحفل الناس إحساساً بهذا الواقع ، لذلك وجد من موجبات هذا الجهاد الصحفي أن يؤمن لمجلته المدد التنظيمي الذي يضمن استمرارها وحريتها . .

ومن هنا جاء قول الشيخ : لقد رأيت لكي أضمن حرية الحركة لمسيرة المجلة أن نعمل على تأمين مطالبها المادية ، وهذا ما دعاني لإنشاء « دار الاعتصام » الخاصة بالطبع والنشر . . وأخطأها الله بعنايته وتوفيقه فأسهمت ولا تفك تسهم في نشر التراث والفكر الإسلامي المستنير ، واستطاعت بحمد الله أن تمد معظم الديار الإسلامية بهذا الإنتاج العلمي ، الذي نرجو من الله جلت قدرته أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

وهكذا أتبع مجلة الاعتصام أن تواصل سبيلها في خدمة الدعوة صادعة بالحق فاسحة صدرها لكل قلم حر مخلص أمين من الكتاب الإسلاميين ، حتى جاءت مقررات سبتمبر ١٩٨١ فحجبتها عن الصدور . . والأمل بفضل الله كبير في أن تسترد حريتها قريباً ، فتستأنف سبيلها في الدعوة إلى الله وإلى شريعته السمحة التي عليها يتوقف استقرار الحياة وصلاحها في الدنيا والآخرة^(١) وعن الرجال الذين أثروا في حياته يقول فضيلة الشيخ :

لقد تعرفت خلال سبني شخصيات إسلامية جلييلة ممن كان لهم عميق الأثر في نشر الدعوة الإسلامية وإصلاح المجتمع الإسلامي وتنبيهه للأخطار التي تحيق به من كل جانب . . ولا ريب أن في مقدمة هؤلاء الأجلة الإمام الشهيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين تغمده الله بواسع رحمته مع الصديقين والشهداء والصالحين . التقيته في القاهرة وحضرت الكثير من محاضراته التي كان يلقيها في دار الإخوان المسلمين بالحلمية الجديدة مساء كل ثلاثاء ، حتى عرفت فيما بعد بحديث الثلاثاء أو عاطفة الثلاثاء كما كان يحب هو أن يسميها . . وكان هذا اليوم مشهوداً يحتشد فيه الآلاف من أنحاء البلاد ليستمعوا إلى ذلك الصوت ، الذي تتمثل فيه قوة العاطفة وسحر البيان ، ويعتمد الحقائق وحدها فيستجيش المشاعر ويلهب الأرواح ، ويتغلغل إلى

(١) استأنفت المجلة بحمد الله سبيل الدعوة في شهر رمضان ١٤٠٤ هـ

أعماق القلوب . . حتى إن المستمع إلى محاضراته مرة واحدة لا يملك أن يتخلف عن محاضراته التالية ، فيواظب عليها في حرص يشغله عن كل المشاغل .

ويتابع فضيلته : لقد كنت أحد هؤلاء الحراس على حضور تلك الأحاديث حتى جعلت أسجلها بقلمى ، إذ لم يكن الناس قد عرفوا بعد أجهزة التسجيل الصوتى ، وكان تسجيلي لها صحيحاً وميسراً بحيث لا يمكن حصوله إلا بتوفيق الله . . وكنت أنشر هذه الأحاديث عقب تسجيلها في العدد التالى من الاعتصام ، وظللت على ذلك طوال حياة الإمام حتى قبيل استشهاده رحمه الله رحمة واسعة . . وقد جمعتها وأخرجتها أخيراً فى ثلاثة أجزاء بعنوان « نظرات فى السيرة » و « نظرات فى النفس والمجتمع » .

ويمسك الشيخ قليلاً يستحضر تلك الهنيئات السعيدة ثم يقول :

كان من عادتي الحضور إلى دار الإخوان قبيل المغرب لصلاة الجماعة ، وبعد الأذان والإقامة يقدمنى الإمام للصلاة بالناس فأمتنع حياءً منه وإكباراً له ، فيقول لى « صلّ بالأمر » فلا يسعنى إلا الامتثال .

وفى العام ١٩٤٥ وفقنى الله لأداء فريضة الحج ، وشرفنى الجمعية الشرعية برئاسة بعثتها ، وهناك التقيت بالإمام الشهيد واستمعت إلى بعض محاضراته ، التى كان يدعو إليها رؤساء الوفود الإسلامية سواء فى مكة المكرمة أو فى المدينة المنورة . وكشأنى مع محاضراته السابقة عمدت إلى تسجيلها جميعاً ونشرتها جميعاً فى الاعتصام .

ولقد كنت أستمع بمشاهدة وفود الحجيج تتدفق على كل مكان ينزل فيه الإمام ، وبينها وفود أندونيسية والهند ومدغشقر ونيجيرية والكامرون وأفغانستان وإيران ، تريد لقاءه واستماع أحاديثه ، فيتحدث مع كل فريق عن الأمور التى تشغله من قضايا بلاده ومشكلاتهم ، كأنه هو القادم عليهم منها وليسوا هم القادمين عليه . .

ويقول فضيلة الشيخ : هذه بعض ذكرياتى عن الرجل الذى رعى الأجيال الإسلامية على مائدة الإسلام بأسلوب العصر ، الذى يتمثل الآن فى هذا المد العالمى المشهود للحركة الإسلامية ، التى وضع بيده ودمه بذورها الأولى ...

وهكذا تأتي انطباعات فضيلة الشيخ عن شخصية ذلك الإمام العظيم متطابقة مع الملاح التي يحتفظ بها كل عارف له عن كتب ، وبخاصة ما كان يمتاز به من تتبع لأحوال المسلمين في سائر مواطنهم إلى جانب عمقه البعيد الغور في إدراك حقائق الإسلام ، والطريقة المثل في مخاطبة الأفراد والجماهير حتى سار ذكره وأفكاره مسير الشمس ، فليس في العالم بلد إسلامي لم يعرف حسن البناء ولم يتأثر بدعوته التي زلزلت الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام ، حتى اعتبروا يوم استشهاده بمثابة عيد يغمرهم بالفرح والحبور . . وحتى ليحدثنا أحد السياح المسلمين عن سيماته في تلك الليلة التي كان يقضيها في أحد مصايف سويسرا فإذا هو بالضجة تدوي في أنحاء المنتجع ، يعقبا حفل راقص مرتجل . . ولما راح يستوضح عن المناسبة جاءه الجواب المباغت يقول : الليلة قتل في مصر أكبر زعيم إسلامي على مستوى العالم . . » .

أجل . . كذلك كان حسن البناء ، ولأنه كان كذلك وجب اغتياله للتخلص من خطره على أعداء الإنسانية . . وبقيت العبرة الكبيرة التي لم يتحدث عنها أحد حتى الساعة ، وهي أن مصرع هذا البريء كان هو اللغم الذي أطاح بعرش فاروق وعصابته ، التي حسبت أن زواله كفيل بيقائهم إلى الأبد فأتاهم قدر الله من حيث لم يحتسبوا ، وإذا هم خبر بعد أثر . .

ذهبوا في مواكب العار يحدوهم هتاف الهوان والازدراء
وعلى مصر من طيوف مآسيهم بقايا الآلام بعد الوباء

وكما لقي قتلة البناء جزاءهم — في الدنيا قبل الآخرة — واجه قتل تلاميذه الأبرار مصيرهم الحتم فذابوا في أتون الأحداث كما يذوب الملح في لجة الماء ، فلا يبقى وراءه سوى ذكره . . وهكذا تتابع الأحداث وتتلاحق العبر . . ولكن أين ذوو البصيرة والبصر ، الذين ينتفعون بما يشاهدون . . ﴿ وكأئى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾

ويستأنف الشيخ حديثه المؤثر قائلاً :

أما أحب الشيوخ إلئى خلال فترة الدراسة فعلى رأسهم مؤسس الجمعية الشرعية الشيخ محمود خطاب السبكي . . ومما شددنى إليه أنه كان يدعو إلى العمل

بكتاب الله والسنة المطهرة ، ويقف في وجه البدع والخرافات التي كانت ذائعة في حواضر مصر وقراها خلال تلك الفترة ، وقد لاقى في سبيل دعوته الكثير من الشدائد والمتاعب والجسم الغفير من المعوقات والعقبات رحمه الله وأجزل مثوبته . . كذلك كان نجله الشيخ أمين عميق الأثر في تكويني الفكري أثناء طلب العلم ، إذ كان يدرس لنا مادة الجغرافية في المرحلة الثانوية الأزهرية ، ثم علوم الحديث في المرحلة الجامعية . ومن هؤلاء أيضاً العالم الجليل الشيخ على ندا الذي كان يدرسنا علوم اللغة العربية بطريقة محببة إلى النفس شدت إليه انتباه الطلاب ورغبتهم في مادته . وقصارى القول في شيوخننا هؤلاء أنهم لم يكونوا حَمَلَةً علم ينقلونه إلى طلبتهم فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مثلاً طيباً من الأسوة الصالحة ، يؤدون عملهم في التدريس بنية التقرب إلى الله وبهذا يجمعون بين التعليم والتربية ، كما يفعل الوالد الصالح في تزويد بنيه بالرعاية الخاصة والتوجيه النافع السديد ، فتتوثق العلائق بينهم وبين طلبتهم كما تتوثق بين الولد البار ووالده الحكيم .. فرحمهم الله .

ولما سأله عن أثاره العلمية أجاب بأنها كانت متواضعة ، وأهمها ما كتبه من البيانات والمقالات في مجلة الفضيلة والمجلة الشرعية ثم في مجلة الاعتصام ، ومن حيث الكتب فذكر منها « العمل الميسر » و « الدعاء الميسر » و « حكم تارك الصلاة » و « حكم تارك الصيام » و « الحج » و « بر الوالدين » و « المتفرقات » و « الأذان وما يدور حوله » .

ويلاحظ من عنوانات هذه الكتب أن المراد منها هو أن تقدم للمسلم زاده الميسر من العلم الحى المتصل بحياته اليومية ، مما لا بد منه لكل من يهيمه أمر نفسه ومعرفة سبيله بين المؤمنين . وفي عنوان الأخير منها عن موضوع الأذان إشارة إلى الجدل القائم في كل بلاد المسلمين حول الصورة الشرعية لألفاظ الأذان ، الذى تكاثرت أشكاله بينهم ، وتناوله المبتدعون بالزيادة والتفنن حتى زادت كلماته أحياناً على كلمات الأصل ، هذا فضلاً عن الأناشيد الدخيلة التى يترنم بها المتعطلون في المنائر باسم التسابيح أثناء الليالى ، فلا يزالون بها حتى يختموها بأذان الفجر ، ومثلها أو أطول منها قبيل الأذان

لصلاة الجمع في الكثير من ديار المسلمين . . فكان لزاماً على أهل العلم أن يردوا الناس إلى الحق ببيان حكم الشريعة في هذه الشؤون وأمثالها ، ودعوتهم إلى الالتزام بالأصول التي لا يجوز الزيادة عليها لأن الله الذي خلقهم لعبادته أنذرهم بأنه لا يقبل منهم عبادة إلا وفق ما شرع لهم . .

ويتم هذه الإجابة ولده الدكتور محمد أحمد عاشور بقوله : لقد كان من نشاط الوالد التعليمي دروسه التي كان يلقيها في الجمعية الشرعية أيام الأربعاء من كل أسبوع ، والتي لم يتغيب عنها حتى بلوغه الثمانين إلا لسفر أو لمرض . ويقول إن لوالده رأياً في أمور الوعظ ، لا يؤمن بصلاحية الوقوف عند حدود الإثارة العاطفية ، لأنَّ مردوده سريع الزوال ، ولذلك لا يرى مندوحة من التركيز على نقاط موضوعية تترك فاعليتها عميقة في نفس المستمع . . وهكذا كان اعتماد الشيخ على تزويد مستمعيه بنوع من المعرفة الفقهية مستمدة من الكتاب والسنة ، يعرفون بها ما يجب وما يحرم وما يستحب . . وما إلى ذلك من الشؤون التي تشد المسلم إلى دينه بصورة مطمئنة وعملية . .

وأسمح أنا لنفسي أن أضيف إلى مآثر هذا الشيخ في الوعظ والتعليم والتوجيه ما لمست في ذلك البيت الكريم من فضائل تمثل في تلك التربية الإسلامية البارزة الطابع في كل من عرفته من أبنائه ، فتذكرنا بذلك الماضي السعيد الذي بدأنا نفقده حتى في بيوت العلماء والدعاة ، الذين يحرقون أنفسهم لإضاءة طريق الآخرين ، على حين غفلة من أبنائهم الذين تجتاهم الشياطين ، حتى لا تكاد تدع وشيجة تربط بينهم وبين أبنائهم إلا من رحم الله وقليل ما هم . .

فليرع الله بلطفه شيخوخة ذلك الفاضل الذي أحببته في الله ، وأقدمه لقرائي على أنه واحد من بقايا الجيل الذي حفظ الله به للمسلمين صيغتهم المميزة في نطاق التربية الفاضلة والدأب المبرور في خدمة الإسلام والدعوة إلى صراط الله القويم .

الأستاذ أمين مدني

ليس في وسع أحد من المنتسبين إلى العلم والأدب ، ويعيش في طيبة المباركة ، أن يجهل بيت المدني ، وقد كان أول عهدي بهذا البيت ما كنت أقرأه بين الحين والآخر في بعض الصحف من كلام بليغ جميل يحمل اسم عبيد مدني أو أمين مدني . . ثم شاء الله أن أقع مع ولدي حسّان ذات يوم على كتاب ضخّم يتوّجه عنوان « العرب في أحقاب التاريخ » برقم ٢ وقد خصص هذا الجزء للبحث في « التاريخ العربي ومصادره » ويحمل اسم الأستاذ أمين مدني . . ولم يكن لدى من السعة في الوقت ما يمكنني من قراءة ستمئة صفحة ، وأنا الذي أنوء بأعباء العمل في الجامعة الإسلامية من التدريس وغيره ، فاكتفيت إذ ذاك بنظرات سريعة أمر بها على مضامين الكتاب وفهارسه ، فأشعر بجواذب تشدني إلى التفرغ له ولمتابعة الجزء الأول — على الأقل — من هذا الجهد الذي ينم عنوانه العميق على أبعاده التي لا يصلح لخوضها إلا أولو المواهب الضخمة والصبر المعجز . . ثم اطلعت في مكتبة الصديق فضيلة الشيخ عطية محمد سالم على كتاب آخر للمؤلف بعنوان « الاستثمار المصرفي وشركات المساهمة في التشريع الإسلامي » فاستمتت به الصورة التي تمثلتها له قبل أن ألقاه خارج نتاجه الفكري ، إذ اتضح لي امتداد الأفق الذي يستوعبه ذلك العقل الحي ، الذي لا يقف عند حدود التاريخ حتى يضم إليه الفقه الذي يعالج به واحدة من أدق وأخفى قضايا الساعة في موضوع النظام الإسلامي .

وكان من حق هذا وذاك أن يشيع في نفسى النشوة لأنى وجدت فيه حلقة جديدة من تراث البلد الذي أحبه في الله ، تسجل قدرته على الاستمرار في العطاء الذي بدأ بإشراقة الإسلام ، ولا يزال يواصل سبيله المبارك في إثراء الفكر على مختلف المستويات ، وعلى امتداد الحياة بفضل الله ورعايته . ومن هنا كان على أن أقدم إلى قراء كتابي بعض المعلومات المجملة عن هذه الشخصية

التي قدمت للمدينة المنورة ، ولحبي الثقافة الإسلامية والبلاغة العربية ، من الجهد المشكور في ميدان العلم والأدب والفكر ما يجعلها حُرَّةً بالتقدير والتكريم .

والأستاذ المترجم غنى عن التعريف سواء من حيث شخصيته المعروفة في نطاق العلم والفكر ، أو من حيث أسرته التي تحتل المكانة المرموقة في طيبة المباركة . فأبوه عبد الله المدني كان من أعيان المدينة البارزين ، الذين هم موضع الاحترام . ونستطيع تبين مكانته الاجتماعية من أبيات وجهها إليه الشاعر العمري بمناسبة إنشائه أكبر فندق في المدينة سنة ١٣٢٤ هـ وفيها يقول مادحاً ومؤرخاً :

بنيت مجداً كآباء لكم سلفوا	وزدت إذ شدت قصرأفوق مأصف
زادت به طيبة حسناً ، ومانقصة	لكن يزين الحسان القرط والشنف
فاحلل بقصرك في خفض وفي دعة	أبا عبيد ، ودم للمجد تقتطف
فخاركم قال صدقاً حين أرخ لي	قصر عليه يلوح العز والشرف

وفي الأبيات التالية ينوه الشاعر العمري بمآثر قدمتها أسرة المدني إلى المدينة الحبيبة :

بنو المدني سادات النوادي	وأمطار السماح على البلاد
إذا سابقتم للمجد قوماً	سبقتم للعلا سبق الجياد
فطيبة تشكر الإحسان منكم	كشكر الروض سقى مسيل وادي
فكم من حادث عنها دفعتم	بمال أو بجناه أو أيادي
ومحضركم لدى الحكام خير	يجيء لنا بما فوق المراد

والظاهر أن باعث الشاعر لصياغته هذه القطعة في آل المدني خدمة جديدة قدمها بعضهم لطيبة الغالية لدى بعض الحكام ، ففادت بالخير على سكانها ، وهكذا كان والد المترجم من المسهمين في الحياة العامة ، وكان مجلسه حافلاً بالأفاضل من رجالات العلم والسياسة ، وكان ذا صلة بالعلية من أمراء العرب : آل سعود وآل الرشيد وأشرف مكة .

هذا من جهة الوالد وأما من جهة الوالدة فهي من آل البرزنجي ذوى المحل المرموق كذلك في ميدان العلم والوجاهة ، ومن أقربهم عهداً جده لأمه السيد أحمد البرزنجي مفتي الشافعية في المدينة المنورة ، ومثلها في مجلس المبعوثان في

استانبول . ولكلنا الأسرتين من الجهتين ذكر مشهور في كتب التراجم الخاصة بالقرنين الحادى عشر والثانى عشر فما بعدهما .

وفى ص ١٢٩ من كتاب « الثقافة الإسلامية وحواضرها » للمترجم يتحدث عن تهجير المدنيين عن بلدهم الحبيب حتى لم يبق منهم سوى مئات الأفراد ، وكان بينهم عمه السيد عبد الجليل مدنى ، الذى صدر الأمر باستبقائه فى المدينة شيخاً للحرم النبوى ، ويذكر من هذه الأسرة أيضاً السيد محمد أفتدى مدنى الذى يصفه أحد صكوك المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة أنه « شيخ الخطباء ونائب الشرع الشريف »^(١) .

ففى هذا الجو ولد مترجمنا عام ١٣٢٩ هـ . وفى كنف عمه السيد عبد الجليل ترعرع هو وأخوه ، إذ كان والدهما توفى وتولت كفالتهم والدتهما ، ورعى نشأتهم ذلك العم الفاضل ، تلك النشأة التى زودتهما بما عرفا به من خلال الخير .

وقد بدأ السيد أمين تعليمه الأدبى فى بعض كُتُب المدينة حتى إذا استكمل مقرراته انصرف إلى حلقات المسجد النبوى وشيوخه فدرس عليهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم التفسير والفقه واللغة والأصول والفرائض . . وكان من شيوخه الذين أجازوه وأفاد منهم الشيخ محمد الطيب الأنصارى والشيخ أحمد الفيض أبادى ، والشيخ إبراهيم برى . . وكلهم من الطبقة التى اتصلت بها حلقات العلم جيلاً بعد جيل فى المدينة المنورة .

ولما بلغ مرحلة العمل بدأ أنواعاً من النشاط العلمى والاجتماعى ، واتخذ من الصحافة منبراً يرسل منه أفكاره ، وكتب فى ذلك مجموعة من المقالات فسحت له مجال الشهرة بين الكتاب ، مما أهله لأن يكون أول رئيس لتحرير جريدة المدينة فى بداية عهدها فى العام ١٣٥٦ هـ أيام كانت تصدر فى المدينة التى لا تزال تحمل اسمها .

وفى فترات قصيرة تولى بعض الأعمال الحكومية عقيب قيام العهد السعودى الجديد ، مع استمراره فى الكتابة والبحث ، بيد أنه ما لبث أن

١ — انظر ص ١١ من كتاب « التعليم فى مكة والمدينة » للدكتور محمد عبد الرحمن الشايع .

استقال كى يتفرغ لميوله التى طبع عليها فى حقول العلم والبحث والتنقيبات التاريخية .

وطبيعى أن باحثاً مؤرخاً كالأستاذ المترجم لا يمكن أن يعيش فى معزل عن أحداث مجتمعه ، فقد شارك فى الكثير من الأنشطة الاجتماعية والفكرية ، وقد قدر له مؤتمر الأدباء السعوديين الذى عقد فى مكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ جهوده فى هذا المضمار فاعتبره واحداً من رواده الأوائل . .

وفى مواسم المحاضرات التى تقيمها رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة شارك بأكثر من محاضرة ، ونشرت له محاضرتان فى الكتاب الذى يضم محاضرات العامين ٨٥ و ١٩٨٦ هـ ، وذلك فى عهد أمينها الأول محمد سرور الصبان . رحمه الله .

وفى المؤتمر الذى عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض احتفالاً بمقدم القرن الخامس عشر رأى أن تكون مشاركته فى عمل موضوعى يبرز بعض الجوانب من عظمة النظام الإسلامى ، فكان ذلك فى كتابه « الاستثمار المصرى وشركات المساهمة فى الإسلام » وقد ألفه استجابة لطلب الهيئة العلمية فى جامعة الإمام ، التى دعتة للإسهام فى مؤتمرها بموضوع يكتبه لهذه المناسبة ، وقد طبع فى ما يقارب المئات الثلاث من الصفحات المتوسطة .

على أن أظهر ما يجسد خصائص السيد من الناحية الفكرية والعلمية حلقاته الموسوعية التى يستمدّها من أعماق التاريخ العربى فى إطار « العرب فى أحقاب التاريخ » وصدر منها الأجزاء الثلاثة :

١ — التاريخ العربى وبدايته ، وقد طبع للمرة الثانية فى أربعمئة وعشرين صفحة .

٢ — التاريخ العربى ومصادره ، فى ستمئة واثنين وأربعين صفحة ويعاد طبعه .

٣ — التاريخ العربى وجغرافيته ويقارب المئات الست من الصفحات .

وثمة حلقتان أخريان من هذه الموسوعة التاريخية بعنوان « التاريخ العربى

وشعوبه» ، ثم « التاريخ العربى ودوله » ويقول المؤلف إنهما فى مرحلة التنسيق .

وقد استقبلت الأوساط العلمية هذه الإصدارات بما تستحقه من عميق التقدير . وكتب المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى ، عميد كلية الشريعة بالأزهر ، فى ثانى هذه الأجزاء يقول : « ولذلك جاء بحث الأستاذ أمين مدنى هادفاً إلى الحقيقة فى ذاتها ، لا يميل إلى التعصب لأحد على أحد ، فنراه يقف وجهاً لوجه أمام الآراء المتصارعة ، ويناقشها فى أسلوب العالم المنصف الذى لا سلطان لشيء عليه إلا الحجة والمنطق ، فإذا هو كالدليل الماهر يقود متابعيه إلى الصراط المستقيم ، مانحاً إياهم الطمأنينة إليه بأسلوب فعلى مباشر دون طنطنة ولا ادعاء . . . » (١) .

وفى الكتاب نفسه يقول المفكر السعودى الكبير : الأستاذ احمد عبد الغفور العطار : لو كان لى أن أقترح . . . لأشرت أن تجعل جامعتنا الفتية بالرياض هذا الكتاب فى جزئه الأول المطبوع الأطروحة الأولى لإجازة الدكتوراه ، تمنحها صاحبه الذى رفع مكانة بلاده وأمته بكتاب يستطيع أن يأخذ مكانه بين أعظم الكتب العلمية ، التى يتوافر لها العمق والابتكار والشمول . . . إن كتاب الأستاذ أمين مدنى جدير بهذا التكريم الجامعى ، الذى يعود على جامعتنا بالتكريم نفسه ، ولها أن تفخر بأن باكورتها فى منح الدرجات العلمية كتاب يتفرد بين نظائره بالامتياز والتفوق والتبريز (٢) » .

ويقول الأستاذ أمين : إن هناك حلقات تالية لهذه الثلاث قيد الإعداد . وهى سلسلة من البحوث الهامة تثير جملة من أمهات القضايا العلمية والتاريخية والأدبية مما يتصل بالفكر العربى والأدب العربى ، والثقافة العربية عموماً ، ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى . .

والأستاذ المترجم ينهج فى أعماله هذه نهجاً مستقلاً يختلف به عن الكثيرين من دُرّاس التاريخ العربى ، وبخاصة أتباع المستشرقين الذين ينظرون إلى أحداثه

١ - الكتاب الثانى ص ١٢ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٣ .

ووقائعه من الزاوية العرقية ، محاولين قطعه عن الناحية الروحية ، على حين تمتد رؤية المؤلف إلى أبعد من ذلك ، فيربط أعماقه البعيدة بمرحلته السعيدة بعد البعثة النبوية ، وهكذا يتضح أن مفهومه للعروبة نابع من تصوره الإسلامى دون انفصام بينهما . .

وآخر ما صدر من مؤلفات هذا المفكر الرصين كتابه عن « الثقافة الإسلامية وحواضرها » فى ٣١٠ صفحات ، وبه يرصد الأستاذ مجارى الثقافة العربية المنطلقة من منابع المدينة المنورة ، فيرد إليها جماع الثقافات العربية التى نشأت بعد ذلك فى سائر الحواضر . . ولا جرم أن فى هذا الرصد لونا من الفكر والتتبع من شأنه أن يسد فراغا فى المكتبة العربية الحديثة ، ويؤكد طابع المدينة المنورة على مختلف الروافد الثقافية على امتداد العالم الإسلامى .

وللأستاذ أمين غير هذا الإنتاج العلمى أثر آخر يتمثل فى الندوات التى اعتاد أن يعقدها سواء فى داره بالقاهرة أو منزله فى المدينة ، ويغشى هذه الندوات معارفه من رجال الفكر والأدب . والبحث هنا وهناك ، وعن ندوته فى القاهرة ويسمىها « ندوة الأصفياء » يقول المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى أيضاً : « إنها سوق من أسواق العرب التى كانت تعقد للعلم وللشعر وللخطابة ، ولم تكن ندوة للسمر ولكن لإثارة البحوث العميقة عن كل مشكلة من مشكلات العرب والمسلمين . . » ومثلها « ندوة الإثنين » فى المدينة ، وكانت مرادّ الفئة المثقفة من مقيمين وزائرين .

هذا إلى وجوه أخرى من النشاط الأدبى فى ميدان الشعر الذى عالج فيه عدداً من الفنون كالقصة المنظومة ، والقصائد الوجدانية والاجتماعية التى نشر بعضها فى الصحف ، وكالثلاثيات التأملية التى يقول انه لم ينشرها بعد .

ولاستكمال الصورة التى تساعد القارىء على استيعاب الملامح الذاتية لفضيلة الأستاذ أجرينا معه الحوار التالى :

م : الأحداث التى عاصرتموها ومدى تأثيرها فى تكوينكم الفكرى .

أ . م : أحداث كثيرة أهمها العهود الثلاثة : التركى العثمانى ، وقد أدخل مكانه للعهد الهاشمى ، ثم العهد السعودى الذى انتهى بالبلاد إلى الاستقرار

الذى تنعم به والله الحمد . وقد كان لكل من هذه العهود تأثيره العميق فى اتجاهى وتفكيرى ونظرتى إلى الحياة .

ويتوقف جواب الأستاذ عند هذا الحد الذى لا يزال بحاجة إلى الكثير من التفصيل ، وفى ظنى أننا نستطيع أن نرصد ذلك التأثير الذى يشير إليه على الأقل فى خاصية العمق الذى يغمر بحوثه المختلفة ، ثم العناية بدراسة التاريخ العربى ، الذى يشاهد وقائعه المعاصرة على الأرض التى استوعبت ماضى ذلك التاريخ . .

م : وأكثر الرجال تأثيراً فى نفسكم من الماضين والمعاصرين . . .

أ . م : أنا لا يؤثّر فى الرجل ، وإنما يؤثّر فى رأى والفكر الأصيل دون النظر إلى مصدره . . ولنا على هذه الإجابة البرقية تساؤل صغير هو : كيف استطاع الفصل بين الرجل ورأيه وتفكيره من حيث أثره فى الآخرين ؟ ! ونحن دائماً نطرح مثل هذا السؤال من زاوية الشخصية التى لا معنى لها خارج حدود الإطار النفسى . . وكذلك نحن حين نستبطن ذواتنا فى تأمل عميق لا بد عاثرون بأحداث وأشخاص تركوا بصماتهم فى أعماق وجودنا وتصوراتنا . .

وقد علمنا أن للأستاذ شيوخاً من علماء المسجد النبوى تَلَقَّى على أيديهم الكثير الصالح من مبادئ العلوم الإسلامية ، ومعلوم أن لهؤلاء الشيوخ آثاراً أخرى غير التلقين والتعليم فى نفوس طلابهم ورواد حلقاتهم ، فهل يمكن أن يقف أثرهم فى نفسه عند حدود القول والقليل دون الفاعلية التربوية التى امتاز بها الحَرَمَان المباركان على سائر المؤسسات التعليمية العالمية ! . . ولو كانت مهمة المعلم فى الإسلام محدودة فى إطار التلقين والتعليم لتعذر علينا أن نفهم معنى قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ .

م : التاريخ هو المجال المنظور لعمل القدوة الالهية فى مسيرة الحياة ، وهو منبع العبر لأولى الألباب . وفى ثقافتكم التاريخية ما يجعل لرؤيتكم وزنها فى تقييم الوقائع وعواقبها . . فما رأيكم فى أحوال المسلمين

والعرب من خلال مرحلتهم الراهنة ، التى توشك أن تطيش فيها الأحلام ؟ .

أ . م : أحوال المسلمين اليوم أحسن بكثير من أحوالهم فى العصور الوسطى ، فالوعى الإسلامى برز واضحاً ، فعلى المسلمين شعوباً ودولاً أن يستغلوا الدعوة إلى جامعة إسلامية . .

وهنا أيضاً نجد بعض الغموض الذى يستدعى المراجعة . . فالاصطلاح الشائع عن العصور الوسطى أنها تمثل عهود التخبط فى حياة الشعوب الغربية ، على حين تمثل مرحلة الازدهار الحضارى فى حياة الشعوب الإسلامية ، وفى كلا الجانبين يظل تفضيل واقع المسلمين المعاصر على حالهم فى تلك العهود موضعَ نظر . .

وشتان بين ماضٍ احتفظت فيه الشخصية الإسلامية بسلامتها وتماسكها على مختلف الظروف والأحداث ، وحاضر تخلخلت فيه هذه الشخصية بما تسلل إليها من سموم الغرب ، حتى ليتنكر الولد لوالده ، وتمزق الشعوب المسلمة تحت قيادات محاربة للإسلام ، انسياقاً مع أعداء الإسلام ، وتنفيذاً لخطط لا يد لها فى رسمها ولا علم لها بأهدافها .

م : يلاحظ فى موسوعتكم التاريخية أن ثمة تركيزاً كبيراً على الطابع العربى بوجه خاص ، أفليس لكم مثل هذا الاهتمام بتاريخ الشعوب الإسلامية الأخرى !! .

أ . م : إن التاريخ العربى يتألف من قسمين جاهلى وإسلامى ، ولكل منهما صلاته الوثيقة بالعقيدة . فتاريخ ما قبل الإسلام مرتبط بملة إبراهيم عليه السلام ، وتاريخ ما بعد الإسلام مرتبط كل الارتباط بشريعة محمد صلى الله وسلم عليه وآله ، فالمهتم بتاريخ العرب لا بد له من أن يهتم بتاريخ الإسلام . .

وفى هذه الإجابة ، على إيجازها ، توكيد لما ذهبنا إليه من رؤية فضيلته إلى وحدة التاريخ العربى قديمه وحديثه ، ومن حيث ارتباطه بالقيم النبوية الأصيلة ، على الرغم من كل النكسات التى اعترته فى

رحلته ما قبل الإسلام . . . وقد زاد ذلك وضوحاً تركيزه في الإجابة السابقة على الحل الإسلامي ، الذي لا مندوحة عنه لصيانة الوعي الجديد من الزيغ عن السبيل القويم المتمثل في « جامعة إسلامية » .

م : كان لمكة والمدينة ، كرمهما الله ، ولا يزال أثرهما البالغ في تثبيت الصبغة الإسلامية على شعوب الإسلام وتقوية أواصر الوحدة بينهما ، وذلك من خلال مواسم الحج والزيارة ، فكيف تنظرون إلى هذا الأثر من خلال المستقبل . . . أستمروا . . . أم يختلف حجمه بتأثير التطور العالمي ؟ . . .

أ . م : إن أساس هذا التثبيت هو العقيدة ، فكم من داعية إسلامي لم يكتب له الحج ولا الزيارة . . . وكثيرون منهم لم تتح لهم الرحلة المباركة إلى الحرمين إلا بعد أن أبلوا في ميدان الدعوة وتثبيت الصبغة الإسلامية أحسن البلاء . . .

م : التغيير العمراني الذي طرأ على هذه المدينة العزيزة من شأنه أن يؤثر على الكثير من معالمها التاريخية . . . أليس من الخير وضع كتاب يحدد هذه المعالم والتطور العارض لها . . . وأى الجهات ترشحونها لذلك العمل ؟ . . .

أ . م : يسرني أن أخبركم أنني أغالب المرض لتبييض كتابي « صور من تاريخ المدينة في ستين عاماً » وهو مؤلف يوضح أهم الصور في العهدين العثماني والهاشمي ، ويشتمل جزؤه الثاني على وثائق مصورة ، والثالث عبارة عن أطلس للمدينة من عهد النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، حتى اليوم ، ولعل الله أن يوفقني إلى إنجازه وطبعه قريباً إن شاء الله .

م : الصحو الإسلامية الجديدة تبرز في كل موطن يعيش فيه المسلمون حتى في أوروبا وأمريكا . فما رأيكم فيها ؟ . وما السبيل لضبطها في الطريق القويم ؟ . . .

أ . م : هذه الصحو العامة هي نتيجة الضياع الروحي الذي يعيشه الغرب ، فليت المسلمين يحسنون استغلال ذلك الضياع . . . إنهم لو فعلوا ذلك

لاقتلوا النفوذ الصهيوني في أوروبا وأمريكا جميعاً . .

وبعد فقد كان المأمول أن نحصل من فضيلة هذا المفكر الإسلامي الكبير على إجابات أكثر توسعاً ، ففي خبراته العديدة ، وعمله الغزير ما يُطمع بذلك ، ولكن المؤسف أنه يتلقى أسئلتنا وهو في الوضع الصحي الذي لا يمكنه من الذهاب إلى أبعد مما ذهب إليه .

فالله نسأل أن يمدّه بالعافية ليستأنف نشاطه في خدمة الإسلام والعرب والعربية على الوجه الذي يُتطلّع إليه من باحث عميق مثله .

نماذج من أفكاره وأدبه

من كتابه « صور من تاريخ المدينة . . » يقول في تحديد بعض المعالم :

ومن ضواحي المدينة « حَرَّةُ قريظة » التي نسبها عامة المؤرخين إلى رجل اسمه قريظة . . والذي يبدو لي أن القبيلة اليهودية هي التي سميت باسم الحرة التي تنبت القرظ — الذي تدبغ به الأدلية — فكثير من الأماكن سمي باسم الشجر أو الآبار أو العيون ، ومنها « العيون » التي صارت علماً على جانب من شمال المدينة . . ومنها « قباء » وهي في الأصل بئر جاهلية .

والذين كتبوا عن اليهود من أسفارهم لم يذكروا من القبائل التي آوتها المدينة واحدة باسم قريظة ، أو النضير أو قُيُنْقَاع . . واليهود عندما قدموا المدينة نزلوا في « يثرب » مما يلي زغابة ، ثم انتقلوا إلى حرارها القبلية والشرقية والغربية ، فلم يكن بينهم قبيلة تسمى قريظة .

ومن حديثه عن المدينة في العهد التركي يقول تحت عنوان « ذكريات حائر » :

لقد خلعت المدينة من أهلها فلم يبق من ناسها غير الذين اضطرت حكومة فخرى باشا التركية إلى استبقائهم لخدمة المسجد النبوي ، ولرعاية مزارع المدينة التي يحتاج جنوده لتنتاجها ، ولا يزيد هؤلاء على الألف من مجموع سكانها المئتين من الألوف . .

فكأن لم يكن بين المناخة إلى باب السلام جماهير تملأ الأسواق والميادين ، فلا يسمع فيها حسيس غير زفير القطار ، الذى مُدَّتْ قضبانه إلى باب المسجد النبوى المعروف بباب السلام ، وإلى شمال المدينة فى أقصى جبل أحد ، لينقل أنقاض البيوت التى هدمها فخرى باشا توسعة لما حول المسجد ، وتنفيذاً لشارع واسع يمتد من المناخة إلى المسجد عرف أخيراً بشارع العينية نسبة لبستان كان هناك بهذا الاسم ، ولينقل تمور العيون إلى مستودعات الجيش التركى داخل المدينة .

وهكذا أصبحت المدينة خالية من سكانها يلف نهارها صمت الصحارى ، وباتت دورها الآهلة بالأمس أشبه بالكثبان ، فلا أنيس ولا سامر ، وأمسي ليلها مسرح أشباح تتراقص فى ظلام الليل الدامس ، فتراءى للحائر كأنها رؤوس الشياطين ! . .

ومن شعره الذى تغلب عليه طبيعة الكاتب ، يقول من قصيدة طويلة ألقاها بين يدى المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان فى الوفود التى تقاطرت لزيارته من مختلف أنحاء المملكة عام ١٣٦٠ هـ :

قم حى فى العرب الأباة الصيدا	ملكاً أعاد به الإله سعودا
ملكاً تقفَى الراشدين مجاهدا	لما رأى فى السابقين جمودا
فى أمة نهضت وكان شعارها	التوحيد والتشيد والتجويدا

إلى أن يقول :

يا صاحب التاج الذى زينته هذا النهى ألقى عليك برودا
وفى رثائه لشقيقه الأديب المفكر السيد عبيد مدنى يقول :

قدّر طوى صنوى فصرت وحيدا	وغدا الشقيق رؤى تلوح بعيدا
نزل القضاء به ففرق شملنا	ياليتـه حى وكنت فقيدا

* * *

الشيخ حافظ على أحمد سلامته

هذا الرجل من الشخصيات التي أحببتها في الله تعالى قبل أن يقع بصرى عليه ، ولعل أول مرة تلقى سمعى اسمه إذ كنت في زيارتي الأولى للقاهرة ، وقد مرت بنا السيارة بإزاء مسجد كبير في حالة البناء ، فقال مضيفي : هذا مسجد النور... وهو أحد العشرات من المساجد التي يقوم بإنشائها الشيخ حافظ سلامة . . وكان خبراً ساراً جعل اسم الرجل مقترناً في ذهني بهذه المشروعات المفضلة ، فما إن يذكر مرة إلا تخيلت ذلك المسجد والأخريات من أمثاله يتتابع ظهورها في مختلف أنحاء القاهرة وغيرها من المدن المصرية . وحسبى من الرجل هذه الصورة حتى أحبه لوجه الله ، وأتطلع إلى لقائه في أول فرصة تقدر لي ، وقد زاد من اهتمامي بأخباره ما لاحظته من تقدير عارفيه له ، وثقتهم الكبيرة بإخلاصه ونشاطه الدؤوب في خدمة الإسلام والمسلمين ، وبخاصة ما يروونه عن مواقفه العجيبة في مدينة السويس أثناء اقتحام شارون اليهودي لثغرة الدفرسوار في معارك رمضان .

و شاء الله أن ألقاه أثناء زيارتي الثانية للقاهرة ، وذلك عقب صلاة الجمعة في مسجد العزيز بالله من مصر الجديدة ، فإذا أنا تجاه إنسان يذكرني بمنظر أوى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بسيط المظهر بادی التواضع أقرب إلى القصر وبسرعة تم التعارف بيننا ، وصدق الخبرُ الخبرَ ، فاتصلت تصورات أمس بشهادة اليوم ، فلم أجد فارقاً كبيراً بين صورتيه ، إلا شيئاً واحداً لا بد منه ، وهو ما نجده عادة من الفروق بين شخصية الرجل من خلال أعماله الكبيرة ، وبين هيكله الذي نشاهده من زاوية الواقع المنظور .

وكان الوقت إذ ذاك أقصر من أن يتسع للحديث واف فافترقنا على أن نشخص لزيارته قريأى مكان إقامته بالسويس ، ثم حالت الظروف دون تحقيق ذلك

اللقاء ، فاكتفيت بالورقة أكتب عليها بعض الأسئلة ، ثم أسلمتها إلى بعض الإخوة الأفاضل من مساعديه في الإشراف على استكمال مسجد النور ، وهماً نذا أسطر ترجمة الشيخ مستمداً خطوطها الرئيسة من أجوبته المشكورة ومن رواية بعض الثقة من عارفه .

ولد الشيخ حافظ سلامة في مدينة السويس من أسرة معروفة بالصلاح ، تمتد جذورها العربية الأصيلة إلى مكة المكرمة ، وترجع بنسبها إلى قبيلة الحويطات ، ولم يذكر لنا تاريخ ولادته ، ولكن ظاهره يرجح أنه لا يزال في الستينات من عمره المبارك .

وفي السويس تلقى دراسته التي لم تتجاوز الثانوية ، ولكن النشأة الدينية ساعدت على توجيهه نحو القراءة الحرة ، وبخاصة منها ما يتصل بالسيرة النبوية وتاريخ الصدر الأول ، فهو يقول في الإجابة على سؤالنا المتعلق بالرجال الذين كان لهم الأثر الأكبر في تكوينه الروحي والفكري : إن على رأسهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله ، ثم أبا بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب .. ويختم هذه السلسلة العالية بالأستاذ حسين محمد يوسف ، رئيس جمعية شباب محمد ﷺ ثم الإمام الشهيد حسن البنا ، يليه الإمام أبو الأعلى المودودي وغيرهم من أساطين الدعوة الإسلامية .

فمن هنا نتعرف مصادر بواعثه نحو العمل الإسلامي ، وجدير بمن كانت هذه بيئته الروحية والفكرية أن يلتزم في تصرفاته الخط الإسلامي الواضح الصحيح ، فليس إقباله على إقامة المساجد ، ونشر موجباتها في أوساط المسلمين ، إلا نتيجة طبيعية لهذه المؤثرات الأساسية التي تؤهل العاملين في رحابها لمرضاة الله ، الذي يشهد لهم بقوله الحكيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

ولقد كان لسلوك هذا الرجل أثره الطيب في قلوب الناس ، فهو يجد كل عون منهم على مشروعاته التي تنوء بها العصبية أولو القوة ، وتتطلب من المال ما لا سبيل إليه إلا عن طريق التبرع الجماعي .

وبدافع من نشأته الدينية كان اهتمامه بالعمل على نشر الدعوة ،

واستقطاب الشباب حولها ، وتربيتهم على التضحية من أجلها ، وتوجيه طاقتهم إلى الجهاد في سبيل الله . . وقد استجابوا لتوجيهاته فكانوا له خير الأعوان على طاعة الله وجهاد أعدائه ، من الإنجليز ثم غزاة اليهود .

ويحدثنا الشيخ عن نشاطه في إعمار بيوت الله ، فيقول إنه بدأ ذلك بالتعاون مع العاملين على إنشاء المساجد ، ثم واصل عمله في هذه السبيل دون كلل ، فأنشأ مسجد الشهداء و المجمع الإسلامي الملحق به ، وهو مدرسة وفصول تقوية للطلاب وأخرى لتقوية الطالبات ، وقاعة خاصة للمحاضرات ومكتبة تتبعها للمطالعة ، ومصلى خاص بالنساء ، ومركز لجمعية شباب محمد ﷺ وساحة للنشاط الرياضي .

وهنا يحسن أن نغير هذا المشروع نظرة متأملة فنرى ما وراءه من رؤية بعيدة ، ترد المسجد إلى موضعه الذي عرف له في تاريخ الإسلام ، حتى كان وحدة كاملة تشمل مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية ، التي من شأنها تكوين الأجيال المؤهلة للنهوض بمسئوليتها نحو صياغة الحياة المتميزة . . فلم تشغل الصلاة من هذه الوحدة سوى جزء محدود ، لأن مفهوم العبادة يستحوذ على سائر أجزائها

ويتابع الشيخ فيحدثنا عن بعض وجوه نشاطه الأخرى في هذا الجانب ، فيذكر مسجد أبي بكر الصديق ، ثم مسجد فاطمة الزهراء في السويس ثم ما يسميه القلعة الإسلامية الكبرى المتمثلة في مسجد النور والمركز الإسلامي الضخم الملحق به ، ويستوعب من المساحة خمسة آلاف متر مربع ، وتقدر تكاليفه بعشرة ملايين من الجنيهات ، يغطيها المحسنون من مسلمي مصر وغيرها من الأقطار العربية والإسلامية .

ولقد قدرت لنا زيارة هذا المشروع أكثر من مرة ، ووجدنا من سعته وفخامة تصميماته ما يبعث على الإعجاب ، مع أنه لا يزال في مرحلته الوسطى ، وكان المتوقع أن يستكمل بنيانه ومتمماته منذ سنين ، ولكن العقبات التي وضعت في طريقه أخرت ذلك إلى اليوم . . . ومعلوم أن للطائفية المتعصبة يدها الطولى في عرقلة هذا المشروع الجبار ، والزائر الذي يرى وضع هذا المركز الإسلامي المتكامل ، وينظر إلى المؤسسة الطائفية

الكبرى المواجهة له لا يفوته أن يقدر الأسباب التى حالت دون إنجازه حتى الساعة . على أن عناية الله قد جمّدت كل تحرك يريد بهذا المركز شراً ، فأفرج عنه ، وهو اليوم ماض فى طريقه بعونه تعالى إلى النهاية المرسومة .

ويتابع الشيخ حافظ قائلاً : لقد أكرمنا الله بإعادة البناء لقرابة العشرين من المساجد التى دمرها العدوان الإسرائيلى فى السويس ، وترميم المساجد الأخرى التى تعرضت لقذائفه من المدينة الباسلة ، وقد شرعنا فى إنشاء قلعة جديدة من طراز مسجد النور فى منطقة شبرا المظلات على مساحة تقارب ستة آلاف متر ، ومن أقسامه مركز إسلامى تتوافر فيه كل الخدمات التى ينتفع بها مسلمو المنطقة .

هذا إلى عدد من المساجد أحدها فى مدينة نصر بالقاهرة وأكثرها فى محافظات الصعيد .

ومعلوم أن سمعة الشيخ حافظ سلامه خارج مصر إنما قامت بالدرجة الأولى على جهاده وإخوانه فى حرب الـ ١٩٧٣ وعن مواقفهم أيامئذ يقول :
لقد خدعنا أول الأمر بالبيانات المضللة التى كانت تذاع عن قوات العدو الإسرائيلى وتحركاته ، حتى فوجئنا بوصول العدو إلى مشارف مدينة السويس ، فكان علينا أن نتخذ الموقف الواجب بإزاء ذلك الخطر الداهم ، وهكذا دعوت إخوانى الذين تربوا فى جمعية الهداية الإسلامية ومسجد الشهداء مدنيين وعسكريين ، ونظمت صفوفهم خلال لحظات ، وزودناهم بالأسلحة والذخائر التى انهمرت علينا دون أن نعلم كيف ساقها الله إلى مسجد الشهداء من حيث لا ننتظر فى تلك الساعة العصيبة . . حتى إذا صار العدو إلى أطراف البلد ووجه بسيل من النيران لم يتوقعه ، وبمقاومة تعترض قواته لأول مرة بشراسة نادرة ، من رجال باعوا أرواحهم لله ، حتى فقد جنود العدو أعصابهم ، وتركوا معداتهم الثقيلة ، أمام هؤلاء الأبطال الذين ثبتهم الله ، وقذف الرعب فى قلوب أعدائهم فانطلقوا منهزمين ، تاركين قتلاهم فى شوارع السويس وأزقتها تنهشهم الكلاب الضالة التى حرمت الغذاء طويلاً .
وهنا بدا للعدو أن يقوم بمحاولة من نوع آخر لاحتلال المدينة ، فوجهوا

إنذاراً نهائياً إلى محافظ البلد والمسؤولين معه ، من مدير الأمن والقائد العسكرى ، بوجوب تسليم المدينة وإلا عمدوا إلى تدميرها .

ولم يجد هؤلاء المسؤولون أمامهم من سبيل سوى الإذعان لمطالب الأعداء « حماية للمدينة من الدمار ، وحفاظاً على أرواح سكانها العزل » ، وقد أعدوا الراية البيضاء لإعلام العدو بخضوعهم .

وجاء القائد العسكرى ليخبرنى بما تم عليه الاتفاق ، وراح يدافع عنه بمختلف الحجج لإقناعى به . ولكن عناية الله كانت فوق محاولته ، فقد رفضت الاتفاق فى تصميم قاطع ، وقلت للقائد . أنت والمحافظ ومدير الأمن كل منكم مسئول عن نفسه فقط ، أما موضوع المدينة فقد أصبح من مسئوليتنا ، وعلينا وحدنا يقع واجب الدفاع عنها .

وكان العدو قد بدأ يذيع على السكان أن المسؤولين عن البلد قد وافقوا على التسليم ، فعلى الأهلى أن يتجهوا إلى المركز الرياضى لتقوم القوات الإسرائيلية بترحيلهم إلى القاهرة .

وإنما يريد العدو بذلك تدمير الأعصاب ونشر الرعب واليأس ، فلم ألبث إلا ريثما أخذت مكبر الصوت الخاص بمسجد الشهداء ، وانطلقت أعلن للناس بأننا رفضنا الإنذار الإسرائيلى ، وأنا مصممون على استمرار الجهاد إلى آخر قطرة من دمائنا . . . وجعلت أهيب بشباب الإسلام أن يتقدموا على بركة الله وملؤهم اليقين بأن الله معهم ما داموا فى طاعته ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره سيجعل الله بعد عسر يسرا . . . ﴾

ومن ثم وجهت كلامى إلى العدو قائلاً : إن أرض السويس الطاهرة متلفة إلى دمائكم القدرة ، وإذا حاولتم دخولها مرة ثانية فمرحباً بذلك اللقاء المنتظر ، ونحن على أتم استعداد للقضاء عليكم بمشيئة الله .

واستجاب الله لضراعتنا ، فآتانا من التوفيق ما لا يتصور بالنسبة إلى ضعف عتادنا بإزاء استعدادات العدو ، وخلال ثمان وأربعين ساعة دمر الله بأيدى اثنتين وثلاثين دبابة ومصفحة ، غير الآليات التى أصبناها بمدادون التدمير ، وقد تناثرت جثث قتلاهم حتى عجزوا عن إخلائها ، وقذف الله فى

قلوبهم الرعب ، فلم تغن عنهم إمكاناتهم الكبيرة ، من طائرات ودبابات وصواريخ وما إلى ذلك من أحدث الأجهزة التي توصل إليها العلم . وصدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . . . ﴾ .

وقد سبق أن قرأت في « أخبار العالم الإسلامي » طائفة من أنباء الكرامات التي أمد الله بها أولئك المجاهدين ، فأردت أن أستوثق من أمرها فسألت الشيخ أن يطرئنا ببعض الحديث عنها تقديراً لنعمة الله الذي وعد جنوده بالنصر ، إذا ما قطعوا رجاءهم من خلقه ، ولجئوا بضعفهم إلى قوته وحده .

يقول فضيلته : حقاً لقد واجهتنا هناك أحداث غريبة لا نجد لها تفسيراً إلا على ضوء الإيمان . ومن ذلك أن العدو عندما عجز عن اقتحام البلد عمد إلى تخريب المرافق الضرورية ، فقطع المياه عن المدينة ليدفع أهلها إلى التسليم ، وكان لذلك وقع رهيب إذ لم يكن ثمة مطمع بالحصول على أى ماء يصلح للشرب وكل ما حول المدينة من الماء فهو الملح ولا سبيل إلى الرى إلا بمعجزة من وراء التدبير البشرى . فأقبلنا على الله ندعوه أن يدركنا برحمته ، ثم عمدنا إلى اتخاذ الأسباب الشرعية ، فأحدثنا حفرة بجوار مسجد الشهداء ، وإذا هي تدفق بأعذب الماء ، وقدمنا إلى بئر أخرى قد هجرها الناس لسواد مائها وملوحتة ، فقرأ بعضنا عليه فاتحة الكتاب ، وألقينا فيها قليلاً من السكر ، فإذا بمائها الكريه يستحيل عذباً زلالاً بفضل الله وبرحمته . وقد كفى الله عباده المجاهدين حاجتهم من هذه المياه طوال مدة الحصار الذى استمر مئة يوم ، فلما أن عادت مياه النيل إلى عطائها بعد انفضاض العدو رجعت مياه البئر إلى أسوأ ما عرفه الناس من الملوحة والسواد !.

وإني لأتساءل اليوم كما يتساءل إخواني كلهم : لولا أن من الله علينا بهذه الرحمة الخارقة فأى مصير كان سيلاقيه المئة والخمسة عشر ألفاً من سكان هذه المدينة ! ! فالحمد لله ثم الحمد لله . . .

ويقف الشيخ حافظ عند هذا الموقف وحده من جملة الأحداث التي يتناقلها الناس عن أيام السويس وأراني هنا مدفوعاً إلى ذكر موقف آخر لا يقل عن ذلك من حيث الأهمية والدلالة ، وقد سمعت قصته من الصديق الأزهرى

الثقة الشيخ محمود عبد الوهاب فايد — المحاضر بالجامعة الإسلامية .

كنا مجموعة من المشايخ في زيارة لمدينة السويس في أعقاب حرب رمضان ١٩٧٣ وهناك اجتمعنا ببعض المجاهدين ، وطلبنا إليهم أن يقصوا علينا بعض أحداث الحصار العصيب ، فأشاروا إلى فتى منهم قائلين : سلوا هذا الأخ عن قصته مع اليهود ففيها ما يسركم .

وبكثير من التردد شرع الفتى يحدثنا بقصته :

« ذات ليلة حالكة السواد كنا زمرة من المجاهدين في أحد الكمائن نترقب تحركات العدو ، وشعرت بالحاجة للخروج إلى الخلاء ، فما إن انتهيت إلى المكان الذى أريد حتى أحسست جلبة قرية ، فتوقفت أصيخ بسمعى لأتبين المصدر أحيوان أم بشر .

وسرعان ما اتضح لى أن ثمة مجموعة من الرجال يتحركون في انتظام ، فأدركت أنها دورية يهودية ، ولم يكن معى سلاح ، فوجدت خير ما أصنعه هو أن أطلق صرخة الإنذار ، فيسمعها إخوانى فيأخذوا حذرهم ، وصحت بقوة : كلمة السر . . ولم أكد أفرغ من ندائى حتى رأيت الأيدى تمتد إلى أعلى وقد ألفت بما معها من الأسلحة إلى الأرض . . ولم أترث فأمرتهم بالسير أمامى فلم يتلكنوا ، ومضيت وراءهم أوجههم حتى انتهت بهم إلى موضع الرفاق ، الذين كانوا قد اتخذواوضع الاستعداد . . وهكذا وفقنا الله لأسر عشرة أفراد من العدو دون أن نضطر إلى إطلاق رصاصة واحدة . » .

وقلنا لفضيلة الشيخ . لقد كان لكم نصيب من المحنة التى نزلت بأهل الدعوة ، فلو تفضلتم ببعض التفصيل في هذا الموضوع . . .

وأجاب الشيخ : لقد تم اعتقالى مع العديد من رجال الدعوة وشبابها قبل مصرع السادات ، وكان الغرض من ذلك هو تعطيل النشاط الإسلامى وإخفات صوت المعارضة لتعاونه مع أعداء الإسلام في مصر العربية المسلمة ، وقد بلغ من حقد السادات على أن وصفنى بالجنون ، لأننى جننته بنشاطى في مقاومة خططه الشيطانية علي مستوى القطر ، من أقصى أسوان إلى أقصى السويس . . . ولم يكن السجن بغريب على ولا جديد ، فقد ألفته منذ

العام ١٩٤٤ ، وكما شملنا الله برعايته في ماسبق من الاعتقال ، كذلك أدركتنا
رحمة الله في معتقل السادات فوجد كل منا عزاءه بأخيه ، وألفينا في كتاب الله
خير هاد وأسعد مؤنس ، يهون علينا ما أعده أعداء الدعوة من ألوان النكال ،
والحرمان من أبسط الضروريات ، التي يتمتع بها أى كائن من الأحياء . .
وكان لزاماً علينا أن نسأل الشيخ الحافظ ، وهو القائم بإنشاء المساجد
والدعوة لإعمارها ، عن رأيه بشأن هذه المؤسسات الإسلامية في ظل الضغوط
الموجهة إلى روادها . .

فجاء جوابه صريحاً شافياً كما يتوقع من خبير مثله .

لقد انفضَّ كثير من الضعفاء عن المساجد نتيجة الحملات التي تشنها
أجهزة الأمن على روادها ، وبخاصة في الفترة الأخيرة ، وقد ألقى هذا الوضع
تبعات ثقيلة على كواهل المخلصين من دعاة الإسلام تقتضيهم مضاعفة الجهود
لتنشيط المسلمين ، والصبر على محاولات أعداء الدين ، حتى يرفع الله المحنة ،
وهو لا محالة رافعها بفضلها ومنه ، تحقيقاً لوعده الذي لا يتخلف عن مواعده .

لقد أدرك أعداء الإسلام من مختلف الاتجاهات أهمية المسجد في حياة
المسلمين ، وأثره في جمع الأمة على الحق ، حتى يستحيل أفرادها ، كما ورد في
الأثر ، رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، فتضافروا فيما بينهم على تخريب المسيرة
المسجدية وإقصاء المسلمين عن هدايتها وهدايتها ، فعلى المؤمنين العاملين أن
يقابلوا ذلك بالتعاون على البر والتقوى ، ومواصلة الطريق في الدعوة إلى الله
بالحكمة والموعظة الحسنة ، والدأب الذي لا يعرف الخمود . . حتى يقيض
الله لهذا الدين من يقيم أركانه وينفذ حدوده ويرفع رايته ، ولن يكون ذلك
بالبعيد حين يتوافر للإسلام علماء الصالحون وحكامه المصلحون ، تحقيقاً
لقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله : « صنفان من أمتي إذا صلحا
صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : السلطان والعلماء » (١) .
وما النصر إلا من عند الله . .

* * *

١ — رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس مرفوعاً . « جامع بيان العلم وفضله » ١ / ١٨٤ ط
العلمية .

السيدة زينب الغزالي بحببيلي

قبل أن تكرمنا بزيارتها في المدينة المنورة عام ١٣٩٩ هـ كنت على صلة وثيقة بأخبارها ، إذ كانت مع أخواتها وإخوتها من المعذنين في سجون الطواغيت ، مطاف أرواح المؤمنين في كل مكان من عالم الإسلام ، يتتبعون أبناءهم ويستمعون أنينهم ، الذي تموج به أقبية الظالمين ، ولا يملكون لهم من عون سوى الضراعات الحارة يرفعونها إلى الله بإنهاء المحنة ، التي لم يسبق لها مثيل حتى في العهد الأول للبعثة ، يوم تكالب طغاة المشركين على لحوم الأبرياء يمزقونها بالسياط ويسحلونها على رمال مكة الحزينة ورمضائها الالهية . فهم ينظرون بأعين قلوبهم إلى هؤلاء الإخوة ، على الصورة نفسها التي كان ينظر بها صلاح الدين الأيوبي ، وجنوده المجاهدون ، إلى صليبي عكا ، وهم يذبحون الآلاف من مسلميها دون أن يجدوا منفذاً للوصول إليهم من وراء الأسوار ، ولا يملكون لهم سوى الدعاء والبكاء .

وكانت الأخت الفاضلة في جولة دعوية لإلقاء الأحاديث الواعظة ، في أوساط المدرسات والطالبات والجمعيات النسوية في هذه المملكة الإسلامية . وانتهزنا تلك المناسبة فدعوناها مع بعض أهلها لإفطار مع الأسرة في أحد بساتين المدينة ، وآسفنا أن مخلفات التعذيب في سجن حمزة البسيوني على ساقها لم تدع لها قدرة على الجلوس الطبيعي ، فتناولت الطعام وهي شبه متمددة على جانبها . وكان مشهداً جدد ذكريات الآلام التي توارت إلى حين ، عقب الإفراج عنها وعن بقية الشهداء الأحياء الذين تخلفوا عن مواكب البنا وسيد قطب ، والصفوة السابقين إلى الملأ الأعلى .

وكانت فرصة أخرى كريمة تلك التي لقينا خلالها هذه الأخت المجاهدة أثناء زيارتنا الأخيرة للقاهرة — محرم ١٤٠٤ — وأبت إلا أن تكرمنا بدعوة حضرها العديد من كرام الشباب والشيوخ العاملين في حقل الدعوة ، فزادتنا

هذه المناسبة علماً بمكانة هذه الفاضلة في نفوس أهل الحق ، ومدى تقديرهم لجهودها التي لا تتوقف في سبيل الإسلام ، الذي وقفت حياتها كلها على خدمته وترسيخ مبادئه وتعميق التوعية بمعانيه .

والواقع الذي لا يمارى فيه أحد من دعاة هذا الدين في مصر وسواها هو إجماعهم على أن أختهم هذه قد بلغت من الفضل والتسامي المنزلة التي تلحقها بكبار السابقين من عليّة المجاهدين في سبيل الله ، وقد شاء الله أن يمد في أجلها لتكون أحد شهود المأساة التي فرضها الظلم والزيغ والطغيان على حَمَلَة النور ، الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وإنما يريدون فقط إرشاد الضالين إلى الطريق القويم لاستعادة السلام والعزة والقوة المميزات لأهل الإسلام

وكانت مناسبة صالحة لاستطلاع آراء هذه الحكيمة المجربة في أهم القضايا التي تشغل بال مفكرى الإسلام . وقدمنا إليها الأسئلة التي أعدناها لهذه المناسبة ، وها هي ذى مع أجوبتها المفصلة .

م : من المقدمات التقليدية أن تتكرم الأخت الفاضلة بتعريف نفسها للقارىء اسماً وأسرة ونشأة وبيئة ودراسة .

السيدة : اسمى زينب الغزالى الجبيل ولدت في الثانى من يناير عام ١٩١٧ فى « ميت يعيش » فى مركز « ميت غمر » بمديرية الدقهلية من أعمال مصر ، ومن أسرة يميزها الطابع الإسلامى . فكان والدى من خريجي الأزهر الذين حصلوا على شهادته العالية التى تعادل الدكتوراه ، إلا أنه لم يعمل فى التدريس بل انصرف إلى التجارة ، إذ كان أبوه من كبار المزارعين ومن كبار الأعيان فى مديرية الدقهلية وقد درجت فى هذا البيت المحافظ على موارث الإسلام من فضائل السلوك والأخلاق والتربية ، وبعد وفاة والدى تركنا القرية إلى القاهرة ولما أتجاوز الثانية عشرة من العمر .

وعن خصائص هذه الأسرة تقول السيدة : كنا أحد عشر أخاً ثلاثة من الأب وثمانية أشقاء ، وقد توفى أكبرنا وتبعه الثلاثة ، وكانت الخاصة الأساسية

لهذه الأسرة هي الاحترام المتبادل بين أفرادها ، حتى ليختار كل منها في النهاية سبيله الأحب ، فكان منا المنتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ومنا الوفديون ، ومنا المستقلون ، والكل مخلص للجهة التي انتمى إليها سياسياً أو عقدياً .

أما الدراسة فتقول السيدة إنها كانت في خطوطها الرئيسية إسلامية ، تلقت أصولها عن شيوخ الأزهر ، فكان من أثر ذلك أن أقبلت على علوم الفقه والتفسير ثم الحديث الشريف ، وقد شغفت بالفقه وتعلقت به ، وأولت العلمين الآخرين الكثير من اهتمامها . . . على أن الصورة الغالبة على دراستها هي الخاصة التي لا يقيد صاحبها سوى الميل الذاتي ، أما الدراسة المنتظمة فقد وقفت بها عند حدود الثالثة عشرة .

وتُرَكِّز على أثر والدها في توجيهها الأدبي والفكري فتقول : لقد كان يدربنى على الخطابة من السادسة ، ويعنى بدراستي فيذاكر معي مقررات المدرسة فيجديني سريعة الحفظ لها ، ولا تقل درجاتي فيها عن الحدود النهائية . . . وكثيراً ما كان يقص عليّ أخبار الصحابيات بأسلوب مبسط ، يقرب المعاني إلى صغيرة لم تعد الثامنة . . . ومن ذلك حديثه عن الصحابية الجليلة أم عمارة المازنية نسيبة بنت كعب إذ يصور لي مواقفها الجهادية العظيمة في أحد والإمامة ، ثم يقص على أخبار هدى هانم شعراوي ، ويسألني في النهاية أيهما تختارين أن تكوني يا زينب ؟ . . . ويكرر عليّ السؤال ، ويعرض للمقارنة بين عمل المرأتين في تفصيل ودقة ، فيكون جوابي له : بل نسيبة يا والدي .

وتقول السيدة الفاضلة : لقد كان خلاف بين أبويّ في شأني ، فالوالدة تريد إعدادي لعمل المنزل فتأخذ بيدي إلى طبابخ الأسرة ، تأمره أن يعلمني ما وسعه من مهنته ، ولكن الوالد لا يلبث أن يستلني من هناك ويمضي بي بعيداً وهو يقول : أنت يا زينب لم تخلقى لهذا . وبينه الطباخ ألا يدخلني المطبخ أبداً ، ثم يبدأ في تحفيظي الشعر ، ويمرني على إلقائه . . . ومن هنا كان والدي رحمه الله أول المؤثرين في حياتي وفي توجيهي إلى النهج الذي اختاره لي الله ، ثم جاءت النقلة إلى القاهرة عقيب وفاة الوالد كما أسلفت . . .

وقد شاء الله أن تكون هذه النقطة الانطلاق لحياة جديدة استمرت حتى الآن قرابة نصف القرن . . . حياة مملوءة بالعمل والأحداث ، ذات الأثر البعيد الذى عرفت حتى اليوم بعضه ، وفى علم الله سبحانه ما سيكون بعده . ففى القاهرة بدأت أنواعاً من النشاط الاجتماعى والسياسى والإسلامى ، ثم استقرت مسيرتى فى طريق العمل الذى استأثر بولائى كله أخيراً .

ذلك أنى وجدت فى هذا المنهج الربانى عناصر كل إصلاح ، وبه نصصح أوضاعنا الاجتماعية ، وعن طريقه ننظم وجودنا السياسى حتى نعود خير أمة أخرجت للناس كما كان سلفنا الصالح وهكذا اندمجت روحى فى تعاليم الإسلام ، فأعطيتها حياتى كلها . . .

م : لاشك أن لتلك النشأة فى كنف ذلك الوالد الصالح ذى النظر البعيد أثرها العميق فى مسيرتك الفكرية والتوجيهية ، ولكن أليس هناك من أثر آخر لبعض الشخصيات الأخرى فى هذه المسيرة . . . ؟

السيدة : فى القاهرة التحقت أول الأمر بالاتحاد النسائى الذى كان على رأسه السيدة هدى شعراوى ، وظللت فى عضويته مدة كنت خلالها أتساءل : لم لا تتحول هذه الجمعية إلى مؤسسة إسلامية تنهض بواجبها نحو دعوة الله ؟ . . ولم يكن هذا الموضوع ممكناً أثناءئذ ، على الرغم من تقدير السيدة هدى لأفكارى ، وحرصها على استمرارى فى عضوية إدارة الاتحاد وأنا أصغر أعضائه سناً ، حتى وصل إلى علمى أن ثمة دروساً دينية رتبها قسم الوعظ فى الأزهر الشريف للسيدات ، فقصدت إليها مع زميلتين أخريين من الاتحاد النسائى ، هما السيدة سيزا نبلاوى والسيدة حواء إدريس ، وكان لذلك أثره فى تفكيرنا . إذ وجدنا المجال فسيحاً للمناقشة والبحث مع أولئك المدرسين ، وتوليت أنا إثارة الكثير من هذه المباحث النافعة انتهت بنا أخيراً إلى التفاهم معهم ، ومنذئذ انصرفت عن ذلك الاتحاد وفكرت فى تأسيس « المركز العام للسيدات المسلمات » وكان صاحب الفضل فى هذا الاتجاه هو الشيخ محمد سليمان النجار أحد العاملين فى قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر ، فقد كان لهذا الأستاذ أسلوب مؤثر فى سامعيه ، وقد أوتى حليماً وعلماً وصبراً ، إذ كان يختم كل

محاضرة بفترة كافية للنقاش الهادىء ، الذى ينتهى بنا إلى القناعة التامة بأن الإسلام هو النظام القائد إلى صلاح الجنس البشرى ، وهو الملاذ الذى يجب أن يتشبث الناس عامة بتعاليمه أياً كانوا ، فكيف إذا كانوا من المؤمنين بأنه دين الحق الذى أنزله الله ، وتكفل بحفظه واستمراره ! ...

وتستأنف السيدة الفاضلة حديثها فتقول : لقد نزلت بى فى تلك الأثناء أزمة صحية نذرت فيها لله أن أمضى فى تنفيذ عزمى بإنشاء المركز ، على أن يكون وسيلتى لنشر الدعوة الإسلامية والإهابة بالمسلمات فى كل مكان للعودة إلى المنهج الذى كانت عليه نساء السلف الصالح .

وحقق الله نذرى فأسست هذه الجماعة التى أولتنى شرف رئاستها منذ قيامها ، واتخذنا من الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان النجار ، الذى كان أول أستاذ لى فى الدعوة ، أول مستشار لها . .

يقول أبو غسان : ويخطر لى أن أتساءل هنا عن السر الذى كان يدفع هدى شعراوى للتشبث ببقاء هذه الفاضلة فى اتحادها النسائى ، وحرصها على الاهتمام بأفكارها والتظاهر بتقديرها ؟ . . والذى أراه أنها كانت على إدراك تام لنزعتها الإسلامية وحجم مواهبها العالية ، فهى تحرص على استرضائها والاحتفاظ بها خشية انصرافها إلى تحقيق ميولها الإسلامية ، التى لا تتفق مع خطتها التغريبية

م : حتى الآن لا يبدو لك ولا لجماعتك أى علاقة بالإخوان المسلمين فمتى حدثت هذه العلاقة ؟ . . وكيف ؟ . .

السيدة : عندما قمت بتأسيس المركز العام للسيدات المسلمات عام ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م لم يكن لى أى علم عن الإمام حسن البنا ولا عن جماعة الإخوان ، وكنت قد أسست معهداً ملحقاً بالمركز يتولى تربية الفتيات من السادسة عشرة ، وإعدادهن لمهمة الوعظ والإرشاد فكان يدرسن فى هذا المعهد العربية والحديث والتفسير وطرق الدعوة . . . وذات يوم زارنى فى المركز فضيلة الشيخ عبد اللطيف الشعشاعى ، ولأول مرة عرفت عن طريقه أخبار الإخوان المسلمين ومرشدهم حسن البنا ، وسرئى ما سمعته عن أفكار هذه الجماعة ، واتفقت مع فضيلة الزائر على أن يكون أحد المدرسين فى المعهد ، ومن ثم أصبح همزة الوصل بيننا وبين

جماعة الإخوان المسلمين ، حتى إذا كان أواخر العام ١٩٣٨ تلقيت دعوة من فضيلة المرشد العام لإلقاء محاضرة على جمع من الأخوات المسلمات في دار الإخوان بالعتبة الخضراء ، فلبيت الدعوة وحضرت إلى هناك ولما أشرفت على نهاية المحاضرة وُضِعَتْ أمامي ورقة تحمل دعوة من الإمام البنا لمقابلته بعد صلاة المغرب . . وفي الوقت المحدد أقبل أحد الإخوان فتقدمنى إلى مكتبه ، وكان جالساً على مقعد طويل فرحب بى ودعانى للجلوس على مقربة منه . . . وبعد كلمة الترحيب جعل يحدثنى عن أهداف جماعته ، وعرض لى رغبته فى إنشاء جماعة باسم الأخوات المسلمات ، وأنه مضى فى هذه السبيل خطوات ، ويريد أن يجمع بين جماعة السيدات والأخوات المسلمات ، وبدل أن تكون ثمة جماعتان إحداهما للسيدات المسلمات والأخرى للأخوات المسلمات ، تقوم جماعة واحدة باسم الأخوات المسلمات وبرئاستك . . . ومضى يشرح لى فكرته وضرورتها من أجل وحدة المسلمين ولمصلحة الدعوة الواحدة وأشعرنى فضيلته أنه ينتظر رأى بصراحة ، فقلت له : أرجو من فضيلة المرشد أن يدع لى مهلة أراجع بها مجلس المركز العام للسيدات المسلمات فقال : لا بأس . . . ولكن أحب أن أقف على رأىك الخاص فى هذا العرض ؟ فأجبت : لا أستطيع أن أبدى رأياً بهذه السرعة ، ولا بد من العودة أولاً إلى مجلس الإدارة . إلا أنه لم يكتف بما سمع بل ذهب ييسط لى من جديد ضرورة وحدة العمل الإسلامى ، ووحدة العاملين للدعوة رجالاً ونساء ، وعلق أهمية خاصة على وحدة الصف ووحدة الرأى ووحدة الكلمة . . ولكنى ظللت على كلمتى الأولى بوجوب العودة إلى المسئولات قبل البت بأى شئ .

وفعلاً عرضت الأمر على مجلس الإدارة وانهينا من البحث إلى قرار يقضى بأن تظل السيدات المسلمات هيئة مستقلة فى عملها وإدارتها وأفكارها ، ولا مانع لدى المركز العام للسيدات المسلمات من التعاون مع الإخوان المسلمين فى نشر الدعوة ، وأن تكون هناك حركة اتصال مستمرة بين الجماعتين لتوحيد الصف والرأى والتأليف بين وجهات النظر ، على أن يظل كل من الفريقين على استقلاليته

ومرّ على ذلك ما يقارب العشرين من الأيام ثم أرسل يدعوني لمقابلته ، حيث أبلغته قرار المجلس . . وكان بيننا هذا الحوار :

— أخبريني يا زينب مع أى الجانبين كنت ؟ مع المؤيدين للاندماج أم مع المعارضين له ؟ . . .

— كنت مع المعارضين يا فضيلة المرشد

— إذن فأنت غير مقتنعة بالاندماج ؟ .

— ولقد صارحتك من قبل أن « السيدات المسلمات » هى حبة قلبى وسويداؤه . .

— ويوم تكون الأخوات المسلمات ستكون كذلك حبة قلبك وسويداءه .
ومع ذلك أرجو أن لا ينتهى لقاءنا بهذا القرار . .

ولبت فضيلته يلتقى بى على مدى عشر سنوات حتى عام ٤٨ ، إذ كانت الحكومة الملكية قد أصدرت قرارها بحل الإخوان المسلمين ، واعتقلت الكثير منهم ، وصادرت دورهم وأموالهم . . وقد أحدثت بى هذه المواقف أثراً كبيراً ، ورحت أذاكر الأمر مع نفسى . . وكانت الأخوات المسلمات قد أصبحت هيئة قائمة ، فأخذن يترددن على مركزنا ، ويقصصن علينا ما يقع لهن لدى المسؤولين ، وعندما يذهبن إلى السفارات الإسلامية بشكاواهن واحتجاجاتهن على تصرفات السلطة مع الإخوان . . وأحسست بالصدمة كبيرة ، وتساءلت : لِمَ يُضطهد الإخوان المسلمون . . ولا ذنب لهم سوى الدعوة إلى الله ، والسعى لإصلاح المجتمع ؟ ! وكان الإمام الشهيد محتجراً فى منزله لا يصرح له بمغادرته إلا إلى جمعية الشبان المسلمين فى شارع الملكة نازلى ، أو لمقابلة أحد المسؤولين ، وقد أصبحت السجون تعج بالمعتقلين من أعضاء الجماعة . . وهناك استقر رأبى على أمر فبعثت إلى الإمام الشهيد بوريقة صغيرة أودعتها هذه الكلمات :

فضيلة الإمام المرشد حسن البنا . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فإن زينب الغزالى الجبلى هى اليوم أمة مجردة من كل شىء إلا عبوديتها لله سبحانه وتعالى ، وليس لأحد أن يتصرف بها سواك . . أنت وحدك الذى يستطيع أن

يبع هذه الأمة بالثمن الذى يرضيه لدعوة الله . بانتظار أوامرك / زينب الغزالي الجبيلي .

ولم يتأخر جواب الإمام وفيه يقول : إنه سيكون بدار الشبان المسلمين فى تمام الخامسة . وفهمت من ذلك أنه يريد لقائى هناك . وفى الموعد المضروب كنت أصعد درج جمعية الشبان المسلمين مع الإمام البنا ، وانتهينا إلى الدور الثانى وقدمت إليه بيعتى مباشرة ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحد الجنود المجهولين فى صفوف الإخوان المسلمين . .

وقبل الانتقال مع الاستطلاع إلى الخطوة التالية يحسن بى أن أطرح على نفسى هذه الأسئلة :

١ — لِمَ أخرجت السيدة بيعتها للمرشد العام كل هذه السنوات إلى ذلك اليوم ؟ ! .

٢ — لِمَ حددت السلطة حركة الإمام الشهيد فى نطاق هذا المثلث الضيق وحده : منزله — جمعية الشبان المسلمين — مكتب المسئول الذى يريد مواجهته ؟ ! .

أما أنا فلا أرى تفسيراً للسؤال الأول إلا عمل الإيمان فى نفس هذه البطلة العجيبة . لقد كانت على أتم القناعة بسداد النهج الذى يسلكه الإمام البنا ، ولكنها كانت إلى ذلك حريصة على الاحتفاظ بمؤسستها العالية ، التى تقول إنها كانت بالنسبة إليها كالولد الوحيد لأم لا ترى سبيلاً إلى سواه . . بيد أنها لما شاهدت نوازل المحنة تضرب الإخوان ، لغير سبب سوى ما تؤمن بأنه الواجب والحق ، كبر عليها أن تسلم من ذلك البلاء ، وأبت عليها مروءتها إلا أن تتحمل قسطها من المحنة . .

ويا لها محنة سبق إليها صاحب رسول الله عثمان بن مظعون حين شاهد الأطهار من إخوانه يفتنون ويقتلون ويعذبون ، وهو فى نجوة من البلاء بجوار الوليد بن المغيرة ، فردّ عليه جواره ، إثارة لجوار الله ، وليشارك المستضعفين فى آلامهم ، حتى يقضى الله بأمره ! .

أما تفسير السؤال الثانى فلا يخرج عن تقدير واحد لا ثانى له ، وهو اتخاذ

ذلك المثلث الضيق فحاً يُسهّل على عبيد الطواغيت مهمة اغتيال الرجل ، الذى
زلزل الأرض تحت أقدامهم . . ووصلت دعوته الخالصة لله إلى كل مكان تطل
عليه الشمس . .

وتستأنف السيدة المجاهدة حديثها عن أيام الشهيد الأخيرة ، فتقول : لقد
استمر اتصالى بالإمام عن طريق بيت أخى ، وكانت أول رسالة منه إلىّ تكليفاً
بالتوسط بين الإخوان والنحاس الذى كان خارج الحكم ، وعيّن النحاس
المرحوم أمين خليل للقيام بإزالة سوء التفاهم ، وكنت أنا حلقة الاتصال . .
و ذات ليلة من فبراير سنة ١٩٤٩ م جاءنى أمين خليل يقول لى : يجب
الإسراع بسفر الأستاذ البنا من القاهرة ، فاجرمون يأتمرون ليقتلوه . .

ولم أجد يومئذ وسيلة للاتصال بالإمام إذ كان أخى قد اعتقل ، فحاولت
لقاء شخصياً ، وبينما أنا فى طريقى إليه بلغنى نبأ اغتياله .

من — كان نصيبك من المحنة كبيراً وبخاصة فى أزمة ١٩٦٥ فلو تفضلت بسر
أهم هذه الوقائع ؟ .

السيدة : ابتدأ نشاطى العملى مع الإخوان المسلمين من عام ١٩٥٤ عندما
كشف لهم عبد الناصر عن طويته ، وتنكر لعهوده التى قطعها لهم بتنفيذ
شريعة الله وإقامة أحكامها ، وكان علىّ أن أشارك فى تحمل المقدور من
البلاء الذى صبه الطاغية على الإخوان ، فقررت مع الشهيد عبد الفتاح
عبد إسماعيل إعادة تنظيمهم ، بعد أن بدأ المتسلطون فى الإفراج عمن لم
يصدر عليه حكم من الإخوان . . وبإذن من الإمام الهضيبى أقدمنا على
إقامة تنظيم نعيد به نشاط الجماعة ، وركزنا على التربية الفردية بوجه
خاص ، وعملنا فى مساعدة أسر السجناء ورعايتهم وتوفير ما أمكننا من
الأسباب التى تحافظ على أبنائهم تعليماً وتنشئة على المنهج الإسلامى ،
وقد وفق الله مساعينا ، حتى جاءت أحداث ١٩٦٥ وأدخلنا السجن
فى قضية العصر ، ونُصّر على تسميتها كذلك لأنها قضية الرسالة
الخاتمة . . وكالجزرة السابقة عام ٥٤ تمّت مجزرة العام ١٩٦٥ فى
ظلمات الإرهاب الناصرى ، وأكرم الله بالشهادة قافلة جديدة كان على
رأسها سيد قطب ، وقدر الحياة لبقية القافلة من المعذبين ، الذين شاء

الله أن يغادروا مجازر الطواغيت أعلاماً ، لم تزدهم المحن إلا صفاء وألقاً وتصميماً على مواصلة الجهاد في سبيله ، حتى تقوم دولة الإسلام مناراً يشع على الدنيا بأنوار الخير والحب والعدالة . . وليعذرني فضيلة الأستاذ المجذوب إذا أوجزت الكلام عن هذه المرحلة الرهيبة ، وإذا كان ثمة ضرورة لبسط الحديث عنها ففي كتابي « أيام من حياتي » ما يفي ويشفي . »

وأقول للقارئ بدورى إن في صفحات هذا الكتاب المتين ما لا غنى عنه لمسلم يهيم الوقوف على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال هذا القرن ، ويريد أن يعرف نوعية الطواغيت الذين يواجههم أهل الحق ، وقد أعدوا لدعائهم من أنواع النكال ما لم يخطر على بال السابقين من أصحاب الأخدود . .

لقد أتيت لهذه السيدة أن ترى وتسمع وتعاين من وحشية الجلادين ما لا يخطر في تصور ذئب ضار طارٍ أُطلق في قطيع من الغنم ، فهو لا يكتفى بالنهش والقضم ، ولكنه يحاول ألا يدع واحداً من القطيع دون تمزيق وتخطيط وتشويه . .

لقد تجددت في تلك المجزرة مأساة آل ياسر وهم يتلقون نكال أبى الجهل ، من السياط إلى الإغراق بالماء إلى الطعن بالحراش ، فلا يرى منهم سوى الصمود الخارق الذى يتحدى عالم الكفر كله بغزة الإيمان ، بل لقد استحدث ورثاء أبى جهل في سجون هؤلاء الطواغيت من ألوان التعذيب لدعاة الإسلام . ما لم يدر بخلد أبى جهل وأعوانه قط . . فعلاوة على الطرائق التقليدية من الجلد والحرق والصلب والإغراق في الماء والأقذار . . كان هناك تعليق الضحايا من أقدامهم مع إلهاب سائر أعضائهم بالسياط ، التى شبهها رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، بأذنان البقر . . ثم هناك الاعتداء على أقدس كرامات الإنسان مما لم يسلم من هوله إلا من أدركه الله بمعجزة منه ، كما صنع لطفه بأمته العظيمة الصابرة زينب الغزالي الجبيلي في أخرج اللحظات ! .

ومع كل هذه الفواجع لم يجد حمزة البسيوني وشمس بدران وصفوت الروي نفوس ضحاياهم البررة ما يطفى نيران قلوبهم ، ولم يستطيعوا أن يحنوا من

تلك الرؤوس الشاخصة إلى السماء سوى واحد غلبه الخوف من عذاب
المجرمين ، فسعى عذاب رب العالمين ، وراح ينفث ما يريده الجلادون من التهم
للمؤمنين . . وحسبهم هذا الإخفاق خساراً ومهانة . .

وهنا يراودنى تساؤلان أحدهما يتصل بهذا المسكين الذى أذله الرعب
فانطلق يقذف بالباطل على الحق ، حتى كان أحد المسوَّغات لإعدام خير شباب
مصر سيد قطب وإخوانه . . أترى لانهياره من مبرر فى حكم الشرع ؟ . وهل
يدخل مثله فى زمرة المضطرين الذين أبيح لهم أن يقولوا ما يكرهون وقلوبهم
مطمئنة بالإيمان ؟ ؟ . .

أما أنا فلا أجد له عذراً يلحقه بالمضطرين ، لأن المفتونين الأول إنما أبيح
لهم ذلك فى حقوق الله فقط حتى الكفر ، ولا نعلم سابقة واحدة أبيح فيها
لأحدهم أن يوقع بالأبرياء فيرميهم بما يسوقهم إلى الموت ليحصل بذلك على
السلامة من العذاب أو الموت . .

ويبقى ثانى التساؤلين خاصاً بهذه السيدة التى نكتب خلاصة عن سيرتها
العجيبة . .

لقد رأينا عند الكلام عن بيتها المنزلية تلك النشأة الناعمة التى أحاطت بها
فى ذلك البيت المترف ، وفى ذلك الدلال الذى نعمت به من والدها ، حتى
لا يسمح بشغلها فى عمل المنزل . . فكيف تسنى لها ذلك التماسك الخارق
أمام مخالب القتلة والمجرمين ، حتى لتعجز وسائلهم الرهيبة كلها عن إيهان
عزيمتها فضلاً عن سحق مقاومتها ! ! .

الحق أننى لا أجد لذلك من تعليل سوى الإيمان ملاً وجودها بالمثل العليا
التي تعلمتها من حياة سُمَيَّة ونسيبة وزَيِّرة . . .

ألا نذكر ذلك الدرس الذى تلقته على أبيها يوم عرض عليها حياة كل من
المرأتين ، الأنصارية نسيبة بنت كعب المازنية ، والمستغربة هدى شعراوى ، ثم
كرّر العرض وكرّر السؤال : أيهما تريدان أن تكونى يا زينب ؟ . فإذا هى
تجيبه بملء ما فى قلبها من القناعة : بل نسيبة يا والدى . . . وها هى ذى
تؤكد لنا بصبرها على ألوان العذاب حتى الحكم بالإعدام ، أنها ملتزمة بمنهج أم

عمارة ، تلك اللبوة التي ملأت الجراح جسدها الطاهر وهي تذود عن رسول الله ، عليه صلوات الله وسلامه ، يوم أحد . .

ولقد علمت حتى وثقت أن جراحات زينب في سجون الطغاة لا تقل عدداً عن جراح أختها نسيبة في ذلك الموقف ، ولا تتأخر عنها في الدلالة على البطولة المرضية لله ولرسوله ، إن شاء الله .

وما أراى مغالياً عندما قلت في قصيدتي المطولة « عبر وعبرات » أيامئذ وأنا أصف محنة زينب الغزالي وحميدة قطب وعليه الهضيبي وغادة عمار وإخوتهن :

ومحتجز في غيب السجن شوهدت	معالمه المثلى يد المشلات
تفنن جلادوه في العسف والأذى	ولم يحن رأساً أو يفه بشكاة
تراه على الأغلال شلواً ممزعاً	يُخَيَّل للرائين بعض رفات
بنفسى وجوه أطفال الجور بشرها	وإن هى لم تبرح وجوه هداة
تنازعها لفح العذاب فأصبحت	وليس بها إلا ذماء حياة
لئن سلبت نور الحياة فلم تزل	تتير سواد الليل بالصلوات

س — ما مدى تأثير هذه المحن على حياتك ، وما العبرة التي خرجت بها من تلك التجارب الرهيبة !

السيدة : خرجت من المحنة على أتم الاستعداد للجهاد في سبيل الله حتى الموت أو قيام الحكم الإسلامى وعودة الخلافة ، وهذا عهد منى لله أن استمر على هذا الخط حتى ألقاه ، وقد سلمت راية الجهاد إلى واحدة من بناتى لتواصل الطريق في سبيل الدعوة ، التى من أجلها نحيا ، وفيها نموت ، وكل عيش بدونها فموت محقق (٧) .

س : فضيلة الأخت . هل لك أن تمدينا بلمحة عن مطالع نشاطك القلمى ، والأغراض التى غنيت بها فيما أسلفت من إنتاج ؟ .

السيدة : لقد زاولت الكتابة في سن مبكرة ، فمنذ الرابعة عشرة بدأت أكتب

١ — الحكمة من الله لم ترزق الأخت بولد ، وصرف الله سبحانه عواطفها نحو دعوته وجنودها فما فيهم إلا ولدها وبنتها .

وتنشر لى الجرائد والمجلات ، أذكر منها روزا اليوسف وغيرها ، وبعد تأسيس المركز العام للسيدات المسلمات كانت الصحف تحصل منى على أحاديث وموضوعات . . ثم جعلت أنشر مقالاتى فى شبه انتظام بمجلة « نور الإسلام » التى كان يصدرها قسم الوعظ والإرشاد فى الأزهر . . وكان اللون الإسلامى هو الطابع الرئيسى فى كل ما كتبت وأكتب والله الحمد والمنة . وذلك طبعاً غير الذى كانت تكتبه فى « مجلة السيدات المسلمات » .

س : سبق أن حدثتنا فى المدينة عن مذكرات كتبها عن أيام النكبة ثم فقدتها ، فلو تكرمت بملخصة عنها وعن ظروف ضياعها . وعما إذا كنت قد أعدت كتابتها من جديد ؟ .

السيدة : هذه المذكرات سرقها من منزلى بعض العملاء ، ولكن الله عوضنى عنها بكتاب « أيام من حياتى » وهناك تخطيط فكرى لكتابين : الأول فى إطار « الإسلام » والآخر بعنوان « قصة الوجود » إذا مدّ الله فى الأجل رجوت أن أوفق إلى إخراجهما قريباً إن شاء الله . . والأمر فيهما موقوف على تيسيره سبحانه .

س : تعتبر مصر أهم أكبر منائر العلم فى العالم الإسلامى ، عن طريق الأزهر ، أو عن طريق الحركة الإسلامية فيها ، وقد لمسنا ذلك فى كل قطر زرنه من وطن الإسلام . فما توقعات فضيلتك بالنسبة إلى دور مصر فى هذا الصدد ، على مستوى العالم الإسلامى قريباً وبعيداً ؟ .

السيدة : أعتقد أن مصر هى المنطلق الذى ستبغ منه اليقظة الإسلامية إن شاء الله ، وأظنك تقصد بالحركة الإسلامية فى مصر حركة الإخوان المسلمين ، بوصفها التحرك الإسلامى العالمى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فليست الجماعات الإسلامية الأخرى إلا نباتاً أنبثق من حديقة الإخوان المسلمين ، وهو عندما يستوى على سوقه ، ويعى رسالة المسلم الحق لا يسعه إلا أن يعود إلى أصله ومصدره . . وفى يقينى أنه من مصر سترفع راية التوحيد من جديد ، توحيد الله فى ألوهيته وربوبيته وحاكميته ، وتوحيد المسلمين بقيادة محمد رسول الله لإقامة

نظام الإسلام المنقذ ، كما أنزله الله ديناً ودولة وحرية وسلاماً للمسلمين وللعالمين . .

س: على الرغم من كل المعوقات التي تواجه الدعوة الإسلامية في مصر ، يلاحظ أن ثمة نهضة إسلامية تتنامى بقوة في أوساط الجامعات وبخاصة في الكليات العلمية منها . . فما تفسير فضيلتك لهذه الظاهرة وما توقعاتك بشأنها ! . .

السيدة : لم تأت هذه النهضة من فراغ ، فشباب مصر ينتمى إلى الفكر الإسلامى الذى أيقظ طاقاته مجدد الدعوة الإسلامية الإمام حسن البنا ، ثم خلفه الإمام الهضبي ، الرجل الذى ينطبق عليه وصف رابع الراشدين القائل : « أنا فى حق نفسى كالعبيد وفى حق دينى ورى كالخديد » فعلى طريق هذين الإمامين انطلق شبابنا الإسلامى يبنى وجوده على أساس العقيدة السليمة والإرادة الحازمة ، فكان طبيعياً أن يصطدم بالعقبات التى يقيمها الكارهون لحقائق الإسلام ، فكانت المآسى التاريخية ، وكانت مجازر الـ ٤٨ و ٥٤ و ٦٥ ، وكان الصمود وكانت البطولات التى أعمت الظالمين ، وحركت طاقات الإيمان فى صدور المسلمين ، فكثرت الجماعات الإسلامية ، وكثرت التحركات الإسلامية ، ولكنها على تعددها واختلاف مناهجها متببهة أخيراً إلى الوحدة بمشيئة الله ، تحت راية الجماعة التى بايعت الله على ألا تفتر عن الجهاد المشروع حتى تتحقق أمنيتها بإقامة الدولة الربانية وعودة الخلافة الإسلامية إن شاء الله .

س: لقد أثبتت جماهير المسلمين فى مصر خلال أكثر من استفتاء أنها مع تطبيق الشريعة السمحة ، ومع ذلك لم تنزل حكومة بغيرها ، وها نحن أولاء نرى أقطاراً إسلامية كموريتانيا وباكستان والسودان تسبق مصر فى هذا الميدان ، فما السبب فى ذلك ؟ . .

السيدة : طبعى جداً أن تكون إجابة السواد الأعظم من المصريين فى جانب الشريعة المطهرة ، وهكذا جاءت نسبة الموافقين ٩٩ ٪ ولم يرفض هذا الاتجاه سوى النزر اليسير وهو من غير المسلمين طبعاً ، لأن المسلم الذى يرفض حكم شريعة الله يرتد عن دينه ويتبع غير سبيل المؤمنين ، لإنكاره

معلوما من الدين بالضرورة . . فالشعب المصرى إذن محكوم دون إرادته
بالأنظمة الوضعية ، التى جرت على مصر ، وعلى الإنسانية بأسرها ،
أنواع الشقاء وفنون الأرزاء .

أما سبق الأقطار الإسلامية التى ذكرتها إلى تطبيق الشريعة فهو خير
نتمنى دوامه وتناميهِ فى الطريق السليم ، وفى يقينى أن ذلك هو الوضع
الطبيعى الذى لا مندوحة عن الاتجاه إليه ، بعد أن أفلست سائر
التنظيمات التى فرضها الزائفون على شعوبهم بتوجيه أعدائها ، ولئن تأخر
تحقيق ذلك فى مصر حتى الآن إنما هو إلى حين ، وفى النهاية لا بد من
زوال العقبات المصطنعة التى يقيمها الجاهلون والمضللون فى وجه العودة
إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها .

س : إن خبراتك الطويلة فى نطاق الحركات النسوية تدعونا لأن نستوضح
رؤيتك إلى مستقبل المرأة المسلمة فى مصر خلال ما تبقى من القرن
العشرين ، وما نواجهه من مطالع القرن الخامس عشر ؟ .

السيدة : منذ أسست المركز العام لجماعة السيدات المسلمات كنت
— ولا أزال — أعتقد جازمة أن ليس للمرأة المسلمة قضية منفصلة عن
قضية الرجل المسلم ، فالكل مسئول عن مصير الوجود الإسلامى فى مصر
وحسبنا فى ذلك قول ربنا تبارك اسمه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم
أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ التوبة ٧١ . وإنما
جاءنا هذا التفريق بين مسيرتى كل من الجنسين من قبل التيارات الوافدة ،
التي تستهدف صرفنا عن أهدافنا العليا إلى توافه الأمور . أما الفروق التى
قررها الشرع الحكيم بينهما فى بعض الجوانب كاختلاف أنصبة الميراث ،
وقوامة الرجل على النساء ، وما إلى ذلك فإجراء تنظيمى قدّر فيه تخصص
كل منهما من جهة الاستعداد ، فالمرأة أم وللأمومة خصائصها ولوازمها ،
وهى زوجة وللزوجة حقوقها وواجباتها ، وهى راعية فى البيت وذلك هو
مركزها الطبيعى . . وهكذا القول فى الرجل فقد زوده الخالق بكل
ما يساعده على قيادة الأسرة ، وتأمين مصالحها ، والذب عن سلامتها ،
ولكل من هذه المهام وسائلها المناسبة . وبالتعاون المخلص بين الرفيقين

تتكامل الحياة وتتوافر السعادة للجميع . . وفيما عدا ذلك فمستوليتهما متكافئة في نطاق الواجب نحو المجتمع المسلم ، على أساس القاعدة النبوية « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . » وإذن فالقضية الجامعة بين الجنسين هى ضرورة العمل الدائب لإقامة المجتمع الإسلامى المتكامل ، ويومئذ فقط يجد كل منهما طريقه الصحيح إلى سعادة الدارين . . وعندئذ تخفت هذه الأصوات الناشزة . التى تنعق بما يوحى إليها شياطين الجن والإنس ، دون أن تعى ما تقول وما تعمل . . .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . . .

الجريمة !!

« مع الضحى . جاء صفوت وأخرجنى من الماء . ورمانى فى زنزانة أخرى بجوار زنزانة الماء . . ابتلعتنى هذه الزنزانة . . وتكورت فى ركن من جوفها مستندة إلى حائط . . كان الحائط بالنسبة إلى وسادة ناعمة محشوة بريش النعام !! كانت آلامى عاتية متنوعة . . آلام الجوع تفرى أمعائى . . وآلام جروحي تمزقنى . . جروح جسدى وجروح نفسى . . لقد صرت كتلة آلام كل جزء منها يئن ويصرخ !!

ويدخل صفوت ومعه مارد أسود !! أخذ يتحسس سوطه بيده اليسرى ثم يضرب الأرض والحائط . وكأنه يستحث لهيبه . أو يستنفر حميته !! ووقف صفوت وألقى أوامره وتعليماته إلى هذا المارد الأسود بأن يرتكب أشنع جريمة ممكن أن يقترفها بشر . . !! وترك له السوط وهو يقول فى صلف وغرور : إذا وجدت منها أى معارضة فالسوط معك . . .

انشغلت عن هذا السفه بالله سبحانه وسألته متوسلة إليه « اللهم إنى أمتك ، وعلى عهدك ما استطعت أدعوك بضعفى ، وقلة حيلتى ، وانكسارى ، وهوانى على الناس . أن تدفع عني شر الأشرار ، وتحمينى بقدرتك ، وتعيننى على ظلمهم . .

أخرجني من إغراقتي في مناجاة ربي. صوت هذا الإنسان المأمور بإيذائي
بأبشع جريمة . . يناديني « يا خالة ! ! » ونظرت إليه . ودهشت . . فقد
تغير وجهه وارتسمت عليه ملامح إنسان ! !

ثم بصوت منخفض فيه شفافية : لا تخافى يا خالة . . لن أؤذيك ،
ولو قطعوني . . فقلت بصعوبة بالغة : ربنا يهديك يا بنى . . ربنا يكرمك .

فتح باب الزنزانة في عنف وانطلق صفوت الروى يضرب الرجل بالسوط
ويسبه ويقول : يا ملعون . يا ابن الكلب . . لقد أوردت نفسك مورد
الهلاك ، وستقدم إلى مجلس عسكري . هذه أوامر جمال عبد الناصر يا ابن
الكلب أنت تكسرها ؟ ! أنقذ نفسك فوراً قبل أن أذهب بك إلى شمس باشا
يحولك إلى مجلس عسكري . . ثم أعاد عليه الأوامر الفاجرة والتعليمات
الفاجشة بكلمات صريحة صارخة لا يمكن أن تخرج من فم إنسان . وأغلق
الزنزانة وأطل من الفتحة وقال أنا سأتركك ساعة ، ثم أعود إليك لأنظر ماذا
فعلت . . أنقذ نفسك ، ونفذ الأوامر ! ! .

حيا الجندى صفوت تحية عسكرية من داخل الزنزانة وقال حاضر
يا أفندم ! ! .

كنت أستمع إلى هذه الجاهلية وذلك الفجور ، فأناجى ربي بتلك
الكلمات ، « إنها دعوتك . ونحن جندها . وشهداؤها . . فغيرتك على
جندك . وأعراضهم يا الله ! ! اجعلنا أقوى من ظلمهم وألوان تعذيبهم » وكنت
أدعو لهذا الرجل بالهداية . ظننت أن هذا الرجل — بعد الأوامر الجديدة —
سيخشى البشر ، فيسلك مسالك الوحوش . . ولكنه كان رائعاً وشجاعاً .
وقال لى فى براءة الأطفال : لماذا يعذبونكم هكذا يا خالة ؟ .

فقلت : إننا — يا بنى — ندعو الله . ونريدحكم الإسلام لهذا البلد .
ولا نطلب لأنفسنا سلطاناً . .

وسمعت أذان الظهر فتممت على حائط الزنزانة وأديت الصلاة . فقال فى
رجاء « ادعى لى يا خالة » فدعوت له بالهداية وقمت لصلاة السنة . فقال :
ادعى لى أن يكرمنى الله بالصلاة يا خالة . . أنتم لستم بشراً . ربنا يخرب بيتك

يا عبد الناصر !!

فقلت له : هل تعرف الوضوء ؟ .

فقال : طبعاً . أنا كنت مواظباً على الصلاة .. لكن جيش حليلة
لو رأوني أصلي يسجنوننى . . .

فقلت له : صلّ ولو سجنوك . فالله معك .

فقال ونور الإيمان يملأ وجهه « سأصلي » .

وهنا ضرب أحد الجنود باب الزنزانة بعنف وقال : يا ابن الكلب ماذا
تفعل ؟ !! .

فقال الرجل : الست لم تفرغ من الصلاة .

فقال الجندى فى صفاقة : صفوت آت إليك . وأرسلنى أنظر ماذا
فعلت .

وجاء صفوت كحيوان مجنون وهجم على الرجل بوحشية شرسة . وظل
ينهاى بسوطه على الرجل إلى أن أفقده حتى الأنين !! وجاء مساعدو الجلاد
وحملوا المسكين إلى مصيره ، وأغلقت الزنزانة على آلامى وهمومى .. آلمنى
ما نال هذا الرجل بسببى . إن الله أضاء بصيرته فلم يطع الظالم !! كانت
السياط التى مزقت جسده تمزق جسدى وتحفر أخاديد فى نفسى !! .

وهربت من همومى وآلامى إلى صلاة العصر (١) .

* * *

الشيخ صلاح أبو إسحاق عيل

كثيرون جداً أولئك الذين يريدون أن يقرأوا سيرة هذا الرجل في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، وليس مرد تلك الإرادة إلى آثار علمية كثيرة قدمها إلى أمتهم أو كشف جديد أضافه إلى حقول المعرفة البشرية ، وليس هو واحداً من أولئك الانقلابيين الذين يستولون بالحديد والنار على أزمات شعوبهم ، ومن ثم على وسائل إعلامها ، فيملثون الدنيا صراخاً بآثارهم وعجائب عبقرياتهم ، ويقرعون الأسماع صباح مساء بالحديث عن مواهبهم التي أحالت الصحارى جنناً ، والهزائم انتصارات ، والتخلف تقدماً وازدهاراً . .

أجل . . لا لشيء من هذا أو ذاك يريد المسلمون المعنيون بشئون دينهم وأحوال أمتهم أن يقفوا على بعض التفصيل من سيرة هذا الرجل ، ولكن لسبب آخر من حقه أن يجتذب أنظارهم وأفكارهم ، لأنه بات في أيامهم هذه من التحف النادرة التي قلما يقعون عليها في واقعهم ، مع أنها من الخصائص الأولى لهذه الأمة التي ميزها الله بالخيرية ، المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

ولعل معظم هؤلاء الكثيرين قد فوجئوا لأول مرة باسم هذا الرجل يوم ألقى بقذيفته المدوية أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمة من يسمونهم « جماعة الجهاد » في القاهرة ، فانطلق صدها يتردد في الصحف والإذاعات العالمية ، ثم لم يتوقف دوئها حتى اليوم . . وحق لهم أن يفاجئوا ، وحق لوسائل الإعلام العالمية أن تردد ذلك الصدى ، لأنه كان نذيراً بأنه لا يزال بين علماء الإسلام من يؤثر مرضاة الله على النفس والحياة والمنصب ، فيعلن شهادة الحق في أخرج المواقف ، يرسلها مجلجلة ناصعة لا تخاف في الله لومة لائم ، حفاظاً على قلبه من أن يخالطه الاثم الذي أوعده الله به كاتمي الشهادة . .

وإنها لعمراً الحق لبطولة تفوق سائر البطولات التي ألف الناس أن يمجّدوها

ويقوموا لها الأنصاب والمعالم . . وبخاصة بعد أن خرست أصوات الصادقين وطغت ضوضاء المنافقين ، وأصبحت فنون البلاء موكلة بالألسن ، فهي تهيب أن تهمس بكلمة الحق خشية أن تقطع أو تنزع . .

وبهذه الروح ، وبهذه النظرة إلى موقف الرجل في ذلك اليوم التاريخي ، قصبت إلى زيارته في داره بحى الدق من القاهرة ، وكان الحوار الذى أفضى إلى هذه الصفحات .

إنه الشيخ صلاح أبو إسماعيل من علماء الأزهر الغالى على قلوب المسلمين ، وعضو مجلس الشعب الذى عرفه من أشد المنافحين عن شريعة الله والصادعين بالكلمة التى ترضى الله وتسخط كل عدو له . .

يقول إنه ولد في بهرمس — مركز إمبابة — محافظة الجيزة بمصر ، يوم السابع عشر من مارس عام ١٩٢٧ ، في بيت معروف بخفاته بالعلم والعلماء ، فجده الأعلى كان إماماً للخديوى إسماعيل ، وأنجب ولدين تخرجا في الأزهر ، ثم كانا عضوين في مجلس النواب .

فالبیت بيئة وجاهة وعلم ويسار ، ويصفه الشيخ بأنه كان منتدى لأهل العلم ، يعمرونه بزياراتهم ويعمرون مجالسه بمحاوراتهم ونقاشهم وأسماهم وفتاؤهم ، كما كان مرتاداً لذوى الحاجات ، يكثر في مضافته الأيام حتى تقضى مصالحهم . وقد حفظ الناس لهذا البيت مودته أثناء الضائقة التى اجتاحتها — فيما اجتاحت من مصر — خلال الثلاثينات ، فلا ينجح مرشح في دائرته الانتخابية إلا بتأييد من أهله .

وقد توفي والد الشيخ بعد تخرجه في جامعة القاهرة وهو في ميعة الشباب ، وحسبت الوالدة نفسها عليه وعلى أخته فحاطتهما بأحسن الرعاية والتربية ، فكان لها بهذا وغيره — يقول الشيخ — أبلغ الأثر في حياتهما .

تلك هي البيئة التى نشأ فيها الشيخ ، فلا بد أنها تركت أثرها عميقاً في نفسه وخلقه وسلوكه ، فهناك الجو العلمى الذى يواجهه من خلاله وجوه كبار العلماء يترددون على ذلك البيت ، وهناك « المكتبة الحافلة بنوادير المطبوعات والمخطوطات » وهناك الأفواج من الضيفان تتوافد على شيوخه تلمس الحلول

لمشكلاتها والفصل في خلافاتها ، ولا يستبعد أن تستشفع بهم لإنجاز مصالحها لدى الجهات الرسمية عن طريق علاقتهم بالمقام الخديوى والمجلس النيابى . . والغريب أن يمتد أثر هذا الجو في حياة الشيخ صلاح نفسه إلى حد التكرار لهذه الصور الأخيرة ، التى شهدت مثلها في منزله ، حيث رأيت أصحاب المصالح يختلون بهو الاستقبال ، فيستمع من هذا إلى قضيته الجديدة ، ويراجع ذاك في ما انتهى إليه بشأن مشكلته القديمة ، ويتصل من أجل الثالث بالمرجع الحكومى المختص بموضوعه ، ولا ينفك خلال ذلك متكلماً بالهاتفين أو مسجلاً في مذكرته اليومية مطالب هؤلاء وأولئك ، حتى إذا حان موعد التحرك لمتابعة هذه الحاجات نهض ليقود سيارته وفيها ملؤها من هؤلاء . . ثم لا يزال يحول بهم بين هذه الدائرة وتلك وبين هذا الرئيس وذاك ، حتى يستنفدوا إمكانياته وقد نهكه النصب . وأخذ طريقه في زحام السيارات إلى منزله ليتنفس الصعداء ، وليستأنف بعد ذلك متاعبه في خدمة المراجعين ، الذين لا يرى أحدهم سوى مشكلته وحدها . .

ويحدثنا فضيلته عن دراسته فيقول إنه بدأها في مدارس التعليم العام ، إذ التحق بمدرسة محمد على الابتدائية في ميدان السيدة زينب بالقاهرة ، ومنها نال الشهادة الأولى ، ولكن القدر الحكيم حال دون متابعتها المنهج العام هذا ، لأن والده وجده قد اتفقا على تحويله إلى الدراسة الأزهرية ، حفاظاً على طابع البيت ، ورعاية المكتبة العلمية الكبيرة التى لا بد لها من متخصص ينتفع بها وينفع ، وهكذا عهدا به إلى مقرئ يحفظه القرآن الكريم ، ويلقنه أحكام تجويده . وبذلك أضيف إلى سنيه الدراسية ست سنوات ، فقد كان أمامه تسع سنوات أخرى للحصول على المؤهل الجامعى ، فارتفعت المدة إلى خمس عشرة سنة في نطاق التعليم الأزهرى . .

ويصف الشيخ رحلته الدراسية بأنها كانت موفقة بفضل الله ، إذ اجتاز أقسامها الأربعة الابتدائى والثانوى فالكلية فمعهد التربية العالى للمعلمين ، بنجاح مستمر دون توقف ، وكان قد أفرز بنهاية امتحان الثانوى العامة إلى كلية دار العلوم ، ومع أنها الكلية المفضلة بنظر الطلاب ، لما لخريجها من الخطوة لدى وزارة التربية والتعليم . فقد أثر عليها كلية اللغة العربية — شعبة

الشريعة الإسلامية بالأزهر — وفيها تخرج عام ١٩٥٤ وهو العام الذى واجه فيه الاعتقال للمرة الأولى عقيب الحل الذى فرضه جمال عبد الناصر على جماعة الإخوان المسلمين . . وكان لهذا الاعتقال أثره النفسى فى نتيجة امتحانه للشهادة العالية بعد ذلك ، فلم يتجاوز درجة « مقبول » وهو الذى لم ينزل عن مستوى التفوق طوال حياته الدراسية ، وبهذا حيل دون قبوله فى الدراسات العليا ، فاضطر إلى التحول لكلية التربية للمعلمين ، حيث حصل على الأولية فى دبلومها. العالى للتربية وعلم النفس ومن ثم عين مدرساً للدين والعربية فى مدارس المتفوقين والمدارس النموذجية . وقد أحب علمه فلم يفكر بتغييره قط . إلا أن اشتعال الجو الإرهابى الناصرى فى منتصف الستينات على الإخوان المسلمين اضطره إلى قبول عرض بالنقلة من التدريس إلى أن يكون مديراً لمكتب شيخ الأزهر .

ويذكر الشيخ من الأحداث التى رافقت رحلته الدراسية ، أثر الأزمة التى مرت بها بلاده أثناء الثلاثينيات كما أسلفنا ، فقد كان نصيب بيتهم منها أن ذهبت بالأخضر واليابس من ممتلكاتهم ، وأبهظت كواهلهم بالديون الفادحة ، ولكن شاء الله أن يحدث له مورداً من الرزق الحلال فى هذه الغمرة من العسر ، وذلك حين اكتشف فى نفسه ، أو اكتشف فيه آخرون ، ذاك الصوت الرخيم الذى يصلح لترتيل كتاب الله ، فإذا هو واحد من مقرئ الإذاعة المشهورين . . ومن هذا الباب تدفقت عليه نعم الله بوفرة كادت تشغله عن مواصلة دراسته ، وهو المكب عليها بكل طاقته . إلا أنه استطاع أخيراً التوفيق بين الدراسة والحاجة ، فاكتفى من حصص الإذاعة بما يساعده على المضى فى سبيله .

وسألنا فضيلته عن آثاره العلمية سواء منها ما كان منشوراً أو معداً للنشر أو فى حيز المشروعات المتوقعة . . فكان جوابه :

إن العمل الذى بدأت به فى نطاق التعليم عقيب التخرج ، مضافاً إليه تبعات الدعوة فى المحافل والمساجد ووسائل الإعلام ، كل ذلك قد استأثر بوقته فلم يستطع التفرغ لسواه إلا قليلاً ، ومن خلال هذا القليل أقدرنى الله على الكتابات التالية :

١ — حلقات إذاعية في تفسير القرآن العظيم لتلفاز « أبى ظبى » وقد وصلت حتى الآن إلى آخر سورة الحجر وأول سورة النحل ، وبلغ رقمها نهاية المئة الخامسة . .

٢ — تفسير سورة يوسف في ثلاثين حلقة لتلفاز دولة البحرين .

٣ — مئات الحلقات لتلفاز قطر في إطار البرامج الدينية .

٤ — عشرات المشاركات في الحلقات الدينية لتلفاز سلطنة عمان .

٥ — ثلاثين حلقة في التفسير لتلفاز المملكة العربية السعودية ، وقد أهديت إلى مؤسسات التلفزة في دول الخليج بعنوان « المصحف المفسر » .

٦ — موضوعات متعددة سجلتها لإذاعة الكويت على نحو فريد ، انتظم كل منها ثلاثين حلقة ، أحدها بعنوان « أسلوب الإسلام في بناء الإنسان » وآخر باسم « العدل في الإسلام » ثم « الإسلام والقتال » و « اليهود في القرآن » وقد أخبرني معالي الشيخ يوسف جاسم الحجى أن « جمعية الشيخ عبد الله النورى » التى يرأسها قد تولت طباعة حلقات هذا الموضوع . .

هذا بالنسبة إلى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية . أما في ميدان الصحافة فقد أسهمت بنصيب كبير من الكتابات في نطاق الدفاع عن الإسلام وإبراز حقائقه ، من ذلك ردودى على أحمد حسن الزيات وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوى . . وشاركت طوال سنين في مجلة « لواء الإسلام » سواء في ندواتها الشهرية أو مقالاتها الدورية . . وكذلك المحاضرات فقد قدر الله لى فيها حظاً غير قليل ألقى كثيراً منها في مصر ، وبعضها في السودان وقطر والبحرين والإمارات والكويت ، ثم في الهند وأندونيسية وسنغافورة ، ثم في إنجلترا وأمريكا . وقد أكرم الله كلمتى بالقبول ، وأن تكون سبباً في هداية خلق كثير إلى نور الإسلام . .

ويقول أبو غسان : لا جرم أن قارئاً لم يطلع على آثار الشيخ التى يشير إليها سيستغرب وفرتها ، ولكنه لو اطلع على شهادته المرتجلة في قضية الجهاد ، وقد استغرقت أكثر من إحدى عشرة ساعة على امتداد جلستين ، ثم ردوده المتلاحقة على تقرير لجنة الأزهر الذى ملأ خمسين صفحة فولسكاب حول هذه

الشهادة، على الرغم من أعبائه التي تحاصره من كل صوب ، والتي تنوء بها العصبية أولو القوة ، أقول : لو اطلع القارىء على هذا كله لزال استغرابه ، ولاستيقن أنه تلقاء رجل مُعانٍ من قبل الله ، والله يؤتي فضله من يشاء . .

وأما من حيث التأليف فيقول الشيخ : إن لدى أصولاً خمسة عشر كتاباً تنتظر منى التفرغ الكافى لإخراجها ، وإنما يحول دون ذلك مشاغلى فى متطلبات المهمة الانتخابية ، فالدفاع عن حقوق الله فى المجلس التشريعى ، ثم العمل لمصالح الناهبين فى المكاتب الرسمية ، كل ذلك يقيدنى عن ذلك التفرغ المنشود ، ولعل الله يسهل الطريق إلى ذلك فهو الذى يخلق ما يشاء ويختار .

ويتم الشيخ حديثه فى موضوع الإذاعة والتأليف فيقول : ومما هو جدير بالذكر أن الإعلام المصرى الذى قدمت من خلاله الكثير من الأعمال الدينية فى الإذاعة والتلفاز على مدى سنين ، قد أدار لى ظهر الحن منذ دخلت مجلس الشعب ، وارتفع صوتى بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، فقد صدرت الأوامر بمنع التعامل معى فى الإعلام المصرى منذ العام ١٩٧٨ ، بل إن التلفاز المصرى لا يسمح أن أشارك فى أى برنامج لأى دولة ترتبط معه باتفاق إعلامى . . ولكن رحمة الله لا تنتظر أوامره وأصبحت تلك الدول هى التى تطلبنى مباشرة ، وذلك الفضل من الله ، وما كان عطاء ربك محظوراً . .

وسرعان ما ردتنى هذه الكلمات إلى حديث كتبه المغفور له الإمام محمد أبو زهرة ذات يوم ، وفيه يقول : إن بعض الفضلاء قد سأل مدير التلفاز المصرى عن السبب فى استبعاد أبى زهرة عنه ، فكان جوابه : لأنى لا أستريح إليه ! . . وما كان أبلغ رد الإمام على ذلك الجواب العجيب حين قال : . . لقد نسى هذا المدير أن تلفاز مصر ليس ملكاً له ولا هو غرفة من منزله ليستقبل فيها من يشاء ويقصى عنها من لا يشاء .

وأقول : إن فى رد الإمام أبى زهرة رحمه الله منطقاً لا يفقهه أولو الأهواء . .

وعن أهم الأحداث التى عاصرها وتأثر بها فضيلته ، وأبعد الرجال أثراً فى تكوينه الفكرى ، تأتى إجابته تصويراً للواقع المأسوى الذى عايشه ، وتحليلاً للعوامل التى ساقطت إلى الأحداث المسئول عنها .

يقول : إن من أهم الأحداث تأثيراً في نفسه وتفكيره ما يراه من شعارات إسلامية ترفعها بعض الدول في حين ترى واقعاً حافلاً بثتى المناقضات لتلك الشعارات ، والمفكر الذى سبق أن وثق بتلك المبادئ سرعان ما يعتريه التمزق النفسى عندما تفاجئه أجهزة الدولة بالحساب العسير على التزامه إياها وبذلك يدرك الحقيقة وهى أنه يعيش في وجود مزيف لا صلة بين مقدماته وعواقبه ، فينتهى إلى أحد الأمرين . . إما أن يتعامل مع الشعارات الجميلة على حذر فينال نصيبه الحتم من البلاء ، وإما أن يكون تعامله مع الواقع القبيح على علّة فيتخلى عن مقتضيات إيمانه ، وأحلى الأمرين مرّ . .

ومن هذه المقدمة الفكرية ينطلق الشيخ إلى الكلام عن صلته بالإخوان المسلمين ، والأحداث التى واجهتها الجماعة على أيدي الطغيان ، الذى هو قمة ذلك التناقض .

لقد عرف الطريق إلى مركز الجماعة من أيام الدراسة الابتدائية ، إذ كان مسكن أسرته في الحلمية بنفس الحى الذى يقوم فيه المركز ، وقد اجتذبه أحاديث المرشد العام الأستاذ حسن البنا ، فثابر على حضورها مساء كل ثلاثاء ، دون أن يسجل انتماؤه إلى الجماعة ، على الرغم من وثيق ارتباطه بأفكارها وتقديره لإمامها ، وإنما منعه من ذلك — فيما يقول — نسبه الأزهرية ، التى كانت تلقى في روعه أن الأزهر هو المرشح أبداً لإمامة الدعوة ، فليس لثله أن ينحاز إلى سواه من المؤسسات العاملة للإسلام . . . وهكذا ظل منقسم الرأى بين الأزهر والإخوان ، فهو في أعماق مشاعره إخوانى ، ومن حيث الانتماء أزهري . . وقد استمر في هذا التنازع حتى وقع القدر باستشهاد الإمام البنا واحتجاب الجماعة رسمياً عن الساحة ، ثم جاء دور البلاء فكان النكال الرهيب الذى صُبَّ على أقطابها وشبابها ، ولاسيما أولئك الأبطال الذين خاضوا ملاحم الجهاد للدفاع عن الأرض المقدسة ويقول الشيخ : لقد رأيت من ذلك ما يثير الدهشة وبجر الألباب ، إذ كيف يلقي مستحقو التكريم مثل هذا العذاب الأليم ! . وأدركت باقتناع تام أن وراء المحن أعداء الإسلام ومخالب الاستعمار ، الذى لم يزل جائماً على صدر الكنانة .

ويتابع الشيخ : لقد كان لتلك الأحداث الشاذة أثر بعيد في إعداد النفوس لقبول ثورة الضباط عام ١٩٥٢ ، فلما استوت على سوقها ، وقضت على

جميع الأحزاب السياسية ، إلا جماعة الإخوان الذين فسّحت لهم مجال العودة إلى نشاطهم ، بادرت إلى تجديد اتصالى بهم وفى صدرى أمل قوى بأن العهد الجديد سيفضى حتماً إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتحقيق المجتمع المثالى الذى يحلم به الإخوان ، وذات مساء ، وفى أعقاب الحديث الأسبوعى ، أعلن عن حديث خاص للمرحوم الدكتور عبد القادر عودة وكيل الجماعة آنذاك يلقيه يوم الخميس فى المركز العام . . وحضرت ذلك الاجتماع وكان تقديرى السابق أن الدكتور عودة كاتب ومفكر أكثر منه محدثاً ، ومع ذلك فقد استهوانى حديثه ذاك وترك فى نفسى من التأثير ما جعلنى أعتقد أن تغيير الفكر أساس لتغيير السلوك . . وكان مما قاله يومئذ : « نحن فى بلد يحكمه نظام دستورى ، أساسه سلطة الأغلبية ، فإذا استطعنا أن نحشد الأكثرية تحت شعار « لا حكم إلا بالقرآن » فذلك هو السبيل الدستورى لتطبيق الشريعة الإسلامية .. » .

بهذه الكلمات الموجزات تحققت أن الأزهر يعلم ويفقه وينشر دعاته ووعاظه وخطباءه فى كل مكان ، ولكنه لا يهتم بمبدأ تجميع الأغلبية للمناداة بالمطلب الواحد الذى هو تطبيق النظام الإسلامى الحاكم ، على حين يصبُّ الإخوان الرأى العام فى قوالب دستورية أخذاً بالأسباب الموصلة إلى ذلك الهدف ، دون التفات إلى أهواء الناس ، بل التزاماً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة النور ٥١ .

فى هذه الليلة فقط أحسست أن ما مضى من عمر اتصالى بجماعة الإخوان المسلمين لم أكن فيه إلا سلبياً أسمع ولا أرى داعياً للانتماء إلى هذه الجماعة ، على الرغم من إعجابى الكبير بروحانية الإمام الشهيد أما الآن فقد تحولت طاقتى كلها للعمل على دعوة الناس للانتظام فى سلك الجماعة . ووقفنى الله فأحدثت فى مركز إمبابة الجيزة أكثر من عشرين شعبة ، وانتخبنى إخوانى رئيساً بمركز الجهاد بهرمس ، واختارنى إخوانى فى كلية اللغة العربية بالأزهر مسئولاً عن نشاط الجماعة فيها . .

ثم يقول فضيلة الشيخ : فى هذا الجو المواتى لمسيرة الدعوة انفجرت

صاعقة جمال عبد الناصر في صفوف الجماعة . . . وكأنه قد فرغ لهم بعد أن تخلص من الأحزاب الأخرى ، فسلط عليهم ضروب الإرهاب فملأ بهم السجون والمعتقلات ، ووكّل بهم عيونه وأجهزته في كل موقع ، ثم لم يكتف بهذا فأصدر قراره بمنع المعتقلين ، منذ يولييه ١٩٥٢ إلى يوم صدور دستوره ، من ترشيح أنفسهم لعضوية السلطة التشريعية ، ثم عزل من لم يشمله الاعتقال عن طريق اللجان المكلفة فحص طلبات الترشيح . . . وبذلك عزله مرتين أولاهما بالقانون والثانية بأساليب المباحث . وقد ترتب على ذلك شطب اسمي من دفاتر الناصحين في بلدتي وعزلي سياسياً ، وكل ذنبي أني أنادى بتطبيق شريعة الله ! . وقد زعمت مباحث الطاغية أنها لا تحارب الإخوان كدعوة بل كنتظيم ، والواقع أنها إنما تحاربهم تنظيمياً ودعوة ، ولا أدل على ذلك من أن تطبيق الشريعة ظل أملاً يراود الجماهير حتى الساعة دون أن تستجيب له هذه الثورة ، التي ما زالت تتجربه وتدأب في تقويضه ومطاردة دعائه . وحسبنا أن نتذكر أنها ضربت الإخوان عام ٥٤ وضربت القضاء الشرعي عام ٥٦ ودمرت الأزهر باسم تطويره عام ٦١ واغتصبت أوقاف الأزهر ومساجده عندما قررت التحول الاشتراكي ، ثم ضربت الإخوان أخيراً ترفلاً إلى روسية بقرار أصدره الطاغوت من موسكو عام ٦٥ يقضي باعتقال كل من سبق احتجازه من الإخوان ، ثم ضربت كل تجمع إسلامي بعد ذلك تحت مختلف العناوين والشعارات ، ومن ثم قبضت يدها فمنعت رواتب العاملين في بعض المعاهد الأزهرية ، ولم تبن معهداً أزهرياً واحداً ، بل ولم ترع ما بناه الشعب من مئآت المعاهد الدينية ، اللهم إلا على طريقة ذر الرماد في العيون .

وتتلاحق ذكريات الشيخ دون ترتيب حتى تطل به على تجاربه النفسية في المعتقل الأول الذي واجهه سنة ١٩٥٤ عقيب حل جماعة الإخوان . . .

لقد تداولته سجون امبابة بمحافظة الجيزة والسجن الحرى وغيابها العامرية . . . فأحدث كل منها في نفسه جراحات لا تندمل ، وكان أكبر ما يعانيه منها ذكر والدته وشقيقته اللتين لبثتا وحيدتين في المنزل ، حتى أدركه الله ببعض العزاء حين قيض له أحد الحرس الطيبين ينقل إليهما بعض رسائله المختلسة ، تذكرهما بما لقيه أولو العزم من الرسل ، وما عاناه إمامهم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، في شعب أبي طالب وما تحمله من عدوان

السفهاء ، وما سبق ذلك من الحزن التى ابتلى بها يوسف منذ قذف فى الحب ، حتى سنوات السجن السبع . . رجاء أن تسرى عنهما من وحشة الوحدة وثقل الفراق . . ومع ذلك فقد وقع ما كان يحذر ، إذ أصيبت الوالدة بمرض السكر الذى ما زال يتفاقم بها حتى لقيت وجه ربها . . على أن رحمة الله لم تتخل عنه قط ، فعلى الرغم من نعومة النشأة التى اكتنفتها معظم حياته ، قد استطاع أخيراً أن يروض نفسه على قبول الواقع تأسيماً بما يراه من عظيم البلاء ، الذى يواجهه إخوانه على أيدي مخلوقين ينتسبون بهويتهم إلى الإسلام وهو منهم براء ، واهتداء بمضمون الحديث النبوى القائل « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة » ثم هبت عليه وعلى إخوانه النفحات الإلهية فأحالت ظلمات السجن فى معتقل العامرية نوعاً من رياض الجنة . . إذ كان فى ذلك السجن ما يزيد على الألف من قادة الجماعة ، فما لبثوا أن نظموا للمعتقلين برامج ثقافية ملأت فراغهم ووفرت لهم زاداً كريماً من الثقافة الإسلامية ، عن طريق محاضرات يلقيها منهم متخصصون فى مختلف الفنون . . وقد استمر هذا الخير طوال المدة التى قضوها بعد مرحلة التعذيب ، التى توقفت على أثر صدور الأحكام التى أملاها الطاغوت على المحاكم السورية . .

ص : لو تفضلتم فحدثتمونا عن أعمق الرجال تأثيراً فى تكوينكم الفكرى والروحي . .

ج : لا أعلم — بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله — وخلفائه الراشدين ثم بعد شيوخ أسرتى — أحداً أعمق أثراً فى تفكيرى وتصورى الإسلامى من ثلاثة رجال .

أما أحدهم فهو الإمام حسن البنا تغمد الله برحمته ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض أثره فى رؤيتى الفكرية والروحية ، ويأتى بعده خليفته الأول الأستاذ حسن الهضيبى ذو الشخصية الصلبة الباهرة والنظرة العميقة ، والإخلاص الذى جعله خير عوض عن الفقيد الشهيد ، ثم نائبه المفكر العالم الدكتور عبد القادر عودة الذى أسلفت الإشارة إلى أثره الفكرى فى انتزاعى من التردد بين الأزهر والإخوان . .

وإذا كان الإنسان ابن بيئته حقاً فلا عجب أن تمنح هذه البيئة فضيلة

الشيخ كل الزاد الروحي والعقلي الذى جعل منه ذلك البطل المنافع الذى نهض بعبء الواجب بعد أن ناءت بحمله كواهل العلماء ، الذين أسكتهم الرعب وحب الدنيا عن الصدع بكلمة الحق . . ورحم الله شوقى لقوله .

رتب الشجاعة فى الرجال قليلة وأجلهن شجاعة الآراء
وقد بقى من السؤال ما يتعلق بالأعمال التى ولها حتى الآن زيادة على ما سبق ذكره منها ..

قال الشيخ : لقد استغرق عملى فى التدريس ما بين العامين ١٩٥٥ ، ١٩٧٢ ، ثم نقلت كما قدمت إلى مكتب شيخ الأزهر لأكون مديراً له مدة عشرة أشهر ، أيام كان الإمام الأكبر هو الدكتور محمد محمد الفحام ، وقد أتاح لى ذلك العمل فرصة الاطلاع على العجائب . لقد كنت ألوم الأزهر وأتهمه بالسلبية والصمت إلى أن واجهت واقعه المذهل بنفسى ، وهو أن الأزهر لا يحظى شئ من عمله بالنشر إلا ما يطلب منه ، أما ما يمثل رايه الحق وما يتفاعل به داخله فلا سبيل له إلى النور . . وكذلك اكتشفت أن رجاله ليسوا سواء ، لأن منهم المجاهدين بحق ومنهم دون ذلك السليبيون الذين يعددون أياماً ليقبضوا راتباً . . .

وأنا الآن باحث فنى فى مجمع البحوث الإسلامية ، وعضو فى مجلس الشعب . . .

والحوار مع مثل الشيخ لا ينبغى أن يغفل جانب العمل السياسى بنظر الوسط الخاص بعلماء الإسلام ، فالدعاية الشيطانية التى حملها بعض أذئاب الغرب فى هذا الصدد تحاول عزلهم عن ميدان الحكم ، ليخلو الجو للجهلة الكبار ، الذين لا يعرفون من غاية للسياسة إلا ترديد ما قرأوه وما سمعوه من أفكار التلموديين والصليبيين ، وما يملئ عليهم من وراء الستار ، مع الغفلة المطبقة عن حقائق الإسلام .

والشيخ حين يتحدث عن السياسة فحديث الجرب الذى اكتوى بنارها ، وعارك تقلباتها ، واكتشف الخبيء من ألعابها ، وبخاصة فى ظل ذلك الكابوس

الساداتى الذى لم يتورع عن استخدام كل الوسائل لخنق كل صوت حر داخل المجلس وخارجه حتى فى بيوت الله ، التى أراد إخضاع منابرها لموحيات كامب ديفيد ، والزم كل تجمع يريد الاشتغال بالسياسة أن يقر اتفاقيته . . أولاً حتى كادت الساحة أن تخلو من المجاهدين بكلمة الحق . إلا بعض المغامرين من النواب ، وفى مقدمتهم هذا الشيخ الذى كان وجوده بينهم فرصة مباركة لإطلاق كلمة الإسلام المظلوم ، فى كل مناسبة صلحت للتذكير بشرية الله ، فكان شاهد الحق على المتنكرين لها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وما أحوجنا هذه الأيام إلى استعادة ذلك الماضى الرهيب الذى كان الباب الخلفى لكل الفواجع التى أعقبت اتفاقيتى كامب ديفيد ، من غزو إسرائيل لبنان ، إلى مذابح صبرا وشاتيلا ، إلى المجزرة الكبرى التى ينزلها اليوم القتلة الأقربون فى الشمال اللبنانى ، فتكتسح بلهيبها الآلاف من أولئك المساكين الذين شاء لهم الاستعمار والخيانة أن يتيهوا فى الأرض لاجئين ومشردين .

س : ممارستكم للسياسة البرلمانية ظاهرة تكاد تكون جديدة فى مصر بالنسبة إلى علماء الإسلام فكيف وجدتم هذه التجربة . . وهل من شأنها تشجيع العلماء على اقتحام هذه الحلبة ؟ .

ج : اشتغال العلماء بالدعوة لا بد منه لتوعية الجماهير ، ولكن أثره لا يمتد إلى صنع القوانين ، التى نرجوها أن تكون قوالب للشريعة الإسلامية ، وهذه القوانين لا تصنع إلا فى صميم السلطة التشريعية ، وقد لا يرى معظم الناس ارتباط الرخاء بالإيمان وارتباط النعيم بالأخروى بالإيمان ، بل هناك من لا يرى ارتباط الإسلام بالحياة ، ولذلك كان اعتقادى راسخاً أن على علماء الإسلام أن يقتحموا هذا الميدان . . أما كيف وجدت هذه التجربة ، فإلى أسواق ما يأتى على سبيل المثال :

أ — خضت المعركة الانتخابية فى المرتين الأولى والثانية سنة ١٩٧٦ ، ١٩٧٩ تحت شعار « أعطني صوتك لنصلح الدنيا بالدين » وقلت للجماهير الناضحين : لو أن شيوخ الإسلام بعثوا من قبورهم ، وانضموا إلى المعاصرين ، وملاؤا الدنيا خطابة ومناداة بتطبيق

الشريعة الإسلامية ، ما استطاعوا غير تعبئة الرأى العام ، وللرأى العام قوته وأثره ، ولكن لا سبيل إلى تغيير القوانين الوضعية لتكون شرعية إلا عن طريق مجلس الشعب ، الذى له وحده سلطة التشريع ، واستجاب الناحبون بما يشبه الإجماع المنقطع النظير وبحماسة متدفقة على الرغم من موقف السلطات التى كانت تستهدف إسقاطى فى الانتخابات بتخطيط ظالم .

ب — ودخلت مجلس الشعب ، وقلت : « هذا من فضل رى ليلولنى أشكر أم أكفر » وكنت أتصوره المجتمع المسلم بعد أن نص دستوره على قداسة الإسلام ، واعترف أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع فى مصر ، فيكفى أن أتقدم بمشروعات القوانين الإسلامية ، وأدعو المجلس إلى الموافقة عليها . فتقدمت بمشروعات قوانين تغطى النواحى الجنائية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية وإجراءات التقاضى ، وأحيلت إلى اللجان المختصة ، وألقيت بين يديها كلمات ، قابلها المجلس بالاستحسان البالغ ، وكان قد حدّد لكل كلمة زمن لا تتعداه ، ولكن المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب أعلن أن وقت الكلام قد انتهى ، ففوجئ المجلس بهذا التنبيه ، وقرر الأعضاء بالإجماع منحى الوقت اللازم استثناءً من القاعدة فكان هذا قرار مجلس وهو ثابت فى المضابط ، واستبشرت خيراً ، وقلت هذه فاتحة تبشر بتحقيق الأمل ، جمعت بعدها ثلاثمائة وأربعين توقيعاً من أعضاء المجلس البالغ « ٣٦٠ » وكان هؤلاء العشرون بين غائب ومسيحى وإن كنت قد بينت فى كلمتى ، أنه لا ضمان لحقوق غير المسلمين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صحيحاً .

فماذا جرى بعد هذه المقدمات الرائعة ؟ .

جـ : لعبت الثورة فى مصر بأجهزتها المختلفة دوراً خطيراً ، جعل لإرادة الأعضاء تابعة لإرادة القيادة الحزبية ، ولو فى هذه الأمور التى ترتبط بالإسلام ، وسرعان ما تراجع هؤلاء الأعضاء عن التأييد باسم الالتزام

الحزبى متناسين ما يجب من الالتزام الدينى ، ومع ذلك لم أياس مضيت فى محاولاى حتى قرر ما يقرب من ثلاثمائة عضو القيام بعمرة وزيارة فى طريق عودتهم من الخرطوم للقاهرة فى يناير ١٩٧٩ ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر المشترك لمجلسى الشعب المصرى والسودانى ، فانتهزت الفرصة وبايعتهم هناك وبايعونى فى الحرمين الشريفين ، على أن تكون أصواتهم لشرع الله ، لا يغلبهم على ذلك انثناء حزبى . . وتمت البيعة قاطعة واضحة ، فما كان من الرئيس أنور السادات ، بعد أن ظفر بموافقة هذا المجلس باستثناء خمسة عشر عضواً — كنت أحدهم — على اتفاقيتى كامب ديفيد ، ما كان منه إلا أن أصدر قراراً بحل مجلس الشعب بعد استفتاء ملفق ، وأسقط معظم هؤلاء الذين تعاهدنا معهم فى الحرمين الشريفين .

د : لجأت إلى سياسة الاستجواب ، وهو اتهام لا بد فيه من حشد الأدلة الدامغة لإلجام الخصم وتعرية موقفه أمام الرأى العام ، وكان استجوابى للرئيس الوزراء عن تصريح السادات بالأ سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . وقد حشدت فى هذا الاستجواب البيئات القاطعة على كمال السياسة الإسلامية وتفوقها على كل نظام فى تأمين العدالة والوحدة والأمن لأصناف البشر على اختلاف معتقداتهم ، وبلغت صفحاته العشرين ، قدمته إلى رئيس مجلس الشعب ليدرجه فى أعمال أقرب جلسة . غير أنه جبن عن مجرد تقديمه ، فذهبت به إلى القصر الجمهورى حيث قدمته بنفسى إلى الدكتور زكريا البرى — وزير الأوقاف آنذاك — ليبلغه إلى رئيس الجمهورية ، وضمنته كذلك التنديد بقول السادات : إن قدوته مصطفى كمال أتاتورك . . ثم كان ما كان من تصادم مع الحزب الوطنى والغالبية المؤيدة للحكومة بالحق والباطل .

وهناك استجواب آخر وجهته إلى جمال الناطر وزير السياحة والطيران المدنى عن تقريره الحمر فى المدرسة الفندقية التابعة لوزارته فى بلد دينه الرسمى الإسلام ، والشرعية الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .

وكان لى استجواب كذلك ضد عريضة الإعلام ، ومن قبل كان لى استجواب ضد الأستاذ عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام عن تصريحه فى أمريكا بأن الشريعة الإسلامية لن تطبق فى مصر .

وكان لى استجواب موجه إلى الدكتور عبد المنعم التمر عن تفريطه كوزير للأوقاف فى استرداد نحو ثلاثة وسبعين ألف فدان ، كانت البقية الباقية من أراضي الأوقاف المغتصبة من الأزهر والمساجد عام ١٩٦١ إبان التحول الاشتراكى ، وقد قضى فيها القضاء بحكم نهائى وبأن بردها لوزارة الأوقاف سنة ١٩٧٣ ، وفرط وزراء الأوقاف المتعاقبون فى المطالبة بتنفيذ هذا الحكم . وكان لى استجواب موجه إلى وزير العدل حين خالف المفتى الشيخ جاد الحق على جاد الحق آنذاك قرار مجمع البحوث الإسلامية ، الذى يقضى بأن ثبوت هلال رمضان فى بلد يوجب على جميع البلاد الإسلامية المشتركة مع بلد الرؤية فى جزء ولو يسيرا من الليل أن تصوم ، وقد ثبت الهلال عاماً من الأعوام فى العراق والكويت واليمن ، فلم يعتمد المفتى هذا الثبوت .

وكذلك شهدت قبة مجلس الشعب معاركي ضد قانون السادات للأحوال الشخصية ، وهى معارك خضتها ضد الثلاثة الكبار محمد عبد الرحمن بيبصار شيخ الأزهر السابق ، وجاد الحق على جاد الحق مفتى مصر السابق ، وعبد المنعم التمر وزير الأوقاف سنة ١٩٧٩ . . هذه الاستجوابات وغيرها من المواقف البرلمانية ، كانت تحتاج إلى مستمعين يقدسون الإسلام ، وإلى أعضاء يعرفون للقرآن حرمة وللسنة حجتها ، ولا يغلبهم على انتائهم للإسلام انتاؤهم الحزبى . . ولكننى لم أجد فى مجلس الشعب إلا أعضاء ياتمرون بأمر الحكومة ، ولا ياتمرون بأوامر الله ، ومن هنا أقرر أنه يجب على العلماء أن يرشحوا أنفسهم لعضوية مجلس الشعب باعتبار أن الهيئة التشريعية هى المجال الدستورى الوحيد لتغيير القوانين ، وإصلاح السلطة القضائية والتنفيذية ، والحكم بما أنزل الله .

ولا بد أن أشير إلى أن سلطة الرقابة التى وضعها الدستور فى يد عضو مجلس الشعب كفيلة بإصلاح الأداة الحاكمة ، لو كانت هذه السلطة فى يد عضو صالح . ولا أنسى أن استجوابى للأستاذ عبد المنعم الصاوى بسبب قوله

في أمريكا . « لن تطبق الشريعة الإسلامية في مصر » كان سبباً في إخراجه من الوزارة اتقاء للحرج البالغ الذى كانت ستعرض له الدولة لو نظر هذا الاستجواب ، ومما هو جدير بالذكر أن الاستجواب يسقط إذا أخرج من الحكم الوزير المستجوب ، كذلك أذكر أن المرحوم المستشار أحمد سميح طلعت الذى كان وزيراً للعدل ، أذنته في يناير ١٩٧٧ ، بأنه إذا لم يقدم ما عند وزارة العدل من تشريعات إسلامية خلال خمسة أشهر ، فإنى سأستجوبه فلما استجوبته ، أجرى تعديل وزارى لم يخرج بمقتضاه من الوزارة سوى وزير العدل ليسقط الاستجواب ، وقد لقينى رحمه الله وأخبرنى بالخلفيات التى وراء خروجه من الوزارة ، وهى تدل على اتجاهات غير إسلامية ، ولا مجال لتفصيل القول فيها الآن ، وآخر ما أذكره من أمثلة ذلك ، وقد سبقت بعض الإشارة إليه ، أن المعاهد الدينية الأزهرية كانت قد أهملت من قبل الدولة ، وبدأت الشكوى من المعاهد الموجودة فى دائرتى ، وهى ثلاثون معهداً دينياً أزهرياً ، منها خمسة تن من الإهمال ، فلما اتصلت بإدارة المعاهد الأزهرية علمت أن الإهمال قد انتظم مئتى معهد على مستوى الجمهورية المصرية ، فأعلنت فى جريدة « الأهالى » أننى سأقدم استجواباً لرئيس الوزراء الدكتور فؤاد محيى الدين باعتباره الوزير الذى يسأل دستورياً عن الأزهر ، إلى جانب وضعه كرئيس للوزراء -، وما إن أعلن هذا الاستجواب فى جريدة الأهالى يوم ١٩ / ١٠ / ١٩٨٣ حتى نشرت الأهرام يوم ٢٥ / ١٠ ما يفيد أن اللجنة الوزارية قد اتجهت إلى تحقيق الكثير من المطالب التى طالت مساعينا وراءها . وليس هذا التجاوب سوى الأثر الناطق بأثر الرقابة على الدولة . إذا استخدمها نائب حر لا يخشى فى الله لومة لائم .

س: كان لمواقفكم المشرفة فى قضية تحكيم الشريعة المطهرة رد فعل عميق فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فيرجى تزويد قراء هذا الكتاب بالمعلومات التالية حول الموضوع :

١ — هل تجدون لصوتكم فى هذا الصدد صدى المنشود فى أوساط المسئولين ؟

ب — هل تأملون أن يكون لهذا المطلب الشغفى العام استجابة فى

أوساط المسئولين ؟

ج — هل تعتقدون أن للسياسة الدولية علاقة بتأخير الاستجابة حتى اليوم ؟

د — هل تتوقعون أن يكون لخطوة السودان في هذا المجال تأثيرها الإيجابي في مصر ؟

جـ : ١ : قبل دخولي مجلس الشعب لم يكن هناك نص دستوري على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للقوانين ، ولم تكن هناك لجان لتقنين الشريعة الإسلامية ، وكان صوتي ينطلق في مجلس الشعب فيجد الصدى ولا يجد القرار ، ثم تجمعت عوامل أدت إلى النص في المادة الثانية من الدستور على أن الإسلام دين الدولة الرسمي ، وهذا ليس بجديد ، ولكن الجديد هو النص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع ، وجزى الله الزملاء الذين أبلوا في هذا بلاء حسنا خير الجزاء .

ولجنة تقنين الشريعة الإسلامية في مجلس الشعب على الرغم من كل ما صادفها من عقبات قد انجزت عملها تيمماً ، بل وأتمت طباعته في التشريعات الاقتصادية والاجتماعية والمدنية والجنائية ، وفي التقاضي ولم يبق سوى التطبيق . وهذا يؤكد علينا ضرورة المضى في هذا الطريق ، ويؤكد على العلماء ضرورة الإقدام لطلب عضوية مجلس الشعب لإرغام المسئولين على الاستجابة المنشودة .

ب — نعم آمل أن يكون لهذا المطلب الشعبي العام استجابة قريبة ، ولن يموت حق وراءه مطالب والشعب كله يطالب ، وإن كبلته قوانين الطوارئ للعام الثالث على التوالي ، وإن حيل بين طلائعه والدعوة والجهاد ، وإن زج بأبطاله في السجون والمعتقلات . . والظلام الكثيف يبدده النور الخفيف فكيف بالنور الوهاج ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ص : ج — لا شك أن عالمنا العربي والإسلامي ، وقد منى بالاستعمار الزاحف عليه من الخارج بعد أن أصيب بالتمزق الذي بعثر صفوفه .

وفرق كلمته داخل الدوائر العربية والإسلامية ، قد أصبح في وضع دولي تبخرت منه العزة الإسلامية ، لأن الذين ينسون الله ينسبهم الله أنفسهم ، فالذين يدورون في فلك الغرب ، والذين يدورون في فلك الشرق ، إنما يدورون جميعاً في أفلاك قوى عالمية لم تتفق إلا على محاربة الإسلام ، وهذا هو السر في تأخر الاستجابة حتى اليوم للمطلب الشعبي على مستوى العالم الإسلامي المتمثل في تطبيق الشريعة الإسلامية . . . ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

د — خطوة السودان في مجال تطبيق الشريعة الإسلامية لها تأثيرها الإيجابي في شعب مصر ، ومصر بلد الأزهر ، ولولا التعتيم الإعلامي الكثيف على اتجاه السودان نحو تطبيق الشريعة الإسلامية لوجدنا الأثر فعلاً ، ولكن هناك قوانين الطوارئ . والقوانين المقيدة للدعوة في المساجد ، والمباحث والمخابرات وتثاقل المسئولين و . . . ﴿ عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ .

س : يلاحظ أن بادرة السودان بالنسبة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تكاد تكون مقصورة على السليبات إذ تقوم على منع المخالفات لروح الإسلام ومعاينة مقترفيها ، ولم تتعرض للنواحي الإيجابية التي من شأنها تقديم الحلول الحاسمة لمشكلات المجتمع في نطاق الاقتصاد والتعليم والعدالة الاجتماعية وما إلى ذلك ، فما رأيكم في هذا ؟ وما توقعاتكم بشأنه ؟ .

ج : الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، والمبادرة السودانية بالنسبة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية لم تتضح ملامحها عندي ، ولكنني أقول إن إذعان الشعب والدولة لله يجب أن يكون متكاملًا ، وأعتقد أنه سينمو وستتكامل ما دامت روح الإيمان والإذعان مهيمنة ، وهذا هو العنصر الذي انفصل عن التصديق ، فقد كان الكفار يعرفون صدق الرسول كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم مع التصديق القلبي كانوا يكتمون الحق ويجهلون بآيات الله ، فإذا وجد الإذعان والانقياد لرب العالمين ، فإن

المستقبل كله خير بإذن الله ، وما أروع قول الشاعر :

إن الهلال إذا رأيت غموه أيقنت أن سيصير بداراً كاملاً

م : التمزق الذى ينتاب العرب هذه الأيام قد بلغ أشده بالحن الضخمة التى زلزلت كيانهم وأطمعت بهم أعداءهم ، فما السبيل إلى إصلاح هذه الكوارث ؟ .

ص : لا بد من وضع خطة تشارك فيها جميع القوى وتتكاتف بدءاً من منبر المسجد إلى ميكروفون الإذاعة إلى شاشة التليفزيون ، إلى الكلمة المكتوبة فى الجرائد اليومية ، إلى الاتصالات النشيطة بين الحكام والدول . ولا بد أن يجرى ذلك على نهج إسلامى بأمل لا يعرف اليأس ، وهمة لا تعرف الملل ولا الكلال ، لا بد أن يعرف الناس أن الوحدة إيمان وأن الفرقة كفر ، على حد تعبير القرآن الكريم فى سورة « آل عمران » ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ — أى بعد وحدتكم متفرقين — ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ آل عمران ١٠٠ ، ١٠١ .

م : ما الكلمة التى توجهونها إلى الجيل الإسلامى الجديد ؟ .

ص : الكلام فى هذا المضمار كثير ، ولكننى أكتفى بقول ربى جل علاه ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ! قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ سورة طه ١٢٣ ، ١٢٧ .

وأطالب الجيل الإسلامى الجديد بالدراسة العميقة لدينه والاستيعاب الواعى لأحداث عصره ، والفهم الكامل للتاريخ الإسلامى ، كل ذلك سيوحى إن شاء الله بخطط الإصلاح للقلوب المؤمنة والأرواح الموقنة و ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ .

الشيخ عبد الحميد عباس

أخرج الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ما خلاصته :

أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مرّ به ذات يوم رجل من أصحابه فأخبر من حوله أنه من أهل الجنة ، وكان بينهم عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فتاقت نفسه إلى معرفة السبب الذى من أجله استحق هذه المنزلة ، فمضى إليه وما زال به حتى نزل ضيفاً عليه وجعل يلاحظ تصرفاته علّه يعثر بمجديد لا يعلمه من مزيد العبادة ، فلم ير شيئاً يسترعى انتباهه حتى إذا متع النهار جاء يحدثه قائلاً : لقد سمعت نبي الله يعلن أنك من أهل الجنة ، فأحببت أن أعلم عمرك الذى أهلك لهذا الخير فلم أر ما لم أعلم .. فبالله عليك إلاّ ما أخبرتنى بم استحقيقته ؟! . . فقال الرجل : ما هو إلاّ ما رأيت يا ابن أخى إلاّ أنى لم أبت ضاغناً على مسلم^(١) .

والحق أقول ما ذكرت هذا الخبر المأثور قط إلاّ خطرت لى صورة الشيخ عبد الحميد عباس ذلك لأن من أبرز خلال هذا الرجل ، التى تطالعك من خلال تصرفاته جميعاً ، سلامة قلبه من أسباب الكراهية ، وانفتاحه لكل وافد أو زائر على اختلاف مستوياتهم وتعدد اتجاهاتهم . .

لقد عرفت هذا الرجل مطالع وجودى فى طيبة المباركة ، وكان أول لقاء جمعتى به فى مسجد قباء ، الذى كنت أقصد إليه بين الحين والحين لأداء الركعات المحققة أجر العمرة ، كما ورد فى الحديث الشريف . . وقلما غشيت ذلك المسجد المبارك إلاّ وجدته سابقاً إليه مؤتماً بإمامه أو نائباً عنه . . ثم شاء الله أن يكرمنى بجوار هذا المسجد فاستأجرت لإحدى الشقق الثلاث فى البناء الذى هو من أملاك الشيخ مقابل المسجد . . ويومئذ عرفت من فضائله

١ - انظر « الترهيب والترهيب » ج ٥ ط التجارية ١٣٨١ هـ رقم ٤١٨٤ .

العملية ما شدّ قلبي وما يزال يشدّه إليه . .

أول ما عرفت من هذه المآثر أن كل ما تحت الشقق من المنازل والحجرات موقوفة رباطاً على طلبة العلم ، والمساكين من المسلمين ، وكلها مجهّز بالماء والكهرباء ، ثم جاءت محنة الأفغان وتوافد لاجئوها إلى المدينة فاستحصل كثير منهم على حق الإقامة بكفالاته ، ولم يكتف بذلك حتى وفرّ لهم المساكن المريحة ، وأنشأ لهم مسجداً يعمرونه بالصلاة مزوداً بكل ما يعوز المساجد .. وهأ نذا أشهد اليوم عمارتين من أضخم ما ضمت منطقة قباء من العمار ، وما أجملها بناء وأغلاها مكاناً ، على مدخل طريق الهجرة الجديد ، وقد خصص الشيخ لإحداها ، وفيها اثنتان وعشرون شقة ، لسكن الفقراء .. ولكي يتصور القارئ قيمة هذا العمل نذكره بأن جماعة من الأطباء ساومته على استئجار المخصصة من العمارتين للاستثمار بمبلغ نصف مليون ريال .. وقد تساوى أكثر من ذلك ..

وقبل ذلك حضرنا صفقة في مجلس الشيخ على عمارة ذات ثلاث شقق دفع ثمنها ثلاثمائة ألف ريال ، وشهدنا على عقدها في ذلك الصك ، وأشهدنا أنها موقوفة على الفقراء .. وقد شاء الله أن يجعلها مسكناً لثلاث من أسر النكويين السوريين النازحين من حماة وحمص كلّمّا غادرتها واحدة حلّت مكانها أخرى .

وأذكر أني سجلت في مفكرتي ذات يوم القصة التالية : وهي أن الشيخ عبد الحميد قد قطع أحد عقاراته مربعات للبيع ، فكان ثمن الواحد ... ، ٢٠٠ ريال ، فجاء إلى أحد معارفه يقول له : علمت أنك لا تملك منزلاً ولا أرضاً للبناء ، وقد حجزت لك ولفلان أحد المربعات ، فخذنا لى موعداً لدى المحكمة أحضره لتسجيله لكما . وقد شاء الله أن تقترن هذه القصة بأخرى من نوعها وهي أن ذلك الرجل الذي كلفه الشيخ تعيين موعد التسجيل — وهو صديق أعرفه — جاء بعد الفراغ يقول للشيخ : أتذكر إذ أخبرتني بشأن الأرض ؟ . . كان لدى يومئذ رسالة وصلتني من صديق سورى يطلب إليّ أن أوافيه بما أستطيع من المساعدة لمواجهة حاجة طارئة ، ولم يكن في يدي سوى خمسة آلاف ريال فلم ألبث أن حولتها إليه ، وفي اليوم نفسه وافيتني بعرضك الكريم .

وأنا هنا أتساءل ولا بد أن يتساءل معي القارئ : رجل يهب خمسة آلاف ، وهي كل ثروته لنجدة صديق معسر ، فلا يلبث أن يأتيه العوض الموعود عشرين ضعفاً . . . فأى الهيتين أكبر . . . وبأى مقياس وُزِنَتْ ؟ ! . . . من العسير بل من المستحيل أن تعثر على الجواب السديد في تقدير حال كهذه تتجاوز معايير البشر الأرضية ، ولكنك واجد تفسيرها الحاسم في قانون السماء . . . الذي جعل الحبة الواحدة تعطى سبعمائة ، وقد تزيد إلى ما لا يعلمه إلا خالقها.

ولا حاجة بعد ذلك إلى الموازنة بين الهيتين على أساس الحجم ، بل على أساس الأريحية المنبثقة من الثقة بما عند الله ، الذي ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فيعطى هذا القليل ، ويمنح ذاك الكثير ، ولكنه يوفق كلا منهما إلى استعمال ما أعطى في مرضاته . . .

على أن العبرة التي تستحق التأمل هنا هي أن في هذا التسابق إلى البر علامة أصيلة لا تزال تميز سكان هذه البقع الطاهرة من الحرمين وما حولهما ، وهي بقية من الأخلاق التي غرسها الإسلام بيد محمد ﷺ فلا تزال وستظل تؤتي أكلها بإذن ربها ، ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك . . . عطاء غير مجذوذ .

وما دام الحديث عن فضائل هذا « الصّدّيقى » الحبيب فما أجد قدرة على بتره ، وأنا أرى إلى هذه الفضائل متصلة الصور والمشاهد في سائر الأحوال . . .

منذ اتخذت مسكنى في جوار الأثيرين ، مسجد قباء ، ومجلس العباسية ، الذى أعتبره امتداداً لروح ذلك المسجد العزيز ، لم أنقطع قط عن حضور هذا المجلس كل مساء ، إلا أن يحجزنى عنه مرض أو سفر . . . وهو كما يصفه العارفون بقية من التراث العزيز الذى خلفه ماضى هذه المدينة الحبيبة . . . وحسبك من مجلس يضم صفوة من أعيان طيبة لا يكاد يرى خالياً من أفواجهم ، من بعد صلاة العصر حتى صلاة المغرب ، ومنها إلى موعد العشاء

الآخرة . . ولا يقتصر على رواده الدائمين بل هناك الزوار من أنحاء المملكة ، بل من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وبخاصة في أشهر الموسم ، حيث يستقبل كبراء الحجاج والزوار ، وأنواع الضيفان من مختلف البلدان . . فالجلس أبدأ معمور بهؤلاء وأولئك ، موثى بلطائف الأخبار من طرفة نادرة ، وغريبة باهرة ، وقصيدة يتلوها أحد شعراء المجلس ، إلى رأى يشارك في مناقشته مفكره ، ويختم ذلك بقراءات من حديث رسول الله ﷺ تحمى موات القلوب ، وتقرب من رضوان علام الغيوب . . والشيخ في كل ذلك مرمى أبصار الجلوس ، ومحور أسماعهم ، يشارك في الطرفة والشعر والأدب في تواضع يضاعف من تقديره وحبه .

وإن أنس لا أنس ما شهدته لأول مرة في جانب أحد المجالس من أكداس الأغطية معبأة في أغلفة أنيقة من اللدائن الشفافة ، وقد علمت أثر ذلك أنها معدة للتوزيع على الفقراء لحمايتهم من برد الشتاء ، ومثل ذلك من أكياس الأرز لتوزع في المناسبات على مستحقيها من الرجال والنساء . ثم ألفت ذلك من هذا الرجل حتى لم أعد أعيره التفاتاً .

حتى إذا أقبل شهر رمضان رأيت الجديد من وفود الناس فرادى وجماعات يسلمون ويجلسون ، فيشربون قهوتهم ويتسلمون نصيبهم من مال لا ينتهى كيس منه حتى يعقبه غيره . . وبين هذه العطايا ما يرتفع إلى المئات والآلاف . وكثيراً ما نرى رجالاً يقدمون ليعرضوا حاجتهم إلى معونة الشيخ لسبب قد يكون وربما لا يكون ، فيأخذون نصيبهم من بره ، وما هى سوى أيام حتى يقبلوا كرة ثانية ليقدموا العرض نفسه ، فلا يضيق بهم بل يزودهم بما قدره الله لهم . . .

وإني لأكتب هذه الأسطر وفي ذاكرتي صورة أولئك الباكستانيين الذين لم أر مثله في الكدية والإلحاح إلا شحاذى بومباى ، الذين كانوا يحيطون بنا كالقيد حول اليد فننفضهم بما قدر الله ونهرب منهم إلى السيارة ، فإذا هم يسابقونها حتى تتاح لها فجوة تمرق منها . .

أقبل اثنان من هؤلاء الباكستانيين إلى مجلس الشيخ ، وفي كليهما من القوة

والمئات ما يهدم جداراً ، وشرعا يرطنان بما يصور حاجتهما إلى العون ، فدفع إلى كل منهما ثلاثين ريالاً ولكنهما بدلاً من كلمة الشكر جعلتا يقلبان الهبة باستصغار منقّر . . ولما يئسا من الزيادة انسحبا غير راضيين ! . .

وفي المساء التالى أقبل آخرون من هذه الوافدة ، وجعلوا يتدفقان بكلمات محفوظة ، خلاصتها : أنهم قادمون للحج مع عيالهم وقد انقطع بهم السبيل فهم ينتظرون إسعاف المحسنين. وهى قصة مألوفة تسميها من أمثالهم أينما ذهبت أيام الحج ، وبخاصة فى عرفات ومنى . . ومع علم الشيخ بأكذوبتهم لم يلبث أن دفع إليهم بمائة ريال . . استقبلوها بالاستصغار نفسه ، وما إن جاء مساء اليوم الثالث حتى أقبلوا هم أنفسهم يكررون الطلب ويكرر لهم العطاء ولكن بمقدار دون الأول . .

وهكذا يتلاحق هؤلاء « الفتحيون »^(١) حتى ليبلغون العشرات يوماً بعد يوم . . كل ذلك والشيخ على دأبه لا يرد منهم سائلاً فارغ اليدين . . بيد أن بعض جلسائه لا يتألمون أن يعربوا عن امتعاضهم من هذه المشاهد ، ويودون لو يمسك الشيخ عنهم كيلاً يشجعهم على الابتزاز ، فلا يزيد على مثل القول إنهم يسألون فلا بد من إجابتهم ولو بالقليل .

ولا يحسن القارئ أن برّ هذا الإنسان مقصور على قاصديه وحدهم ، بل ربما بلغه نبأ امرئ من الصالحين قد أدته حاجة ، فلا يتألم أن يبعث إليه بما يخفف عنه ، وبين يدي الساعة رسالة وردت إلى الشيخ من دمشق تحمل ثناءه ، على هديته شعراً ونثراً وفيها يقول له :

وقد أرسلت لى ألفاً تماماً	مع الأستاذ موسى وهو إلفى
وأرجو الله أن يعطيك عشراً	وذاك العشر مضروب بألف
وإن قصرت مكافأتى لأرجو	لكم حسن الجزا والأجر يكفى
فلا قصرت يمينك عن عطاء	لذى عدم مداويه بلطف
فقطب الجسم لس من حكيم	وجودكمو جروح الفقر يشفى

(١) نسبة إلى « أبى الفتح الإسكندرى » بطل الاحتيال فى مقامات الحريرى .

ولعل أعجب ما فى خلق هذا الكريم تلك الابتسامة التى لا تفارق وجهه
حتى مع أولئك الذين يتعذر الصبر على ثقلهم ، وأين منها تلك المضاحكة التى
يصفها حاتم بقوله :

أضحك ضيفى حين ينزل رحله وأوسع البشري ولا أتوعر
فهو يتصنع لضيفه الابتسام ليزيل وحشته ، وقد يكون عابس القلب ، أما
ابتسامة الشيخ فهى أشبه بالتى يصفها زهير على وجه أحد ممدوحيه :

تراه إذا ما جتته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
وهو قول ما زلت أشك فى صحته حتى لاحظت وجه عبد الحميد عباس
وهو يواجه السائلين والمعترين بابتسامته التى لم أفقدها قط . . .

وكثيراً ما نبهت بعض إخوانى إلى هذه الابتسامة التى يشرق بها بحياه وهو
يقوم بخدمة المدعوين إلى مادبه الكثيرة ، أو يوجه أبناءه وعماله لواجباتهم
أثناءها ، سواء ما يكون منها لتكريم الأعراء ، أو التى يريد بها مواساة
الفقراء . . . فأقول : هل رأيت قط وجهاً أكثر بشراً فى رعاية ضيوفه من هذا
الوجه ، أو مثل هذا الوجه ؟ ! . . . ولا حاجة إلى التذكير بأن مائدته لا تخلو
من عديد الضيفان فى كل يوم ، بل فى كل وجبة طعام . .

ويعرض لى هنا قول الشاعر فى تصنيف الرجال :

ترى الرجل الضئيل فتزدرية وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطير فتبليه فيخلف ظنك الرجل الطير

فتشب إلى ذهنى صورة هذا الرجل فى حجمه الذى يكاد يكون نسخة
طبق الأصل لهيكل ابن الرومى الذى يقول فى وصف نفسه :

أنا من خف واستدقّ فما يُش قل أرضاً ولا يسدّ فضاء

أجل . . هذا الرجل الخفيف اللحم ، يحمل فى كيانه نفساً تستطيع
الصمود أمام أقسى الصدمات بما تنطوى عليه من قوى الإيمان ، وحسبك
دليلاً على ذلك فى القصة التالية :

لقد وجد نفسه ذات يوم مطالباً بمائة ألف ريال لمالية الدولة ، تسديداً

لكفالة عن أحد الموظفين ، ولم يكن لديه يومئذٍ عشر هذا المبلغ ، فاحتوته حيرة لم يجد لها منفذاً ، وفي هذه الأثناء جاءه من يساومه على تأجير منزله الموروث ليكون مركزاً للتنمية الاجتماعية في المدينة ، مقابل اثني عشر ألف ريال لكل سنة ، وهو مبلغ يضاهاى أيامئذ ثمن البناية . . ولكن على الرغم من فداحة الأزمة ، وعلى الرغم من نصائح أصدقائه بقبول العرض ، وطَّن عزمه على رفضه ، إذ كبر عليه أن يعطل مجلساً اعتاد أباً عن جد أن يستقبل الأحباب والضيوفان وكبار الزوار من أهل العلم وأعيان المسلمين ، ولا يزال على ذلك السنن لا يكاد يخلو من نزيل أو نزلاء من أولئك الفضلاء ، يقيمون عنده الأيام والليالي ، وبخاصة في مواسم الإنتاج ، الذى تتزين فيه الأرض للناظرين . . ثم لم يجد مناصاً عن أن يتخلى عن بعض أملاكه العزيزة ، فباع منها القدر الذى وقى ما عليه من تلك الكفالة ، وبذلك أزاح عن صدره ثقلأً غير يسير ، وخرج من الأزمة على أتم الرضى بمقدور الله ، وقد أنقذ مكفوله من البلاء ، واحتفظ هو بالمقر الذى شاء الله أن يواصل سبيله في الحفاظ على واحد من أكرم وأقدم مجالس المدينة الحبيبة . .

ورب قائل يعلل ذلك باليسار الذى أنعم الله به عليه ، فعلى هذا أن يتذكر أن كثيرين هم الذين يفوقونه ثروة بما لا يحصى ، ولكنهم قليلون الذين يملكون مثل طبيعته الرضية ، التى وثقت علاقتها بالله ، فهى تستقبل كل قدر منه بجزيل الشكر والحمد ، فلا يفرح بآتٍ ولا يأسى على فائت .

وما كان لأحد أن يحتمل الصدمة بمثل هذه العزيمة ، إلا أن يكون على مثل نصيبه من الإيمان بالله وحسن التوكل عليه ، وهما القوة التى تصونه من سلطان المال ، فهو ينفق سراً وعلانية دون أن يساوره خوف من فقر أو نقصان ، على حين يستعبد المأل الأكثرين من الناس ، فيكتفون بحراسته وتعداده ، والسخى منهم هو الذى يستخدمه في ألوان الشهوات والموبقات ! . .

فكيف بك إذا علمت أن حق الله على هذا الرجل لا يقف عند حدود المال ، بل يستحوذ على كيانه كله ، فليس لنفسه ولأهله من حظ في وجوده إلا الأقل الذى لا بد منه ، وما فاض من طاقته فللناس . وليس من أحد في

مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله ، إلا وهو يعرف هذه الحقيقة ، ولعلى غير مبالغ إذا قلت أن يوماً واحداً لا يكاد يعبر به دون أن يعالج مشكلة أو يسعى فى إصلاح ، وقد رأيت بعض هذا الواقع فسيما أسلفت وفى قصة كتبها عنه ونشرتها « قافلة الزيت » عرضت لموقف له مع سائق دمشقى لم يسبق أن رآه قط ، إلا أنه علم أن سيارة صغيرة اقتحمت على شاحنته فى طريق جدة فتحطمت مع راكبيها الخمسة ، وقد حكم عليه القضاء بمائة وخمسة وعشرين ألفاً دية القتلى — فى حساب تلك الأيام — واحتجز فى السجن حتى يؤديها أو تؤدى عنه . فما كان من الشيخ إلا أن كفله ليسعى فى جمعها من المحسنين ، وافتتح هو التبرع له بخمسة عشر ألفاً . لم تلبث أن هزت أريحية أهل الخير من السوريين فى الرياض ، فإذا هم يضيفون إليها ما تجاوز المطلوب . . .

والآن دعنى أختم لك هذه المواقف المباركة بالخبرين التاليين أنقلهما إليك
عن لائتھم :

١ — كان الشيخ يشرف على احتفار بئر فى بستان له ، فلما استشعر العمال قرب الماء طالبوه بالفدية المعتادة فى مثل هذه المناسبة ، وهى ذبيحة يلتمسون بها زيادة النفع ودفع الأذى ، فأبى ذلك عليهم ، وأخبرهم بأن تلك العادة من المحدثات التى يجرمها الإسلام ، لأن مرد الأمور كلها إلى الله وحده ، ولن يقدم على تثبيت بدعة بعد أن أنذر رسول الله مقترفيها بغضب الله . .

وتهب العمال هذه المخالفة للموروثات ، وحذروه مغبتها ، ولكن الشيخ أصر على الرفض حتى استكمل الحفر ونبط الماء . . . وهناك فقط أكرم العمال بوليمة أكبر من الفدية التى يزعمون أن الخير موقوف عليها ، ويعتبرون استبعادها مجلبة للشر . . .

وشاء الله ألا ينقضى على ذلك اليوم سوى السير من الزمن حتى فوجئ عدد من إبله العاملة بالموت واحداً تلو الآخر ! . . . وما كان لهذا الحدث من تفسير لدى الحفارين وأشباههم من العامة إلا أنه جزاء وفاق لمنعه الفدية يوم البئر ! . . . ورد على تقولاتهم بالآية الكريمة : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ التوبة ٥١ . وكان عزاءه فى هذ المحنة قول الحق سبحانه :

﴿وَلْيَبْلُوكُمْ بَشْيٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ وبشر الصابرين ﴿البقرة ١٥٥﴾ . ولعله تذكر هنا موقف نسيبه ابن المدينة البار عروة بن الزبير ، يوم أصيب ببدنه وولده ، فقابل ذلك بالذكر والشكر ، وجعل يردد : اللهم إن كنت أخذت طرفاً لقد أبقيت أطرافاً ، وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً ، فلك الحمد على ما أعطيت وما أخذت^(١) . ولا عجب فمن فضل الله على عبده هذا أنه حفظه من لوثات البدع ، بما تلقاه على والده ، ثم على بعض الصالحين من شيوخ المدينة ، من أصول التوحيد والفقه ، فلا يستغلق في ذهنه الحق ، ولا يلتبس عليه حلال بحرام ، ويمضي في أموره كلها على نور من ثقته بربه ، الذي لم يتخل عنه قط . . .

وما أجمل رحمة الله التي لم تتأخر طويلاً عقيب جائحة الإبل فإذا هذا الموسم الجديد من غلة أرضيه يفوق كل تقدير ، فلم يأت التعويض على قدر المصيبة ، بل ارتفع أضعافاً مضاعفة ! .

٢ — أما ثاني الخبرين فإليكه :

لقد تلقى أبو أحمد دعوة صديقه ، وزير الأوقاف والحج ، الشيخ محمد عمر توفيق ، للقيام بحجة مريجة في رعاية الوزارة ، فامتطى مع صديقين له سيارته بعد أن استأجر لها سائقاً لم يعرفه من قبل ، إذ كان سائقه الموثوق محمد عويدان اليماني في إجازة لزيارة أهله بصنعاء .

وما كان أفجعها محنة مع ذلك السائق ، الذي لم يكد لسانه يتوقف عن السفه طوال تلك الرحلة ، حتى قيص الله له من يرد على بذائه بصفعات أخرسته إلى حين . . .

وفي منى ، وفي غمار الأذى الذي أصابهم من ذلك الأحق ، توجه الشيخ بضراعة حارة إلى ربه أن يكفهم شره ، وأن يجمعهم بذلك اليماني الغائب ليحل مكانه . . .

وسرعان ما استجاب الله تلك الضراعة فإذا هو بريبه وسائقه المفضل

٢ — أنظر « رجال من التاريخ » للأستاذ على الطنطاوي — مأساة عالم — .

يظل عليهم من مدخل الخيمة ! ! . .

ويسأل الشيخ صاحبه وهو يعتنقه داعم العينين : ما الذى جاء بك ؟ .
وكيف اهتديت إلينا !

ويجيب اليماني محمد : لقد علمت أنك حاج هذا العام فقدمت من
البن حاجاً على نية أن ألقاك .. وذهبت أبحث عنك حتى وجدتني أمام
السيارة .

ونقف لحظة لتساءل : كيف نفسر هاتين الواقعتين اللتين لا بد أن يكون
لهما أخوات كثيرات ؟ . . ولماذا حصلتا على هذا الوجه دون سواه ؟ ! ! . .
لعل أحداً يحاول أن يردهما إلى مجرد الصدفة ؟ . . ولكن . . ليقُل لنا :
ما الصدفة وما تحديدها ؟ ! . .

أما أنا فلا أرى لها من تعريف سوى أن حَدَّثًا عجزنا عن تفسيره فأطلقنا
عليه اسم « الصدفة » . . ولهذا لا أجد للكثير من البوادر التي تلم بهذا الرجل
المبارك إلا أنها نوع من الكرامات التي يختص بها الله من يشاء من عباده . .
أما بعد . . .

فيخيل إليّ أن قارئ هذه الصفحات لا بد أن يتساءل عن المناسبة التي
حفزتني إلى عرض صاحب هذه الترجمة بين العلماء والمفكرين ، الذين يفترض
أن الكتاب مقصور عليهم ، كما هو الشأن في سابقه الأول ، ومن ثم لا بد أن
يتساءل عن بقية الهوية التي اعتدنا رسمها لكل من شخصيات الكتابين . .

وعن الشطر الأول من التساؤلين أذكر القارئ بحقيقة لا يحسن أن
يغفلها ، وهي أن الذى يدفعنا إلى تقدير أهل العلم والفكر إنما يعود بالدرجة
الأولى إلى آثارهم في نصرة الحق وإشاعة معاني الخير ، وتوسيع مساحة الحب
والجمال في حياة الإنسانية . . وهو القدر المشترك الذى يجمع بينهم وبين
الأخير من عباد الله . . فمثل الأولين كالمُنْتَظَرِينَ الذين يكشفون للناس
معالم الطريق إلى معالي الأمور ، على حين يمثل الآخرون بسلوكهم الفاضل بعض
النماذج التطبيقية لمبادئ أولئك الهداة الدعاة . .

ولقد عرفت وشاهدت من خلائق هذا الإنسان الذاتية ، ومن مآثره الاجتماعية ، ما ندر أن أراه أو أشاهده إلا من خلال مرويَّات الثقات عن كرام السلف ، وقد شدّنى إلى الحديث عنه فى هذا الكتاب ما أراه من تناقص هذه التماذج الصالحة فى مجتمعنا المسرعة فى التغير ، حتى لنكاد نبحت عنها فى ضوء مصباح ديوجين فلا نحسّ وجودها إلا قليلا . .

ولعمر الحق لقد كنت أجد فى الشيخ محمد نصيف — علّم مدينة جدة — نفحة من الخير تضاعف من قيمة الحياة ، فلما انطفأ ذلك السراج شعرت بالكآبة تغشى كل شيء ، ثم لم يهون من فقدته فى نفسى إلا صحبة العالم الصالح الشيخ عبد العزيز باز ، ثم مخالطة هذا المترجم الذى أقدمه إلى قراء كثنائى ، وقد اشتركا فى العديد من الخصائص الرفيعة وعلى رأسها كرم الخلق ، وكرم اليد ، بعد الحب الكبير لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين . .

ولعل فى هذا القدر من التعليل ما يقنع القارئ العزيز بأننى كنت على حق حين ترجمت لهذا الإنسان المبارك مع كبار العلماء والمفكرين الذين عرفتهم . . .

وننتقل الآن إلى الشطر الثانى من التساؤلين لنسجل ما حصلناه من معلومات حية عن نشأته وبيئته والعوامل التى طبعت حياته وذلك من خلال الحوار الذى أجريناه مع فضيلته :

م : نود التكرم بذكر الاسم والميلاد والأسرة وما تذكرون من صور النشأة الأولى . .

ع : عبد الحميد بن أحمد عباس ، ولدت عام ١٣٢٧ هـ فى زقاق الطيار من المدينة المنورة وتنحدر أسرة والدى من بنى تيم قبيلة الصديق رضى الله عنه وترجع أسرة الوالدة إلى آل الطيار المنحدرين من جعفر بن أبى طالب المعروف بالطيار وبذى الجناحين . وقد توفى والدى ولما أتجاوز العاشرة من العمر ، فترعرعت فى كنف أخى عقيل الذى ما لبث سوى خمس سنوات حتى لحق بالوالد رحمهما الله ، فتولت الوالدة رعايتى وتوجيهى ، وقد انتفعت بها كثيراً لما كانت عليه من كرائم الأخلاق والحرص على

حسن التربية ، ومن فضائلها التي لا تنسى أنها ، وقد توفى عنها الوالد
وهي في الخامسة والثلاثين ، وقفت نفسها وحياتها بعده على أبنائها . .
ومن هنا كان تعلقى بها شديداً جداً . . .

وعن التعليم يقول الشيخ : انه بدأه في كُتّاب الشيخ حامد بنحى
العنبرية وقد استمرت هذه المرحلة مدة ثلاث سنوات ما بين
١٣٣٧ و ١٣٤٠ هـ ثم انتقل من هناك إلى المدرسة الهاشمية ، وهي
الوحيدة أثناءئذ في المدينة ، وكان مديرها الشيخ عبد القادر شلبي
السورى الأصل ، ومن أساتذتها السيد حسين طه — شقيق الصديقين
أسعد وياسين — والشيخ محمد صقر ، والسيد أحمد صقر ، والسيد
ماجد عشقى ، وجميعهم من أهل المدينة .

وقد واطب المترجم على هذه المدرسة حتى اضطر إلى تركها وهو في
السنة الأولى من المرحلة الإعدادية ، وذلك بسبب الحرب التي نشبت بين
آل سعود والهاشميين . . ويحدثنا عن أكثر الرجال تأثراً في نفسه فيذكر
منهم الشيخ صالح القاضي ويقول إنه أخذ عنه بعض الأحاديث الشريفة ،
وأفاد منه خيراً كثيراً في أعمال البيع والشراء ثم الشيخ محمد المختار ،
وأفاد منه خيراً كثيراً في أعمال البيع والشراء ثم الشيخ محمد المختار الكنتي ،
وكان إمام مسجد قباء وخطيبه ، وقد درس عليه بعض العلوم الشرعية
على لزوم الجماعات وفعل الخيرات والتوجه إلى الآخرة . . ثم يمضى في
تعداد أولئك الرجال فيذكر منهم : الشيخ عبد الله مسلم — والد
الصديقين الشيخ حليت مسلم والأستاذ عبد العزيز — على أنه من
شخصيات المدينة ذوى الاعتبار . . ثم الشيخ محمد الطيب الأنصارى
شيخ علماء المدينة ، وكان بينهما زيارات متبادلة ، أثمرت الخير الكثير بما
تثيرة من محاورات علمية وبحوث مفيدة ، ثم الشيخ محمود شويل أحد
مدرسى المسجد النبوى ، والشيخ محمد الغمرى المغربى وكان من علماء
الحديث ومُدرّسيه ، ومن المميزين بالأدب والشعر ، ثم الشيخ
على كاخى ، ويصفه بالعلم والفضل ، وبخاصة علم الفرائض ، الذى كان
أحد مراجعه الثقات في المدينة ، ثم الشيخ محمد حسن نزهة الذى كان إلى

جانب شمائله المحموده مَعْنِيًا بالفقه وله محاولات مقبولة في الشعر . ويخته
هؤلاء بالسيد أديب صقر ، الذي أدركناه وجاورناه في قباء ، فكان نعم
الجار ، وكان من زهرات مجلس العباسية ، فرحمهم الله ورحمنا معهم . .
ويلاحظ من صفات هؤلاء أنهم من ذوى المميزات العالية ، ولا بد
لأمثالهم أن يتركوا آثارهم طيبة وعميقة في عقل صديقهم الشيخ عبد
الحميد عباس وفي أعماق مشاعره ، وقد قيل :

عن المرء لا تسأل، وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وإذا كان صحيحاً قول الآخر « إن الطيور على أشكالها تقع » وهو
صحيح حتماً ، فلا مندوحة من القطع بأن لنشأة المترجم الكريمة ولبيته
العريق ، ولنزله المقدّر لدى هؤلاء الصفوة من الرجال ، أثراً غير يسير في تلك
الوشائج التي جمعتهم بهم وألفت بينه وبينهم . . حتى إنه لا يغفل ذكرهم في
مختلف المناسبات ، ولا يفتأ يحنّ إليهم ، ويؤلف المقطوعات في رثائهم ،
والتعهد لآثارهم وآثارهم . .

وبدافع من ذلك الحنين الوفي إلى إخوانه هؤلاء . كثيراً ما يحدثنا بالجميل من
أخبارهم ، حتى لكأننا نعيش معهم فنشاطره حبهم وتتفاعل مع
ذكرياتهم . . . ونستشف من خلال ذلك صوراً لا ينبغي أن تنسى من ماضى
الحياة في هذا البلد الحبيب . . .

فهذا الشيخ صالح القاضي الذي بدأ به ذكريات أحبابه . . لقد حفظت
من أخباره أثناء مجالسنا مع فضيلة الشيخ ما يدفعني إلى تسجيل بعضها في هذه
المناسبة ، صيانة لها من الضياع ، ورغبة في تعريف القارئ بنوع من الرجال
الذين لا يكاد يعرف لهم نظيراً خارج نطاق كتب التراث . .

يقول الشيخ عبد الحميد : لقد كان صالح القاضي أعجوبة في قوة
الشخصية واستحكام الرجولة وعظيم الصبر في مواجهة الأحداث ، ويضرب
على ذلك الأمثال من وقائع التي لا تكاد تصدق . فمن ذلك أن خصوصاً له
فاجئوه بعصمهم ذات ليلة ، فما كان منه إلا أنه انقضّ عليهم بيديه فانتزع
عصمهم وأوقع بهم شرّ هزيمة . وقرر الأطباء ذات يوم لإجراء جراحة له

لا تصلح مع التخدير فلم ير بأساً ، وترك لهم أن يعملوا في جسده مشارطهم دون أن ينبس بكلمة أو يأتى بحركة . . . حتى لقد أدهش الأطباء ، وأعلنوا أنهم لم يروا مثله في الناس وكانت قمة الرجولة يوم تواعد مع مترجمنا على التلاقى في وقت معين ومكان محدد ، ولكن صارخاً جاء يستدعيه قبيل الموعد ، ويمضى به إلى بستان صديقه حيث رآه جالساً بانتظاره على مقربة من مضخة البئر ، وقد جعل الدم يتدفق من جسده . . ولم يدع له متسعاً للكلام ، بل استدناه وهو يقول : أكتب ما أقوله قبل أن ينتهى الأجل . . .

وراح يملئ وصيته على صاحبه في أناة عجيبة حتى استوفى ما يريد ، وقد علم أثناء ذلك أن حزام المضخة قد اختطف ذراع صاحبه وحطم صدره ، فأشرف بذلك على نهايته بعد أن استرد يده ووضعها بجانبه . ثم ما هو إلا قليل حتى أسلم روحه في الطريق إلى المستشفى ، وهو ملازم لحمد الله ومكرر لشهادة التوحيد . .

ويا له موقفاً لا نكاد نعرف له شبيهاً إلا موقف الإمام عروة بن الزبير الذى سبق الحديث عنه . . .

ولولا خشية الشطط عن أصل الموضوع لقصصت عليك الطريف الجليل من أبناء كل أولئك الفضلاء من أحباب الشيخ بروايته الموثقة عنهم .

وعن الأعمال التى تولاها يذكر الشيخ :

١ — جباية الزكوات إذ كان عاملاً عليها ما بين ٥٨ — ١٣٦٢ هـ .

٢ — عضوية الهيئة الزراعية في منطقة المدينة .

٣ — رئاسة الهيئة الزراعية طوال خمسة عشر عاماً ، ورئاسة الجمعية التعاونية الزراعية بالمدينة المنورة .

٤ — رئاسة مؤسسة القرض الزراعى ولجنة الارتوازيات التى تبرع بشراء معداتها الملك سعود بن عبد العزيز . رحمه الله .

وقد علمت أن رئاسة المدينة قد رشح لها ذات يوم هو وصديقه المرحوم الشيخ صالح الميمان ، فأثر لها صاحبه وظل يساعده فيها محتسباً وقتاً غير قليل . . ولا ريب أن عملاً يتولى إدارته رجل كعبد الحميد عباس لا بد أن

يكون رحمة للناس وخدمة خالصة لوجه الله في مصلحة الجماعة ، وهذا ما يذكره كل ذى علاقة بهذه المصالح التى تولى أمرها في مدينة الرسول ﷺ . .

وسألنا الشيخ أن يبسط لنا بعض انطباعاته عن العهود الثلاثة : العثماني والشريفي والسعودي . . فكان جوابه :

إنه كان حديث السن في العهد العثماني ، فلا يكاد يذكر منه سوى أطراف غائمة ، ولكن الذين أدرکهم من الجيل السابق في المدينة يذكرون تلك الأيام بالخير ، إذ كانوا منه في مجبوحة من الأمن والرخاء ولا سيما أهل المدينة المنورة الذين كانوا موضع تقدير العثمانيين وبرهم ، ولهم في نظرهم منزلة ليست لسواهم بسبب جوارهم لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله ، حتى لقد كان لعامة أسر المدينة مراتب يصرفونها لهم على مدار الشهور والسنين . والفترة العصيبة التى عاناها سكان المدينة في ظل العهد العثماني هى التى نشب فيها القتال بينهم وبين أتباع الشريف حسين عقيب اتفاقه مع الإنجليز ، فقد ضاقت الحال بالمدينيتين أيامئذ ، حتى اضطر قائد الحامية التركية فخرى باشا إلى ترحيل السواد الأعظم منهم إلى حيث شاءوا من البلاد ، إنقاذاً لهم من الحرمان الذى تعرضوا له ، حتى لم يبق من عشرات ألوف السكان سوى بضع مئات . . وقد بلغت بهم الفاقة إلى حد أكل القطط وما إليها من كل ما يمكن أن يدفع به الجوع . بل لقد بلغ الجوع بأحدهم إلى أن يحاول استخراج جثثان ميت لينهش منه ، وضبط متلبساً بالجريمة ، وقد رفض السجناء قبوله بينهم خشية على أنفسهم من شره ، فأبعد عنهم إلى محبس انفرادى . .

ويذكر الشيخ بِأَسَى عميق بعض ما شاهده من مظاهر البؤس في تلك الأحيان ، ومنها رؤية المخدرات ينقلن على رؤوسهن أتربة الطرق الحربية ، التى يشقها الجيش العثماني لتسهيل تحركه من أجل الدفاع عن البلد ، وذلك مقابل بعض الأقراص من خبز الشعير يقمن به أودهنَّ ومن وراءهن من نسوة وأطفال . .

وأما العهد الشريفى فقد عايشه وهو في مرحلة المراهقة ، فهو على ذكر منه أكثر ، ويصفه بأنه عهد سادت فيه الفوضى ، إذ كانت السلطة الفعلية به لأهل البادية ، فهم المسيطرون على أرجاء الحجاز ، يتصرفون على هواهم وعلى

قدر إدراكهم لا يستثنى من تلك الفوضى إلامكة المكرمة ، حيث كان الحاكم هو الشريف حسين ، الذى عرف بالصرامة والأمانة والقدرة على ضبط الأمور ، فكان الناس فى ظله يتمتعون بنعمة الأمن والعدل .

ويذكر من تلك الأوضاع القلقة خارج نطاق مكة المكرمة ما عليه حال القبائل ، حيث كان لكل مجموعة منها حلفها الخاص مقابل الأحلاف المضادة . . وكانت وقائع الثأر والثأر المضاد هى القاعدة المألوفة بينهم . فقد يظفر الموتور بالقاتل فيجهز عليه ، وقد يؤخذ بالقتيل غير قاتله من زعماء القبائل . . فيكون ذلك سبباً لاستمرار البلاء على طريقة الجاهليات الأولى . .

فإذا ما وصل الشيخ إلى ذكر العهد السعودى ، أعطاه حقه من التقدير ، ويلخص رأيه فيه بأنه عهد إنقاذ قضى على الفوضى ، ونشّر الخير والبركة والطمأنينة .

ويعدّد بعض معالم هذا العهد فيذكر فى مقدمتها تحكيم الشريعة الإسلامية ، وانتشار العلم على اختلاف مستوياته وضروبه ، وما رافق ذلك من ازدهار عمّ جوانب الحياة جميعاً ، من الاقتصاد والزراعة والاجتماع وسائر مجالات العمران ، وشمل كل مكان فى المملكة من أدناها إلى أقصاها ، حتى لم يبق فرد من سكانها لم ينله حقه من الأمن والرخاء والتقدم ، ومما جعل المملكة بفضل الله ، ثم بحكمة رعاتها وإخلاصهم ، مضرب المثل للعالم بأسره .

والتمسنا من فضيلته أن يطرّفنا ببعض ذكرياته الأثيرة عن المدينة العزيزة . .

وما أحبّ ذكريات المدينة إلى أبنائها ، وما أحبّ المدينة إلى قلوبهم . . . حتى لكأنّ لكل ذرة منها علاقة فى صميم أرواحهم ، وها هو ذا فضيلته يحدثنا عن بعض العادات التى بدأت فى التوارى عن أعين الناس وقد كانت إلى أمد قريب من مركبات حياتهم التى لا يستطيعون عنها فكاكاً ، ويخصّ بالذكر من تلك الذكريات مناسبات الأعياد ، حيث كان العرف السائد فى المدينة أن تقسم أيام العيد — وبخاصة عيد الفطر — أربعة أقسام ، فاليومان الأول والثانى مقصوران على تزاور الأقرباء وأولى الأرحام . . إذ يكون ذلك اليوم فرصة لتلاقى بعضهم ببعض بعد أن تكون الأحداث والمشاكل وتكاثرت

الفروع قد باعدت بينهم طوال العام أو معظمه ، فيتاح لكل منهم أن ينعم بالتقارب وأن يسهم في إحياء ما اندثر من سنة التعارف بينهم فيعرف كل منهم صلته بالآخر ، وحق كل منهم على الآخر .

ويُخصَّص اليوم الثالث للأصدقاء يجددون فيه روابطهم ، ويأنس بعضهم ببعض . . . ويبقى الرابع لعامة الناس ، حيث تمر مجموعاتهم على الأحياء واحداً فواحداً ، فلا يحرم حي ولا حوش ولا حارة من هذه الزيارات . . .

وكذلك الشأن في مناسبات الأفراح والأحزان حيث يتجلى الحب والتعاون في أجمل صورهما بين سكان المدينة .

ففي مناسبات الزواج تندفق هدايا الجيران والأقرباء على العروسين ذبائح أو أرزاً أو سكرأ أو تمرأ . . أو نقوداً ، فتكون تلك فرصة تملأ البيت الجديد من الخير الذي قد يكون في أمس الحاجة إليه ، وهي عادة لم تزل بعض آثارها ، ولكن التغيرات الطارئة على حياة المجتمع ذهبت بالكثير من فوائدها ورؤائها ، إذ أصبح الزواج في ظل تقاليد اليوم يكاد يستحيل كارثة بالنسبة إلى العروس ذى الدخل المحدود ، فلا يجتمع بعروسه^(١) إلا بعد أن تثقله الديون التي تسلبه لذة العيش وتعرضه لكثير من المخاطر التي تعرض سمعته للسوء . .

ويعرض لذكر المآثم . . فيقول ان الناس كانوا يتواسون في مصيبة الموت ، فإذا نزل بأحد منهم كان حقاً على أقربائه وجيرانه أن يصنعوا لأهله الطعام عملاً بالسنة ، ويتحفظ الجميع فلا يחדشون شعورهم بأى ظاهرة تخالف ما هم عليه ، فلا يقيمون فرحاً على مقربة منهم ، ولا يأتون بأى عمل يمس مشاعرهم . . ولا يزال لهذا الخير بقية والله الحمد .

ومن مظاهر التعاون بين أولئك الناس أن الحى كله يشارك في استقبال المسافرين منه فيهنئونه بسلامة الوصول ، ويشعرونه بفرحهم للقاءه .

ومن أحاسن هذه الذكريات ما كان معروفاً عند أصحاب النخيل حتى عهد قريب ، إذ كان على كل ذى بستان أن يحجز منه حمل نخلة لكل واحد من جيرانه الذين لا يملكون نخيلاً فلا يمسها أحد سواه .

١ - العروس وزن فعول يستوى فيه الذكر والأنثى .

وأنت عندما تطالعك صور هذا التعاون الإسلامي لا تتمالك غصة تشد على صدرك ، لزوال معظمه تحت ضغط التغيرات الاجتماعية ، الوافدة مع زواحف الحضارة المادية التي قطعت وشائج الأرحام بين أهلها ، حتى ليفارق الفتى والفتاة بينهما بمجرد دخولهما أبواب الثامنة عشرة ، ثم لا يعرف أحدهما مصير الآخر ! . . . والمؤسف والموجع أن عدوى هذا الوباء قد تسرب إلى معظم مجتمعات المسلمين في هذه الأيام ، حتى لترى العديد من أسرهم تجمعهم عمارة واحدة ، ثم تمضي الأشهر والسنون دون أن يعرف أحدهم اسم جاره أو عنوانه ، فهم أشبه بالجوامد يمر بعضهم ببعض صباح مساء دون أن يلقي عليه تحية أو يوجه إليه نظرة ، وقد نسوا عامدين أو غافلين حكمة نبيهم الأعظم ﷺ : بقوله : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ ... أفشوا السلام بينكم » (١) .

وما أكثر ما أعطينا هذه الحضارة من الخير : تقلص في مساحات الأرض ، وتقارب بين شعوب العالم ، وتقدم لا مثيل له في علوم الطبيعة . . . ولكن . . . ما أكثر ما سلبتنا من الخير : معايشة الطبيعة في حرها وقرها ، ومردود ذلك من المناعة الصحية ، وانشغال الوقت كله في الكدح للحياة حتى لا يبقى منه منفذ للغو والتفاهات ، والمودة والوفاء والتعاون على البر والتقوى . . . والآداب الاجتماعية التي لا تغفل حتى تشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وإقراء السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، والإيثار على النفس حتى في صميم الخصاصة . . .

وهل أتاحت لك الفرصة فقارنت بين عهود القوافل المتعاونة في الرحلات البعيدة وبين أيام السيارات والطائرات التي لا تدع لك مهلة لتوثيق العلاقة مع رفيق ! . . .

تصور أنك أزمعت سفراً من المدينة إلى مكة ، في ما سبق زمن هذه المسرعات ، فأول ما تفكر فيه هو رفاق الرحلة ، فإذا اجتمعوا مضيتهم جميعاً في مثل التناغم الذي يصفه الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطخ

وقد قسمتم الطريق إلى مراحل وفراسخ ، فهنا تنيخون للطعام ، وهناك تنزلون للراحة ، وهناك تقيمون للنوم ، وفي كل منزل يفرض التعاون نفسه على الجميع ، فلكل منكم عمله في خدمة الكل . . . فإذا انتهت أيام السفر التى قد تمتد إلى الأسابيع ، ودّع بعضكم بعضاً كما يودّع الحبيب حبيبه ، وقد انقطع في صدر كل منكم صورة رفيقه وصوته وحركاته وسكناته . فلا يستطيع له نسياناً ولا عنه انقطاعاً . . .

فأى مجتمع سعيد هذا الذى فقدناه ! . .

وتستطيع الآن أن تتصور نفس الرحلة في سيارة جمعت بينك وبين راكبيها الأربعة أو المئة وقد أخذت تنهب بكم الأرض . وشغل كل منكم بنفسه عن غيره بتأمل في عمل ، أو قراءة في كتاب ، أو غفوة بعد سهر طويل مع المسلسلات ، حتى تصير بكم السيارة إلى المقر المنشود خلال ساعات أربع . . . فيأخذ كل منكم سبيله إلى غايته دون كلمة وداع ! .

وهناك الطائرة التى تختصر هذا الزمن إلى ثمنه ، فلا تمنحك فرصة لتعرف اسم جليسنك في المقعد الواحد . . . فاسأل نفسك : أى فائدة اجتماعية جنيت من هذه الرحلة أو تلك ؟ . . .

وأى مجتمع حجيرى هذا الذى تعامله في ظل هذه السرعة المضيئة ؟ ! . . .

ولكن حذار أن تهمنى بالدعوة للعودة إلى عهد البغال والحمير وعربات الخيل . . فتلك مرحلة أصبحت في نطاق الذكريات ، فلا يقول بعودتها مؤمن أو عاقل ، بيد أنه لا مندوحة لنا من التساؤل : أليس بوسعنا التأليف بين مكاسب المادة وتوهج الروحانية ! . . بلى . . إن ذلك لممكن . . وهو الذى يجب أن يكون . . ولكنه لن يكون حتى يحكم الإسلام حياة الناس . . .

وقلنا لفضيلة الشيخ : إنكم تلمسون تغيراً كبيراً في مجتمع المدينة ، فما هى ملاحظاتكم حول هذا التغير . . . وأهم مظاهره ؟ . .

فكان جوابه : إن أهم مظاهر التطور التى شهدناها خلال حياته في المدينة

تكاد تنحصر في ناحيتي التعليم والعمران .

لقد أحرزت الحركة التعليمية تقدماً كبيراً منذ استقرار الحكم السعودي .
ففي عهد الأتراك مثلاً كان التعليم مقصوراً على بعض أسر المدينة ، وكانت
العناية بالمواد الشرعية لتحفيظ القرآن وإتقان تلاوته ، ثم الفقه والحديث
والتفسير والفرائض والخط والحساب .

ولم يكن لسكان البادية والأعراب المجاورين للمدينة حظ من التعليم
أو رغبة فيه أما الآن فقد تبدل الحال مادةً ومنهاجاً ومقداراً ، وعمّ التعليم سائر
الناس في الحواضر والبادي ، حتى كبار السن من الرجال والنساء وجدوا
الفرص متاحة لتدارك ما نقصهم ، في مدارس هيأتها لهم وزارة التعليم في كل
مكان . . وقد ساعد انتشار التعليم على تغير كبير في بنية المجتمع ، إذ فتح
الأبواب أمام أصحاب المواهب في الحاضرة والبادية ، حتى تسنموا أرق
المناصب ، الأمر الذي لم يكن ميسراً من قبل إلا للأسر الميسورة . . ولكن
شيئاً واحداً لا مناص من ذكره هنا وهو أن طلب العلم كان خالصاً لله ، فصار
اليوم من أجل الدنيا ، ومن هنا فقد العلم بركته أو كاد . .

وعن الجانب العمراني يقول الشيخ : إن المدينة التي كانت مجرد وسط
زراعي ، وكان النخيل هو واجهته الأولى والكبرى ، إلى جانب أصناف
الفواكه التي اشتهرت بها طوال القرون ، قد بدأت في التغير بسرعة غير
متوقعة ، فالسكان قد قفروا من الآلاف إلى مئات الألوف ، والحقول التي
كانت تزدان بها أرجاء المدينة وضواحيها قد شرعت في الاختفاء لتقوم مكانها
الأبنية الحديثة والأسواق التجارية الكثيرة ، والعيون التي كان لها الأثر الكبير في
ازدهار زراعتها قد نضبت وقلّ لها الرفد من المطر والسيول ، وطبيعي أن يكون
لهذه التطورات الفعالة أثرها في تطور الحياة الاجتماعية ، وبخاصة بعد أن كثرت
الأموال ، وانفسحت السبل لقضاء الإجازات في مختلف أرجاء الشرق
والغرب . . . وقد ظهر أثر هذا التطور في توارى الطراز التقليدي في البناء
لتقوم مكانه أنواع « الفيلات » المنشأة على الطراز الغربي . . وكذلك الشأن
في دواخل المنازل حيث حلّت المفروشات الأجنبية محل الأثاث العربي ، وتبع
ذلك كثير من التغير في سلوك الناس وطرائق تعاملهم . . .

وقلنا للشيخ حفظه الله : يلاحظ من يخاطبكم أن في جوانحكم حيناً عميقاً إلى الماضي فلو تفضلتم بتعليل ذلك .

ويجب قائلاً : إن في الماضي لدات العمر ورفاق الصبا ، والأخلاق المتجانسة ، والعقول المتقاربة . . والوفاء والذكريات . وفيه المجالس الممتعة التي تُقَصّ فيها حكايات المدينة وأهلها . . وبالجملة كانت الصلات أقوى والمودة أصفى ومشاغل الدنيا أقل ، والتزاور بين المتحابين أكثر . فمن الطبيعي أن يكون حنيني إلى الماضي وتعلقى به ووفائي لأهله .

وعن الشعر سأله : متى بدأت معالجتكم له ؟ . . وهل كان لشيء منكم أو لأهل بيتكم أثر في توجهكم إليه ؟ . . ويلاحظ أن لكم نشاطاً في الشعر النبطي كذلك . . فأيهما أليكم ولماذا ؟ . .

والده قبله عناية بالشعر ، وكان بعض

الأصد
أثره في
مع ذ
منظومي
قولي :

مسيرة الشعر في بيتنا ، فكان لذلك
أ بالمطالعة وبخاصة في كتب الأدب ،
د الأربعين ، وأذكر أن من أوائل
شيخ محمد المختار الكنتي أذكر منها

فراقك .
تركت نغم

الأيام يورثنا الأنياب
في الأسى مضى حزينا

ويتابع :
زوارى من ربه
منوالمهم ، ولكن يظل الفصيح هو الأحب إليّ والأملك لهوى . .

وهنا قلت للشيخ الفاضل :

اسمحوا لي أن أنتقل بأسئلتى إلى جانب آخر ربما لا تتوقعونه . .

إن مجلسكم اليومى في هذه العباسية يعتبر ندوة علمية وأدبية ودينية . . .
فمنذ متى بدأ ظهوره ؟ . وما أحب ذكرياتكم عن ماضيه ؟ . . وأهم
الشخصيات التي استقبلها ؟ ؟

وأطرق قليلاً كأنه يتأمل في مفكرة ثم أجاب :

لقد بدأ هذا المجلس قبل ثلاثين سنة ، وكان امتداداً لماضيه في أيام الوالد والجد . . والتغير الذى طرأ عليه هو أن العباسية كانت في عهدها موقوفة على فصول الإنتاج ، إذ كان مسكن الأسرة الرئيسى في المدينة أيام الشتاء ، فإذا حان موعد الصيف والربيع انتقلت إليها ومنذ عشرين سنة تمّ تحويله إلى سكن دائم . . وقد زدنا في أبنيتها حتى تستوعب الأهل والعمال . . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع هذا المجلس عن استقبال الأحباب والزوار يتوافدون إليه من مختلف الأرجاء والله الحمد .

ولقد سعدت العباسية بزيارة العديد من كبار أهل السلطان والعلم والفضل ، أذكر منهم جلالة الملك سعود بن عبد العزيز ، ثم صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز ، والأمير السابق السيد عبد الله السديرى ، ثم صاحبي السمو أميرى قطر والبحرين ، ومن الوزراء السيد محمد عمر توفيق الوزير السابق للمواصلات والحج والأوقاف ، والدكتور أحمد زكى يمانى وزير البترول والثروة المعدنية . والسيد وزير الحج والأوقاف السابق الأستاذ حسن كتيبى ، وزميله السابق أيضاً الأستاذ حسين عرب ، والأستاذ هشام ناظر وزير التخطيط ، والأستاذ إبراهيم الشويل وزير الزراعة السابق أيضاً ، والشيخ محمد الخالد السليم أمير عنيزة ، ومعالي وزير المملكة الأردنية الهاشمية الشيخ محمد عبد الله الخضر .

ومن سعد بهم مجلس العباسية من أهل العلم أصحاب الفضيلة والسماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح خطيب المسجد النبوى ورئيس القضاء في المدينة ، والشيخ عبد العزيز بن باز أيام رئاسته للجامعة الإسلامية ، ومعالي الشيخ محمد على الحركان ، والعالم الزاهد الشيخ محمد على التركى ، وكبير قراء المدينة الشيخ حسن الشاعر ، والشيخ مكى الكتانى تغمدهم الله برحماته ، والشيخ عبد الرحمن السليم من علماء عنيزة ، والشيخ على بن سعيد بن مشيط أمير الخميس ، وأصحاب الفضيلة الدكتور عبد الله الزائد وخلفه رئيس الجامعة الإسلامية الدكتور عبد الله الصالح العبيد ، ومفتى المملكة الأردنية الهاشمية الشيخ محمد عبده هاشم ، والشيخ أحمد بن سودة رئيس ديوان ولّى عهد المغرب ، والشيخ أبو الحسن الندوى من أكابر علماء الهند .

وهنا أتذكر للمرة الثانية ، وأنا أكتب هذه الأسماء ، مجلس الصديق محمد نصيف بجدة ، الذى كان مزار كبار رجالات العالم الإسلامى حتى توفاه الله بعد يومين اثنين من وداعنا إياه فى بيروت .. والله نسأل لعلم جدة المكان الأعلى كفاء فضله وجهوده فى خدمة الإسلام ، ولنظيره فى هذا المضمار ابن المدينة البار حفيد الصديق سعة فى حياته المباركة ، ومزيداً من التوفيق فى ميدان المعروف والبر .

وكان ختام الحوار ذلك السؤال الصغير الكبير :

لماذا يجمع الناس على حبكم واحترامكم ؟

ويجب الشيخ الوقور زاده الله من فضله : إن كان لذلك من وجود فيفضل من الله لا أستحقه ، ثم لحسن ظن الإخوان الذى يعكس كريم أخلاقهم . . وما أحسب فى من صفة أرضى عنها سوى واحدة أسأله تعالى أن يثيبنى عليها ، وهى سلامة الصدر من الحقد وحب العفو عن المسيء إنه خير مسئول .

بقى أن أتم مابدأته من حديث عن ثقافة المترجم ليستكمل القارئ صورته كما يعهدها كل من عرفه مثلى عن كتب .

لقد عرفت مما أسلفنا أن فضيلته لم يتمكن من مواصلة التعليم بعد السنة الأولى من الدراسة الثانوية ، بسبب الحرب بين السعوديين والهاشميين ، ثم بما ألقت وفاة والده وأخيه من العبء على عاتقه ، إذ أصبح المسئول الوحيد عن رعاية الوالدة والأهل ، والإشراف على الأعمال الزراعية غير القليلة ، على أن ذلك لم يمنعه من الانتفاع بصحبة أهل العلم والفضل من الذين عرضنا لذكرهم . وقد كان لذكريات والده ، وهو من ذوى العلم والعناية بالشعر ، أثرها كذلك فى توجيهه إلى المطالعة حتى صارت له غذاء لا يسعه الانفكاك عنه ، وهما هو ذا وقد بلغ ما بلغ من السن لا يدع كتاباً حتى يأخذ بغيره . . وفى مكتبته التى تضم آلاف المجلدات ، فى مختلف الفنون والعلوم ، ما يصور لك مدى ارتباطه بالكتاب . . ويظهر أثر ذلك فى حديثه ومشاركته أثناء القراءة أو المناقشة ، وسرعة استحضاره للشواهد من الكتاب الكريم أو الحديث الشريف أو الحكم النفيسة . .

وللشيخ إلى ذلك ثقافة تجريبية استخلصها من عمله في الزراعة ، وجمع حصيلتها في كتاب يضم مائة وأربعاً وخمسين صفحة أصدره عام ١٣٨٩ هـ بعنوان « المرشد في زراعة الأشجار والخضار » وجعله وقفاً لكل من يهيم أمر الزراعة ، وبخاصة زراعة المدينة التي لا يزال معظم اعتمادها على النخيل وأصناف الخضار ، وقد عُرف لدى مزارعي المدينة بأنه مرجع حي لما ينطوى عليه من التوجيهات العملية الدقيقة . . وقد قدرت له مصلحة الزراعة في المملكة جهوده في هذه السبيل ، فخصته بجائزة تقديرية هي عبارة عن خزانة نفيسة للكتب ترمز إلى واسع خبرته وحسن تجاربه في هذا المضمار . .

على أن الشيخ لم يكتف بتجاربه الخاصة في أعمال الزراعة ، بل ضم إليها كل ما وقف عليه واقتنع بصحته من تجارب الآخرين . .

ومن أمثال ذلك تلك القصة التي حدثني بها ذات يوم وخلاصتها : أن معارف له من مزارعي القصيم نزلوا به بعض الأيام ، وكان مما ذكروه من وسائلهم لصيانة النخيل من غارات الجراد ، أنهم يعثون الأعداق بأكياس من الخيش تحفظها من أخطاره . . وشاء الله أن يزحف الجراد باتجاه المدينة فما ان وصلت أخباره حتى أسرع لتطبيق ما تعلمه من القوم ، فجمع أكداش الأكياس ولم يدع عذقاً إلا حصّنه بواحد منها . . ودعا الزراع الآخرين إلى مثل عمله فلم يستجب له أحد ، فكانت النتيجة أن أرجال الغزاة قد أتت على كل محصول المدينة إلا ما حمل نخيله . وهكذا حقق الشيخ يومئذ سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في قوله لصاحب الناقة التي استشاره في أمرها : أيعقلها أو يطلقها ويتوكل على الله ؟ فقال له : « اعقلها وتوكل »^(١) فجمع بين العلم والعمل وكان الخير كله فيما فعل . . .

وفي نهاية هذا العرض الذي أرجو قبوله عند الله أرى أن أختمه بملاحظتين اثنتين .

الأولى : دقة الشبه بين عبد الحميد عباس وجده الصديق ، حتى ان من قرأ وصفه في كتب السيرة ثم وقع بصره على حفيده لم يساوره شك بأن هذا الفرع من ذلك الأصل ، ومن حقى أنؤكد على هذه النقطة لأنى سبق أن

عنيت بتتبع هيئة الصديق في كتابي عنه الذي سميته « مشاهد من حياة الصديق » فهو صورة عن جده في كثير من مظاهره الحسنة ، وفي نفسه ملاح من أخلاقه في سماحة النفس وسخاء اليد ، والإسراع إلى الإحسان ما دام في مرضاة الله ورسوله . . .

ثم شيء آخر يشترك به الحفيد والجَد هو إجماع الناس على قبول وساطة كل منهما في محاولات الإصلاح . . فالمعروف عن الصديق ، وقد كان ممثل قومه في إحدى رئاسات المجتمع القرشي قبل الإسلام ، أنه إذا قضى أمراً بين الناس لم يجد قضاؤه غير القبول لثقتهم بعدالته ونزاهته (١) ، وهكذا رأيت الناس في المدينة يقرون كل ما يقرره حفيده في كل خلاف بينهم ، للسبب نفسه الذي زين قضاء جده في قلوب المكيين والمسلمين من قبل ومن بعد .
والله أعلم حيث يجعل رسالته .

نماذج من شعره الوجداني

غريب

نظرت إلى الدنيا فراع فعالها	فؤادى بأشجان وفقد قريب
وأرزاء سقم لا يزال أمرها	فراق حبيب بعد فقد حبيب
رمتي الليالي بالخطوب وبالأسى	فعدت كالألف في الأنام غريب
رجال أعزاء وكانوا أحبة	فواحزنى من نأيهم وشحوى
ذكرتهم والعين تجرى دموعها	فياشد ما ألقى وطول نحبي
فمن عاش في الدنيا سنين طويلة	رأى من صروف الدهر كل عجب
وما العمر إلا ساعة ثم تنقضى	كمر سحب في المصيف صيب
أولئك إخواني شمس هداية	وكانوا يعيش ناعم وخصيب
ومن عاش سبعاً بعد سبعين حجة	فورد المنايا منه جد قريب

١ - انظر « مشاهد من حياة الصديق » ص ٢٢ .

ذكریات

أيا نسيم الصبا بلغ أحبتنا	أنى مقيم على « العلياء » أرعاها
ففى نسيماتها آثار نشركم	وفى مرابعها ذكرى حفظناها
حيث العقيق وبطحان وأقنية	تروى النخيل ويشفى الناس رباها
وحيث وادى قبا والماء يلبسه	برد الربيع وأخلاق ألفناها
وفى العوالى وفى قربان أودية	يا حبذا هى مرتاداً وسكنها
ما أنس لا أنس وادى السد يجمعنا	وكم به من ليال طاب مثواها
وبالأحبة شمس الوصل مشرقة	سقياً لأيامها ما كان أحلاها
مرت كحللم ولم تبرح معالمها	فى القلب ماثلة تحيا ونحياها

الأستاذ عبد الرحمن باسويدان

عرفته قبل التلاقى عن طريق أحد الإخوة المسئولين عن المركز الإسلامى التابع للجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى جاكرتا ، وقد وُصف لى بأنه من أفاضل مواليد العرب فى أندونيسية ، وكنت على وشك سفر إلى بلدة « جيو جاكرتا » فقررت الاتصال به هناك ، وفى فندق باتيك أوتيل من ذلك البلد وجدناه بانتظارنا ، إذ كان قد علم بقدومنا عن طريق الدكتور محمد ناصر .

لم تكن نتوقع لقاء الأستاذ بهذه السرعة ، ولم تكن على معرفة سابقة به ، لذلك رددنا على تحيته بمثلها ومضينا لشأننا نبحث عن الغرف المناسبة . . . وشد ما أسفت حين علمت من الشيخ محمد قُدُس — خريج الجامعة الإسلامية — الذى كان ينتظرنا مع بعض إخوانه من مبعوثى دار الإفتاء ، أن الرجل الذى بادلناه السلام هو الأستاذ عبد الرحمن باسويدان ، وإذ لم يلق منا الاهتمام الواجب انسحب منزعجاً . . .

وكلفت الأخ قدس أن يبلغ الأستاذ اعتذارنا ، وأن يحصل منه على موعد بلقاء خاص ، وسرعان ما جاء الجواب بتعيين اللقاء بعد عشاء ذلك اليوم .

وحملتنا السيارة إلى منزله المتواضع — كما يصفه أحد مترجميه — وعلى المدخل استقبلنا بكثير من الترحيب الصادق . . . ومضى بنا إلى البهو البسيط الذى أفرغت عليه يد الأنوثة غير قليل من التنسيق الجميل . . .

وعلى الرغم من أصالته العربية التى تحمل دلالتها الحضرمية — « با » التى تفيد « أباً » أو « ابن » فقد غلبت عليه هيئة الإندونيسى المتميز بخفة الوزن ولطافة الحجم ، إلا أنطلاقة لسانه بالعربية لا تلبث أن تذكرك بهويته البعيدة .

وشئ آخر لا مندوحة عن الإشارة إليه هو الشموخ الذى يشعرك لأول

وهلة بتصميم الإنسان الحضرمى فى أندونيسية على الاحتفاظ بتميزه القومى الذى يأبى الذوبان فى غيره ، ومن يدرى ، فلعل للنسبة الهاشمية أثرها فى ذلك ، إذ المعلوم أن لهذه النسبة وجوداً واسعاً بين حضارة أندونيسية ، ولها تأثيرها العميق فى حياتهم وسلوكهم الاجتماعى ، فهم يحتفظون بعاداتهم القومية الأولى فى مساكنهم وطعامهم والكثير من تصرفاتهم ، وبخاصة من ناحية الزواج إذ يلتزمون قصره على أوساطهم وفى ما بينهم وحدهم ، ولا أعلم إذا كان للأستاذ صلة ما بهذا البيت الهاشمى .

وبغير تحفظ تداولنا الحديث فى مختلف الشئون التى تهمنا معاً كأننا صديقان قديمان حميمان . . وعلمت أثناء ذلك أن ابناً له من طلبة الجامعة قد كان مطلوباً من قبل الشرطة فى تهمة العمل الإسلامى ، وهى من الجرائم الكبيرة بنظر السلطة الحاكمة ، وقد كثرت مدامتهم لهذا المنزل بحثاً عنه ، حتى جاءه صديق من المسؤولين ينصح له بأن يسلمه إلى الشرطة رعاية لمصلحته . . وقد أخذ بنصيحة ذلك الصديق وأقنع ولده بالاستسلام ، ولا يزال ينتظر مصيره وزملائه من الشباب المؤمن ، وهو بالطبع مصرير مجهول تملية تقديرات القائمين على أجهزة الأمن ، فليس لها ضابط من العدالة أو القانون . .

ولم يتسع المجال لإجراء الاستطلاع على طريقة السؤال والجواب ، ولذلك سنكتفى باقتباس الخطوط الرئيسة عن حياته من ترجمة مقالة نشرتها عنه جريدة « كدولاتان رعايات » الصادرة يومياً فى جوياكرتا . .

١ : إنه عبد الرحمن با سويدان الذى بلغ هذا العام — ١٩٨٠ — السبعين من عمره .

تلقى دراسته الأولى فى إحدى المدارس الإسلامية ، ثم تابع تحصيله فى معهد « كورسوس نيدرلاندفربوند » .

وقد بدأ حياته القلمية فى نطاق الصحافة فعمل مراسلاً لجريدة « اليوم » التى تصدر باللغة الإندونيسية ، ثم صحيفة « المساء » العربية وذلك سنة ١٩٣٢ ومن ثم التحق بهيئة تحرير جريدة « سين تيت بو » الصادرة فى مدينة سورابايا ، والمعروفة بالوقوف إلى جانب التنظيمات الوطنية ، وتأييد ما يسمى بحركة « المالكوكو » .

وفي العام ١٩٣٣ عمل في هيئة تحرير « هاديان عموم » الوطنية ، ثم انتقل في العام التالي إلى تحرير « ماتاهارى » . .

ويقول كاتب المقال : إن هذه الصحف والرجال الذين تولوا تحريرها إلى جانب الحركات الوطنية ، يعتبرون من الأسماء اللامعة في سجل الحركة الطليعية للتحرر الأندونيسي . . . وفي كتاب « قيام جمهورية إندونيسية » يقول مؤلفه أحمد سوبارجو بكلمة الإهداء : « ذكرى للصديق عبد الرحمن باسويدان المسهم في كفاح إندونيسية والمشارك في وضع دستورها أواخر الاحتلال الياباني عام ١٩٤٥ » .

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن في تنقل الأستاذ بين العديد من الصحف دلالة على ثقة أصحابها والعاملين عليها بقلم المترجم وبمكانته الاجتماعية في بلده أيضاً .

٢ - ومن خلال حوارنا مع الأستاذ باسويدان لاحظنا أنه غير مرتاح إلى موقف إخوانه العرب في عزلتهم التي سبقت الإشارة إليها ، ورأى أن لا مندوحة من إقناعهم بمزيد من الاندماج في غمار إخوتهم الأندونيسيين ، ولذلك عمد إلى طرح أفكاره على قادتهم ، وخاض معهم حواراً لم يكن سهلاً ميسوراً أول الأمر ، ولكنه استطاع بالثابرة والحكمة تفتيت تلك الحواجز شيئاً فشيئاً ، ومن ثم قام بمبادرته لإنشاء الحزب الذي سُمي « اتحاد عرب إندونيسية » وأنشأ له مجلته الخاصة « سادار » أى الواعى . . والظاهر أن مضايقات سياسية حالت دون استمرار صدورها في جيوجاكرتا فانتقل بها إلى « سيمارانغ » ثم إلى مدينة « سولو » حيث واصلت الصدور إلى عام ١٩٤٢ إذ فوجئت أندونيسية بكارثة الاحتلال الياباني ، الذي كان أشد شراسة من سلفه الهولندي .

ومعلوم أن اندفاعه اليابان العسكرية في مطالع الحرب العالمية الثانية لم تقف عند عملياتها الصاعقة في بيل ها ربور ، بل أرادت استغلال الفرصة التي أتاحتها انشغال العالم في مجازر أوروبا وروسيا ، لاحتواء أكبر مساحة من الأرض التي تجاورها ، فاندفعت نحو منشورية فبسطت عليها سلطانها ، والتفتت إلى الفلبين فابتلعتها ، وهاجمت قوات هولندا فطردها من أندونيسية ،

واحتلت مكانها من تلك الجزر المتباعدة . . .

وإنما أرادت العسكرية اليابانية من هذه الضربات المباغتة، توسيع الرقعة التى ضاقت بمواهب شعبها التكنولوجية ، فأقدمت على انتزاع الفريسة من أنياب المستعمرين الأوربيين والأمريكيين على اعتبار أنها أحق منهم بالتهامها وأحق بالأرض من شعوبها نفسها ، وقد اتخذت لتثبيت سلطانها فى هذه الأقطار سبيل الفتك والإرهاب فملأت الأرض رعباً وهلعاً . . . حتى شاء الله أن ينتهى ليلها بالقنبلتين الغادرتين على هيروشيما وناكازاكى ، وبذلك انفسح السبيل أمام شعوب تلك الأرجاء لاسترداد حقها فى أوطانها وخيراتها . . .

وقد لمسنا أثر ذلك الاحتلال اليابانى فى كل بقعة قُدرت لنا زيارتها فى جنوب شرق آسية ، فسمعنا الكثير من مآسى ذلك الاحتلال الرهيب . ولم نسمع قط كلمة واحدة فى الثناء عليه . .

٣ - وفى مطالع عهد الاستقلال - عام ١٩٥٠ - كان الأستاذ با سويدان عضواً فى البرلمان الجديد ، ضمن مجموعة نواب حزب ماشومى الإسلامى ، وأصدر آنئذ مجلة « نوسابوترا » - أى ابن الوطن - وفى الوقت نفسه كان يتولى رئاسة تحرير مجلة « الحكمة » التى يصدرها الدكتور محمد ناصر ، هذا إلى جانب مسؤولياته الكثيرة فى المجلس التأسيسى المنتخب لصياغة الدستور ، والذى استمر فى عضويته حتى عام ١٩٥٩ .

وهكذا ترتبط حياة الأستاذ با سويدان بالعمل الصحفى الذى بدأه فى ظلمات الاستعمار ولم يزايله بعد الاستقلال . .

وعندما نتذكر أهمية الصحافة فى توسيع مجال الرؤية عند كتابها ، حتى ليعلمون من شئون العالم ما لا يحيط به غيرهم ، ويدركون من أسرار الأحداث العالمية والمحلية ما يزودهم بالخبرات التى تجعلهم من صنّاع الرأى العام ، ومن أصحاب الأثر النافذ فى توعية الجماهير ، وبخاصة فى عهود الكفاح التحريرى . . حين نتذكر هذه الحقائق نقدر جهود أولئك الصحفيين الأحرار الذين أسهموا بالقسط الأكبر فى إنجازات شعوبهم . . وإنما نقيد صفة هؤلاء بكلمة « الأحرار » لأن الطهارة الفكرية هى الشرط الأول فى الصحفى الذى يستحق التقدير والتكريم ، وبذلك نطرح من حسابنا المرتزة من المنتسبين إلى

الصحافة ، الذين لا يحسون بأى مسئولية نحو الحق والخير .

ولا نشك بأن الأستاذ با سويدان فى مقدمة الصنف الأول بالنسبة إلى صحفى أندونيسية ، وذلك ما لمسناه من أخباره عند عارفه . . وقد اعترف له بهذا الواقع وزير الشؤون الاجتماعية بقراره الصادر بتاريخ يوم ٣ ديسمبر ١٩٧٤ ورقم « ب و ل ٣٤ / ١٢ / ٧٤ بيكى » وقد سبق أن رشحته نقابة الصحفيين الأندونيسيين ، واتحاد ناشرى الصحف ، ووزارة الإعلام الأندونيسية إلى « مجلس الصحافة » الذى اقترح ترشيح الشخصيات التى تستحق لقب « رائد الصحافة الأندونيسية الوطنية » .

وحتى يوم لقائنا به كان المستشار لصحيفتى « مير تشوسوار » و « ماساكينى » .

٤ — لقد بدأ الأستاذ نشاطه الاجتماعى مبكراً ، ولم يكن قد تجاوز السابعة عشرة حين اندمج فى مجلس الدعاة والمبلغين بالجمعية المحمدية كأصغر عضو فى ذلك المجلس ، وفى الوقت نفسه اختير عضواً فى شبيبة « جمعية الفلاح والإرشاد » وعضواً فى « جمعية الشبان المسلمين » المؤلفة من طلاب المدارس الهولندية ، وذلك عام ١٩٢٥ . وفى العام ١٩٣٤ قام بالدعوة إلى مؤتمر لأقطاب مواليد العرب بمدينة سيما رانغ من جاوة ، وفى هذا المؤتمر قدم اقتراحه بإنشاء حزب سياسى باسم « بيراما » أساسه الاعتراف بأندونيسية وطناً لمواليد العرب . والتعاون مع الأحزاب السياسية الأندونيسية المناضلة فى سبيل الاستقلال ، وعلى هذه الأسس تألف الحزب الذى سبق الحديث عنه باسم « اتحاد عرب أندونيسية » وقد اعترفت الحركة الوطنية الأندونيسية به ، وأدخل فى « اتحاد الأحزاب الأندونيسية » وانتشرت فروع الحزب فى سائر أنحاء أندونيسية حتى بلغت الخمسة والخمسين ، وانخرط أعضاؤه فى معارك التحرير ، وقد سقط منهم العديد فى سوح النضال ودفنوا بمقابر الشهداء فى جاوة وخارج جاوة .

٥ — وقد مهدت له شهرته فى عالم الصحافة سبيل الوصول إلى وزارة الإعلام ، فعين وزيراً مساعداً لهذا القسم فى وزارة شهريرز الثالثة ، مع مواصلة العمل فى توجيه الجالية العربية ، حيث أنشأ معهداً لتثقيف زعماء من مواطنى

مدينة سولو ، وكان غرضه من وراء ذلك إعدادهم ومن وراءهم من مولدى العرب فى إندونيسية للدفاع عن استقلال البلاد ، وفى وزارة الدكتور محمد حتا عُيِّنَ مستشاراً لوزير الإعلام الدكتور محمدناصر ، واختير كذلك لعضوية الهيئة التنفيذية للجنة الوطنية المركزية ، التى كانت يومئذ بمثابة البرلمان ، وفى انتخابات ١٩٥٥ فاز بعضوية البرلمان والمجلس التأسيسى ، الذى استمر حتى حلّه سوكارنو فى العام ١٩٥٩ .

٦ - وقد شارك الأستاذ فى معارك الاستقلال التى بلغت أوجها سنة ١٩٤٧ فعين عضواً فى الوفد الذى كلف تمثيل إندونيسية فى « مؤتمر شعوب آسية » وقد استطاع الوفد اختراق الحصار الذى ضربه الهولنديون على إندونيسية ، حتى وصل إلى نيودلهى مقر المؤتمر . . ومن هناك اتجه فى الوفد الدبلوماسى المنتدب إلى الأقطار العربية للحصول على اعترافها بإندونيسية دولة مستقلة ذات سيادة ، وفى هذه الرحلة تم التوقيع على معاهدة صداقة بين جمهورية إندونيسية والدولة المصرية ، فكانت هذه المعاهدة باكورة العلاقات الدولية بين إندونيسية ودول العالم .

٧ - وكان جلاء الهولنديين فرصة سرعان ما انتهزتها العسكرية اليابانية فاكنتسحت البلاد التى لم تكن مستعدة للدفاع عن نفسها ، ونشرت الرعب ، الذى أشرنا إليه ، فى كل مكان ، ولكن جماهير المسلمين تحت قيادة علمائهم ومفكرهم المخلصين لم يستسلموا للواقع ، بل حشدوا الطاقات فى مقاومة سرية شاركت فيها الأحزاب على اختلاف مشاربها ، وكان للمترجم دوره المناسب فى هذه المقاومة ، إذ انضم إلى جبهة المرحوم سوتان شهريز رئيس الوزارة السابق ، وانتهى الأمر باعتقاله من قبل البوليس اليابانى « كين بى تاى » ولكن الله كتب له النجاة على يد صديق من أقطاب حزب « البارثينو »

أما الآن وقد دخلت حركات التحرير والمقاومة للاحتلالين الأجبيين لأندونيسية نطاق الذكريات التاريخية ، وبدأ الصراع الجديد مع الاستبداد الداخلى الذى لا يكتم سدنته نواياهم نحو الإسلام ، بثبيت العلمانية ، وإلزام الأمة بالميثاق الخماسى « البانجاسيلا » بديلاً لشريعة الله . . فى ظل هذا الوضع الجديد الخطير انصرف الأستاذ با سويدان مع إخوانه عن العمل السياسى المحض إلى خدمة الأمة عن طريق التوعية ، التى نهض بها المجلس الأعلى الأندونيسى

للدعوة الإسلامية ، فهو اليوم رئيس المكتب الفرعى لهذا المجلس فى مدينة جيو
جاكرتا من جاوة الوسطى . . .

ولكن الحديث عن هذا الرجل ، كالحديث عن زملائه فى مجلس الدعوة
الإسلامى ، لا يقف عند حدود شخصيته ومشاركته فى الصحافة والمناصب
الحكومية ، بل لا بد أن يتناول ظروفه الراهنة فى ميدان المواجهة لأكبر
مصائب المسلمين التى أعقبت جلاء المستعمرين عن أندونيسية .

إنها الغارة التنصيرية التى تشن على الإسلام فى كل مدينة وقرية وحارة من
تلك الجزر العربية الغالية على قلوب المسلمين . ثم هناك المحنة الكبرى التى
تطمع هؤلاء الغزاة فى التأثير على الكثير من المسلمين ، فلا يملكون لهم رداً
ولا دفاعاً . . تلك المحنة المتمثلة فى العدوين الأكبرين : جهل العامة ،
وأشباههم من أحلاس الثقافة الغربية ، بجوهر الإسلام ، والفقر المدقع الذى
يهيئهم لقبول أى دعاية تُمنّهم بالخلاص من الجوع والحرمان . . .

فكيف إذا ذكرنا تشجيع السلطات الحاكمة لحركة التبشير فى
« إندونيسية » حتى لتفسح لها السبيل لاقتحام حصون الإسلام من البر والبحر
والجو ، فى حين تضرب السدود حول دعاة الإسلام ، فلا تمكنهم من التحرك
إلا فى أضيق الحدود ، وتطارد كل حركة إسلامية أن تتنفس فى المدارس
والمعاهد والجامعات ، بكل وسائل الإرهاب ، حتى القتل بَلَّة التعذيب حتى
الموت . . .

وبين يديّ الساعة تقرير مذيّل بتوقيع الأستاذ با سويدان وزميل له من
العاملين فى خدمة الدعوة الإسلامية ، لو اطلع عليه ذوو الضمائر لأخذتهم
الرعدة ولملئت قلوبهم رعباً . . ولئن ضاق المجال عن عرض هذا التقرير جميعاً
فلا أقل من أن نلم ببعض نقاطه الرئيسة :

١ - فى العام ١٩٥٠ أحصى سكان أندونيسية فبلغت نسبة المسلمين بينهم
تسعين فى المائة ، ولكن هذه النسبة لم تلبث أن انخفضت إلى سبعين فى
المئة بعد الانتخاب الذى جرى فى السنة ١٩٥٩ ويعلل التقرير ذلك
الانخفاض بتأثير الأيديولوجيات الأخرى وبخاصة الشيوعية والاشتراكية
والقومية . . .

ولعل المراد بذلك أن أصحاب هذه الدعوات قد عبثوا بنتائج الانتخاب حتى يضعفوا من شأن المسلمين ، كالذى نعهدده فى الكثير من بلاد العرب ، حيث تصنع نتائج الانتخابات حسب أهواء مراكز القوى . . وقد يكون الهدف من ذلك تخفيض نسبة الممثلين لجماهير المسلمين لحساب الطوائف التى كانت تحسب على الإسلام فى الانتخابات السابقة ، وهى خطة مألوفة فى أكثر من قطر إسلامى ، وفى كتاب « غارة تبشيرية جديدة على إندونيسية » إشارة هامة إلى أثر الحملات التبشيرية فى أحداث نيجيرية ، التى كان فيها القضاء على الأمير الشهيد أحمد بللو ، الذى أعقبه قيام دولة بيافرا النصرانية فى قلب نيجيرية ذات الأغلبية المسلمة ، ثم التلاعب بنتائج الإحصاء فى تعداد سكان نيجيرية الذى حوّل نسبة المسلمين من ٧٥ فى المئة إلى ٢ ، ٤٧ فى المئة فمكّن للنصارى من الاستيلاء على المراكز القيادية التى تتحكم فى مصائر البلاد . .

٢ - ويؤرخ التقرير بدء الهجمة التبشيرية بالعام ١٩٥٠ حيث شرعت الإرساليات تتوالى على إندونيسية ، وتأخذ بتنظيم صفوف النصارى أولاً ، ثم تمارس أغراضها فى التسلل إلى ديار المسلمين . .

وقد يستغرب القارئ أن يتأخر تضخم الإرساليات إلى ما بعد الاستقلال ، وكان الأولى والطبيعى أن تبدأ تدفقها مع الزحف الاستعمارى الذى بدأ قبل مئات السنين . . ولكن التفسير المعقول لذلك هو أن المسلمين فى ظلّ الاستعمار شديداً الحرص على دينهم ، بحيث لا يكاد المبشر يجد منفذاً إليه ، فإذا زال ثقله عن أعناقهم تنفسوا الصعداء وفتحوا الباب على مصراعيه لكل واغل ، ولا سيما إذا كان حكامهم الجدد من تلاميذ ذلك الاستعمار الحريصين على استبقاء طرائقه . .

ومعلوم لدى المتبعين لأحوال أندونيسية أن طلائع الزحف التبشيرى على تلك الجزر قد بدأت مع مطالع القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان ذلك بنزول أول المبشرين فى الساحل الغربى لجزيرة

سومطرة ، وتبعه مبشر آخر جعل يتجول لاستكشاف مواقع عمله في سومطرة وجاوة ، ثم اعقبهما ثالث جعل من أرخبيل مولاكو الجنوبية منطلقاً لحركته التنصيرية . . . ومن ثم شرعت زخوف المفسدين من جنود بولس اليهودى تندفق تباعاً ، حتى أتمت انتشارها الذى يكاد يغطى كل جزء من أندونيسية ، بفضل حكامها المؤيدين لكل تحرك غير إسلامى . . . وحتى ليعلمون فى مؤتمرهم المنعقد فى مدينة « مالانج » أن عليهم أن ينتهوا من تنصير الستين مليون جاوى خلال عشرين سنة ، وأن يفرغوا من تنصير أندونيسية كلها خلال نصف قرن (١) . .

٣ - وجاءت الفرصة الكبرى هؤلاء الغزاة عام ١٩٦٥ عندما أخفقت محاولة الانقلاب الشيوعية ، واعتقل الألوف من أصحابها ، وانتهز المبشرون هذه المناسبة للاتصال بأسرهم وإمدادهم بما يعوزهم من أسباب الحياة ، واستحدثوا للعجزة والأرامل والأيتام منهم المآوى التى تستقبلهم بكل المغريات . . وهكذا حققوا بواكير انتصاراتهم بتحويل الأعداد الهائلة من هؤلاء المحسوبين على الإسلام إلى النصرانية . .

٤ - ولم تقف جهود هؤلاء الغزاة عند حدود التنصير وحده ، بل عمدوا إلى النرويج لمغريات الحضارة الغربية ، وبخاصة فى أوساط المثقفين بمدارس الاستعمار من كبار الموظفين ورجال الدولة . . . وكانت تلك خطة مدبرة ، لأنهم واثقون أن شيوع الفكر الغربى وأخلاق الغرب بين المسلمين كفيل بإضعاف مقاومتهم لكل المحاولات التى تستهدف دينهم . . وبذلك جمعوا بين الجهتين : الإفساد الداخلى من جانب ، والإغراءات التبشيرية من الجانب الآخر . . .

٥ - والمسلمون الذين استنفدوا طاقاتهم فى كفاح الاستعمارين الهولندى واليابانى ما كانوا يملكون القدرة على مجابهة هذا الضرب من الغزو المنظم ، فاستغل المبشرون ذلك الضعف ومضوا ينفذون خططهم المرسومة ، فيبعثون بدعاتهم علانية إلى أماكن المسلمين ، ومعهم الإعانات والتبرعات ومختلف المغريات . . .

(١) انظر « غارة تبشيرية على أندونيسيا » ص ١٤ ط ٤ دار الشروق .

وهكذا انطلق الغزاة يسرحون على هواهم فى ساحة خلت أو كادت تخلو من المدافعين . . وما هى إلا صولة وجولة حتى رسخوا أقدامهم فى الحواضر والقرى والدساكر وحتى شعف الجبال . .

٦ - وقد ساعد المبشرين على تحقيق الكثير من أهدافهم دخول الكثير من الصينيين فى ديانتهم ، ليتخذوا منها شعاراً يدفع عنهم الملاحقة بسبب انتآاءاتهم الشيوعية ، ثم تواطؤ الطوائف الأخرى معهم كالباطنية وأشباههم من العلمانيين وأصحاب النحل المختلفة . .

٧ - وفى تقرير آخر من فرع فاسوران بجاة الشرقى للمجلس الأعلى بتوقيع كل من رئيس الفرع صالح بازىد وأمين سر قسم الترجمة والنشر ، نقتطف المعلومات التالية :

١ - إن هذا الفرع يقوم بنشاط مكثف فى مواجهة المؤامرات التبشيرية فىرسل مبعوثيه من الشباب المؤمن إلى مختلف القرى والدساكر لتوعية المسلمين وإثارة روحهم الإسلامية فىحققون بذلك أقصى ما تبلغه إمكاناتهم المحدودة من حسن النتائج . . ويذكرون من هذه النتائج اجتذاب العديد من المسلمين إلى المساجد التى توشك أن تكون مهجورة ، وقد أعادوا إلى بعض المساجد مهمتها فى تعليم المسلمين بعد أن كانت مقصورة على الصلاة .

٢ - وفى خبر آخر عن نشاط العاملين فى مديرية « فاسوران » بتأييد بعض المخلصين من رجال الحكم ، يقول التقرير إنهم استطاعوا بفضل الله إيصال نور الإسلام إلى ستمئة نفس فى إحدى القرى ، إذ انتقلت بأجمعها من الكفر إلى الإيمان . .

وإنما يدل هذا النجاح على مدى استعداد النفوس فى قرى إندونيسية للاستجابة إلى الخير إذا توافر لهم دعائه الصالحون ، كاستعدادهم لقبول المبادئ الأخرى عندما لا يكون أمامهم غيرها . .

وهكذا يكون المجال متسعاً لأنواع الدعوات ، وأقرب الدعاة إلى النجاح أكثرهم مالاً وأملكهم لحاجات الناس ، وهى الميزة التى

يفتقدتها دعاة الإسلام ، وتندفق على دعاة النصرانية من كل جانب في أوربة وأمريكة وأسترالية . .

١ - ٣ - ويحدثنا ثاني التقريرين عن هذه الإمكانات قائلاً :

ولكن التوفيق الذى نحققه بفضل الله ثم بجهد الأبرار من إخواننا ، يضاعف من نشاط المبشرين فلا ينفكون يقتحمون مختلف الميادين بدعائهم الكاثوليكية ومعوناتهم . وفى الأيام الأخيرة وفد عشرات الطلاب والمثقفين والمدرسين فى جامعة « بتر » الكاثوليكية إلى منطقتنا . . ولم يلبثوا أن بنوا فى قرينتنا كنيسة يدعوها « كنيسة الجاويين الشرقيين » وهى ليست محلاً للعبادة فقط بل تؤلف وحدة كاملة فيها المدرسة للتعليم ، والمأوى الخاص للأيتام تحت عنوان « منبع الرحمة » . . وماهى إلا أيام حتى نهضت بجانب هذا المركز كنيسة بروتستانتية أيضاً .

وها هم أولاء يبعثون بدعائهم إلى بيوت المسلمين يحملون لهم الهدايا والمساعدات من الأرز والمال ، وأدوات الدراسة لأولادهم . . وبهذه المغريات استطاعوا تنصير ثلاث عشرة أسرة من المسلمين ، وبينهم أمهات كنّ يستمعن من قبل إلى محاضرات إخواننا .

٤ - ويذكر التقرير بعض الأمثلة المؤلمة من هذه التحولات فيقول :

« نور حياقي » هى حفيدة مؤذن فى قرية « كدوروس » وقد تلقت كل تعليمها فى مدارس الجمعية المحمدية ، وتخرجت فى مدرسة المعلمين « عبد الواحد هاشم » بمدينة سورابايا . . وفى النهاية تحولت إلى النصرانية وعُمدت فى كنيسة « ويونج » واقرنت بشاب نصرانى ! . . وهناك حادثة أدهى وأمرّ لفتاة عربية هى ابنة المرحوم الأستاذ محمد بن احمد غالب المحامد ، وحفيدة قاضى العرب فى سورابايا . . هذه الفتاة اعتنقت النصرانية وأصبحت داعية لها ، وهى الآن تعمل فى خدمة مرضى النصارى ! .

٥ - ويمكن تحديد خطط التبشير في أندونيسية بالنقاط التالية التي نستخلصها من كلام التقريرين

أ - أن نشاط دعاة النصرانية يمثل أهمّ الجوانب في حياة المجتمع الأندونيسي ، فإلى جوار عملهم في نطاق التربية والتعليم والصحافة سيطروا حتى على حقول المعماريات والهندسة وفرضوا تأثيرهم على جهاز الحكم نفسه .

وقد روينا في كتابنا « ذكريات لا تنسى » بعض المشاهد في هذا النطاق ، وحسب القارئ أن يعلم أن مسجد الاستقلال وهو من أضخم مساجد الدنيا - قد خطط له ونفذ مشروعه أحد هؤلاء النصراري ، فجعل محرابه على هيئة صليب ، ويرى المشاهد لقبته العجيبة نجمة داوود ماثلة في وسطها للناظرين . .

ب - ومن وسائلهم في مجال الدعاية لدينهم كفالة الفقراء صغاراً وكباراً ، عن طريق إمدادهم بمواد الغذاء ، فإذا ما اطمأنوا إليهم عمدوا إلى إمدادهم بالتوجيه النصراني ، وبالنسبة إلى أطفالهم لا يكتفون بقبولهم في مدارسهم مجاناً ، بل يرتبون لهم المعونات الدائمة ، وينون لأهلهم المعامل التي تعود عليهم بالدخل اللازم ، ومن ثم يرسلون دعائهم إلى القرى فيتخذون فيها مساكن لهم ، ويوظفون صلّتهم بأهلها عن طريق الزيارات ، وتخصيصهم بأنواع الهدايا في مناسبات الأعياد النصرانية .

٦ - وفي رأى أصحاب هذين التقريرين أن من أهم العوامل في نجاح هذه الطغمة المضللة شيوع الجهل في أوساط العامة من المسلمين ، فهم غير مزودين بأى حصانة تبصرهم بالأخطار المحدقة بهم . سواء من جهة المبشرين أو العلمانيين أو الباطنيين أو الماركسيين .

وأضّم إلى ذلك رأى بأن ثانياً العاملين في ترويض هؤلاء المساكين هو الفقر الطاحن ، الذى ما كنت لأعلم له نظيراً في دنيا البشر قبل زيارتي لأندونيسية والهند وباكستان . . وقد سجلت الكثير من مشاهداتى تلك في

ذكريات لا تنسى ، ويكفى أن أعرض منها اثنين مما لاحظته في كل بلد غشيته من تلك الجزر .

لقد سألت أكثر من سائق لما يسمونه « الريتشاك » وهو عبارة عن دراجة ثلاثية العجلات تحمل راكبين ، ويدفعها السائق المسكين بحركة قدميه في المرتفعات والمنخفضات ، حتى حدود الإنهاك . .

سألت كلاً منهم عن مبلغ دخله اليومي فكان الجواب متقارباً : إنه ألف روبية يؤدي نصفها لصاحب العربة ويعيش مع أسرته بقيتها ! . .

ولكن . . أتدرى كم قيمة هذه الروبية ؟ . . إن الألف منها يساوي عند كتابة هذه الأسطر أقل من أربعة أريلة سعودية . . وسألت أحدهم عن أسرته فكان جوابه : خمسة . وقلت : وما تأكلون ؟ .. فقال : الأرز والموز ...

ولم أزد لئلا أجرح مشاعره ، ولكنى تمتعت في أعماقي : أين هؤلاء من اللّحم والفاكهة وبقية الضرورات ؟ . .

هيئات . . . هيئات ! .

أجل إنه الجهل والفقر . . وكلاهما وليد الحكم الذى لا يعترف بحق الإنسان في الحياة ، إذا هو لم يملك القوة التى يفرض بها احترامه . . .

وأخيراً . . . هل يستغرب القارئ لهذه الوقائع أن يسمع في مكان مامن أندونيسية صرخات الاستغاثة موجهة إلى أغنياء المسلمين في البلاد العربية ، وإلى المؤسسات التعليمية التى تحمل راية الإسلام ، تستمد منهم العون المادى والمنح الدراسية للوقوف بوجه هاتيك السيول المدمرة ؟ ! .

ويا لها من صرخات داميات يطلقها رجال يواجهون بصدورهم وبإيمانهم وصبرهم الذى لا ينفد جيوش المبشرين ومؤامرات الهدامين ، ونكال الطواغيت الظالمين . .

لقد سمعنا هذه الصرخات من الأستاذ باسويدان ، ومن كل داعية لله في أندونيسية . . وها نحن أولاء ننقل بدورنا هذه الأمانة إلى مسامع الرجال الذين

آتاهم الله من فضله نعمة المال والإيمان ، لعلهم يتحركون لنجدة الإسلام قبل
فوات الأوان . . .

ألا هل بلغت !!!

اللهم فاشهد . . .

* * *

الشيخ عطية محمد سالم

م : لو تكرمتم بالاسم والمولد ومكانه وزمانه والدراسة ؟ .

ع : عطية محمد سالم ، ولدت في المهديّة شرقية بمصر وذلك في العام ١٣٤٦ هـ وبدأت دراستي العملية في حلقات المسجد النبوي حيث قرأت على بعض المشايخ بلوغ المرام ورياض الصالحين وموطأ مالك ، ونيل الأوطار ، ثم صحيح البخاري ، ثم حضرت بعض الدراسات في سنن أبي داود ومصطلح الحديث وفي « دليل الطالبين » من فقه الحنابلة ، وكذلك في الفرائض والنحو وقواعد الخط على عدد من الشيوخ .

م : وكان لي بعض الدراسات الخاصة في مبادئ المنطق وأصول الفقه .

ويشرح الشيخ لنا انطباعاته عن ذلك اللون من الدراسة التي تكاد تتوارى من حياة المسلمين فيقول : كانت تلك الدراسة هي قاعدة الأساس للحصول العلمي ، إذ هي مرتبطة بالكتاب المدرس لا بالمنهج والمقررات ، فلم يكن الغرض هو إنهاء المقرر في زمن معين ، بل المنشود هو فهم ما يقرأ دون مطاردة للزمن ، ولم تكن الغاية النجاح في الامتحان للحصول على الشهادة ، بل كانت الغاية هي التزود من العلم والمعرفة والتفقه في دين الله .

ولهذا لا يلزم الطالب بالتفرغ والانقطاع لطلب العلم ، بل إن جميع من تجمعهم خلق الدرس في المساء لهم أعمال في النهار مختلفة ومتفاوتة ، ولكنهم في الدرس متساوون لا يميز بينهم إلا التفوق في التحصيل ، فهم بحق إخوة صدق .

وعقيب ذلك جاءت الدراسة النظامية فالتحقت بالمعهد العلمي في الرياض ، ومنه انتقلت إلى كليتي الشريعة واللغة ومنها حصلت على

المؤهلات الجامعية في الشريعة واللغة .

بيد أن الدراسة التي جمعت بين النظامية والخاصة ، وامتازت على سائر الدراسات المختلفة ، فهي ملازمتي فضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي طوال أربع سنوات لا أكاد أفارقه في حل ولا ترحال ، حتى رحلاته إلى الحج ورحلته إلى دول إفريقية . . وكانت تلك الملازمة فرصة العمر للتحصيل ، إذ كنت أستفيد منه ببيان ما أشكل عليّ من المقررات النظامية ، وأتوسع في مدارسها .

ويتابع الشيخ في الحديث عن شيخنا الأمين رحمه الله قائلاً : من الدروس التي حضرتها عليه التفسير وأصوله ، وأصول الفقه والبلاغة ، وأدب البحث والمناظرة ، والفرائض ، ومقدمات في المنطق ، وبخاصة مبحث التصور والتصديق . وأهم من هذا كله الجانب المسلكي من حياته الفاضلة ، فإنّ لم أستطع مجاراته فإنّ لم أحرم الاستفادة منه والحمد لله .

م : للأحداث أثر فعال في تكوين أفكارنا ومسيرتنا ، فهل لكم أن نتحدثنا عن أهم الأحداث التي واجهتكم وانفعلتم بها ؟ .

ع : كثيرة هي الأحداث التي تركت أثرها في نفسي وبعضها أكبر أو أصغر من بعض . . ولكن لكل منها طابعه الخاص .

عندما بدأت الدراسة في الثانية الثانوية من معهد الرياض العلمي سنة إحدى وسبعين جاء ترتيب الطلاب وفق الحروف الأبجدية ، فكان جاري وشريكي في المقعد غلام لو تزوجت مبكراً لكان كـبعض أولادى . وكبر على أن أجالس صغيراً مثله ، إلا أنّي سمعت من داخل نفسي هاتفاً يقول : نعم . . إنه العلم والجهل ، فمبادرته في طلب العلم الحقته بك ، وتباطؤك في ذلك أخرجك إليه .

و ذات ليلة ، وكنت مشرفاً على برنامج النادى الأدبي في المدينة ، فوجئت بين أسماء الطلاب الثانويين بواحد هو ابن ذلك الزميل وقد اشترك مع والده في الكلام أثناء تلك الحفلة . . وفي هاتين الحادثتين عبرة أى عبرة . .

وآخر من هذه الأحداث واجهته في مؤتمر ماليزية الإسلامى ، الذى انعقد عام ١٣٨٤ لدراسة « قضايا إسلامية » حيث فوجئت بقرار يتعلق بموضوع الربا ، وقد كاد أن يطرح للتصويت ، فاعتراى انفعال لم أعلم دوافعه ، وتلقائياً طلبت الإذن بالكلام ، فقبل لى إن الجلسة مخصصة للتصويت فقط . . فأجبت : أن القرار خطأ نظاماً وعلمياً : فلا ينبغي الاقتراع عليه قبل استيفاء مناقشته . . فسُيح لى بدقيقتين وفى مثل ومضة البرق بدت لى أربع نقاط تمنع إباحة الربا عقلاً وشرعاً ، فاستزدت فى الزمن لاستيفائها فلم أجد معارضاً ، وما ان فرغت من عرض هذه النقاط حتى تقرر وقف القرار . . فكانت مناسبة تذوقت فيها لذة العلم وحلاوة تحصيله ، ومدى توفيق الله لمن أراد وجه الله .

م : الرجال الذين تركوا آثارهم فى فكركم وسلوككم مع التعليل . .

ع : أما الأشخاص فهم كثيرون ممن درست عليهم أو شرفت بمعرفتهم أو زاملتهم ولكل منهم أثره فى نفسى ، وفى المأثور من الأخبار أن نبي الله عيسى عليه السلام ، قد سئل ذات يوم : بمن تأدبت وأنت لا والد لك ؟ . . . فأجاب : أرى الحسن من غيرى فأستحسنه فأفعله ، وأرى القبيح من غيرى فلا أقربه . . .

وعلى سبيل التسلسل الزمنى أذكر من هؤلاء الرجال :

١ — عمى محمد مصطفى عطية سالم . كنت فى المرحلة الابتدائية وهو بالثانوية ، وكان مثلاً فى جده واجتهاده ، يحصل على الأولوية فى كل من سنواته ، فيعفى من تكاليف الدراسة بسبب تفوقه . . وقد أثرى من حيث انصرافه إلى دروسه واعتماده على نفسه بعد الله .

٢ — وفى مطلع دراستى فى المسجد النبوى تأثرت بسلوك ومنهج فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الرحمن الأفريقى ، فقد كان ليسر عباراته وسهولة أسلوبه ، ودوام بشاشته مع الطلاب وكأنهم أحب أبنائه ، وقبل ذلك قوة يقينه بالله ، دروس عملية تعلمت منها الكثير وانتفعت بها كثيراً .

٣ - الشيخ محمد الحركان رحمه الله في أسلوبه المتميز بالضبط والمؤاخاة مع طلابه كذلك ، حتى لتراهم حوله كزملاء متحابين في ذات الله .

٤ - الشيخ محمد بن تركي ، عليه رحمة الله ، في استهائته بالدنيا ، واعتزازه بالعلم وصدقه مع نفسه ومع ربه ومع الناس ، وعظم توكله على الله .

وهؤلاء الثلاثة من المشايخ الذين حضرت عليهم في رحاب المسجد النبوي المطهر ، وأما الآخرون من الأساتذة الذين أخذت عنهم أثناء الدراسة النظامية فأذكر منهم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، المتميز بمنهجه العلمي ، حيث يبسط المسائل التي يلقيها على طلابه بغاية الإيضاح ، إذ هو من الذين يركزون على دراسة الموضوع لا دراسة الكتاب المقرر .

أما من حيث منهجه في الحياة فلعلمه الكثير وكلامه القليل ، ولتخطيطه لكل خطوة قبل أن يخطوها ، ثم لحسن تقديره الأمور .

وهناك آخرون تأثرت بمناهجهم أكثر من تأثري بشخصياتهم . .

وأما الشخصية التي تأثرت بها ، وقد أكون انطبعت على بعض خصائصها شئت أو أبيت ، فهي شخصية العلامة الفقيه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، تلك التي تركت أثرها في كل من لقيها . .

وإذا كنت مطالباً بتحديد آثاره في فكري وسلوكي مع التعليل ، فيعسر عليّ ذلك ، لطول ملازمتي إياه على مدى اثنين وعشرين عاماً لم أكد أفارقه في حله وترحاله كما أسلفت .

م : ففى منهجه العلمي العميق الاستيعاب والشمول ، وقد أعانته في ذلك كله وفرة العلوم والإحاطة بمواد عديدة يخدم بعضها بعضاً ، وهذا الجانب يشترك في إدراكه كل من درس عليه ، أو طالع تفسيره « أضواء البيان .. » إلا أن ما يخصني من ذلك هو أن صحبتي له كانت تتيح لي من الفرص ما لا يتاح لسواي إذ قد أتدرج معه في الحديث أو يتوسع معي في التدريس إلى حد لا يتوافر في أوقات الدروس المقررة ، ولا

سيما في دقائق الأصول والتفسير والعقيدة ، وطرق التعبير عنها ..

وما أنسَ لا أنسَ من أخلاقه ذلك التورع الذى يمنعه الكلام فى أى مسألة لم يستوعبها ولم يعرف مستندها ، فيكتفى بالقول : « لا أدرى . . والله أعلم » ثم سرعة رجوعه إلى ما يظهر له أنه الحق فى أى مسألة خلافية

وأما من ناحية السلوك فقد لمست منه الشيء الكثير مما يتحلى به الفضلاء وأهم ما أذكر من شمائله فى هذا الجانب :
تجاهل العارف ، وتغاضيه عن هفوات الآخرين . . وكثيراً ما سمعته يتمثل بقول الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه ولكن سيد القوم المتغابى
يضاف إلى ذلك عدم مبالاته بأمور الدنيا ، حيث يستوى لديه شطف العيش ونعيمه ، وكثيراً ما كان يتمثل كذلك بقول الآخر :
الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرقى ووساوسى
ولا أنس تحفظه الشديد من لغو القول ، والتفوه بكلمة تعقب الندم أو الأسف ، بلَّه هُجَرَ القول ، أو إجراء الغيبة فى مجلسه . .

ولقد كتبت عنه محاضرة وافية طبعت فى آخر الجزء التاسع من « أضواء البيان » فصلت فيها الكثير من حياته العلمية ودراسته وتدريسه ، ومع ذلك لما أستوف الحديث عن شخصيته ، وذلك لفرط تأثرى ولتنوع مؤثراته ، تغمدته الله بوافر رحمته .

يقول مؤلف هذا الكتاب : وإنا لنشارك فضيلة الشيخ عطية فى كل ما أورده من محاسن شيخنا الأمين ، ونؤكد ما ذهب إليه من تأثره بالكثير من مزاياه حتى فى حركة يديه وهو يحاضر أو يحدث . . ولكن شيئاً واحداً لم يُعَنَّ باقتباسه من الشيخ وأعنى بذلك موقفه من الشعر فلا نعرف له أى محاولة فيه ، مع أن شيخنا الأمين رحمه الله كان من صيارفته ، ولو تفرغ له لبرز فيه وتفوق . . ولكنه سلك طريق الإمام الشافعى فى إثارة العلم على الشعر ، خشية أن يشغله بأخيلته وجواذبه عن علوم الشريعة وحقائقها . . ويلاحظ

القارىء أثر إعراض الشيخ عطية عن الشعر من خلال إيراد البيت « ليس الغبى . . . » على لسان شيخه مختل الوزن ، ولا بد أن يكون شيخه رحمه الله قد قرأه صحيحاً على الوجه التالى :

ليس الغبىّ بسيد فى قومه لكنّ سيد قومه المتغابى

وحبذا لو يعبر أهل العلم الشرعى فن الشعر بعض عنايتهم حتى يستقيم على ألسنتهم وحتى يألفوا أساليبه فيساعدهم ذلك على فهم أكثر لكتاب الله ، لأن الشعر العربى الأصيل هو الممثل الأول لطرائف البيان العربى . . .

ورحم الله أبا حيان صاحب « البحر . . » الذى يعتبر تذوق الشعر العربى البليغ من أهم الوسائل لفهم بلاغة القرآن العظيم . . .

ويتابع الشيخ عطية ذكرياته عن الرجال الذين تأثر بهم ، فيقول : من أهم الشخصيات الذين لا يستطيع نسيانهم اثنان . أما أحدهما فالشيخ عبد العزيز بن باز ، الذى رافقه أستاذاً فى مرحلة الدراسة ، وزميلأ أثناء مشاركته فى التدريس بكليتى الشريعة واللغة بالرياض ، ورئيساً خلال عمله فى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، فقد كان لمنهجه فى التدريس ، وتلفظه مع الطلاب ، وتواضعه للزملاء وعمله الدائب فى مساعدة الآخرين ، أثره العميق فى تكوينه النفسى والفكرى . . وإذ لم يتسع مجال القول لاستيعاب مآثره فلنكتف بإحداها وهى أن كل منسوبى الجامعة على اختلاف أوضاعهم كانوا يشعرون بأنهم معه كالأسرة الواحدة يتولى أمرها بالعطف والرعاية والد كريم حنون . . .

وأما الشخصية الأخرى فالشيخ عبد العزيز صالح آل صالح فقد تأثرت به رئيساً فى معالجته الحكيمة للمشكلات وعمق تصوره للقضايا ، ودقة ملاحظاته لنفسيات المتقاضين ، هذا إلى سمو معاملته للعاملين معه ، وقدرته على دفع السيئة بالحسنة ، وإحجامه عن التدخل فى ما لا يعنيه . . ولا يقل عن ذلك تأثرى به رفيقاً فى رحلاته خارج المملكة ، سواء من حيث صفاء نفسه ، ووقار شخصيته وسعة بذله . . ولا أنسى سماحته التى تشعر مرافقه بأنه صديقه وزميله ومقدم عنده حتى على أبنائه ، ثم هاتيك « الدبلوماسية » التى

يقابل بها رؤساء البلاد التي يزورها ، ومحاورته إياهم في أسلوب إسلامي عميق يستولى به على ثقتهم وطمأنينتهم وقبولهم لما يقول . .

م : لو تكرمت بالحديث عن الأعمال التي توليتموها حتى الآن وأحبها إليكم ، ولماذا ؟ .

ع : لقد عملت في ميدان التعليم بدءاً من القسم المتوسط فالثانوى في المعهد العلمى بالاحساء ، وانتهاءً بكليتى الشريعة واللغة بالرياض ، وذلك في المرحلة الأولى عقيب التخرج . . ولما أُحْدِثَت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أُسندت إليّ فيها إدارة التعليم ، ومنها تفرغت للتدريس في كليّاتها الأولى . . وأنا الآن أتولى تدريس بعض الحصص في المعهد العالى للدعوة في المدينة ، وهو تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، وحصص أخرى في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية . .

ومعلوم أن من أعمالى الدائمة التدريس على نظام الحلقات في المسجد النبوى الشريف ، ومنذ العام ١٣٨٤هـ أقوم بعمل قاض في المحكمة الكبرى بقضاء المدينة المنورة .

أما أحب هذه الأعمال إليّ فعائد لعلاقتى بالعمل نفسه ، وما أذكر أنى توليت عملاً منها إلا كنت مرتاحاً إليه ، وأنا أعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان عن رغبة وارتياح نفس لا بد أن يكون حبيباً إليه ، وإنما تأتى النفرة من العمل إذا أرغم المرء عليه ، أو كان فوق طاقته .

ومما لا خلاف عليه هو أن العمل التعليمى وبخاصة العالى منه محبب لكل واحد من أهل العلم ، لما يهيئه من الفرص لزيادة المعرفة ونشر العلم . . .

وأما عمل القضاء فمحفوظ بألوان المصاعب والمتاعب ، ولكن مشقاته كلها تهون بل تتلاشى إذا قيست بثمراته الرضية التى يجنيها القاضى من نصرته لمظلوم ، أو إظهاره لحق مهضوم ، أو رده للهفة محزون . . وغير خاف أن العمل القضائى مبناه أول كل شىء على الاحتساب وإن كان مشمولاً برعاية الدولة ، ذلك لأن احتساب القاضى هو الأصل . .

: ويقول المؤلف : ذلك هو المبدأ الأول للقضاء بقياس الإسلام ، وعليه
 درج قضاء الصدر الأول ، الذين بلغ بهم الورع أن يصدروا أحكامهم
 على الخلفاء والوزراء والأمراء وعلى طغاة الحكام دون أن يخشوا في الله
 لومة لائم أو مهابة ظالم ، وما كان لهم أن يفارقوا خط النبوة في قضائهم
 بعد أن فقهوا قول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « القضاء ثلاثة
 واحد في الجنة واثان في النار^(١) » فأيقنوا أن النجاة لمن أخلص للحق ووقف
 إليه ، وأن الويل كل الويل لمن تلعب به الهوى فأعرض عنه وهو عليم
 به . . . وقد استمرت هذه المسيرة المباركة خلال التاريخ الإسلامي فلم تخل
 حقبة من قضاة كانوا المثل الأعلى لمعنى القضاء في العالم ، حتى أسند
 القضاء إلى غير أهله ، وتغير روح القضاء باستبعاد شريعة الله عن مجال
 الحكم ، فصار القضاء أماليّ بغاٍ لا هدف له إلا تثبيت أركان الظلم على
 أشلاء العدالة وحقوق المظلومين . .

م : ما دمنا في صدد الكلام عن القضاء فيحسن بنا أن نحصل على بعض
 تجاربكم من خلاله . . .

وأطرق الشيخ قليلاً كأنه ينظر في طوايا ذاكرته ليستخرج منها الطريف
 من الوقائع . . ثم مضى يتحدث في أناته المعهوده :

ع : سأقتصر على اثنتين من هذه التجارب لما فيهما من العبرة الرائعة :

أما الأولى فقضية خلاف بين زوجين طال أمده واستفحل شره ،
 وانتهى أمره إلىّ ، وعرض كل منهما دعواه على صاحبه ، متهماً إياه بسوء
 العشرة ، ومطالباً بحقوق عليه . وألحت المرأة بطلب الطلاق وبضيم
 الأولاد إليها دون نفقة . . وبعد دراسة دقيقة للقضية تبين لي ألا سبيل
 للتوفيق بينهما على حالتهما الراهنة ، فقررت إجراء تجربة الطلاق لمرة
 واحدة ، وعرضت الفكرة عليهما فلم يترددا في قبولها ، وأوقع الزوج
 الطلقة وهنا جعلت أذكرهما بحق المودة والرحمة والأولاد ، وختمت ذلك
 بقوله تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ البقرة ٢٣٧ .

١ - من حديث شريف أخرجه أبو داود وابن ماجه .

وكان لكلامى أثره العاجل فإذا بالزوج يقول : إذا كان الأمر للمودة والرحمة والأولاد فإنى متنازل عن كل حق لى عليها ، ومستعد للإنفاق على أبنائى ما داموا فى كفالتها . . وأجابت المرأة على ذلك بأنها هى أيضاً متنازلة له عن مؤخر صداقها . .

وكان من أسباب الخلاف بين هذين الزوجين أن المرأة كلما استاءت من زوجها حاولت الذهاب إلى بيت أهلها فيمنعها أن تصحب من متاعها سوى ما تلبسه . . ولكن ما إن صاروا إلى هذه النتيجة حتى تغير الحال وقال الرجل لزوجته ؟ هذا مفتاح البيت فخذى منه ما تحبين ودعى ما تكرهين . . .

ولقد كان لهذا الموقف أثره البالغ فى نفسى ، وأكثر ما راعنى منه تلك الدموع التى ذرفها كل منهما . .

وبعد عشرة أيام فقط أرسلنا إلى برغبتها فى الرجعة ، ولكنى أخرتها عشرة أخرى للتحقق من صدق العزيمة . .

وهكذا كان الطلاق هو العلاج الحاسم لخلافاتهما المزمنة ، وما لبثا أن عادا بعدها إلى الحياة الزوجية الكريمة . . .

وأما القضية الثانية فقد بدأت يوم رفعت إلى من قبل الشرطة شكوى امرأة تُوفى زوجها وخلف لها عدة أطفال ، وقد وجدت فى أوراقه أن له ديوناً عند بعض الناس مقابل أعمال له . وأحضرت الشرطة هؤلاء فأنكروا أن يكون فى ذمتهم حق للمتوفى ، وأظهروا استعدادهم لليمين ، وحضرت الأرملة مع أطفالها إلى المحكمة ، وتبين لى ألا بينة لديها سوى تلك القيود .

وفى الجلسة الأولى حضرت المدعية وأحد الغرماء واستوقفت الكاتب عن تلاوة الدعوى ، ثم استدنت الرجل وأجريت معه هذا الحوار :

— هل تعرف خصمك فى هذه القضية ؟

— نعم . إنه هذه المرأة الحاضرة .

— كلا . . . إن خصمك هو زوجها فهل تعلم أين هو ؟ . .

— لقد تُوفى . .

— حقاً لقد توفى وترك هذه الأرملة وهؤلاء الأيتام . . ولا شك لديك أنك ماضٍ إلى ماضٍ إليه ، وأنت معروض معه على الله ، الذى سيسألك عن دعواه ، وهو أعلم بما أنتما عليه ، ولا يحتاج إلى بينة ولا تحفى عنه خافيه . . . فما تؤمن أنه يخلصك من عذابه ذلك اليوم فأجب به الآن ، واليوم أوسع لك من ذلك الموقف الذى لا درهم فيه ولا دينار . . فماذا تقول فى دعوى هذه المرأة ؟ . .

وأطرق الرجل ملياً ثم قال : أمهلنى فى الإجابة إلى الغد . .

وسأله : ولمَ الإمهال ؟ . .

قال : لأراجع حسابى مع المتوفى . . .

ولمست فى هيئته ولهجته أنه يريد الحق فأخرته أسبوعاً . . .

وهكذا فعلت مع بقية الغرماء . . وكانت النتيجة واحدة مع الجميع . . .

ففى اليوم المحدد أدلى كل منهم باعتراف يفوق المبلغ المدعى به عليه . . . ومنهم من أحضر المال فسدد ما عليه ، واستمهل بعضهم إلى موعد الراتب آخر الشهر . . ولن أنسى وقع هذا الموقف فى نفس تلك الأرملة . . لقد غلبتها دموع الفرح ورفعت يديها بالشكر الحارّ لله الذى وفق إلى كل هذا الخير .

وإنى لأسأل فى غبطة لا توصف : هلبقى مثل هذا التجاوب العالى مع الحق فى غير نفوس المؤمنين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ؟ . .

وهلبقى للناس ملاذ غير القضاء الإسلامى يردهم إلى ربهم ، الذى يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فيؤثرون مرضاته على كل شئ ! . . .

م : أبرز أعمالكم كان فى التعليم الجامعى ثم القضاء . . فهل لكم أن تحدثونا

عن أثر كل منهما في تفكيركم وتقديركم ؟ . .

ع : كان من آثار التعليم الجامعي في تفكيرى تركيزى على الناحية المنهجية في دراستى لأى موضوع ، سواء كان تحضير درس للمسجد النبوى ، أو حلقة فكرية للتلفاز أو الإذاعة ، أو محاضرة للدراسات العليا ، أو رسالة خاصة أكتبها . .

ففى هذا كله لا بد من خطة أنهجها ولو في موضوع موجز . .

أما القضاء فمائل الأثر في تعميق الملاحظة ودقة التقدير ، والتركيز على تتبع خيوط الحقيقة ، فلا أقدم على تكوين رأى في قضية قبل الفراغ من دراستها ، بل لا أعالج قضية إلا بعد تصور موضوعها وأبعادها . .

وطبيعى أن يكون لعملى في التدريس الجامعى أثره الكبير في منهجى القضائى لأن كلاً من العاملين مكمل للآخر . .

م : ويذكرنى جواب الشيخ هنا ببعض الانطباعات التى حملتها عن فضيلته أثناء عملنا معاً في التدريس الجامعى ، وخلال اجتماعاتنا في مجلس الجامعة الإسلامية ، إذ كثيراً ما يتحدث عن برامج بعض الإذاعات التى تعرض لموضوعات القضاء وإجراءات المحاكم مع المتهمين ، وطرائق التحقيق لاستنباط الوقائع . . وذلك قبل أن نعرف شيئاً عن رغبته في الانتقال إلى القضاء . . ولعل ذلك من الأسباب التى مالت به إلى هذا المسلك الذى أحبه وانسجم معه . .

م : بوصفكم اليوم من أهل القضاء يرجى بيان رأيكم في موضوع تقنين الأحكام الشرعية لتيسير الوصول إليها على طريقة « مجلة الأحكام العثمانية » .

ع : إن هذا السؤال تشريعى أكثر منه قضائياً ، لأن ما يسمى بالتقنين ، وهو وضع القوانين وتنظيمها ، من اختصاص السلطات التشريعية لا القضائية ، أما عمل القاضى فتطبيق التشريع على الوقائع ، وليس من حقه أن يشرع أو يفسر التشريع ، ولكن إذا كان السؤال عن رغبة القضاة وتيسير عملهم بترتيب الأحكام في مواد منظمة ومقعدة — أى مقننة —

يلتزمها القضاة فلا يجدون عناء في تحصيلها ، ولا يقع بينهم اختلاف في تطبيقها ، فأقول : إن فكرة تقنين الشريعة أخذت وقتاً طويلاً في السبعينات وما بعدها ، وكتبت فيها الرسائل ، بين مؤيد ومعارض ، وكل استناد المنادين بها على سابقة المجلة العثمانية .

وأذكر أني دُعيت — في أواخر الثمانينات — إلى ندوة إذاعية بالرياض ، ولم أكن على علم تام بموضوعها ، وكان بين المشاركين فيها صاحب مؤلف كبير نال به درجة جامعية في الموضوع نفسه من خارج المملكة .. ورأى الخاص هو عدم إمكان تقنين الشريعة بالمعنى القانوني ، وذلك للأسباب التالية :

١ — إن التقنين من حيث الأصل هو عمل المقنن يصوغ ما يراه في فقرات منظمة ، فالفكرة من نفسه والصياغة من أسلوبه ، فليس هناك عامل خارجي آخر .. على حين أن الشريعة ليست من وضع هذا الإنسان فهو معها خاضع لغيره ، فلم يبق له من عمل سوى الصياغة .

ثم إن المقنن للشريعة سيواجه مشكلة موضوعية بالنسبة إلى اختلاف المذاهب ولو أراد الالتزام بمذهب فسيواجه المشكلة نفسها في اختلاف علماء المذهب وتعدد الأقوال والروايات فيه .. ولهذا يقول دعاة التقنين : على المقنن أن يرجح ويختار ، وبذلك يأتي انحصار القاضي في حدود اختيار المقنن ، إذ المفروض في القاضي الشرعي أنه مجتهد ، وبذلك يتعطل اجتهاده ، ويلزم بالخضوع لاجتهاد سواه .. .

٢ — إذا اجتمع من نرى فيهم القدرة والكفاية وتخبروا ما وصلوا إليه بعد كل جهد ، ثم جاء بعدهم من يكون له رأى آخر يقتضى تعديل اجتهاد المقنن السابق ، وهكذا يجرى الأمر ما بين تعديل وتغيير ومراعاة للمصالح ، حتى تبعد تلك التقنيات كلها عن أصلها الأول ، كما هو المشاهد في قوانين الأحوال الشخصية ، فعلى الرغم من كونها قائمة على المذهب الحنفي ، فقد طرأ عليها الكثير من التغيير الذي أبعدها عن الأصل ..

٣ - وفي المنهج القضائي نفسه يعلم كل ممارس له أن لكل قضية ظروفها الخاصة ، فما صلح في هذه القضية قد لا يصلح لتلك ، ومن هنا تأتي عوامل التخفيف والتشديد في الحكم . . فإذا وضعنا مثلاً قانوناً في الجنايات ألزمتنا القاضي بتطبيقه على كل قضية جنائية تماثلت معها في الصورة . وإن اختلفت في الملابسات والدوافع ، وليس هذا بمحقق للعدالة .

أما نصوص الفقهاء واختياراتهم وأقوالهم فهي زيادة خير وسعة منهج أمام القاضي المجتهد تمكنه من الموازنة بين القضية والنصوص المتعددة ، وتصير به إلى تطبيق أفضل وأكمل وأكثر تحقيقاً للعدل .

وهنا يرد سؤال عن مستوى القضاة ومدى استيعابهم مختلف الأقوال في المسألة ، وقدرتهم على الترجيح في ما يذهبون إليه . والجواب على ذلك أن الأصل في القضاة الارتفاع إلى هذا المستوى ، فإن يكن ثمة من قصور فيهم وجب تداركه بالرفع من طاقاتهم العلمية بدلاً من الهبوط بقدرة التشريع الإسلامي ، إلى حصره في اختيار بعض الأشخاص . .

وهنا يلتفت الشيخ إلى موضوع المجلة العثمانية فيقول :

إن المجلة لم توضع ليحكم بها القضاة ، ولا لتحصرهم في نطاقها ، وإنما وضعت لقضاة التمييز الذين لم يطلعوا على أحكام الشريعة ، وتعرض عليهم قضايا سبق الحكم فيها لقضاة شرعيين ، فالغرض من المجلة إذن هو مساعدة قضاة التمييز عن طريق تزويدهم بالاجتهادات الفقهية ليتمكنوا من إجراء المطابقة بين أحكام القضاة ومواد المجلة . . .

ويقف عند هذا الحد في موضوع المجلة ، ليستأنف الحديث في قضية التقنين وليقدم مزيداً من الاعتراضات عليه .

يقول الشيخ القاضي قد يقال : إن تعدد الأقوال والأوجه والروايات مؤدّ إلى اختلاف الأحكام مع اتحاد القضايا ، كأن تعرض قضية ما على أحد القضاة فينظرها ويجتهد فيها ، ويؤديه اجتهداه إلى اختيار أحد تلك الأقوال . . ثم تعرض أخرى مماثلة على قاض آخر فينظر ثم يجتهد ، وقد

يؤديه اجتهاده إلى اختيار قول آخر خلاف الذى أخذ به زميله ، فتختلف الأحكام مع اتفاق القضايا ، وهذا أهم ما يحتاج به دعاة التقنين . .

ويقال لأصحاب هذا القول : لا نسلم بمقدمتكم التى تزعم أن القضيتين متفتقتان ، فقد قدمنا آنفاً أن لكل قضية ملاساتها الخاصة ، فاتفاق قضيتين من جميع الجهات متعذر أو ممتنع ، ونذكر على سبيل التمثيل من القضايا الجنائية السرقة والحكم فيها بالقطع ورد المسروق ، فإن الحكم هنا يتوقف على اكتمال عدة أمور :

١ — مالية المسروق . ٢ — كمال التملك بأن لا يكون للسارق شراكة فى المسروق ولو من بعيد . ٣ — حرمة المال المسروق شرعاً ، بأن لا يكون مهدرأً حكماً كالخمر وآلات اللهو . . . ٤ — الحرز ، وحرز كل شيء بحسبه . ٥ — ظروف السارق والأحوال العامة للمجتمع . . . إلى غير ذلك من الشروط .

وكل واحد من هذه الأمور قد يختلف كل الاختلاف أو بعضه بين قضية وأخرى ، وبالتالي فإن توافر شروط الحكم الواحد فى قضيتين قد يكون معدوماً أو كالمعدوم . وربما لو عرضت القضيتان على قاض واحد لاختلف حكمه فيهما لاختلاف ملاساتهما ، ولو فى نظره ورأيه .

م : وإذا كان الحكم مستنداً إلى قول فى المذهب أو نص فى الشريعة فما المحذور فى ذلك ما دام اجتهاد القاضى سليماً . .

وقد سبق من عمر رضى الله عنه أن حكم فى مسألة فرضية باجتهاد منه ، ثم عرضت مثيلتها بالتحديد فأراد أن يحكم فيها بمثل حكمه السابق ، فراجعه الورثة وناقشوه ، فتغير اجتهاده وأصدر حكماً آخر ، فلما راجعه أصحاب الحكم الأول قال : ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى . . . ووجدنا فى التشريع مثلاً أنواع الكفارات من عتق أو صيام أو إطعام ، وفى الأسارى خیر الإمام بين القتل والفداء والمَن . .

ووجدنا في اللعان قوله ﷺ « حسابكما على الله . أحدكما كاذب (١) »
وفي شهادة الزنا لو توافقت شهادة ثلاثة على صورة ولم يحققها الرابع فإننا
نجلد الثلاثة حداً ، مع كونهم لم يشهدوا إلا بما رأوا ، ومع أن شهادتهم
صحيحة بنظر القاضي من حيث الواقع . .

لقد توسع الشيخ عطية حفظه الله في بسط أفكاره حول موضوع
التقنين ، واستوفى ما يراه من الحجج الحاسمة للجهة المناهضة به ، ونحن
عندما طرحنا هذه القضية عليه وعلى سواه من أهل العلم لم نرد تأييداً
لأحد ولا رفضاً ، بل نريد فقط الوصول إلى الحقيقة . ومعلوم أن قضية
الشرعية الإسلامية وعودتها إلى نطاق الحكم ، من الأمور التي تشغل فكر
المسلم المعاصر على اختلاف مواقفه . . ولا جرم أن موضوع الشريعة
الإسلامية مرتبط بأساس العقيدة في وجود الله تبارك اسمه ، والإيمان بالنبوة
والكتاب ، لأن إنكار الشريعة ورفض تطبيقها في حياة المسلمين إنما هو ردٌّ
للإسلام كله ، وانسلاخ من الإيمان بأسره . . ثم لا بد لنا مع ذلك من
إثبات صلاحيتها للحياة واستيعابها لكل مصالح الإنسانية أفراداً وجماعات ،
وتفوقها على كل تشريع عرفه الإنسان منذ عرف التشريع حتى الساعة . .

وحسب الشريعة الإسلامية شهادة الله بتفوقها على كل نظام تشريعي
بقوله الخالد ﴿ إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء ٩ .
فلا نظام ولا قانون ولا دستور إلا والشريعة الإسلامية أكمل منه
وأقوم . . ثم تأتي شهادة أساطين العلوم الحقوقية في العالم لهذه الشريعة
بأنها تفوق كل تشريع عرفته الأرض ، تحقيقاً للعدالة وتكريماً للإنسان ،
وحمايةً للفرد والجماعة من عدوان الطواغيت . على أن المشكلة التي تواجه
أنصارها في هذه الأيام هو احتجاجها عن ميادين التطبيق في أرجاء العالم
الإسلامي خارج حدود هذه المملكة ، ثم وقوفها بسبب ذلك بعيداً عن
مشكلات العالم المستجدة ، مما لم يخطر على بال المجتهدين السابقين من أئمة
العلم . . وقد زاد من عزلتها بالنسبة إلى مفكرى العالم انطواؤها في
موسوعات التراث ، التي لا يتاح الاتصال بها واستكشاف مضامينها

١ — من حديث أخرجه مسلم في كتاب اللعان .

إلا لذوى الاختصاص من كبار علماء الإسلام ، وما أقلهم في هذه الأيام ! . . .

فبينما يجد خبير القوانين الطريق معبداً إلى أعماق التراث القانوني العالمي ، مرتباً منظماً مفصلاً لا يكاد يدع شاردة ولا واردة من الأحداث إلا تناوئها بالتعليل والتحليل ، وإعطاء كل منها الحكم المقتضى ، يجد الطريق إلى عمق التراث التشريعي الإسلامى مملوءاً بالعثرات والعقبات ، سواء من حيث غرابة مصطلحاته إلى تفرق مواده في مئات الكتب ، دون أن تتوافر الهمم لتجميعها وتنسيقها في موسوعة شاملة ومنسقة . . . وذلك على الرغم من بعض المحاولات الرسمية ، التى لا تكاد تمضى بعض الخطوات حتى تتوقف ويغمرها الصمت ، أو من حيث تقديم نماذج من هذا التراث في علاج بعض المشكلات العالمية ، تقنع كبار مشرعى العالم أن ثمة تشريعاً إلهياً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من مصالح البشر إلا أحصاها على أتم الوجوه وأرعاها لهذه المصالح . . . حتى ليتضاءل بجانبه كل تشريع وضعى كما وصفه الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق في عاصمة النمسا بقوله : إن من الفخر للإنسانية أن ينتسب إليها إنسان كمحمد ، وإننا نحن الأوروبيين سنكون أسعد الخلق إذا استطعنا الوصول إلى مستوى شريعته ولو بعد ألفى سنة^(١) .

ومن هنا كانت دعوة بعض مفكرى الإسلام المعاصرين إلى تقنين الشريعة منطلقة من الغيرة عليها ، وإبراز محياها الجميل لأعين البشر ، كى يعلموا أنها الضامن الوحيد لإنقاذهم من البلايا التى عمت ظلماتها الأرض . . .

وشئ آخر لا يحسن إغفاله وهو أن التقنين الذى يدعون إليه لا يتصور أن يقوم به خبير واحد مهما علا كعبه في العلم ، وإنما يعهد به إلى مجمع علمى يضم أساطين الشريعة والقانون ممن يؤتمنون على دين الله ، وكذلك لا يقصدون بالتقنين مجرد تقسيم الأغراض ثم تحديد الأحكام في فقرات مرقمة ، فهذا الضرب من العمل من شأنه تقييد مطلقات لا يمكن حصرها ، وإغفال اجتهادات هى من كنوز الفقه لمقاصد الشريعة الإسلامية في ضوء

١ — انظر كتاب الأستاذ مصطفى الزرقا « المدخل » .

الوحيين . . ولكنهم يريدونه تقنياً يسر للقاضى سبيل الوصول إلى بغيته ، مع الإشارة الوافية للمراجع الموسوعية في الموضوع الذى هو بصدده ، كما فعل نجيب هواوينى فى مجلة الأحكام ، إذ أورد النص المختار لكل حالة مصحوباً بالدلالة المفصلة إلى المظانّ المتممة له ، وبذلك ينتفى المحذور الذى أشار إليه الشيخ عندما اعتبر التقنين تعطيلاً لاجتهاد القاضى ، ولا تعطيل هناك بل هو التقريب والتيسير . .

وقد رأينا فضيلة الشيخ أيضاً يتخوف طروء التطور على أفكار المقننين حتى يضطروا إلى تعريض التقنين للتعديلات المتكررة بين الحين والآخر ، فيتعد بذلك عن الأصل . . وهو تخوف لا موجب له ، إذ المعلوم أن أحكام الشريعة بين ثابت بالنص القطعى الثبوت والدلالة فلا مكان فيه لاجتهاد ، وآخر غير قطعى الدلالة فهو موضع الاجتهاد والخلاف ، وهذا القسم قابل لإعادة النظر فى دلالاته باختلاف المكان والزمان ، ولا شك أن من الخير بل من الرحمة بالأمة أن يتجدد فيه الاجتهاد على ضوء التغيرات الاجتماعية ضمن المقاصد الشرعية . . أما سوى هذين القسمين مما لم يرد فيه نص صحيح فهو أرحب مجالاً للاجتهاد ولتجدد الاجتهاد حسب الدواعى الضرورية ، وإنها لميزة للشريعة السمحة تحفظ لها حرية الحركة والتجدد الدائم . . فلا ينبغي أن تكون موضع خشية أو تخوف ، وحسبك دلالة على ذلك وصية الفاروق لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما « ولا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماهى فى الباطل^(١) وليس القديم والجديد فى المذهب الشافعى إلا توكيداً لهذه الحقيقة . أما احتجاج الشيخ لرأيه بكون التقنين يلزم القاضى بإصدار الحكم الواحد على القضايا ذات الصور المتشابهة مع اختلاف ملابساتها ، فهو كذلك لا موجب له ، لأن ملاحظة اختلاف الملابسات أساسى فى عمل القاضى على اختلاف هويته ، وها هى ذى القوانين الوضعية نفسها تؤكد على ذلك ، إذ تعطى القاضى حرية التصرف فى الحكم فنقول فى موادها مثلاً : من فعل كذا يحكم بالغرامة من دينار حتى عشرين ديناراً ،

١ - انظر « جمهرة رسائل العرب » ص ٢٥٢ ط ١ ت ١٣٥٦ .

أو بالسجن من أسبوع إلى ستة أشهر . . . ولا معنى لذلك إلا تفاوت الملابس بين القضية والقضية . .

وأخيراً نذكر فضيلة الأخ بأن الاختلاف في الملابس ، وفي فهم القضية ، وفي موازين التطبيق ، وما إليها إنما هي من الأمور التي لا مندوحة عنها في أعمال القضية ومن أجلها رتبت درجات القضاء من الابتدائي إلى الاستئناف إلى التمييز . . . وإنما أريد بهذا التصنيف زيادة الحرص على حقوق الناس ، حتى يتحقق لها أكبر قدر من العدالة وسيظل الناس بخير ما احتفظ القضاء بهذه المراتب ، والويل للإنسان من القاضي الذي أطلقت يده في أموال الناس ودمائهم ، فكانت كلمته هي القانون النافذ في ظل أنظمة الطوارئ وأحكام النواب الاشتراكيين ..

وحبذا لو خرجت قضية التقنين من ميدان الجدل النظري إلى ساحة التطبيق العملي في تجربة محدودة ، فإن تحقق نجاحها مع الحفاظ على جلال الشريعة تقدمت التجربة خطوات أخرى حتى تستوفي موضوعها كاملاً ، وإلا وقف المشروع بعد أن ثبت إخفاقه : وقامت الحجة على أنصاره .

م : في موضوع الأحكام الشرعية هل تقفون عند حدود المذهب الحنبلي أو ترجعون إلى مجموع المذاهب المعتمدة ؟ . .

ع : النظام ينص على تقديم العمل بالمذهب — الحنبلي — وللقاضي أن يختار منه ما يتفق مع القضية ، ما دام مستوفياً شروط الاختيار : فإن لم يجد في المذهب المطلوب الذي يطمئن إليه قلبه نظر في المذاهب الأخرى ولا حرج عليه ، فإن اختار رأياً لأى منها فله أن يحكم به بشرط أن يذكر مستند هذا الرأي في موضعه ، ليكون مسوّغاً له في ترك مذهبه وانتقاله إلى مذهب آخر . . . ذلك لأننا نعتبر المذاهب الأربعة كلها سواء في البناء على الكتاب والسنة ولا معارض في ذلك . ولعل في هذا دليلاً جديداً على أن تقنين الشريعة تضيق على القاضي لا تيسر له . .

ونقول لفضيلته : هذا صحيح عندما ينهض التقنين على مذهب واحد وهو خلاف ما يريه دعاة التقنين ، الذين يريدونه سلفياً قائماً على أصول المذاهب المعتمدة ، ومستضيئاً باجتهاداتها المحترمة . .

م : معلوم أن لكم نشاطاً في خدمة الدعوة . سواء في المسجد النبوي الشريف ، أو في المناطق التي جيثموها من العالم الإسلامي . فالمرجو أن توضحوا رأيكم في مسيرة الدعوة ومسالك الدعاة ، وما تقترحون في هذا الصدد . .

ع : من خلال تجربتي ، سواء في المسجد النبوي ، أو مؤسسات الإعلام ، أو في رحلاتي إلى البلاد التي زرتها ، أو خلال لقاءاتي مع العديد من القائمين بالدعوة في موسم الحج ، يمكنني تلخيص انطباعاتي عن الموضوع كما يلي :

١ - في المسجد النبوي ، وبخاصة أثناء الموسم فإن مسيرة الدعوة هي أتم وأنجح ما تكون ، إذ نلتقي أيامئذ بكل ذي استعداد لقبولها مقبل عليها بدافع الحاجة ، ولا سيما ما يتصل بشأن الحج والعمرة والصلاة في المسجد النبوي وآداب الزيارة للقبر المطهر . وقد لمست آثار هذا التلاقي عند زيارتي مورتانية مع شيخنا الأمين ، إذ وجدنا من ينقل بعض ما سمع منا ويحدث به هناك . .

أما مسالك الدعاة فقد جئدت كل من الجامعة الإسلامية ، ومركز الدعوة والإرشاد ورئاسة الحرمين الشريفين ، علاوة على مدرسي المسجد النبوي ، عدداً كبيراً يعمل في الموسم وبعده لغات ، وكلهم على اتجاه واحد ومناهج مستقيمة بحمد الله ، ومعنيون بتصحيح العقيدة والتوجيه الإسلامي السليم ، ومن مهامهم بيان مناسك الحج ، ومعاني التلبية والطواف ونحر الهدى وآداب الإحرام . وما إلى ذلك . .

والذي أقترحه بهذا الصدد أن يتم اختيار أولئك العاملين من نوع خاص على مستوى المسؤولية الإسلامية ، بكل معطياتها ، وأن يبدأ ذلك من مطالع العام الدراسي ، ثم ينظم لقاء للجميع لدراسة المناسك وبعض ما يعرض لهم مع الحجاج لئلا يكون هناك خلاف بينهم يؤدي إلى تشويش أذهان الحجاج . .

٢ - أما في البلاد التي زرتها فإن الدعوة ناشطة والله الحمد ، ولكن مسالك الدعاة في حاجة إلى تنظيم وتركيز ، وإلى مضاعفة الاهتمام

بمستوياتهم المادية والمعنوية . أما من حيث المادة فلتمكنهم من الحياة اللائقة في ظروف يتصاعد بها الغلاء وترتفع تكاليف المعيشة باطراد . . ومن الناحية المعنوية فلنأهيلهم لمجابهة التيارات المختلفة وبخاصة حملات الغزو والتبشيري . .

وأحب هنا أن أركز على نقطة هامة اعتبرها من الدرجة الأولى ، وهي أن نرفع مستوى التعليم بين أبناء البلاد المدعوة ، كى يكونوا مؤهلين لسد حاجتها ، فهم أقدر على معايشة أهلها ، وأبلغ في إيفهامهم . .

فبالنسبة إلى إفريقية مثلاً نلاحظ أنها لا تزال تحمل عقدة الرجل الأبيض ، فتعليم أفراد من كل بلد هناك قد يكون أجدى وأيسر من إرسال البعثات . . .

م : وفي رحلتنا إلى بعض الأقطار الإفريقية وبخاصة في « داهومي » سمعنا من يقول : لا نريد من العرب سوى الإسلام ، فأعطونا أساتذة يعلمون أبناءنا ، أو خذوا أبناءنا فعلموهم عندكم . .

ومن الناحية المنهجية لمست وجود بعثات سعودية وأخرى مصرية ، وقد يكون ثمة بعثات من جهة أخرى ، فحبذا لو توحدت هذه البعثات واتحدت الجهود وتقاربت الأساليب . إذن لكان المردود أعظم وأكبر وأجدى . .

كذلك لاحظنا أن بعض الجهات ترسل إعانات من المال أو المطبوعات عن طريق بعض الشخصيات ، وقد يكون لهؤلاء انتماءات إلى مختلف الأنشطة ، فتكون المنافسات ، وسرعان ما تجر هذه المواقف إلى أقاويل تعطل مسيرة العمل . لذلك أرى تكوين هيئة خاصة للإشراف على توجيه تلك المساعدات والاهتمام بنوعية الذين توجه إليهم . ويتبع ذلك ما يشبه ندوات مروورية على الدعاة في أماكنهم . لا بقصد التفتيش بل للمدرسة المشاكل التى تواجههم . والتعاون معهم على حلها وتخطى عقباتها ، وانتفاع كل فريق من تجارب الفريق الآخر . .

وأخيراً إنى أتمنى أن توجد هيئة دولية إسلامية تكون مسئولة عن عمل

الدعاة ، فتخطط وتشرف وتُمَوِّل ، وتدعمها الحكومات الإسلامية عن طريق سفاراتها في الخارج ، على أن يكون اختيار مسئوليتها مبنياً على وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رضى الله عنه عندما أوفده إلى اليمن : إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه . . . إلخ ومعلوم أنه ليس المراد هنا فائدة الخبر بإعلام معاذ أن القوم أهل كتاب ، وإنما المراد هو لازم الفائدة ، ليدبر الحديث معهم حسب أفهامهم ، فلا يكون معهم كما لو كان مع أميين . .

م : في العالم الإسلامي يقظة مبشرة وبخاصة في أوساط الشباب وطلاب الجامعات . . فما السبيل إلى حمايتها من الشطط وضبط مسيرتها في الطريق السوى ؟ . . .

ع : من البدييات أن كل طاقة منطلقة لا بد لها من ضوابط تصونها من الانحراف . . وفي بيعة العقبة لما أخذت الحماسة شباب الأنصار فقالوا لرسول الله ﷺ : مُرْنَا فَلَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ الْمَوْسِمِ بِأَسْيَافِنَا . . . كان الضابط من رسول الله قوله : إنا لم نؤمر بقتال .

وهكذا . فإن يقظة الشباب بحاجة إلى أناة الشيوخ والإفادة من خبرات السابقين من عقلاء الدعاة ، الذين جربوا طرائق العمل وتمرسوا بها : ليتعلموا كيف يتصرفون ، وليكونوا على بينة مما يعملون . . وإنا لنعلم أن محنة الإسلام والمسلمين أول ما تأتي من حمية الشباب وكسل الشيوخ ، فيندفع أولئك ويتوانى هؤلاء فيقع الانقسام . .

فواجب المسئولين عن هؤلاء الشباب ، وبخاصة في الأوساط الجامعية ، أن يخلصوا مجتمعهم من عناصر التهور ، وأن يركزوا على التزود بعد القرآن العظيم من المعنيين السيرة النبوية والفقه الإسلامي . . ففي السيرة زادهم الضرورى من السلوك ، وفي الفقه حاجتهم العقلية من المنهج .

م : هناك غارات جديدة على الإسلام ، بعضها من الغرب الصليبي واليهودي ، وبعضها من انحرافات بعض كبار المسئولين بإزاء السنة ، فما العمل الواجب لصدها وإبطالها ؟ .

ع : معلوم أن لكل غارة سلاحها الهجومى ، فيجب مقابلته بسلاح يكافئه .
فلا تواجه الغارات الجوية بسلاح المشاة ، ولا زحف الدبابات بكتائب
الخيالة . .

وهكذا نرى هجمات الغربيين عن طريق التشكيك بحقائق الإسلام
والتشويه لمحاسنه ، ومصادمة مثالياته ببهاج المادية . . . كل هذا ، وإن
تنوعت صوره ، لا يعدو كونه سلاحاً واحداً . . فالعمل الواجب هنا
يرتبط بالعمل الواجب للحفاظ على الصحة الإسلامية ، وتيقظ الدعاة
لأهداف العدو وتحركاته ، ويتم ذلك فى مقابلة الفكر الغازى بإبراز حقيقة
الفكر الإسلامى ، وليس هذا بالأمر الهين . . إنه يتطلب تصحيح الكثير
من أوضاعنا الفكرية والتربوية . وأكتفى من ذلك بالإشارة إلى الواجبات
التالية :

١ - إعادة النظر فى مناهج التعليم بمعاهدنا لوضعها على أساس
إسلامى يرسخ العقيدة ويغذى العقل بتعاليم الإسلام ، فلا يبقى فيها مكان
لمثل نظرية دارون مثلاً . .

٢ - أن يفسح المسئولون عن الدعوة صدورهم لمشكلات الشباب
فيعالجوها بالمنطق والعلم حتى يزيلوا من صدورهم كل شبهة .

٣ - إصلاح الجهاز الإعلامى باستمداد برامجه جميعاً من صميم
الإسلام .

٤ - العناية بنشر ما تنتجه الأقلام الإسلامية من واقع التراث فى إطار
من الفن الجديد . .

٥ - التقريب ما أمكن بين هؤلاء الشباب وعلماء الأمة ، ليتخطوا
الحواجز ، وتتلاقى طاقات الفريقين على خدمة الإسلام بقلوب مفتوحة .

وفيما يتعلق بالشق الثانى من السؤال يقول الشيخ ما مؤداه : إن هؤلاء
المعرضين عن السنة والمعادين لها إنما يفعلون ذلك بتأثير ثقافتهم التى تلقوها
من أعداء الإسلام ، من المبشرين والمستشرقين . . وهى علة نشأت من
تربيتهم الفكرية بمناهج ملتوية ، فلا مناص من علاجها بما يقابلها من

المناهج القويمية ، وذلك بالكشف عن كنوز السنة ، والعناية التى أحيطت بها ، والعلوم التى قامت لخدمتها ، والآثار التى أحدثتها فى صميم الحضارة الإسلامية والعالمية . . وسيكون من المفيد فى هذا المجال دراسة الرجال الذين حملوا إلينا علوم السنة ، والميزات العليا التى أهلتهم لهذه المهمة .

وقبل الانتقال إلى السؤال التالى أرى فى ما تقدم من أجوبة الشيخ نقاطاً تستدعى بعض الإيضاح . .

ففى الفقرة التى تعرض لنظرية دارون يقترح الشيخ سّد الطريق أمامها باستبعادها من مناهجنا الدراسية . ومعلوم أن مثل هذه النظرية لا يواجهها الطالب إلا فى المرحلة الجامعية ، وهى الفترة التى تدرب عقله على النقاش والبحث . . فإذا نحن حجبتها عنه أيامئذ لم نأمن تعرضه لها خارج نطاق المنهج العلمى ، الذى يستهدف بناء العقل . . والرأى الأصح بنظرى أن نقدمها للطالب مفصلة فى إطار من النقاش الذى جوبهت به على أيدى ثلة من أكابر علماء الغرب والشرق ، ومن ثم تنفيذها بحكم القرآن الذى ينسفها من أساسها ، بتقريره أبوة آدم للجنس البشرى بأسره ، على حين تفسح تلك الفرية المجال للأخذ بزعم ذلك الأحمق القائل :

وما آدم فى مذهب العقل واحدا ولكنه عند العقول أوادم

ذلك لأن القول بنشوء الإنسان الأول من رواسب الماء ، على الطريقة غير الغائية التى يتصورها دارون ، يجعل تكرار ذلك النشوء من أوائل الممكنات ، وبذلك ترسخ عوامل التمايز العنصرى ، الذى يضرب السدود بين أنواع البشر على أساس ألوانهم وهويّاتهم . . . وهو زعم يناقض حقائق الإسلام ، الذى يقول منزله سبحانه ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الحجرات ١٣ .

ولا حرج بعد ذلك أن نفرق بين أباطيل تلك النظرية وبعض الحقائق التى انطوت عليها ، من حيث أثر التطور فى حياة بعض الكائنات ، مما هو

مشاهد لكل ذى عينين ، وهو الجانب الذى استهوى بعض أبنائنا من خريجي الجامعات الغربية ، فعمّموا حكمه على مجموع النظرية دون تمييز بين الحق والباطل ! .

م : وهناك كذلك إقبال على الإسلام بين مثقفى العالم ، وهو على الغالب إقبال شخصى ليس وراءه دعاة إسلاميون ، فكيف يمكن الاستفادة من هذه الفرصة ؟ . .

ع : إن الإقبال على الإسلام فى تزايد مستمر والله الحمد ، والدافع له أحد أمرين :

١ - هروب هؤلاء من واقع مريع محير ألقى بهم إلى متاهات لا يدرون فيها مكانهم من هذا الوجود ، ويجدون فى الإسلام ملجأ يأوون إليه فيُلفون به اطمئنانهم فى الحياة وبعد الممات . .

٢ - أو قناعة عقلية انتهوا إليها بعد تجاربهم فى الأديان الأخرى والتيّارات الفكرية المختلفة ، وبعد أن تحرروا من مفتريات الأفاكين على الإسلام ، فنظروا إلى حقائقه فى معزل عن تلك المؤثرات . ولا عجب فالإسلام إنما يعمل بحقائقه ..

وللإفادة من هذه الفرصة نذكر بوجوب اهتمام الدعاة بهذه النوعية من الناس ، وإيراز محاسن الإسلام لعقولهم وقلوبهم ، وعقد الروابط الأخوية معهم حتى لا يستشعروا الوحشة فى النقلة من جو الأمس إلى جو اليوم ، بل وليشعروا بالبون الشاسع بين الماضى الشقى القلق الذى كانوا عليه ، والحاضر السعيد الذى صاروا إليه .

هذا مع الحرص التام على تزويدهم بالإسلام الصحيح النقى السليم من أباطيل القاديانية ، وتهويمات التجانية وأشباهها . .

م : إنكم تشهدون المعركة القائمة بين الإسلام والجاهليات الحديثة على الصعيد العالمى قد بلغت أشدها ، ولا سيما فى نطاق الإعلام والتغيير الاجتماعى ، فكيف تتوقعون نتيجة هذا الصراع ، وما السبيل لجعله فى صالح الإسلام ؟ . .

ع : الذى أتوقعه لهذه المعركة أنها ستسفر عن انتصار جديد للإسلام بفضل الله وقوته ، لأن تجارب الماضى من خلال المعارك التى خاضها هذا الدين تؤكد لنا أن العاقبة له دائماً .

أما السبيل إلى استمرارها فى صالح الإسلام فكما أسلفت فى دعم شخصيات الدعاة ، ثم تجاوب هؤلاء مع أجهزة الإعلام الإسلامية ، ليقابل السلاح بالسلاح ، وذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه . فى جواب السؤال الحادى عشر .

يقول المؤلف : ولنا هنا تعقيب أيضاً نلخصه فى ما يلى :

بالنسبة إلى شخصيات الدعاة لا بد من النظر إلى أصنافهم ، إذ منهم الذين لا تتجاوز طاقاتهم تذكير الناس ببعض مبادئ الإسلام المتصلة بالعقيدة ، وبعض الممارسات اليومية التى لا مندوحة للمسلم من معرفة حكم الله فيها ، وهم الأكثرون من الموفدين لخدمة الدعوة فى الخارج ، ولا مجال للتعويل على هؤلاء فى مجابهة التيارات التى تحركها وتقودها أيدى الشياطين من ماركسيين وصهيانية وصلبيين وماسونيين . . فلا مفر إذن من الاهتمام بنوعية الدعاة الصالحين لهذه الجهات ، ولعل خير ما يمكن عمله فى هذا الجانب ما سبق أن دعونا إليه مراراً من ضرورة التعاون بين أولئك الذين هداهم الله من مفكرى العالم ، مثل رجاء جارودى وموريس بوكاى وإخوانهما ، وبين الذين عُرفوا بجهادهم المبرور الناجح لنشر الوعى الإسلامى من أمثال الدكتورين ناصر ومحمد الرشيدى — فى أندونيسية — والدكتور المهدي بن عبود — فى المغرب — والشيخ محمد الغزالى ومحمد قطب ويوسف القرضاوى — فى مصر — والدكتور معروف الدواليبى — فى سورية — ثم يأتى موضوع التجاوب مع أجهزة الإعلام الإسلامية . وأؤكد على « الإسلامية » لأن الإعلام فى بلاد المسلمين — إلا مارحم الله — موجّه ضد الإسلام ، فكيف يطلب من الدعاة الإسلاميين أن يتجاوبوا معها ؟ ! وقد كان العقول أن يطلب من هذه الأجهزة أن تتجاوب معهم بدلاً من إلزامهم الانسياق فى دربها . .

وعندى أن مجرد تصحيح أوضاع الإعلام فى العالم الإسلامى كاف لتصحيح الفكر الإسلامى ، ومن ثم لتعطيل الكثير من المؤامرات العالمية على الإسلام ..

م : نعلم أن لكم كذلك نشاطاً في نطاق التأليف ، فما أفضل ما صنّفتم وأحبه إليكم . . ولماذا ؟ .

ع : مؤلفات كل كاتب كقصائد كل شاعر تعتبر بمنزلة أولاده ، إلا أن فيهم الصغير والكبير والقوى والضعيف ، وفيهم التجيب والخالل . . فلا بد أن يكون بينهم من هو أرضى له ، ولكنهم متساوون لديه من حيث صلتهم به وحبه الخير لهم جميعاً . . .

ومن هذا المنطلق أنظر إلى كل ما صنفته من رسائل وكتب ومحاضرات أدبية أو علمية أو اجتماعية ، ومع ذلك فأحبّها إلى قلبي تنمة « أضواء البيان » لشيخنا الأمين رحمه الله .

أما لماذا . . فقد يعود إلى ناحية عاطفية مردّها شدة ارتباطي بمؤلفه ، ثم لموضوعه الذي هو كتاب الله تعالى ، ولمنهج الشيخ فيه من حيث بيان القرآن بالقرآن ، يضاف إلى ذلك الفائدة بل الفوائد الكثيرة التي عادت عليّ من هذا العمل أثناء التحضير لكل آية كتبت عنها ، وما كان لهذه الفوائد أن تحصل في تقديري لو لم يسر الله لي مثل هذا العمل . . ولا أنسى أثر منهج الشيخ في تفكيري ، فإنّي وإن لم أساوه لم أخرج عن خطوطه في الجملة . .

وأخيراً عليّ أن أذكر ما لمستّه من التوفيق الذي أفاضه الله عليّ أثناء قيامي بهذه المهمة ، وما رأيته من المبشرات قبل الاشتغال بها وأثناءها .

والحق أن لفضيلة الشيخ عطية فضلاً لا ينكر في الست عشرة من مئات الصفحات التي أكمل بها مؤلف المغفور له شيخنا الأمين ، إذ كان عمله فيها كعمل السيد رشيد رضا رحمه الله وإيانا في إضافاته التي أتم بها « تفسير المنار » بعد أن حال الأجل دون استيفائه من قبل الإمام الشيخ محمد عبده .

والله المستول أن يتغمّد برحمته المؤسّسين ، وأن يشمل بالعمو والقبول كلاً من المتتمّين .

والحمد لله رب العالمين

الأستاذ عمر التلمساني

ليس بوسع مؤمن يهجم أمر الإسلام والدعوة إليه وتقصى أحوال دعااته أن يجهل اسم هذا الداعية، الذي قدر له أن يحمل أمانة القيادة لأكبر حركة إسلامية عرفها هذا القرن. ولولا الزامية المنهج بضرورة التعريف بالمرجّم تعريفاً يحيط بنشأته وبيئته ومؤثرات حياته، على وجه يقرب صورته (الشخصية) من أذهان القراء، لكان عليّ أن أبأشر الحديث عنه دون أي مقدمة اعتماداً على معلوماتهم الذاتية عنه.. هذا إلى أن في مثل هذه المقدمات المنهجية فائدة تتيح لمطالع الترجمة الإمام بملاحظات الأحداث والأسباب التي ساعدت على تكوين الاتجاهات النفسية والفكرية التي ميزت صاحبها على اختلاف الأحوال .

ومن هنا نبدأ بتقديم مترجمنا الفاضل . فهو عمر بن عبد الفتاح بن عبد القادر مصطفى التلمساني .. وهي نسبة تُشعرنا بأن أصوله القرية وافدة إلى مصر من تلمسان الجزائرية، وأؤكد على قربها لما أراه في خطه من الطابع الأندلسي المحافظ على خصائصه حتى في شكل الحروف وطريقة التنقيط، مما لا يتوافر لجزائري قديم الهجرة في العادة، أو لعل في ذلك دليلاً على شدة ارتباط الأسرة بالوطن الأول، ارتباطاً يحفظ على أفرادها مميزاته الأصيلة .

وقد ولد فضيلته في القاهرة بشارع حوش قدم بالغورية عام ١٩٠٤م وكان جده ووالده كلاهما يعملان أول الأمر في تجارة الأقمشة والأحجار الكريمة، وتنتشر تجارتها هذه ما بين القاهرة وجدة وسنغافورة وسواكن والخرطوم، ثم صفيا عملهما ذاك ليتوجها إلى الزراعة حيث اشترى مساحات واسعة من الأرضين في قرية نوى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية.. ومساحات أخرى في قرية المجازر مركز منيا القمح بمديرية الشرقية .

ويمتاز جده بالاتجاه السلفي في العقيدة، إذ كان — على تعبير المترجم —

وهاي النزعة، وقد تولى طبع العديد من كتب الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب على نفقته.. وفي هذا الجو الرخي الحياة، البعيد عن البدع، نشأ الأستاذ محاطاً بالنعمة والروح الديني، إذ كان كل من في ذلك البيت قائماً بحقوق الله صلاة وصياماً وحجاً، سواء في ذلك الرجال والنساء، والفتيات والفتيات. وفي هذه البيئة — يقول الأستاذ — طرق سمعه اسم ابن تيمية وابن قيم الجوزية، أثناء المناقشات التي كانت تجرى بين جده وزواره من أهل العلم. ويصف الأستاذ جده هذا بأنه، إلى جانب ثقافته العلمية، يمتاز أيضاً بالدعابة اللطيفة، ومن ذلك أنه يستقبل زائريه ومدعويه من هؤلاء مرحباً بقوله: (ماشاء الله.. وأتوني بأهلكم أجمعين.. أما فيكم من معتذر أو متخلف!!..) حتى إذا ظهر في الفناء ديك رومي صاح فيه: أنج بنفسك ولا تلق بيدك إلى التهلكة».

وفي مدارس الجمعية الخيرية هناك تلقى الأستاذ دراسته الابتدائية. فلما توفي الجد انتقلت الأسرة إلى القاهرة، فالتحق بالمرحلة الثانوية من المدرسة الإلهامية في الحلمية. حيث حصل على شهادتها، ومن ثم انتظم في كلية الحقوق، وبعد التخرج فيها بدأ التمرن على المحاماة، ثم اتخذ له مكتباً في بندر شبين القناطر، حيث مارس عمله القانوني بتوفيق مرموق..

ويسيطر الكلام عن عمله هذا قائلاً: لقد باشرت عملي في المحاماة على قواعد ديني جهد الامكان، فإذا جاءني ذو قضية مدنية درست مستنداتها، فإذا رجح لدي جانب الكسب فيها قبلتها، وإلا نصحت له بالصلح مع خصمه..

وطبيعي أنه يفعل ذلك مع مراعاة جانب الحق بالدرجة الأولى، بحيث لا يقبل المرافعة في قضية تخالف قواعد الدين التي أخذ بها نفسه كما تقدم. ولم تشغله المحاماة عن تثقيف نفسه بالعلوم الإسلامية إذ كان نزاعاً إلى المطالعة في كتب الفقه والتفسير والحديث والسيرة النبوية.. ومع وفرة قراءاته ومحفوظاته من القرآن الكريم والحديث الشريف، لا يزعم لنفسه العلم وليس هو في رأيه عن نفسه سوى قارئ نهم لكل ما يتعلق بدينه يريد أن يتعلم منه مالا يعلم، ولا يسمح لنفسه أن يفتي في شيء، فإذا سئل في أمر ديني أجاب: أذكر أنني قرأت في هذه المسألة كذا.. وليس لك أن تستند إلى إجابتي بل عليك مراجعة

المتخصصين في هذا الباب، ويؤكد لنا أنه لا يزال علي شأنه حتى اليوم. وذلك لعمر الله هو الورع لأن أجراً الناس على الفتيا أجرؤهم علي النار، وما أكثرهم في هذه الأيام!..

ويتصل بهذا الجانب من حياة فضيلته أنه مع حفظه الآلاف من حديث رسول الله ﷺ، لا يلقي بالأثر الذي يستشهد به مرفوعاً إلى مقام النبوة إلا مصحوباً بقوله «أو ما هذا معناه» لأنه لا يحفظ مع الحديث سنده، ويخشى أن تكون له رواية أخرى أصح لفظاً منه، فيعمد إلى ذلك الاستدراك لعلمه بأن أئمة الحديث يرون صحة روايته بمعناه، ويتأيد ذلك لديه بالأثر النبوي القائل (نظر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها) حيث قيد سلامة الرواية المقبولة بالوعي، والوعي أمر يختص بالمعني دون حرفية اللفظ. وقد أشرنا فيما تقدم إلى استظهاره كتاب الله، وهو يقول أنه لا يزال يتعهد باستمرار خشية تفلته من الذاكرة.

وعلى سؤال عن آثاره المنشورة أو المعدّة للنشر، أجاب: أن ليس في آثاره القلمية ما يستحق الحاقه بالمؤلفات، وإنما هي خواطر جُمعت في كتب، منها: (شاهد المحراب) الفاروق و(قال الناس ولم أقل) عن حكم عبد الناصر، ثم (بعض ما علمني الإخوان المسلمون) و(الملمم الموهوب) حسن البناء، وأخيراً (ثلاثة وثلاثون يوماً من حكم السادات) هذا إلى جانب افتتاحياته لمجلة (الدعوة) وما يكتبه حول الشؤون الإسلامية في المجلات والصحف السيارة.. ويردّف هذه العنوانات بقوله: إن من أجل نعم الله عليه كونه لا يحمل حقداً ولا كراهية لإنسان أيا كان مذهبه، بل من عادته أن يترك ما يصبیه لله يتولى الفصل فيه بحكمته وعدله.. وهي إشارة لطيفة وغير مباشرة إلى مضمون هذه الآثار من حيث كونها عرضاً موضوعياً لوقائع أو أفكار مبرأة من أهواء النفس، فلا مكان فيها لكراهية أو ضغينة، إنما هي تجلية لحقيقة، أو بيان لرأى الجماعة التي يمثلها. أو مجرد نصيحة يوجهها إلى حاكم رجاء أن ترده إلى جادة الحق، على الطريقة التي أمر الله بها نبيه والمؤمنين معه في قوله الحكيم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل ١٢٥). ويتحدث عن الأعمال التي تولّاها وأثرها في نفسه فيقول: شاء الله أن أبدأ عملي في المحاماة كما أسلفت، استبعاداً لنفسي عن حيز الوظيفة التي

لأحتمل قيودها من الضغط على حرية الرأي، وتحديد موارد الرزق، فاثرت الحرية في العمل بحيث لا يكون لأحد عليّ من سلطان إلا مراقبة الله. وأنا امرؤ طبع على الحياء حتى لأتساهل في كثير من حقوق، إلا أن مما أحمد الله عليه، ولا حصر لفضله، منحه إياي نعمة التجرد من الخوف، فما خفت أحداً في حياتي إلا الله، ولم يمنعني شيء من الجهر بكلمة الحق التي أوّمن بها، مهما ثقل وقعها على الآخرين، ومهما لقيت في سبيلها من العنت.. أقولها هادئة رصينة مهذبة لا تؤذي الأسماع ولا تخدش المشاعر، وأتجنب كل عبارة أحس أنها لا ترضي محدثي أو مجادلي، فأجد من الراحة النفسية في هذا الأسلوب مالا أجده في سواه، ولئن لم يكسبني الكثير من الأصدقاء، فإني قد وُقيتُ به شر الكثير من الأعداء، هذا إلى أن مانالني ورميت به منذ انتسابي إلى جماعة الإخوان المسلمين، قد أصبح لي درعاً واقياً من الغضب والكرهية، تنال عليه النصال فيكسر بعضها بعضاً.. ويستأنف فضيلته: على أن العبء الوحيد الذي يهظني وأنوء بحمله هو مسئوليتي عن الإخوان، لأن نظام الهيئة التأسيسية للجماعة يقضي بأن يتولي الأمر أكبر الأعضاء في مكتب الإرشاد سنّاً، وشاء الله أن أكون الأكبر في هذه الظروف، فكان الوفاء لبيعتي أن أحمل العبء ماضياً مستريحاً، لأن في ذلك مخالفة للقانون الذي قضى بحل الإخوان، بل لأن الصلة الروحية بيني وبين الإخوان جعلتهم ينظرون إليّ بهذه العين، وجعلتني أرتاح للنهوض بالواجب مهما واجهت من الصعاب والمشاق، وقد عاملني المسئولون في الدولة على أساس من هذا التصور.. وهنا لا يفوتني الاعتراف بأن جانب الحرية الذي أتمتع به، على ضآلته، لأعرف مثيلاً له في العالم الإسلامي ما بين أندونيسية إلى أقصى المغرب، ولا جرم أن الله حكمة في ذلك...

وأنا أقول في مأسلف فضيلته من حديث عن ملاحمه النفسية: لقد عرف جمهور الناس أسلوبه الحكيم من خلال حواراه مع الرئيس أنور السادات، يوم وجّه هذا هجومه العنيف عليه وعلى الإخوان، وساق إليهم أنواع التهم المفتراة، وهو يظن أن خوف السلطة سيقطع لسانه عن الرد، فإذا هو يخيب فأله ويلتف على مفترياته بالحجة الداحضة حتى يختمها بقوله: الشيء الطبيعي بازاء أي ظلم يقع عليّ من أي جهة أن أشكو صاحبه إليك بصفتك المرجع الأعلى للشاكين بعد الله، هأنذا أتلقى الظلم منك فلا أملك أن أشكوك إلا إلى

الله .. وما كان أروع رداً حطم سلاح الطغيان بأدب اللسان وقوة الإيمان ، فإذا بالرئيس يللم تهمه وينقلب مستعظفاً يسأل المظلوم إلغاء شكواه .. وكل ذلك على مرأى ومشهد من مئات الحاضرين لذلك الحفل ، وملايين المشاهدين عن طريق التلفاز .

ولا أنسى كذلك ذلك الحياء الذي لمست في أول لقاء أثناء زيارتي أياه مع بعض الأُحبة في منزله — أواخر المحرم ١٤٠٤ هـ — فقد دخل علينا مرحباً دون أن يوجه نظره إلى أحد ، وجعل يجيبني على بعض أسئلتني دون أن يرفع إلى بصره ، فلم يسؤني ذلك منه لما سبق أن عرفته عن طبيعته تلك .. وقد كان في بعض حوارنا ماثير الأعصاب ولكن أناته الغالبة ألزمت الرقة التي ذكرها عن أسلوبه ، مما يشعر جليسه ومحاوره بأن الأحداث القاسية والطويلة التي عرسته في ظلمات السجن قد صهرت نفسه ، حتى لم تدع فيها مكاناً لغير الحقيقة التي يؤمن بها ..

أما جانب الحرية التي يتمتع بها في مصر فهي واقع لمسناه أثناء تلك الأيام التي قضيناها هناك ، فالناس أحرار في تحركاتهم وتصرفاتهم مواطنين وزائرين ، ماداموا لا يتعرضون لتصرفات الحاكمين ، ولكن الويل لمن يحاول الخروج عن هذا الخط ، فإن هناك غياهب السجون ، وفيها كل مالا يتصوره الخيال من ألوان الهوان ، الذي وكلت به مخلوقات من الكلاب وأشباه الكلاب ، دربت على تعذيب الناس وإذلالهم ، وبخاصة إذا كانوا من دعاة الإسلام وعلمائه ، مما يعتبر معه الموت من أحب أماني الإنسان .. ومن هنا انتقلنا إلى السؤال التالي :

م — أكثر الرجال تأثيراً في حياتكم وأفكاركم ، وأهم الأحداث التي عاصرتوها ..

ع — بعد رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار كان أكثر الرجال تأثيراً في حياتي هو الإمام الشهيد حسن البنا رضوان الله عليه . فقد حباه الله بكل ما يقربه إلى قلوب المسلمين ، ويغضه إلى كل خصوم الدعوة الإسلامية ، لآتحدث عن غزير علمه ، فرسانه حوت ، علي إيجازها ، كل ما يحتاجه المسلم للتفاني في سبيل دينه ، وما يعوز الداعية من منهاج واضح بين

موضوعاً ووسائل وأساليب، فكل واحدة من رسائله متن صالح لمجلدات ضخمة تفسيراً وتبصيراً. لقد أفاض الله عليه ذكاء عجباً حتى ليكاد يجيبك علي ماتريد قبل أن تتوجه إليه بالسؤال، وكان من الثقة بحيث يظن كل أخ من ملايين الإخوان المسلمين أنه أقرب الناس إليه، وأحبهم لديه، بسيطاً غاية البساطة في مظهره ومعاملاته وأحاديثه، حتى إذا علا المنبر أخذ بكل جوانب النفس، فتظل معلقة بكلامه في وعي خيفة أن يفوتها حرف منه، حتى إذا فرغ من حديثه استرد كل سامع قلبه وفكره إلا شخصاً واحداً بقي قلبه مع الإمام الشهيد في روحاته وغدواته. ولا جرم أن هذا المستثنى الأخير هو صاحب هذا الوصف، ولكن من الواصف!.. هو الأستاذ التلمساني نفسه، مع أنه يختم هذه الأسطر بقوله: وهذا الكلام هو لفضيلة الإمام المرشد الثاني استاذنا حسن إسماعيل الهضيبي رحمه الله وحشره مع الصالحين الأبرار.. وسواء كان ذلك من كلام التلمساني أو المغفور له الهضيبي، فهو يصور رأيهما في إمامهما الأول الشهيد البنّا دون ريب.

ويستأنف الأستاذ التلمساني في وصف شخصية الإمام الشهيد قائلاً: إذا كان في رحلة من رحلاته التي لا تعد ولا تحصى، في الداخل والخارج، فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يستريح إلا بعد أن يطمئن على كل من في رفقته. كان جَمّ التواضع، نظيف العبارة حتى مع مهاجميه وخصومه، لم يسيء إلى أحد منهم قولاً ولا عملاً.. يربي أعوانه تربية عملية، فيكل إليهم القيام بالأمر الهامة مثناً عليهم، مصححاً لأخطائهم، محتملاً لكل تجاوزاتهم.. ولا أنسى يوم أن حصل خلاف بين الإخوان والوفديين في بور سعيد، فاستدعاني وكلفني الذهاب إلي هناك قائلاً لي: تصرف كما يوحى إليك الموقف دون الرجوع إليّ في شيء، فكانت هذه اللفتة التربوية معواناً لي في استفراغ الوسع، حتى انتهت الأمر إلي خير مايمكن أن يصير إليه ذلك الموقف الشائك المعقد..

كل ذلك وما أشبهه ربط قلوبنا جميعاً بإمامنا الشهيد بأوثق عرى المحبة والوفاء والإخلاص.. ولهذا عشقت الدعوة والداعية، ووقفت عليها حياتي إلى اليوم.

ويستأنف الأستاذ: عاصرتُ الوفدَ وقيامه، وثورة ١٩١٩، وكانت بحق نابعةً من مشاعر الشعب كله، وكان المنتظر أن تأتي بأبرك الثمرات لمصر بخاصة وللأمة الإسلامية بعامه، لولا المؤامرات الشخصية، والانفعالات الزعامية، والألاعيب السياسية، التي مزقت الشعب المصري فرقاً وأحزاباً وشيعاً واتجاهات، وأطاحت بكل مآمله المصريون. ولقد نابني من ذلك بعض الرشاش خلال تعصبي الوفدي وأنا في مطالع الشباب، كذلك كان لانقلاب يوليو ١٩٥٢ أثره الكبير، إذ أيقظ المشاعر وحرك الرغبة في رؤية شرع الله مطبقاً في هذا البلد المسلم، ومن أجل ذلك كان للإخوان المسلمين أكبر الأثر في نجاحه.. إذ كانوا يجوبون القطر كله في بث الدعوة الإسلامية، وربط القلوب بعقيدتهم، ونقد المفاسد والمظالم التي كانت تسود البلاد من قبل الاستعمار، وطغيان الملكية وتهافت الأحزاب. أما هيئة الضباط الأحرار فكانت تعمل في الخفاء، ولم يكن يشعر بها أحد، فلما أسفرت وجدت الطريق ممهداً والجو صالحاً، والشعب على استعداد لتقبل الانقلاب، ولكن لحكمة لا يعلمها إلا الله تغلب حب الزعامة والظهور، فكان ما كان من انقلاب الضباط الأحرار على الإخوان المسلمين، الذين أخلصوا لهم العون، ومهدوا لهم السبيل، ولا غرابة في ذلك، فالسلطان، كما يقال، عقيم لا يتورع أصحابه أن يتجاوزوا من أجله كل شيء حتي أبسط مبادئ الأخلاق.. وفنك عبد الناصر بالإخوان المسلمين استناداً إلى قوة الجيش والشرطة، والقوى التي كانت تكيد للجماعة، وبخاصة الصليبية والصهيونية والملاحدة.. ولو أن ما أنزله عبد الناصر كان في غير الإخوان المسلمين لكانوا اليوم واحداً من أخبار التاريخ ترويه الأجيال للعظة والاعتبار، أما الإخوان فقد زادت بهم المحن إيماناً، ومكنت لحب الله ودعوته في قلوبهم، وقد ذهب الظالمون وأعوانهم وبقيت دعوة الله على الرغم من محاولات القوى المحاربة للإسلام، لأن كلمة الله ثابتة لا يعترىها زوال..

وما من شك أن مواقف الإخوان المسلمين ودماءهم الطاهرة التي روت شجرة الإيمان على ثرى فلسطين وعلى ضفاف القناة، قد هزت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. وهكذا أثبتت دعوة الإخوان للعالم بأسره

أنها قوة ولاء عملي، رسخ الإسلام في صدرها، وصدق العمل في حركاتها وتصرفاتها وتضحيتها وصبرها ومرابطتها، الأمر الذي ألهم نيران الكراهية في صدور اعداء الإسلام، فهي تتكشف يوماً بعد يوم على كل بقعة من ربوع المسلمين، وما إسرائيل إلا صورة بارزة لهذه الكراهية، التي توهمهم أن القضاء على الإسلام والمسلمين أصبح وشيكاً.. وخاب فآلهم، فلئن استطاع هؤلاء الاعداء أن يقضوا على بعض المسلمين فهم أعجز من أن ينالوا من الإسلام، لأنه رسالة الله الخاتمة إلى الأرض، فلو لم يبق على البسيطة سوى مؤمن واحد يحمل راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانت السموات والأرض رتقا عليه لفتقها الله له قوة وعزة ونصراً.. وكل شيء عنده بمقدار..

م — كان سجنكم طويلاً شهدت أثناءه الكثير من الوقائع المؤثرة، فما الحصيلة التي خرجتم بها من تلك الرحلة الشاقة؟.

ع — خرجت من السجن وقد ازددت يقيناً بالحكمة القائلة (لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع) فالسجين قد استقر عند خاتمة المطاف، فليس لدى ظالمه إلا سجنه أو قتله، والسجين المستمسك بعقيدته تسليماً لأمر الله أشد إيلاماً لنفس الظالم من غيره، لأن غيره يبيت ويصحو متوقعاً المجهول من البلاء، وهذا التوقع قد يحول بينه وبين الكثير من العمل لدعوته. وفي ذلك راحة لخواطر الظالمين. وإذن ففي ثبات السجين على دعوته انتصار للحق على الباطل، وهزيمة للباغي في عجزه عن تحقيق بغيته، فالباغي مهزوم مهزوم وصاحب العقيدة منصور منصور.. وهنا أسجل أن انتصار الدعاة لم يكن قط وليد شجاعتهم أو تحديهم أو صبرهم، وإنما هو فضل الله في تثبيتهم ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ (سورة الإسراء ٧٤).

أجل إن الله هو صاحب الفضل الأول في النعمة إذا اقترنت بالشكر، وهو صاحب الفضل الأول في المحنة إذا لازمها الصبر، وفي كل خير، وليس ذلك لغير المؤمن.

إن صنوف العذاب التي أوقعها عبد الناصر وخليفته السادات بالإخوان

المسلمين ماكانت لتحز في نفوسهم كثيراً، ولكن الموجه ماكانا نسمعه ونحن في ظلمات الزنازين من تأوهات المعذنين وأصوات العصي والسياط التي كانت تنهال متلاحقة عليهم.. وكم من أخ أدخل على إخوانه في المطبخ وقد سال دمه وتمزق لحمه وبرزت عظامه، وهو يتسم، وهم من حوله محزونون مغمومون لما أصابه، لالما سيلحق بهم بعد قليل.. لقد كانت العواطف الإسلامية دفاقة بالإيثار والتضحية والحب، وكانت حياتهم في غمرة المحنة فدأ وصبراً وحمداً وشكراً وصلوة وصياماً وذكراً فما أروع ماحصلناه في تلك السجون من نعم الله في الناحية الإيمانية، فما استأثر واحد منا براحة دون أخيه، وما اختص نفسه بمطعم تسلل إليه.. لقد كان بعض القائمين علينا في السجون يبدى الكثير من الأسى على مانحن فيه ولكنهم لايميلكون أن يقدموا غير هذا، فسيوفهم علينا وقلوبهم معنا، ولكنه خير كان يفتح ببعض الراحة علي أي حال. حقا إن السجون مدرسة للتطهر والصفاء وترسيخ اليقين.

م — معلوم أن الدعوة التي تمثلونها متميزة بخطها المتفرد عن سائر الحركات المحلية العالمية.. وقد نشرت بعض الصحف خارج مصر مايوحي بأن ثمة تقارباً بينكم وبين مثلي هذه الحركات في مصر، وبخاصة الماركسيين.. فما حقيقة ذلك..

وكان لسؤالنا هذا وقع لم يستطع الأستاذ إخفائه.. ولابد أنه قد سمع مثله من غيرنا، فجاء وكأنه نكأة لجرح لم يستوف برأه بعد.

ع — يقول فضيلته: مما يصاب به بعض الناس أن يحكموا قبل أن يتبينوا، وهذا منهي عنه شرعاً، فيجرون وراء أوهام تطوف بخواطرهم سواء استقام طريقهم أو اعوج، فإذا قرأوا لأحد الإخوة مقالاً مثلاً رأيتهم يجتزئون بعض فقراته ليحكموا على المقال كله من خلالها، مع أن العدالة تقتضي تقويمه كاملاً، فإن رجح سداده كان خيراً مشكوراً، وإن غلب سيئه كان محل المؤاخظة.. وذلك هو المعيار الذي يحاسبنا به الله يوم القيامة، حيث توزن الأعمال بقسطاس الحق، فإن رجحت الحسنات أدخل المسلم الجنة بفضل الله علي ما في صحائفه من السيئات، أما إذا غلبت السيئات فإلي

النار حتى تطهره عدالة الله . وما أكثر ما يغفل البعض هذا العدل الرباني ، فيقصدون إلى التماس الخطأ في أعمال إخوانهم ، فإذا ماعثروا على ذرة من ذلك طاروا بها فرحاً ، ثم راحوا يشهرون بها نقداً وتجريحاً .. كل ذلك وهم بعيدون عن ميدان المعركة ، لا يدري أحدهم ظروفها ولا ملابساتها ، ولا يقدر مسئولية القائد إن تقدم أو تأخر أو داور .. وما أحسب مثل هذا الإنسان سليم الطوية أو سوي التفكير ، وليس معني ذلك ادعاء العصمة ، وهي لا تكون إلا للأنبياء ، والكمال لله وحده .

إن كتاب المسلمين يزنون كلماتهم وهم يخطونها ويقومون عباراتهم وهم يقدمونها ، لأنهم يعلمون بيقين أنهم ليسوا مسئولين عن أنفسهم فحسب . فرب كلمة تساق دون وعي ولا تقدير تلحق الضرر بالآلاف من حملة الدعوة ، وهي مسئولية ضخمة ثقيلة مأظنها تخفى على أريب ، غير أن البعض يحب أن يتظاهر بالعلم والشجاعة والغيرة على الدعوة مادام آمناً مطمئناً ، جرياً على طريقة القائل :

وفي الهيجاء ما جربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

ولعل أعلى الناس صوتاً بالشجاعة والإقدام أسرعهم إلى الفرار يوم الزحام .. على أن هناك فريقاً من حسني النية يحرصون على ألا يسقط أخ لهم في محذور أو محذور ، فهو لاء تشفع لهم نواياهم ، وإن كنا ننصح لهم بالتأني والتروي قبل إصدار الحكم ، خشية المسألة أمام الله ، مع العلم بأن خلوص النية غير كافٍ حتي يصحبه سداد القول والفعل في الحياة الدنيا على الأقل . ولا ننسى أن المسلمين مطالبون بالستر على بعضهم ، فلا يسرون بالسيئة بين الناس معالنين ، حتى إذا ما عاتبهم أحد تذرعوا بحجة الخوف على أخيم ، وحرصهم على أن يكون فوق الشبهات وهي حجة لو عرضوها على معيار الإسلام لوجدوها عليهم لاهم ، ولأمسكوا أن يكونوا من الذين قال الله فيهم ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ (سورة النساء ٨٣) لئلا يأخذوا البريء بجريرة المذنب ، فكم ظاهر في صورة الخطأ ينكشف عن محض الصواب حين تدقق الوقائع .. فليرحم هؤلاء أنفسهم ، وليشفقوا على المحاطين بالأخطار ، فيعينوهم أو يدعوههم ، بدلاً من أن يلاحقوهم ناشعاتهم وأذاهم ! ..

إن الثقة أحد عناصر الأخوة في الله، فإذا توافرت سترت العيب وعالجته في مودة، وإذا فقدت كان الغرض هو تضخيم الخطأ إذا وجد، وإخلاقه إن لم يوجد.. ولا شأن لنا مع هؤلاء المبتغين للبراء العيب، وإنما نخاطب إخواننا في الله فنذكرهم بما قد يغفلون عنه من مشتهات الأمور. ليكونوا لنا معينين لأمعّوين..

وبلاحظ القارئ من خلال هذه المقدمة مدى تأثر الأستاذ من تلك الإشاعات التي أطلقها بعض الصحفيين لخطأ أو غرض، فالتقطتها بعض الألسن تلوّكها على غير وعي، وأنه لعرض جدير بأن ينقل ويقرأ لما فيه من التوجيه الحكيم..
وتابع الآن مع الأستاذ بقية جوابه حول الموضوع لنستمع منه إلى هذا التفصيل الدقيق :

يقول فضيلته : إن دعوة إخوان قامت على الإيمان العميق . واليقين الخالص . في حين قامت الماركسية اللينينية على إنكار الرسائل بكل حقائقها، ووصفت كل ذلك بكونه مخدرات للشعوب .. ففي عقل أي أبله أو معتوه يتصور أن هناك تقارباً بين الفريقين !. وما نوع هذا التقارب .. وما وجهته !.. لقد علم الخاص والعام أن الإخوان يرفضون الدخول في جبهات، لأن الجبهة الوحيدة لهم هي عقيدتهم الإسلامية، فكيف يمكن أن يجتمع الاتحاد والإيمان في إهاب رجل واحد!.. وإذا فرضنا أن ائتلفنا مع غيرنا لازالة حكم ما، ثم وصلنا إلى مانريده، فأى منهم هو الذى سيحكم أو يسود!.. ألا نكون بذلك قد خرجنا من ائتلاف مع جهة واحدة إلى صراع مع عدة اتجاهات!.. مالكم كيف تحكمون!.. ثم مامضمون هذا التقارب!.. أيتنازل الإخوان عن شيء من معتقدتهم، والآخرون عن شيء ليكونوا منهاجاً أسود — أبيض — أحمر — أخضر — أزرق — أصفر في وقت واحد!؟..

أما القصة التى حيكّت حولها كل هذه الأقاويل فإليكها :
كنت فى معتقل القصر العينى ، وكان هناك بعض المعتقلين من مختلف الهيئات والاتجاهات ، فلم أجد إلا أدباً وحسن معاملة وتبادل احترام..

وقد كان بعض المعتقلين من الشيوعيين يؤدون معنا صلاة الجماعة، بل لقد قمت ذات ليلة للتهجد فرأيت أحدهم يتوضأ ليهجد أيضاً، فهل من حقي شرعاً إذا سئلت عنه أن أنكر رؤيتي لإصلاته! ألا يعلم المعارضون أن رسول الله ﷺ إذا دعي للصلاة على ميت سأل: هل رأوه يصلي؟.. فإذا جاء الجواب بالإيجاب صلى عليه، وإلا فلا.. هل يريد المنتقدون أن أدع سنة رسول الله ﷺ اتقاء انتقادهم أو اعتراضهم!..

ألا فمهلاً.. بعض هذا التدلل. لقد أمرنا ديننا أن نحسن معاملة الناس أياً كان دينهم، وكان يزور جاره اليهودي إذا مرض، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي.. أليس هذا هو أدب النبوة!.. أم يريدون أن نخاشن الناس ونجافهم.. وإذا دعيتي لجنة الحريات في نقابة المحامين للكلام في الموضوع.. أأرفض أم أذهب لأقول كلمة الحق والدين!.. ففيم الاعتراض، وعلام الانتقاد؟!.. وابن عباس رضى الله عنه كان يسلم في طريقه على المسلم وغير المسلم، فلما قيل له في ذلك أجاب: حتى يعرفوا أننا مسلمون.. وماذا يقول هؤلاء الغاضبون في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ولم عمّم فذكر الناس ولم يخص المسلمين وحدهم!.. وكان بين أمراء المسلمين من الأمويين والعباسيين مخالفات مع غير المسلمين، فلم يعترض واحد من فقهاء تلك الأعصر، وبينهم الشافعي وابن حنبل ثم ابن تيمية، وغيرهم لأنتم أشد حرصاً على الدين من أولئكم!.. وقبل ذلك عقد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله مخالفة مع يهود المدينة، وقال عن حلف الفضول الذي حضره في الجاهلية: لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت. ألا بربكم دعونا من شكلياتكم التي تصور الإسلام على غير حقيقته وأربعوا على أنفسكم، فإننا نتصرف بفهم صحيح من ديننا، ولسنا بالمترخصين في شيء يمس عقيدتنا الطاهرة من قريب أو بعيد. ولقد علمتم أن حضور الإخوان اجتماع الهيئات الناطرة في مستقبل الديمقراطية بمصر أدى إلى صدور بيان المجتمعين متوجاً بطلب التطبيق لشرعة الله، وعودة الأئمة المبعدين إلى مساجدهم، أفليس في ذلك ربح للدعوة وتأيد لمبادئ الإخوان المسلمين!.. فماذا تريدون بعد هذا.

لقد اتهمنا السادات بأننا المسئولون عما سماه بالفتنة الطائفية، فكان تعاملنا مع أقباط مصر، وموقفهم منا أثناء مرض بعضنا، أبلغ رد على تلك المفتريات. ولسنا نحنُ بعمل ولكننا نشهد الله أن المسلمين أبعد الناس عن التعصب، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ما أرسل إلا رحمة للعالمين. إن دعاة الإسلام في أمس الحاجة لإثبات هذه الحقيقة للناس جميعاً حتى يعلموا بيقين أن سماحة الإسلام وجماله وجلاله فوق كل الشبهات، وقد رأينا ربنا تبارك اسمه حين يصف اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين لم يجعل هذه العداوة متبادلة، بل جعلها من ناحيتهم وحدهم، لأن المسلمين مكلفون دعوة الناس إلى ما يسعدهم ويحييهم في الدنيا والآخرة، ولن يكون ذلك بمعاداة الناس والتجهم لهم، ولكن بالتودد إليهم ترغيباً وتحبيباً بدعوة الله.. هذه طريقتنا ولن يثنيها عنها مخالف أو معترض، والله نسأل الهداية والمغفرة للجميع ..

وبعد فهذه خلاصة مكثفة لما كتبه فضيلة الأستاذ التلمساني من جواب على استيضاحنا تلك الإشاعة غير المحققة بشأن موقف الإخوان المصريين من الشيوعيين، والتي حاول بعضهم استغلالها، وأساء البعض الآخر فهمها، فكان في هذا العرض الوافي ما يكفي ويشفي .. وقد التزمنا بنقل هذا التفصيل من كلمات الأستاذ، وعباراته ذات الطابع الخطابي، الذي يميز أساليب الدعاة في ندوات الجماعة ..

بقى أن نتذكر أن صلاة يقوم بها شيعي ذات يوم أو أيام لا تزيد على صلاة أولئك الذين كانوا يؤدونها وراء رسول الله من عصائب ابن أبي بن سلول — الأب — الذين يصور القرآن العظيم حقيقتهم بمثل قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة البقرة ١٤) وأي صلاة هذه التي يتظاهرون بها وقد كفروا بأصل العقيدة حين رضوا لأنفسهم ولأمتهم نظاما للحكم غير الذي أنزله الله.. وحسبنا في أمثالهم قول ربنا القاطع المانع ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيماً﴾ (سورة النساء ٦٥).

م — كنتم أحد الجهات المدعوة للشهادة في قضية الجهاد بيد أن الظروف حالت دون حضوركم يومئذ ولو قدر لكم الحضور ، فما الفكرة التي كنتم ستدلون بها إلى المحكمة في هذه القضية !..

ع — ما كنت بزائد على ما قاله فضيلة الشيخ الجليل صلاح أبو إسماعيل عضو مجلس الشعب إلا أني أضيف إلى ذلك إقرارى بأن الشباب أخطأ ، وأن الحكومة أخطأت كذلك . أخطأ الشباب في اتجاهه وأخطأت الحكومة في تصرفاتها معهم . إنه شباب مسلم حقاً ، ولكنه أخطأ الطريق في إقامة ما رآه من اعوجاج .

لقد فسحت الحكومة المجال لشرح وجهة نظرها ، وحرمت الشباب حقه في عرض مفهوماته ، وليس هذا بالمنهج المنشود في الإصلاح ، فالحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وليس سوى هذا للإصلاح والتصحيح من سبيل ، إلا أني أصبحت مرتاحاً لما يعرضه علينا التلفاز من الحوار الذي يقوم بين أفاضل العلماء وهذا الشباب . . . والله هو المسئول أن يأخذ بيد الجميع إلى خير الإسلام والمسلمين .

م — وما مطالعاتكم في شأن الحوار القائم بين لجنة الأزهر وفضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل حول شهادته في هذه القضية

ع — إنني أميل إلى الأخذ برأى فضيلة الشيخ صلاح ، لأن مافصله في شهادته عن أوجه الانحراف الاجتماعي والفردى والحكومى هو من الواقع الذي لامندوحة من أن يؤخذ فيه بالرأى الحاسم ، والإجراء الفاصل ، لكي توضع الأمور في نصابها .. وإني لمع القائلين بعدم إسكات المتألم الباكي قبل أن أطلب من المتسبب في هذه الآلام أن يقلع عن كل مادعا إلى التألم والشكوى . وقد اعتبر عمر بن الخطاب نفسه مسئولاً عن ضرر العاثر إذا لم يكن قد سوى له الطريق ، فما بالنا ونحن نرى الصراصير والتمال تتهاوى علي مقدسات العقيدة والأخلاق !! . إنني بطبيعتي لأقر العنف أيا كانت صورته ، ولكنني أصرح في الوقت نفسه بوجوب إزالة كل المسببات لطلقات المدافع والرصاص . إن قضية الجهاد بين يدي قضاء عادل أثبت نزاهته ومراقبته لله الذي يحول بين المرء وقلبه ، وهو المسئول أن يلهمه

الصواب، وأن يجري الحق على لسانه أيا كان الحكم الذى سيصدره .. بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك فأطالب بالتقويم وسيادة الألفة والتعاون والتواد بين الجميع، ولو افترضنا أن هناك إدانة فإن تصحيح المسيرة لا يزال في يد السيد رئيس الجمهورية، لأن الدستور يمنحه العفو الشامل، إذا ما قدر أن ذلك في مصلحة الوطن. إن لمثل هذه الخطوة فاعلية رائعة في نفوس الشباب، إذ يؤمنون حينذاك أن أزمة البلاد في يد أمينة حانية، ولا مرد لما حدث، أما الابقاء على الأحياء بالعفو والصفح فقد يكون من ورائه خير كثير ..

وجزى الله الأستاذ التلمساني كل خير على نصيحته الحكيمة هذه، ولم نود لو أبلغها إلى رئيس الجمهورية قبل فوات الأوان، فقد يتأخر ظهور هذا الكتاب إلى ما بعد صدور حكم القضاء في حق المئات من صفوة شباب مصر، وقد يتم تصديق الرئيس عليه فيصير بهم أو بأكثرهم إلى لقاء الله، ولو وصله مثل هذا التذكير الحكيم قبل ذلك لكان حرياً بأن يترك أثره في قلبه .. وليس هذا بغريب في تاريخ ذوى السلطان، فرب كلمة من عقل حكيم، أو نفثه من قلب شاعر، قد هزّت أريحية جبار فاستبدل بالعقوبة العفو، وبالقسوة الرحمة، ولم تنزل قلوب العباد بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولا يزال في أهل الإسلام خير بفضل الله، وسننقل هذا الرأي إلى فضيلة الأستاذ التلمساني عسى أن يلهمه الله العمل به، والله الموفق والمستعان .

م — على الرغم من كل المعوقات التي تواجه مسيرة الدعوة في معظم الديار الإسلامية يلاحظ أن ثمة نهضة إسلامية تتنامى بقوة وعمق، ولا سيما في الأوساط الجامعية العلمية وبخاصة في مصر .. فما تفسير ذلك، وما توقعاتكم بشأنه، وما السبيل إلى ضبط هذه النهضة في طريق الإسلام الصحيح ! ..

ع — لقد بلغ الفساد بالمجتمعات الإسلامية حدّاً لا يمكن تجاهله، وآمن الجيل الحاضر والغابر ألاّ ملجأً ولا منجاة من ذلك التدهور إلاّ بدين الله، فأنبرى لحمله صادقاً مخلصاً، وأخذ المد الإسلامي يرقى ويتسع، فأُنزل به

أعداء الإسلام ضربات قاصصات حسبوا معها أنهم بذلك يقضون على الدعوة والدعاة، وغالوا في تخطيطهم فسلكوا إلى أغراضهم كل سبيل شيطاني، وكل وسيلة جهنمية، فاستباحوا الأعراض، وانتهكوا الحرمات، وتنكروا لكل معنى إنساني.. وما كان أشد غيظهم عندما رأوا أن كل محنة ينزلونها بأهل الحق تزيد من تصميمهم فيزدادون عدداً وإقبالاً على الله، وكأنما كل تلك المحن مغريات بالمضي في سبيل الله. ومن هنا شرعوا في تعديل طرائقهم فجربوا وسائل الإغراء من المال والمباهج والمراكز، وإذا بالنتائج عكس مايتوقعون، فلا الإغراء بمجد، ولا الارهاب بناجع، فعادوا إلى الإجرام مرة أخرى، ولن يفلحوا إذن أبداً..

والسرف في ذلك غاية في البدهاة، ذلك أن الإيمان إذا خالطت حلاوته القلوب، وتمشى برده في الصدور، هان على أهله كل ما يُبتلون به.. وقد اقتدى شبابنا الطاهر بسلفه الصالح، وراجع مواقفه الإيمانية، فإذا هو مصمم على احتمال أمثالها في سبيل الله، لم يزد البلاء إلا إصراراً وتسليماً، فإذا ما اكتوى جسده الناحل بلذعات الشياطين، انطلق لسانه بكلمة التوحيد..

ذلك هو الطريق الوحيد لترسيخ العقيدة ونشرها وإثباتها وامتدادها إيمان بالله. وحب له يفوق حب المال والأهل والولد والجسد، واحتساب لاشكوى معه، ويقين راسخ بموعد الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أجل.. إن الوعي الإسلامي قد استيقظ في قلوب المسلمين وهيئات أن يناموا، وقد لفتت هذه اليقظة أنظار الشباب إلى ماعليه أمتهم من ضعف وهوان، فعز عليه أن يرى خير أمة أخرجت للناس في هذا الدرك المّشين، فعاهد ربه على العمل لعودة العزة السلبية أو الموت الكريم في طاعته.. وهكذا استهانوا بقوة الأعداء اعتزازاً بقوة الله، فهم منتشرون في أرجاء الأرض داعين إلى الله على بصيرة، مصممين على استرداد القياد الذي سلبتهم إياه القوى الباغية، لتعود القافلة النائية إلى المحجة الهادية، فتقدم للبشرية الضائعة أكرم رسالة وأقوم منهاج يخرجها من الظلمات إلى النور..

ذلك هو واقع الجليل النى يمثل هذه النهضة فى مصر بخاصة وفى العالم الإسلامى كله بعامة ، وما دام المنطلق صحيحاً سليماً فالعاقبة من النوع نفسه ، إن شاء الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل ١٢٨) .

وعن ظاهرة الانحراف فى مسيرة بعض الشباب والسبيل إلى ضبطها فى طريق الإسلام الصحيح يقول فضيلة الأستاذ التلمساني :
إنى لعلى يقين بأن الشباب المسلم سيركن فى نهاية المطاف إلى الأخذ بالأساليب الإسلامية ، إذا ما نشط الأزهر والدعاة واستولون فى سبيل التوضيح والشرح والتبيين . إن أولئك الذين يرمونهم بالانحراف والتطرف قد عوملوا بقسوة لامستوخ لها ، وهذا دون ريب قد ترك فى نفوسهم الكثير من المرارة والحفيظة . والمسئولون هم المكلفون بالعمل الدائب على إزالة هذه التدوب ليأخذ كل شئ خطه المستقيم . وإنى لوائق كل الثقة بأن معاملة الشباب على هذا المنهج النبوى الراشد الرحيم ستأخذ بيده إلى الجادة التى لا ضلال فيها لسالك . إن الحاكم هو الطرف الأقوى ، وعبء إصلاح العوج واقع على كاهله ، وعليه هو أن يبدأ حتى يحس الشباب أنه يتعامل مع عاطفين عليه محبين له ، لأمع كارهين له ناقلين منه .. إننا نطالب الشباب بالعدول عن العنف ، وفى الوقت نفسه نطالب المسئولين بأن يبنوا صلتهم بالشباب على هذا الأساس الصالح ، وحذا لو فسحوا المجال أمام الدعاة الذين طال تمرسهم بمعالجة النفوس ، إذن لرجونا أن تؤتي جهودهم الثمرات الطيبة والمرجوة .

ذات يوم — بعد أحداث العام ١٩٨١ — طلبت منى وزارة الداخلية أن أذهب إلى سجن طرة للتحدث مع المعتقلين ، وفعلت والتقيت بالكثيرين منهم هناك ، وكانوا من مختلف الاتجاهات والأفكار ، ودخلت معهم فى حوار متفاوت الحرارة ، ساخن مرة وهادئ أخرى ، ولكن ما إن انتهى الحوار بعد ساعة ونصف حتى اندفع الشباب كلهم إلى احتضاني وتقبيل رأسي ويدي ، إعراباً منهم عن الإقتناع بما سمعوا ووعوا .

وهنا ، وقبل الانتقال إلى متابعة الحوار ، يحسن لى أن أقف قليلاً لأعرب عن عميق إعجابي بهذا المنهج الذى يميز أفكار الأستاذ التلمساني فى معالجة

أدق الأمور وأشدّها حساسية، حيث يعطي كلا من الشباب والحاكم حقه من التذكير والنصيحة، فإذا كان من واجب الشباب الالتزام بأدب الإسلام في أسلوب العمل وفق التوجيه النبوي في قوله، صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله رفيق يحب الرفق»^(١) فمن واجب الحاكم أيضاً أن ياتزم بمنهج الإسلام في علاقته بذلك الشباب المتطلع إلى الأفضل وفق متطلبات دينه، فيعمل بقانون الفاروق رضى الله عنه يوم أن خطب في جموع الحجيج قائلاً: (ألا وإني إنما أبعث إليكم عمالي ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم..)^(٢) ويلتفت إلى عماله محذراً و متوعداً: (لاتضربوا المسلمين فتذلوهم..)^(٣) وهي هي الخطة التي تعلمها الفاروق من أستاذه الأعظم رسول الهدى والرحمة القائل: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم»^(٤) ويوم يعود الحكم إلى منطق الإسلام هذا لن يكون ثمة ظالم ومظلوم، بل أسرة متضامنة متعاونة على تحقيق المنهج الذى يحبه الله..

م — وأخيراً. إن في حياتكم المباركة خبرات تستحق التسجيل لينتفع بها المسلم في كل مكان.. فهل لكم بكلمة توجهونها إلى الدعاة والشباب في ختام هذا الحوار المفيد إن شاء الله؟..

ع — الصعاب التي تعترض الدعاة في هذا العصر عاتية غاشمة. القوة المادية في يد أعداء الإسلام، وقد اتحدوا مع اختلافهم على أهله، وأكبر تركيزهم على الإخوان المسلمين. وعلى أساس الموازين البشرية لم يكن لجنود طالوت المؤمنين طاقة بمجالوت وجنوده، ولكن لما أيقنت عصبة الإيمان أن النصر من عند الله وليس مرهوناً بالعدد والعدة هزموا كتائب جالوت بإذن الله. إنني لأستعين بقوة العدد، ولا أطلب من الدعاة أن يُخلدوا إلى التواكل ومصصة الشفاء، وتحريك الأعناق يميناً ويسرة، وضرب الأكمف بعضها ببعض.. إنها نكبة النكبات القاضية الماحقة الساحقة، ولكن التمسك بالوحي المنزل من عند الله، والجهر بكلمة الحق في إصرار واستمرار، والإستهانة بكل صنوف الإيذاء، وضرب المثل العالية من أنفسهم في

(١) من حديثين أخرجهما مسلم.

(٢) انظر جمهرة خطب العرب ص ٢١٩ و ٢٢٠.

الرجولة والبطولة والثبات، ويقينهم بأن الله مبتليهم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ليعلم الصادقين من المزيفين .. هذا كله من أسباب النصر في سنن الله، وقصص القرآن خير شاهد على ذلك.

أما الشباب فإن العزيمة التي تواكب وعيه العميق في غير حاجة إلى الكثير من التجارب، ولكنها بحاجة إلى الكثير من الصبر، والالتزام بتوجيهات الوحي من الكتاب والسنة. ثم من حيوات السلف الصالح الذين قيّدوا تصرفاتهم بها فحقق الله لهم من العزة والسؤدد ما يشبه الخوارق.

إن شبابنا قد بلغ أشده واستوى وآتاه الله حكما وعلمًا وعزيمة ورشدا وفهما سليما، فعلى بركة الله، ومن تكن لكتاب الله نصرته دانت له الدنيا على وجه اليقين، ومن ينصره الله فلا غالب له .. (و) قل : الله ثم ذرهم).

* * *

الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

شاء الله لحكمة يعلمها أن يقرن اسم الدولة السعودية منذ نشأتها الأولى باسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فعلى التعاون التام بين مؤسسها الأول الإمام محمد بن سعود وبين إمام الدعوة المحددة لمسيرة الإسلام المصطفى نهضت، وقد استمر هذا التعاون على أتمه بين أبناء المؤسسين وأحفادها حتى أيامنا هذه، وسيظل هو المرتكز الذى يقوم عليه بناء هذه المملكة إن شاء الله، مااستمرت الغاية الواحدة هي الجامعة بين آل سعود وآل الشيخ، تلك الغاية المتمثلة في الهدف الواحد الذى هو إعلاء كلمة الله، وترسيخ قواعد التوحيد على الأسس التي أنزلها الله على قلب محمد رسوله المبعوث رحمة للعالمين.

ولقد ظل آل الشيخ المجدد يتوارثون مهمته في تحقيق هذا التعاون البار وراء الهدف نفسه، إذ كان منهم حملة علمه ينشرونه على نطاق المملكة وفي أنحاء العالم الإسلامي، عن طريق مؤلفاتهم وتلاميذهم الذين لايفتخون ينتشرون في كل مكان، ولئن وقف تنامي المشتغلين بعلوم الشريعة من هذه الذرية المباركة في هذه الأيام، بسبب انصراف الكثيرين من شبابها إلى العلوم العصرية، فإن في أولئك التلاميذ الحاملين علوم ذلك البيت لضماناً أكيداً— بفضل الله — لاستمرار مهمته في خدمة الإسلام وفي إعلان حقائقه المجردة عن كل مالمصق بها خلال القرون، من تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ..

ولا خلاف على أن مترجمنا الكريم هو الذى انتهت إليه راية هذه الدعوة أمانة عن أسلافه المتلاحقين على حملها من أبناء الشيخ في عهدها المعاصر، وأنه لم يفارق هذه الدنيا إلا بعد أن أدى مهمته كاملة في نشر النور الذى أضاء بصيرته، فهياًبه جيلا من كبار علماء الإسلام في هذه المملكة وما وراءها من الربوع، التي تتلقى أمانة العلم عن طريق هذه المملكة ...

إنه الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الإمام مجدد القرن الثاني عشر الهجري محمد بن عبد الوهاب، فهو رابع أحفاد ذلك الشيخ الذي كان ظهوره في عالم الدعوة صدمة مزلزلة للجاحدين والخرافيين، ونعمة أبهجت قلوب المعتصمين بحبل الله المتمسكين بكتابه المبين وسنة رسوله الأمين..

ولد في مدينة الرياض في اليوم السابع عشر من شهر المحرم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة، وكان منشؤه في تلك الأسرة باعثاً على سلوكه منهجها في التربية والأخلاق ومحبة العلم، وقد بدأ تعلمه بكتاب الله فبعد أن أتم قراءته وأتقن تلاوته، شرع في استظهاره فما أن استتم الحادية عشرة من عمره حتى كان قد أتم حفظه..

ومن ثم أخذ سبيله في طلب العلم على والده قاضي العاصمة، وعلى عمه علامة نجد في زمنه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، فدرس التوحيد وأصول العقيدة، ثم أقبل على مختصرات كتب جده المجدد وأضاف إليها دراسة مختصرات كتب شيخ الإسلام بن تيمية وتلميذه العلامة بن القيم، وتبحر في النحو والفرائض..

وقدر الله أن يصاب مترجمنا، كالكثيرين من فضلاء نجد، في بصره وهو في الرابعة عشرة إذ ذهب الجدري — الذي كان على أشده في تلك الأيام — بنور عينيه ولما يتجاوز الرابعة عشرة، فتحول النور إلى بصيرته وضاعف من نشاطه في الدرس والمثابرة على الطلب فعلاوة على ما يحصله من شيوخ أسرته أقبل على الاغتراف من علماء بلده، فقرأ التفسير والحديث وأصولها، إلى علوم العربية والمطولات من كتب الفرائض.. وهكذا أدرك من العلم في الزمن القصير ما لم يدركه الكبار في الزمن الطويل وبذلك صار من أحب تلاميذ عمه العلامة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وأحقهم بتقديره حتى إنه عندما أحس عمه ثقل المرض عليه لفت نظر جلالة الملك عبد العزيز إليه، وأثنى لديه على علمه وبعد نظره وحسن إدراكه، فلما توفي عمه أسندت إليه مهامه من التدريس والإفتاء والإمامة والخطابة، والتف حوله الطلاب يقرؤون عليه ويفيدون من علمه..

وقدر الملك عبد العزيز مواهبه فاتخذته مستشاراً شرعياً في تولية القضاة وإبداء الرأي في الأمور الشرعية .

وعلى دأب الشيوخ من أسرة آل الشيخ ، وعلى طريقة العلماء في نجد أثناءئذ كان على صاحب الترجمة أن يقف حياته على التوجيه والإصلاح إلى جانب الدروس العامة التي لم ينقطع عنها حتى آخر حياته رحمه الله .

وفهم من كلام مترجمه — الشيخ عبد الله البسام — أن قد كان للشيخ جولات وصولات في معالجة غلاة البادية ، الذين طالما عرقلوا إصلاحات الملك عبد العزيز ، فلم يزل بهم حتى دحض شبهاتهم وأبطل مدعياتهم ، وأوضح لهم سبيل الحق والرشاد بإقامة الحججة القاطعة ..

في ميدان التعليم :

وأما في ميدان التعليم فقد كان الشيخ تغمده الله برحماته مثلاً حياً لعلماء السلف الذين يقدرون أمانة العلم فلا يدخرون وسعا في بثه لمختلف طبقات الناس على وفق حاجاتهم واستعدادهم ومستوياتهم .

كان يجلس للطلبة في مسجد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بحي دخنة عقيب صلاة الفجر من كل يوم ، فيبدأ بصغارهم . يعلمهم مبادئ النحو فإذا مافرج من هؤلاء انصرفوا للمراجعة ليستقبل الفئة الوسطى ، فإذا مافرج منهم أقبل عليه كبار الطلبة ليدرسوا عليه الألفية ..

ثم ينتقل إلى الفقه فالحديث .. كشأنه في دروس النحو ، حيث يتدرج مع كل فريق من الطلبة وفق مستواه ، وهم مابين صادر ووارد كلما انتهت حصّة تلتها أخرى ..

وبعد راحة قصيرة في منزله يعود إلى مجلسه ليستأنف عمله في تعليم كبار الطلاب في أمهات المراجع ، ويعقب ذلك فترة استراحة أخرى في بيته إلى صلاة الظهر ، فإذا ما قضيت الصلاة عاد إلى مجلسه وقد تحلق حوله الطلبة من الكبار والصغار ، ليشاركوا في درس عام بأحد كتب الحديث الستة فإذا مافرج من هذه النوبة بدأ أخرى في كتب العقيدة ، من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وغيرها ، حتى تحين صلاة العصر فإذا ما قضيت عاد إلى

جلسة ليستقبل أفواج الطلاب، فيحاورهم في مختلف العلوم إلى صلاة المغرب، وبعد الصلاة يأخذ في علم الفرائض لأهلها، ثم يعقب ذلك بدرس عام في التفسير يستمر حتى صلاة العشاء..

ولقد تعمدا أن نضع بين يدي القارئ هذه الصورة من عمل الشيخ العلامة الراحل خلال يوم واحد، هو النموذج لسائر أيامه في خدمة العلم لا يكاد ينقطع عنها إلا لعارض من مرض ونحوه، وقد نقلنا هذه الصورة من كتاب (علماء نجد) للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام لنذكر القارئ بذلك الطراز الفريد من بقايا سلفنا الصالح، الذين ملثوا الدنيا علما وإخلاصا للعلم، حتى كان الواحد منهم إحدى معجزات الإسلام في نشر الخير والحق، لا يجد راحة لنفسه إلا بالدأب في أداء الواجب.. ولا شك أن من المحزن كل الإحزان أن نشهد هذه البقية العزيزة تتوارى عن الأبصار في ديار الإسلام واحداً تلو الآخر، ثم لانجد مايعوضنا عنها في كل من تخرجهم المدارس والجامعات على كثرتها وتكاثرها!..

وقد ذكر الشيخ البسام من تلاميذ الفقيه ثلاثة وثلاثين من كبار علماء المملكة، بينهم العلامة الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والفقيه الراحل الشيخ عبد الله بن حميد، وكلهم من مشهورى العلماء العاملين في هذه الديار ولكل منهم أثره الواسع في نشر العلم والدعوة إلى الله، وفيهم من سارت فتاواه مسير الشمس في عالم الإسلام..

مع التطور الكبير:

وقد شغل الفقيه العديد من أهم الأعمال إلى جانب خدمته للعلم على ذلك النحو المدهش...

فمن أبرز أعماله، إلى جانب التعليم والإرشاد، رئاسة القضاء في نجد كلها، ولما شكلت المحاكم الشرعية في نجد والمنطقة الشرقية كان المشرف عليها وعلى أعمالها، عندما وحدت المحاكم أسندت إليه رئاسة القضاة على مستوى المملكة، فإليه يرجع الأمر في تنظيم المحاكم وتعيين القضاة...

وكان من أثر التطور العام في المملكة أن تغيرت طريقة التعليم المسجدية،

إذ ناب عنها نظام المعاهد الذي اعتمد لتخريج العلماء في الشريعة والعربية، فانتشرت المعاهد العلمية في كل مدينة وقرية، ثم تلا ذلك إنشاء كليتين للشريعة واللغة، وكان المترجم هو الرئيس العام لكل هذه المؤسسات، يشرف عليها وينظم أمورها الإدارية والدراسية. كذلك انيطت به رئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي منذ إنشائها تأييدا للدعوة التي أطلقها المغفور له الملك فيصل إلى التضامن الإسلامي.

ولم يكن بد من سريان النهضة التعليمية إلى أوساط الإناث، فكان على العلامة الفقيد أن ينهض بعبء هذه المسئولية في وجه التقاليد التي حاولت بكل طاقاتها عرقلة هذه المسيرة، ولكن منزلة الشيخ في نظر الجماهير، وثقتهم بحكمته ودينه، قد مهدت السبل لقبول هذا التطور، وكان ذلك خيرا للحركة الجديدة، إذ قامت منذ يومها الأول على أساس الدين وفي كنف آدابه وفضائله...

ثم جاءت الخطوة الجبارة المباركة بإنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة لاستقبال طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فكان هو رئيسها المشرف على تأسيسها والتولي رئاستها العليا، منيباً عنه تلميذه العالم الثقة الشيخ عبد العزيز بن باز في إدارتها المباشرة.

وأعقب ذلك دار الإفتاء التي لم يكن عنها مندوحة في دولة تحكمها شريعة الله، فتطلب التعمق في فقه الكتاب والسنة لمقابلة النوازل الطارئة بالحلول الصحيحة. وقد أحسن تنظيمها على أفضل الأسس وحشد لها جمهرة من خيرة أهل العلم، تدرس الوقائع وتستنبط لها الأحكام من مصادرها النقية البيضاء. وهكذا حققت وتحقق هذه الدار مهمة الاجتهاد الجماعي الذي يدعو إليه مفكرو العصر، وكان لها الفضل الكبير في ترسيخ النظم الإسلامية في نطاق التعامل والتعليم وسائر جوانب الحياة الاجتماعية، ودعمت ذلك كله بإشاعة العلوم الدينية على مستوى الجماهير، وذلك بنشر المؤلفات النافعة وتوزيعها بالمجان على الخاص والعام داخل المملكة وخارجها..

ولا جرم أن لهذه الجهود المبرورة أثرها المحسوس في امتياز المملكة السعودية على سائر بلاد العالم من حيث انتظام الحياة واستتباب الأمن الذي أصبحت بهما مضرب الأمثال في كل مكان..

آثاره المكتوبة :

وطبيعي أن ضخامة هذه الأعباء التي شغلت معظم حياة الشيخ على امتداد سنين الثمان والسبعين ليس من شأنها أن تدع له متسعاً للتأليف ، فقل لإنتاجه في هذا الميدان ، ولكنه غرس في صدور تلاميذه ثم تلاميذهم ما يجعل من كل منهم كتاباً ناطقاً بفضلته وآثاره .. على أن في فتاواه الكثيرة ما يملأ المجلدات ولا يزال أهل العلم ينتظرون جمعها ونشرها منذ صدر التوجيه بذلك من قبل الملك فيصل بن عبد العزيز غفر الله له وطيب الله ثراه ..

وإني لأكتب هذه الصفحات وقد انطوى على فراقه الدنيا خمسة عشر عاماً ولا يزال ذكره حياً على ألسنة عارفيه والقابسين من علمه وفصله ، وكذلك شأن المخلصين من عباد الله الناشئين لنوره ، يهـء لهم ألسنة صدق تدعو لهم وتجدد ذكراهم وتخلد مآثرهم .

ولا أدل على منزلة هذا الإمام في قلوب السواد الأعظم ، وبخاصة في هذه البلاد ، من تلك الحشود الضخمة التي زحفت لتشيعه إلى مثواه الأخير ، وقد جمعت أصناف الخلق من قادة المملكة وعلمائها وجماهيرها ، الذين أجمعوا على تقديره والحزن العميق لفراقه . .

ولقد شاء الله أن يحال بيني وبين تلك المناسبة ، فلم يقدر لي المشاركة في حضور تلك الجنائز ، ولكن ذلك لم يمنعني من الإعراب عن شعوري بازاء هذه النازلة فأبرقت يومئذ إلى أعضاء أسرة الفقيد بالأبيات التالية :

لله عمرٌ إمامٌ قد تصرَّم في نصر الحقيقة وفق المنهج السلفي
مضى حميداً وقد وقى أمانته وحسب ذي العلم فضلاً أن يقال وفي
فليكرم الله مثواه ، ونسأله خير العزاء لمن أبقى من الخلف

ولقد خفلت صحف المملكة ومجلاتنا بخبر وفاته ، وخصصت بعضها أعداداً للتبويه بأعماله ومناقبه ولعل أجمع ما كتب عنه حتى اليوم تلك الصفحات العشر التي وقفها على أخباره صاحب كتاب (علماء نجد) في جزئه الأول ، ومنها اقتبسنا أكثر المعلومات عن حياة الفقيد مع بعض التصرف .

ذكريات لاتنسى :

وأقف الآن قليلاً لأستعيد ذكرى معرفتي بتلك الشخصية الجليلة .

لقد لبثت طويلاً أتشوف للاجتماع بوارث علوم آل الشيخ مجدد القرن الثاني عشر، الذي أول ما عرفته عن طريق مجلة المنار، تلك التي كانت المعرض الجامع لحركة الاصلاح، التي أحدثها في عالم الإسلام الثلاثة السابقون إلى بعث النهضة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأول محمد عبده ورفيق جهاده السيد رشيد رضا، رحمهم الله أجمعين وأجزل أجرهم كفاء مايقظوا من النيام، وأثاروا من الهمم لاستعادة الوعي الذي فقده سواد المسلمين، وإن أنكر المنكرون وتجاهل المتجاهلون وتقول المتقولون ..

ولما أسعدني الله بالهجرة إلى جوار نبيه المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه وآله، والتحقت بالجامعة الإسلامية متعاقداً للتدريس فيها انتهزت أول فرصة للقاء المترجم، وكان ذلك في مكة المكرمة، وكنا إذ ذاك عدداً من مدرسي الجامعة السوريين، فقدمنا أنفسنا إليه وأحاطنا برعايته واهتمامه، إذ جعل يسألنا عن شئون الجامعة ومسيرة التدريس فيها وأحوال طلابها الوافدين إليها من أنحاء العالم الإسلامي ..

وكان الحديث ممتعاً تناولنا خلاله مختلف القضايا من علمية واجتماعية، واستمعنا إلى الشيخ يفيض بالعميق من الأفكار العالية والملاحظات السديدة، ولم تغادر ذلك المجلس إلا وقد امتلأت جوانحنا إعجاباً وتقديراً وتوقيراً ..

ثم جاءت الفرصة الثانية في الطائف، حيث حضرت مجلسه مع فضيلة الزميل — يومئذ — والقاضي — اليوم — الشيخ عطية محمد سالم .. وكان البحث آنئذ حول الأقاويل التي تطلقها الصحف عن حركات الفلك والتطلع إلى غزو القمر، وما يتعلق بذلك من الكلام عن الأرض وتكوينها وموضعها من الحركة والسكون ..

وقد بدا الشيخ رحمه الله على وعي كبير لما يثور في العالم المعاصر من أفكار وأراء، وكشأن علمائنا الملتزمين بآراء المتقدمين من علماء السلف، جعل يفصل مايعلم عن شأن الأرض ويقدم أدلتهم على سكونها ..

وقد سرني ما وجدته يوم ذاك من اتساع صدر الشيخ للآراء المخالفة،
فعرضت موقف أصحابها من أدلة الأقدمين والأدلة المضادة لها وأهم مستنداتهم
في هذا الخلاف .. ثم افترقنا وقد ازددت حباً للشيخ وتقديراً لعلمه وبلغت
انطباعاتي أشدها عن ذلك الوقار المهيب الذى يغمر مجلسه وحديثه حتى الذى
تخالفه فيه .

وهكذا تكررت زياراتي لفضيلته في الرياض بعد ذلك إذ كنت أجد في
زيارته متعة روحية تشدني بقوة إلى رؤيته وإلى حديثه ..

فرحمة الله على ذلك الفقيد الذى كان نعم المعلم والواعظ والمرشد
والمصلح، ونعم القدوة في الفضل، والوارث لمناب السلف، الذين وقفوا
حياتهم على الالتزام بالحق، الذى يؤمنون به فلا يحيدون عنه ولا تأخذهم فيه
لومة لأثم .

* * *

الدكتور محمد الرشيدى

لقيته لأول مرة مع الدكتور محمد ناصر في دارة (المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية) بجاكرتا، وقد تفضل بترجمة الحوار الذى أجريناه مع دولته يومئذ، فكان لبيانته العربي الرصين أثره الطيب في نفسي، وعلمت إثر ذلك الكثير عن نشاطه المشكور في خدمة الإسلام.

وقد شاء الله أن أنتفع ببعض نتاجه العلمي إذ وقع في يدى مؤلف له بالاندونيسية يتحدث عن بعض معتقدات الباطنية الجاوية، فكلفت أحد طلابي الأندونيسيين فترجم لي بعض فصوله، وإذا أنا تلقاء واحد من المصادر الرئيسة لفروع الباطنية المنتشرة في مختلف البلاد العربية وبخاصة سورية. ولا جرم أن هذا أحد الحوافر التي حببت إليّ تقديمه إلى قراء العربية.

أول ما يواجهك من الدكتور الرشيدى هدوؤه الوقور، الذى يشعر بك بأنك أمام رجل وهب نفسه للعلم والحق، حتى إذا تكلم أدركت أن حصيلته من الفكر السليم على غاية من النضج والعمق، وأن أفقه العقلي قادر على استيعاب أنواع الحوار في أناة الحبير الذى مارس مختلف التجارب العلمية، وفي دقة الجامعي الذى يتقن مناقشة الفكر وتوصيل آرائه في أوجز العبارات وأوضح الأساليب.

ومن هنا انبثق الاتجاه إلى إجراء هذا الحوار مع فضيلته، فطلبنا إليه أن يتفضل أولاً:

م — بتعريف نفسه ودراسته ..

ر — يقول فضيلته أنه ولد في ٢٠/٥/٩١٥ بمدينة جكجاكرتا، ويأسف لأنه لايعرف مايقابل هذا التاريخ من الأشهر العربية، التي طمس عليها الاستعمار الهولندى في أذهان الأكثرين من الأندونيسيين.

أما دراسته فبدأت في إحدى المدارس الدينية في ذلك البلد، ولايكنم

تذمره من أسلوبها العقيم وقد انتقل منها إلى مدرسة عربية داخلية، حيث تدرب على المحادثة العربية زيادة عن القراءة. وكان مدير هذه المدرسة العربية هو الشيخ أحمد السوركتي السوداني، ويزيد في تعريفه، الذي سبقت الإشارة إليه في ترجمة الدكتور محمد ناصر، أنه كان من علماء مكة المكرمة في أوائل القرن العشرين، قدم أندونيسية للتعليم في مدرسة الجمعية الخيرية التي كان يديرها السادة العلويون، ولكن الشيخ لم يستطع مواصلة التعاون معهم لما أحس من غطرستهم وتفاخرهم بالنسب الكريم مما أبعدهم عن تعاليم الإسلام التي تقضي بالمساواة، فترك مدرستهم وأنشأ جمعية الإرشاد الإسلامية التي اختير أعضاؤها من العرب المميزين بالعلم والفضل.

وتابع الدكتور الرشيدى أنه قضى في مدرسة الإرشاد مدة سنتين، ومن ثم زوده الشيخ السوركتي بتوصية إلى العلامة الشهير الشيخ الطنطاوى جوهرى مؤلف تفسير الجواهر، وفي القاهرة ألحقه هذا العلامة بدار العلوم، حيث قضى ثلاث سنوات حصل بنهايتها على شهادتها الثانوية وكان أثناء دراسته بدار العلوم يتلقى العلوم ودروساً أخرى في الثانوية الحكومية، فنال شهادتها كذلك، وتمكن خلال دراسته هذه من تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ولذلك انفسح له الطريق للالتحاق بقسم الفلسفة من كلية الآداب في الجامعة المصرية.

— وعن الشخصيات التي أثرت في توجيهه يقول :
— في مقدمة هؤلاء الرجال أقدم اسم الشيخ السوداني الذى أحمل له أحسن الذكريات وأفضل الانطباعات، فقد درست على يده قواعد العربية، وحفظت ألفية ابن مالك، وقرأت شرحها لابن عقيل وفي حاشية الخضرى، وحفظت كثيراً من المتن، كما قرأت عليه الفقه والتوحيد ومتن الرحبية في الفرائض، ومتن السلم في المنطق.

ويتابع الدكتور الرشيدى في رسم مشخصات هذا الشيخ الفاضل قائلاً :
كان الشيخ السوركتي من أحرار الفكر، لا يقبل كل كلام أقرؤه عليه بل كثيراً ما يواجه الخطأ بالوعى.. ومن هنا بدأت أفهم أن ليس كل ما ي

الكتب يجب أن يكون صحيحاً..

وتداعى في ذاكرة الدكتور صور الرجال الذين تركوا بصماتهم على عقله وقلبه، وفهم المسلمون وغير المسلمين.. ويبدأ هذا الجانب بالحديث عن الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى تولى مشيخة الأزهر بعد وزارة الأوقاف، فيقول: لقد كنت معجباً بشخصيته، مأخوذاً بوقاره وصفاته الإسلامية المميزة، وزاد إعجابي به إتقانه اللغة الفرنسية وقدرته على الخطابة فيها، ولعله قبس كثيراً من هذه المميزات عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده الذى كان مثله يتقن الفرنسية، وقبل ذلك عن والده عبد الرازق باشا، الذى كان من ذوي الواجهة والعاملين في حقل السياسة المصرية.. لقد غرس هذا الرجل في قلبي بذور التطلع إلى استكمال دراستي في فرنسا، وشاء الله أن يحقق لي هذه الأمنية بعد ثمانية عشر عاماً من حصولي على شهادة الليسانس في الفلسفة من الجامعة المصرية، ولا ينسى الدكتور أثر الشيخ الطنطاوي جوهرى في بنائه الفكرى، وكذلك المجاهد الفلسطينى ذا الذكر الحميد الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة (الشورى) الذى يقول عنه إنه أوقد في صدره هُبّ الجهاد والتضحية.

ويضيف إلى هؤلاء المؤثرين من أهل الإسلام اثنين من غيرهم أحدهما الأستاذ (أندريه لالاند) ويصفه بأنه فيلسوف فرنسي استدعته الجامعة المصرية للتدريس فيها، والآخر هو الأستاذ (هوكرت) الإنجليزي الذى كان يدرسه علم الاجتماع..

وهنا يتوقف الدكتور رشيدى ليستعيد في نفسه ذكريات عزيزة ما لبث أن سجلها في هذه الكلمات يقول الدكتور: بعد التحاقى بالحكومة الوطنية الأندونيسية، وأثناء نضالها للاستعمار الهولندي، سعدت بالتقرب من عظيمين هما: المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، ثم المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز.

أما الملك عبد العزيز فقد تكرر لقائى إياه وهرتنى شخصيته، ومما أحمل من الانطباعات عن تلك الشخصية العظيمة كثرة ترديده في المناسبات

لقول الله عز وجل: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، إن الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .
الذين إن مكنَاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرُوا
بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر.. ﴿وَكأنه يترديده هذا الكلام الإلهي يذكر
نفسه بفضل الله عليه، ووجوب القيام بأمره في مملكته التي أقامها على
طريقة السلف، فكانت النموذج العملي للحكم الإسلامي الصالح..

وأما الملك فيصل غفر الله له فكنت كثير الاتصال به عندما كان نائباً
لوالده في مكة ووزيراً للخارجية، وكنت ممثل اندونيسية الرسمي في جدة
لسنوات عديدة.. ولقد كان لهذه الاتصالات أثرها العميق في نفسي إذ
تلقيت من جلالته نصائح كثيرة تدل على عمق تفكيره وبعد نظره في
توجيه العالم الإسلامي نحو المستقبل الأفضل، على أساس التمسك بعري
الدين والأخوة والتضامن، وإحياء الحركات الإسلامية وتشجيعها مالياً
وأدياً، فرحمهما الله رحمة واسعة وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير
الجزاء..

م — أهم الأحداث التي عاصرتها وانفعلت بها .
ر — أيام الاستعمار الياباني — الذي أراد الحلول مكان الهولنديين — كنت
موظفاً صغيراً في الإذاعة، ثم اختارني الزعيم الدكتور محمد حتا، وكان
موضع ثقة اليابانيين، لأكون مدرساً للفلسفة في المدرسة العليا التي
أنشأها، وما هي إلا أشهر قليلة حتى اضطر اليابانيون للانسحاب عقيب
قنبلتي هيروشيما وناجاساكي، فكانت فرصة لإعلان استقلال
اندونيسية، وتألّفت على الأثر وزارة وطنية برئاسة المرحوم شهريز،
وحتى تلك الأيام لم يكن لي صلة بالعمل السياسي، ولكنني فوجئت باسمي
في آخر قائمة الوزراء في الحكومة الجديدة، وكنت أثناءئذ في الثلاثين من
سني، فكانت مفاجأة كبيرة.. وتفكرت ملياً في الأمر، ثم قررت القبول،
وقلت في نفسي: إن رفضي هذا الأمر سيثير تساؤلات كثيرة في أوساط
الشعب، وبخاصة في مثل هذه الظروف البالغة الخطر..

ويقول الدكتور الرشيدى : في أيام الجهاد ، عقيب إعلان الاستقلال ،
أرسلتني حكومة اندونيسية سكرتيراً للوفد الدبلوماسي إلى البلاد العربية

للحصول على اعترافها، وكان رئيس ذلك الوفد المرحوم الحاج أكوس سالم الزعيم المسلم المثقف^(١) فزنا مصر وسورية ولبنان، وكلها أعلنت اعترافها الدولي بأندونيسية الجديدة، وفي هذه الأثناء تحولت الجيوش الهولندية لاحتلال أندونيسية من جديد، وأعادت وجودها إلى عدد من الحواضر، فاضطر الحاج أكوس أن يشخص مع رئيس الوزراء شهريز إلى هيئة الأمم للدفاع عن البلاد، وأسند رئاسة الوفد إلي، فواصلت عمله ومضينا إلى المملكة العربية السعودية، وفي الرياض تشرفت بمقابلة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز الذي مال بث أن أسلمني خطاب الاعتراف بالجمهورية الأندونيسية ..

ويدع الدكتور في هذا العرض السريع بعض الفراغ الذي لا نعرف كيف نتداركه إذ ترك هذه الأحداث التي يشير إليها دون تعيين لتاريخها، ولكن القارئ يجد في ترجمة الدكتور ناصر السابق مايساعد على سد هذا الفراغ إلى حد، ثم إن في قرب الأحداث من أذهان القراء المهتمين بشئون البلاد الإسلامية مايعني عن الكثير من التفصيل .

والظاهر أن الدكتور الرشيدى قد ساقته وفادته الدبلوماسية إلى العمل في وزارة الخارجية الأندونيسية، فهو يقول :

عندما كنت أعمل في الخارجية .. دون أن يعين نوع هذا العمل .. عَرَضْتُ علي إحدى المؤسسات العلمية الدولية بعثة إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه فقبلت العرض، وقد شجعني على ذلك ماسبق أن أعدته من مواد هذه الدراسة، وهكذا وفقني الله لتحقيق هذه الأمنية العلمية فحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة باريس، والآن وبعد أربع وعشرين سنة على تلك المرحلة أشعر بأنني قد أفدت خيراً كثيراً من تلك الدراسة، ومن مطالعتي الوفيرة للكتب الفرنسية التي لم يسبق لي قراءتها، لاني عن طريق هذه القراءات استطعت أن أعرض الإسلام على الأندونيسيين الذين تشبعوا بالثقافة الهولندية العلمانية وخلت ثقافتهم من أي أثر للتصور الإسلامي، وهؤلاء غير قليلين، وفي أيدي كثيرهم تركز

(١) وقد سبق الدكتور محمد ناصر إلى ذكر هذا الرجل بين الذين تأثر بهم .

مقاليد السلطة، فهم ينبغي الاهتمام، أما جماهير الشعب الأندونيسي، فهم ملتزمون بالإسلام دماً ولحماً، ولكنهم لا يملكون في ميدان الحكم حلاً ولا عقداً.

م — يسر القارئ لترجمتكم أن يقف على آثاركم في نطاق الإنتاج الفكري.

ر — لي من المؤلفات ما يقارب العشرين، بين رسالة إلى ترجمة إلى إنتاج شخصي، وكلها ترمي إلى هدف واحد هو تقريب الإسلام إلى أذهان الزعماء الوطنيين وطلبة الجامعات، وبعبارة موجزة إلى المسلمين الذين انطبعوا بالتفكير الغربي العلماني..

وكنا نتوقع بعض الإيضاحات الكاشفة عن مضامين هذه المؤلفات، ولكن لم نجد في أجوبة المترجم مأثروي غلة، بل إنه ضن حتى بعنواناتها بعضها.

م — وطلبنا من الدكتور الرشيد أن يتفضل بمزيد من التفاصيل عن الأعمال التي تولاهها.

ر — ويجيب فضيلته: أثر عودتي من القاهرة توليت التدريس في بعض الثانويات، وفي عهد الاحتلال الياباني كنت موظفاً صغيراً في وزارة المعارف، وبعد إعلان الاستقلال كنت أول وزير للشئون الدينية في حكومة الجمهورية الأندونيسية، ثم حين اعترف العالم بالدولة الأندونيسية بُعثت سفيراً إلى مصر والمملكة العربية السعودية في تمثيل واحد خلال العام — ٥٠ / — ٩٥١، ومن ثم نقلت سفيراً إلى طهران، ثم عدت إلى وزارة الخارجية حيث قضيت ثلاث سنوات بعثت بعدها سفيراً إلى باكستان لمدة سنتين، ثم استقلت من السفارة بسبب الثورة التي انفجرت بوجه سوكارنو، واتخذت سبيلي إلى كندا لأعمل أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة «ماكجيل» في مونتريال، ثم لم أعد للبلاد إلا عام ١٩٦٣ ومنذ العام ٩٦٥ حتى الآن لأزال أَعْمَلُ أستاذاً للشرعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة أندونيسية، ومديراً لمكتب التعليم الديني فيها، وقد أُحِلَّت إلى المعاش منذ شهرين، وفي نيتي أن أتفرغ لترجمة كتب هامة عن الإسلام، سواء كانت عربية أو إنجليزية أو فرنسية..

وهنا تركنا الدكتور حفظه الله في ضبابية محيرة ، فنحن لا نعلم نوع العمل الذى تولاه في وزارة الخارجية لمدة ثلاث سنوات عقب عودته من طهران ، ولا نعلم كذلك اسم الجامعة التى عمل بها في كندا ولا مقرها ولا الزمن الذى قضاه فيها^(١) . وليته سَمَّى بعض الكتب التى يريد ترجمتها بعد إحيائه على المعاش ..

م — وسألنا فضيلته رأيه في المعركة بين الإسلام والجاهلية الحديثة ..
ر — عاقبة هذه المعركة ستكون نصراً للإسلام إن شاء الله دونما ريب ، فقد شعر الغربيون بأن مدنيّتهم عرجاء عوراء ، تمشي على قدم واحدة ، وتنظر إلى جهة واحدة ، على حين أن الإسلام نظام متكامل يتولى الإنسان والحياة كلا لا يتجزأ ..

ويستأنف الدكتور مؤكداً : لكن تعاليم الإسلام يجب أن تفهم على ضوء آخر مابلغته التطورات العلمية والاقتصادية والسياسية والثقافية .. ذلك لأن أحداً لا يدرك عظمة الإسلام وشموله إلا إذا احاط بالنقائض الكامنة في مدنية الغرب التى لا يفتأ كثير من المسلمين مأخوذِينَ بها مفتونين ..

م — وفي موضوع الشباب المسلم والوسيلة المثلى لضبط اتجاهاته في طريق الإسلام الصحيح ..

ر — يقول الدكتور الرشيدى : إن العناية بالشباب المسلم مسئولية كبيرة ، وفي المملكة العربية السعودية نجد منظمة الشباب التى مركزها مدينة الرياض ، تقوم بقسط هام من هذه العناية وللمخيمات الدولية التى تقيمها في مختلف الأماكن تأثير كبير في توحيد الجيل المسلم الجديد في المستقبل القريب إن شاء الله ..

وأحب أن أذكر القائمين بهذه المهمة ضرورة تقديم المعلومات الصحيحة عن الإسلام لهؤلاء الشباب ، وأعنى بالمعلومات الصحيحة التركيز على بيان علاقة الكتاب والسنة بالحالة الروحية والمادية جميعاً ، وبذلك يتم الترابط بين الإسلام والحياة والإسلام والعصر ، لأن الإسلام ليس عقيدة

(١) أخذنا اسم هذه الجامعة أخيراً من كتاب « غارة تبشيرية » ص ٤١ وفيها أنه استمر في عمله لمدة خمس سنوات .

فقط ولكنه تعاليم تُنظّم الحياة الايجابية لجميع أمم العام.

م— وحين عرضنا لواقع الخلاف القائم بين العاملين للإسلام.. والمنهج الأفضل الذى يستقر رأيه عليه .

ر— أجاب: أنا من الذين يؤمنون بأن الهدف الجامع الذى يجب على الجميع الالتفات حوله هو تجميع القوى لمواجهة العدو المشترك استعماراً أو أفكاراً، مع تجاهل الخلافات الداخلية، إن أعداء الإسلام يودون أن نتقاتل فيما بيننا لنتركهم يفترسون الشعوب الإسلامية واحداً بعد الآخر. ولم يكن بدّ من استطلاع رأى فضيلته فى موضوع الثورة الإسلامية فى إيران ، ولا سيما بعد الذى لمسناه فى أوساط الشباب الأندونيسي المثقف من تفاعل معها وتساؤل عن أخبارها، فأجاب : قضيت سنة واحدة سفيراً فى طهران ، وعرفت خلال ذلك طبيعة النفس الشيعة ، فخرجت بحصيلة فكرية تجعلني لا أكرههم ولكن أشفق عليهم وأحذرهم .. إن بناء المذهب الشيعي قائم على خطأ ، فالإسلام دين تفكير وتعقل ووعي، وهؤلاء يجعلون من الإسلام دين متابعة للإمام المعصوم، فليس هناك ديمقراطية ولا انفتاح فكري، وإنما هو نفوذ العالم الديني بصفة شخصية، ولذلك نرى الإيرانيين المثقفين يهجرون بلادهم لأن العلماء لا يرجي منهم شيء، والحكم كان ممعناً فى الظلم والطغيان .

وقبل الإفضاء بهذه الانطباعات قال الدكتور : هذا الجواب ليس للنشر .. ولقد توقفت ملياً قبل أن أنقل هذه الفقرات وأنا أتساءل : إذا كان هذا الجواب لغير النشر فلم يُفضي به إليّ ؟! ثم لماذا نكتم حقيقة وثقنا بصحتها مجاملة لآخرين ؟! أليس هذا هو الكتان الذى حذرنا الله منه فى كتابه الحكيم ؟! ، أو ليست هذه هى التقيّة التى ننعاها على إخواننا الشيعيين ؟! لقد كنت أحد المبتهجين بقيام تلك الثورة لأنها انتصار للشعب المسحوق على ذلك الطاغوت الذى كان يريد القضاء على آخر معالم الإسلام فى إيران ، ليقم بديلاً عنه تلك النحلة البهائية الضالة مجرد أنها منبعثة من صميم الأرض الإيرانية ..

وضاعف من ابتهاجى هاتيك التغيرات الرائعة التى حققتها الثورة : قطع

العلائق مع إسرائيل وإعلان المعاداة لحليفها أميركة، ومصارحة ممثلي البابوية بنقمة الشعوب الإسلامية من مواقفها الظالمة بجانب اليهودية والمظالم الصليبية.. ثم استبعاد الفنون الهدامة عن الإذاعة، وإلغاء مصانع الخمور واعتبار العربية لغة الدولة الثانية، وإلزام المرأة بالحشمة والطابع الإسلامي و... و... و...

إلّا إننا سرعان ما فوجئنا بأنواع الانحرافات السياسية والاجتماعية، من عدوان على موظفين دبلوماسيين لهم حق الحماية والعودة إلى ديارهم بالنهي هي أحسن، والتصريحات المخبولة التي راحت تطلق التهديدات على جيرانها المسلمين، وإيقاع التقتيل الذريع في صفوف المعارضين، بدلا من الحوار الحازم الحكيم، والإصرار على حرمان أهل السنة من كل حقوقهم الإنسانية، والانسياق مع الجماهير العمياء في تقديس القبور، ومحاولة زعزعة الأمن الذي نتمتع به في هذه المملكة.. ومالا نخصي من الالتواءات التي أوشكت أن تهدم ثقة العالم بصلاحية الحكم الإسلامي، الذي أصبح في مفهوم الحكام والسياسيين العالميين عبارة عن نوع من الفوضى التي تدمر نفسها وما حولها..

أما حديث الدكتور عن أثر التزمّت الشيعي في نفوس المثقفين الإيرانيين حتى يضطّروهم إلى الهجرة.. فلم يعد أمراً مجهولاً، ولقد سمعنا من أحد الثقات الإيرانيين أن أخا له سبق إلى خدمة العلم أيام الشاه، وكان سكنه مع عشرات من شباب الشيعة الجامعيين، قد أتاح له الاطلاع على أفكارهم، فإذا هم أجمعون من شيوعي وملحد لا يعرفون شيئاً عن الله، وليس في معلوماتهم عن الدين إلا ما يُنقَرهم منه ومن أهله..

ومن هنا رأيت أني غير ملزم بشرط الدكتور الرشيدى في شأن جوابه الصريح الذي يجب أن يقرأه الناس على اختلاف أفكارهم واتجاهاتهم..

م— وعن موضوع باكستان وإعلان حاكمها ضياء الحق عزمه على تطبيق الشريعة الإسلامية يجب:

ر— أرجو لباكستان الشقيقة كل التوفيق، ولكنني أرى التؤدة في هذه المرحلة وبخاصة ما يتعلق منها بالحدود، والحدود كما نعلم لم تنفذ في عهد النبي

ﷺ إلا قليلا، وإنما أخشى إذا تكرر تنفيذها أن يحدث رد فعل لدى الرأي العام، فيتحول إلى الشفقة على المجرم، والكرهية للحكومة القائمة بهذا التنفيذ، فقضية الأحكام الشرعية وبالأخص الحدود تستدعي تفكيراً سليماً وسياسة قوية ..

ولابد لنا هنا من وقفة أخرى مع الدكتور الرشيدى لنحاوره حول بعض النقاط الهامة في جوابه هذا.

١- إن قلة وقائع التنفيذ للحدود الشرعية أيام الرسول ﷺ والراشدين لم تكن بسبب التساهل في إقامتها، ولكن بسبب قلة الوقائع الموجبة للحدود، والدكتور يذكر جيداً كلمة رسول الله ﷺ لأسامة حين أراد الاستشفاع بالسارقة المخزومية: «أتشفع في حد من حدود الله!.. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وإنما قلّت هذه الوقائع بالتربية النبوية التي جعلت للإيمان فاعليته الكبرى في ضبط تصرفات المسلمين ضمن نطاق الواجب حتى يُسَلِّم أحدهم نفسه للقتل رجماً إذا قهره الشيطان على اقتراف ما يستحق من أجله الرجم، كما حدث لماعز والغامدية رضي الله عنهما.

٢- أما خشية الدكتور من عواقب التكرار لتنفيذ الحدود، فلا مكان لها لأن حداً واحداً تقطع به يد سارق في أى بلد كاف لردع كل ذى عوج عن الإقدام على السرقة الموجبة للحد، وهذا أمر مشهود للعالم كله في المملكة العربية السعودية التي لا تبلغ وقائع الحدود فيها عدد الأصابع.

٣- أما الكارهون لإقامة الحدود فلن تجدهم أبداً بين أولي الوعي والدين من أمة الإسلام، بل وعلى الضد من ذلك ترى هؤلاء المؤمنين يستقبلون أخبارها بمشاعر السعادة، لأنها تؤكد لهم أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم مادام ثمة من يقيم حدود الله.

ومع ذلك فإن الإسلام كل لا يتجزأ، فالحاكم الذى يتصدى لإقامة حدود الله يعلم أنه مسئول عن توعية رعيته بحقائق الإسلام بكل وسائل الإعلام، فعملية الحدود ماضية في الحكم الإسلامى مع مسيرة التوجيه العام، في التعليم والصحف والإذاعة والمسجد والأسرة و... و... و.

وصدق الله العظيم في وصف هؤلاء المؤمنين الصالحين إذ يجعل علامة إيمانهم الخضوع المطلق المصحوب بالرضى المطلق لأحكام الله سبحانه، وذلك في قوله الكريم: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِى ما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمّا قُضِيتْ وَيسَلِّمُوا تَسْلِماً﴾ (سورة النساء ٦٤).

والشعب الباكستاني على اختلاف مواقعه ومشاربه ليس أقل من أخيه الأندونيسي التزاماً بروح الإسلام، ولكن وُجِدَ فيه من يتنكر لدين الله، وحكمه فلن يُعَدَّوا شيئاً مذكوراً بإزاء السواد الأعظم من المؤمنين.. ولكن مع ذلك فلا مفر من إحاطتهم بالجو الإسلامي الذى يشعرهم بعظمة دينهم وجماله..

م— وعن رأيه في تكاثر المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك وهناك ومردودها الحق للإسلام الذى تعقد باسمه، يجيب الدكتور:

ر— فكرة المؤتمرات الإسلامية صحيحة، ولكن الهيئات التي تتولى تنفيذها وتمثيلها هي موضع التساؤل.. أهى جادة أم عابثة تتصرف بمال المسلمين على غير جدوى!.. لقد شاهدت مؤتمرات كثيرة يُدعى إليها كلُّ من هبَّ ودب، فكيف ننتظر لهذه المؤتمرات مردوداً مفيداً!

وطبيعى أن كلامى هذا ليس عاماً بحيث ينطبق على كل فريق من أولئك الممثلين، وعلى كل واحد من هذه المؤتمرات، والمهم هو حسن الاختيار وسلامة العناصر المشاركة، وكلما حسنت النوعية حسنت النتيجة.

وبشأن المؤتمرين الأخيرين: حول الغزو الشيوعى لأفغانستان يقول الدكتور: لم أتتبع أنباءهما، غير أنى أتوقع خيرهما، لأنهما تعبيران عالميان عن اهتمام المسلمين بعضهم ببعض، وإشعار لأبطال الجهاد الإسلامى في الأفغان أنهم ليسوا وحدهم، وأن قلوب مليار مسلم تدعو لهم وتتلهم لانتصاراتهم في مواجهة أشرس قوة إلحادية في العالم..

إن روسية كغيرها من دول البغى، لا تعير اهتماماً لغير القوة، ولكن تظاهرات التأييد سواء عن طريق المؤتمرات الإسلامية أو الإعلام الإسلامى، أو العون الإسلامى، سيكون لها أثرها الفعال في ردع الظالمين إن شاء الله.. وسألنا الصديق الفاضل عن تقييمه للحركة الإسلامية في أندونيسية ومدى رصيدها من الوعي، فأجاب: في اندونيسية شعور

إسلامي عميق وقوى، وهو ثمرة جهاد الزعماء والعلماء المسلمين.. ولكنني على يقين بأن حاجتنا إلى رصيد أكبر من الفهم الصحيح للإسلام لايزال كبيراً.. وأكرر هنا ماسبق توكيده، وهو ربط التعاليم الإسلامية بحاجة العصر.. إن المرحلة التي تمر بها البشرية تتسم بخصائص جاهلية عريضة، فلا مندوحة إذن عن تحليل واقع هذه الجاهلية التي تمثلها حضارة الغرب، تحليلاً يبرز مساوئها وظلامها وخطرها على الحياة، وحاجتها الماسة إلى أنوار الإسلام..

م— إن الإسلام يعاني الكثير من ضغط الأجهزة الحاكمة في إندونيسية، فكيف تتصورون مصير هذه المعركة؟

ر— أنا متفائل، وأبني تفاؤلي على التطور الكبير الذي حدث بعد الاستقلال، فعلى الرغم من مطاردة السلطات الأندونيسية للحركات الإسلامية، التي لا ترى سبيلاً للمصالحة بينها وبين (البانجاسيلا) ومع كل المضايقات التي تواجه بها هذه السلطات كل ذى تفكير حر، وبخاصة إذا كان من ذوي الثقافة الإسلامية، فإن الإسلام مستمر النماء والانتشار والله الحمد..

س— أجل إن ما يعانيه الإسلام من مكاييد الشيوعيين والمبشرين والزعماء العلمانيين، وتعسف الحكومة التي تضع المبادئ الخمسة — البانجاسيلا — فوق تعاليم الإسلام، إن ما يعانيه الإسلام من هؤلاء جميعاً ليلقي الفكر المسلم في بحران من الحيرة، وأمام أكداس من المآزق لا يصر من خلالها سبيلاً، ولكن.. إذا رجعنا إلى الماضي وتذكرنا أن الإسلام إنما أخذ سبيله إلى أندونيسية عن طريق التجار والمتصوفة، وما زال ينتشر حتى استوعب ٩٠٪ من سكانها، نقطع بأن ذلك أمر فوق المعقول، وأن وراء الإسلام القوة التي لا تغالب ولا تقهر.. أوحينئذ سنزداد يقيناً بأن المستقبل للإسلام على الرغم من كل المثبطات بمشيئة الله وقوته..

ويستأنف الدكتور قائلاً: لقد قرأت كتاباً لمؤلف سويسرى وأقوم الآن بترجمته، يقول مؤلفه (إن للإسلام حيوية هي سر الوحي الإلهي الذي أنزل على محمد ﷺ قرآناً عربياً غير ذي عوج) ونحن نقول: إن الإسلام بهذا السر سيصل إلى كل قلب مفتوح للحق، وسيسجل الانتصار تلو

الانتصار على كل من يحاول الوقوف بوجه مَدِّهِ المضىء المنقذ إن شاء الله .
وفى هذه الإجابة الصريحة مكان للملاحظتين :

إن مؤرخى الدعوة الإسلامية كثيراً ما يغرضون للتصوف والتصوفة على اعتبار أنهم كانوا ذوي أثر فعال في انتشار الإسلام ، سواء في آسية أو أفريقية ، أو الجوانب الأخرى من أرض الإسلام ، فإذا وقف القارىء العادي على كلامهم ذاك انصرف ذهنه إلى المشاهد من أعمال شيوخ الطرق ، الذين يكثر فيهم المرتزقة والمُحرَّقة ، فتساءل : أي إسلام هذا الذى يدعو إليه هؤلاء !؟

ومن حق القارىء أن يذهب إلى هذه الظنون ، لأن التماذج التى يعاصرها أو التى قرأ عنها من مدَّعى التصوف ليسوا على شيء من الوعي السليم لحقائق الإسلام ، إن لم نقطع بأنهم المشوهون لحقائق الإسلام ..

لقد بدأ التصوف زهداً واعتزلاً للفساد ، وتذكيراً بحقوق الله ، وعظاً تبث الحياة في موات القلوب ، ثم مالبت أن تحول على أيدى الزنادقة والمتفلسفة أنواعاً من أساطير الوثنية الهندية ، القائمة على التصورات الباطنية لذات الحق سبحانه ، حتى استقرت على القول بالحللول والاتحاد ووحدة الوجود .. وما إلى ذلك مما لاحظت لأصحابه في الإسلام ، وفرَّخ هؤلاء وعششوا في أوساط الأغبياء من العامة وأشباههم ، ممن جعلوا خير عبادتهم .. فيما يزعمون ، رقصاً وشطحاً وتلاحين تستهوي الشياطين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا! ..

والحق أن التصوف الذى يشير إليه الدكتور الرشيدى ، والذى يذكره مؤرخو الدعوة بين المؤثرات الهامة في اجتلاب الناس إلى الإسلام ، إنما هو من النوع الأول الممثل بالزهد في الشهوات والإقبال على الطاعات ، وتصفية النفوس من المفسدات . وهى صفات كانت ولا تزال من أصح الوسائل لاجتذاب الأبصار ، واستنارة البصائر ، ومن حقها أن تستحوذ على ثقة الآخرين وتقديرهم فتتيح لأهلها فرص الاتصال والتأثير حتى يدخل الناس الإسلام على أيديهم أفراداً وجماعات .. وقد حدثنا الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوى في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) عن شيوخ من هؤلاء العباد الزهاد هُدىَ ببعضهم المثات ، وبآخرين منهم الآلاف ومئات

الآلاف ، مما لا يكاد يصدق لولا عدالة المخبرين عنهم وصدق روايتهم ..

وعلى هذا فالتصوف الذى يذكره الدكتور هو هذا التسامى الذى يجب توافره أبداً فى مقومات دعاة الإسلام ، وليس هو تصوف الجهلة الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وتجارة ..

أما الملاحظة الثانية فهى حول الكتاب السويسرى الذى يقوم الصديق بترجمته ، فقد ذكره غُفلاً من العنوان والمضمون واسم المؤلف ، ولو أوضح هويته لكان خيراً ، ولكان ثمة أمل بترجمته إلى العربية أيضاً^(١) .

م — فى حياتك الكثير من العمل السياسى ، وغير قليل من الجهد العلمى ، فأى الجانبين تراه هو الغالب عليك ؟ -

ر — لست زعيماً سياسياً ، بل أنا رجل شَغَف بالعلوم العربية والإسلامية ومقارنتها بالأفكار الغربية ، وقد تبين لى أخيراً أنني بسبب من هذا الشغف أستطيع أن أقدم للإسلام والمسلمين فى أندونيسية شيئاً كثيراً ، فقد دخلت جامعة أندونيسية أستاذاً ، على الرغم من كونها علمانية لا يُقبل للتدريس فيها إلا من اصطليغ بمنطق الغرب ، وما كان لى أن أدخلها مُدرِّساً بثقافتى العربية الإسلامية ، وإنما حصل لى ذلك بفضل شهادتى من جامعة باريس . ولقد بلغت مرحلة التقاعد ففارقت الجامعة ، ولكننى مواصل جهودى فى نقل ماكتب فى الغرب عن مساوئ المدنية الغربية ، وعن فضائل الإسلام ، وفى ذلك امتدادٌ لعملى السابق فى الجامعة ولكن على مستوى أوسع وأبعد مدى .

(١) يعقب-الدكتور الرشيدى على تساؤلنا بقوله :

اسم الكتاب هو L'humonisme de L'Islam « إنسانية الإسلام » ، ومؤلفه الدكتور morcel Boèsard السويسرى ، والأمين العام لجمعية : الإسلام والغرب التى يرأسها الدكتور معروف الدواليبى . والكتاب فى نحو ٣٥٠ صفحة ، يبحث عن العلاقات بين الدولة الإسلامية وغير المسلمين . وقد تُرجمت بعد ذلك الكتاب كتاباً آخر بعنوان : دعوة الإسلام : ومؤلفه البروفسور روجيه جارودى الفرنسى وقد أسلم وحج . Les Promesses de L'Islam par Roger garoudi .

قلت : وليت هذه الجهود تمتد إلى أبعد من أندونيسية فتفيد منها الجامعات الإسلامية ومؤسسات الدعوة الإسلامية في ديار العرب ، فتقوم بترجمة هذه الآثار إلى العربية ، أو تكلف الدكتور بنقلها إلى العربية التي يُتقنها ، وبذلك نحقق التعاون المنشود بين مفكري العالم الإسلامي لخدمة الإسلام والمسلمين أجمعين . وسألنا الصديق الفاضل أن يزودنا أخيراً بأسطر من آثاره العملية والأدبية مكتوبة بخط يده فأجاب : كل مؤلفاتي حتى الآن باللغة الأندونيسية ، وقد حثني كثير من الأصدقاء لأن أكتب تاريخ أندونيسية بالعربية .. وقد بدأت أفكر في هذا الموضوع .

وبعد الفراغ من أجوبة الدكتور الرشيدى وقعت في مكتبتى على كتاب نفيس بعنوان (غارة تبشيرية جديدة على أندونيسية) وهو من تأليف (أبو هلال الأندونيسى) ولعل (أبو هلال) هذا ليس رجلاً بعينه ، بل مجموعة من الرجال ذوي الغيرة سجلوا مرثياتهم في صفحات ذلك الكتاب ، وعاقهم الضغط السياسي في بلادهم عن الطهور بأسمائهم ، فرموا إليها بالهلال ، الذى يريدون به مايسلطونه من الأضواء على تلك الحقائق .

في هذا الكتاب — الواقع في قرابة المئتين من الصفحات — نقرأ تسجيلاً هاماً عن (مؤتمر للأديان) دعت إليه الحكومة الأندونيسية وكان انعقاده في الثلاثين من نوفمبر ١٩٦٧ ، وقد حضره ممثلون عن كل الأديان العاملة بأندونيسية ..

وكان بين المتكلمين عن أهل الإسلام الدكتوران محمد ناصر ومحمد الرشيدى .. وقد رأيت من تمام التعريف بالرشيدى أن أثبت في ذيل ترجمته مقاطع من محاضراته الصريحة الرائعة التى ألقاها في ذلك المؤتمر ، وفيها تصور دقيق لواقع الغارة التى يشنها دعاة النصرانية على الوجود الإسلامى فى أندونيسية وفيها كذلك رد فامع على تصريح الدكتور ثامبونان وزير الشؤون الاجتماعية فى حكومة سوهارتو آنذاك ، وهو ممثل البروتستانت فى ذلك المؤتمر ، إذ كان من كلامه فى تسويغ أعمال المبشرين قوله : إن الغاية التى يعمل لها البروتستانت هى التجديد (المودرنيزاسيون) ويعنى بالتجديد طبعاً تغيير واقع المسلمين بنقلهم من جنة التوحيد إلى متاهة التثليث ، ومن التزام فضائل الوحى الإلهى ، إلى فوضى الأخلاق

التي انتهت بمجلس الكنيسة الأعلى في بريطانية إلى إباحة اللواط ، والتي أسفرت
أخيراً عن إصدار البرلمان السويدي قانوناً بإباحة حرية الجنس بين أعلى القربات أى
إباحة زواج السويدي من أخته ومن والها ، على النهج نفسه الذى سلكته
الدانيمارك قبل أختها السويد ..!

ويزيد ثامبونان هذا قوله : بأن المسيحيين رغما عن ارتباطهم بالدولة
الأندونيسية هم أكثر ارتباطاً بالتعليمات الانجيلية التي تأمرهم بالتبشير بالدين
المسيحي في كافة أنحاء المعمورة .

وهو تصرّح حاسم بأن هؤلاء المضللين لن يكفوا عن محاولاتهم إفساد
عقيدة المسلمين حتى يحققوا أمنيّتهم الشيطانية بتحويل مسلمي أندونيسية كلهم
إلى حظيرتهم التي يصفها بالمسيحية ولو أنصف نفسه ونحلته لسمّاها
(البولسية)^(١) .

وإلى القارئ الآن بعض المقاطع المقتطفة من محاضرة الدكتور الرشيدى :
١ — قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت دول الغرب لاتزال
تستعمر دول وشعوب آسية وأفريقية ، كان الغربيون مفتونين بما أحرزوه
من تقدم ونجاح في مختلف ميادين الحياة ، افتتاناً جعلهم يستخفون بكل
مالا يمت إلى الغرب بصلة ، وذلك ما يعرف بعنجهية التفوق الحضارى
والثقافي ، ف نظام الحكم — مثلاً — إذا لم يكن متمشياً مع التمثط الغربي يعد
نظاماً متأخراً وغير عصري ، والدين الذي لايعتنقه الغربيون لايعتبر دين
حق ، وإن الشعوب التي تريد التقدم والرقى والتحضر فعليها أن تقلد
الغرب في كل شيء .

وقد أثّرت هذه المفاهيم فينا نحن الأندونيسيين ، وإننا أبناء هذا الجيل
المخضرمين ، لانزال نذكر النظرة السائدة قديماً تجاه الأندونيسي الذي
لايجيد التحدث باللغة الهولندية (لغة السادة الحكام آنذاك) إذ لايعتبر
إنساناً جديراً بالاحترام ، بل إن هناك من يعتقد أن الدين الذى يعتنقه
الهولنديون ، أسمى من الدين الذي يعتنقه أفراد شعبنا .. طبعاً ، غير أن
مفكرى الغرب اليوم بدأوا يتجهون اتجاهاً مغايراً لما ذكرنا ، منهم الأستاذ

١ — نسبة إلى بولس صاحب التأثير الأكبر في ديانتهم .

(ويلفر كنتويل سميث) الأستاذ الجامعي وأحد القسوس المعروفين حيث يقول في كتابه (عقائد الآخرين) مامعناه:

إن على الغربيين أن يتخلوا عن أسلوب فكرة تقسيم البشر إلى فريقين ، فريق الناجين وهم المسيحيون حسب ما يعتقدون ، وفريق الهالكين وهم فريق غير المسيحيين ، كما يجب أيضاً أن يتخلوا عن اعتقادهم الذي يرى أن أسلوب الحياة الغربية هو الأسلوب الصائب إطلاقاً .

إن مثل هذا الاعتقاد الذي يرى أن كل شيء يجب أن يسير على النمط الغربي فيه الكثير من الخطأ وسيلقي الكثير من المقاومة) .

٢- ويؤكد الأستاذ سميث في موضع آخر من كتابه إنه : إذا أردنا أن نجنب العالم شرور الشيوعية والإلحاد فالسبيل إلى ذلك هو الحفاظ على المسيحية في الغرب ، وكذلك بالحفاظ على الأديان الأخرى مثل الإسلام والهندوكية وغيرها .
أيها الإخوة ..

لقد اقتبست الكثير من كلام الأستاذ سميث ، لأن ما اقتبسته في معرض كلامه ينطبق تماماً مع كثير من الأحداث التي نعيشها اليوم في أندونيسية ، فتنظية تقسيم الناس إلى فريق الناجين وهم النصارى ، وفريق الهالكين وهم غير النصارى ، مستحوذة ومبسيطرة على تفكير المسيحيين الأندونيسيين ، وهذا هو الأمر الذي جعلهم — على ما يبدو — مندفعين في التحمس لتنصير الشعب الأندونيسي بأسره !.

٣- لقد بلغ من حمسهم أنهم مارسوا التبشير معي أنا شخصياً ، وقد كنت ، كما نوه بذلك السيد رئيس الجلسة ، أول وزير للشئون الدينية في أندونيسية المستقلة ، فقد جاءني اثنان من المبشرين يخطاني على نبذ الإسلام واعتناق المسيحية ، كانا يقولان لي ونسخة من الإنجيل في أيديهما : (إن هذا هو الكتاب الوحيد الذي يضم بين دفتيه الحق كل الحق ، والذي استطاع أن يثبت أمام التمهيص العلمي) . وحين سألتهما عن تاريخ الأناجيل وعن مصادرها ثبت لي أن معلوماتهما بهذا الصدد ضحلة جداً ، واتضح أنهما لم يطلعا بعد على كتاب الأستاذ سخوتفيلد (تاريخ

الأنجيل) وهو الكتاب الذي يجب أن يطلع عليه كل إنسان مثقف، وبالحري إنهما لم يطلعا أيضاً على المؤلفات المسيحية التي كتبها مسيحيون ذوو طابع راديكالي، مثل كتاب الأستاذ باول دافيس المسمّى (مغزى مطامير البحر الميت)، وكتاب الأستاذ تشارلس فرانسيس بوتر المسمّى (الكشف عن السنين المفقودة من حياة يسوع).

والكتابان الأخيران — كما هو معروف بين أوساط المثقفين — قد أmapا اللثام عن الكثير من تاريخ المسيحية، بمناسبة العثور على مستندات ووثائق قيمة في أرض فلسطين يعود تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى.

٤ — كنت منذ أيام في بلديّ (جاوا الوسطى) في زيارة خاصة، فاتصل بي أحد السكان هناك يعرض علي القضية الآتية قائلاً:

(إن لي نسيباً اعتقلته الحكومة بسبب اشتراكه في الانقلاب الشيوعي الفاشل، وبقيت أسرته تعاني العوز بعد اعتقاله، وقد اتصل به في المعتقل أحد المبشرين وسأله: هل تحب أن تتلقّى أسرتك معونة تنقّذها من غائلة الضياع والفاقة؟ فأجابه نسيبي على البدهاءة: طبعاً: ولكن من هو الإنسان النبيل الذي سيقدم لأسرتي تلك المساعدة الكريمة في هذه الظروف بالذات؟ فقال له المبشر إن المعونات ستصل إلى أسرتك بانتظام، ولكن عليك أولاً أن توقع على هذا الصك معترفاً بالتنصّر.

ولم يفكر نسيبي طويلاً ووقع على الصك وأصبحت أسرته تتلقّى المعونة بانتظام، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فلي أخت أخرى، حين رأت شقيقتنا قد تحسّن حالها بفضل المعونة التي تتلقاها بعد تنصّر زوجها، قالت لي هذه الأخت: إن أختنا قد نالت معونة منتظمة، وأنا في أشد الحاجة إلى مثلها، فهل بإمكانك تأمين مثل تلك المعونات لي أم أقتدي بأختي؟.. وقصدها واضح، إنها تريد مني أن أوّمن لها حاجاتها المعيشية، كما أمنت لأختها، وإلا فإنها ستقتفي آثار أختها، حدو النعل بالنعل.. ومن أين لي ذلك وأنا شخصياً أعيش عيشة الكفاف، ولكنني لأريد أن أرى أختي الأخرى ضحية من ضحايا التبشير).

٥ — قبل ستين عاماً من هذا اليوم، حاول المبشرون الهولنديون أهاام سيطرة

هولندا على أندونيسية أن ينصروا الأندونيسيين المسلمين، ولكن الحكومة الهولندية رفضت ذلك بشدة، فثارت نائرة المبشرين وهاجموا الحكومة الهولندية في البرلمان الهولندي، واتهموها بأنها تحمي الإسلام في أندونيسية، والحكومة لم تكن تحمي الإسلام، ولكنها تحمي مصالحها في أندونيسية، من أى استفزاز تقتضيه حماقة التبشير مع المسلمين في أندونيسية.

وقد سألتهم الحكومة الهولندية :

— لماذا تريدون تنصير الأندونيسيين مع أنهم مسلمون؟
فأجابوا: اننا لانريد تنصير المسلمين ولكننا نريد تنصير أولئك الذين يدعون أنهم مسلمون، ولكنهم لا يعرفون عن الإسلام الكثير، ولا يعرفون اللغة العربية ولا يؤدّون فرائض دينهم على الوجه المنشود.. إننا نريد أن نقدم المدنية والتجديد والعلم للأندونيسيين المتخلفين في كثير من ميادين الحياة.

فردت الحكومة قائلة :

٦ — إنه لكى يتقدم الإنسان ويتحضر فليس من الضروري أن ينتصر أولاً، إن الإسلام في أندونيسية لا يتنافى أو يتعارض مع الحضارة والتقدم (وهذا مقاله المستشرق الهولدى سينوك هورخرونيه) والحقيقة أن الإسلام جملة وتفصيلاً لم يكن غير متناف مع الحضارة والتقدم فحسب، بل إن تعاليمه ومبادئه شاملة أيضاً لتعاليم وأسس التقدم والحضارة).

وبحث المبشرون عن مبررات أخرى يتذرعون بها ، فقالوا :

إننا سنأتى إلى أندونيسية مدفعين بدافع الشفقة والإنسانية ، إننا نريد أن نخفف عن البائسين في أندونيسية وطأة البؤس والشقاء والجهل والمرض .
فردت الحكومة قائلة :

هذا حسن جداً، إذا كانت الإنسانية هي دافعكم فاعملوا.. انشئوا المدارس والمستشفيات، وأسدوا البر إلى البؤساء، ولكن حذار من اشتراط التنصر على المحتاجين إلى تلك المعونات، وحذار من التغرير بالطلبة والفقراء والمرضى بالتنصر، في هولندا مثل معروف يقول:

(تنصروا بسبب الأرز) أى إنهم تنصروا لادفاع اليقين والاعتناع ولكن بسبب الحاجة إلى الأرز.

وأنا لأشك بأن القارئ المثقف واجد في هذه المقتطفات ما يشد به إلى مطالعة المحاضرة كاملة في موضعها من كتاب (غارة جديدة..) وإنه كذلك ملاحظ قوة الفكر الذى يحمله رجال الدعوة الإسلامية في أندونيسية، تلك القوة التي تتجلى في دقة البحث، ثم في الطابع العلمي القائم على المنطق البرهاني المفهم، ثم في الأسلوب المحكم الذى من شأنه أن يستحوذ على إعجاب السامعين، ولو كانوا على خلاف معه في الرأي..

وهنّ السمات الملحوظة في كل من المفكرين الكبارين ناصر والرشيدي على السواء..
والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء..

* * *

الأستاذ محمد قطب

مأحسب مسلماً يهمه أمر الإسلام والمسلمين في أى مكان من العالم يسعه أن يجهل أخبار آل قطب في هذه المرحلة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

أول من عرفت من هذه الأسرة شهيد الإسلام سيد، وكان ذلك عن طريق مقالاته الثورية في مجلة الفكر الجديد، ثم صدر كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) فكان فتحاً جديداً في موضوعه اجتذب كل المعنيين بالإصلاح الاجتماعي من هواة الثقافة الإسلامية، ثم تلاه (مشاهد القيامة) و(التصوير الفني في القرآن) وغيرهما من المؤلفات، التي نشرت ذكره، ورسخت مكانته حتى إذا طلع على الناس بكتابه العظيم (في ظلال القرآن) ثم (معالم في الطريق) كان قد احتل، مع كبار مفكرى الإسلام المعاصرين، مركز القيادة الفكرية في أذهان المسلمين وقلوبهم.

وكان ظهور الشهيد سيد قطب بهذه القوة المتفوقة قد مهد السبيل لظهور أخيه الأستاذ محمد قطب، الذي كان بروزه مفاجئاً للوسط الفكري الإسلامي، أو على الأقل بالنسبة إلينا في الشام، إذ لم نكن قد طالعنا له أي إنتاج يسترعي الانتباه قبل كتابه العملاق (الإنسان بين المادية والإسلام).

ومن هنا كان تطلع الوسط الفكري الإسلامي إلى أخبار هذين الأخوين وإلى إنتاجهما الأثير، فلما أنشب الطغيان مخالبه في آل قطب وإخوانهم، تداعى لهم ضمير الأمة كلها بالألم والتعاطف، وانطلقت الأفلام المؤمنة تدق قلوب الطغاة بمختلف الأساليب المثيرة للإنسانية، والمحذرة من نقمة الله.. ولكن هؤلاء كانوا قد صمموا على أن ينزلوا بالإسلام الضربة التي ترضى أعداءه من الشرق والغرب، فلم يعيروا كل هذه المناشدات والتحذيرات أي إهتمام، وساقوا الموكب الثاني من خيار المؤمنين إلى الموت، وبينهم سيد الذي احتفظ

وإخوانه بعزة الإسلام، فلم يهنوا ولم يستكينوا ولم يسترحموا سوى الله، حتى حقق ربهم لهم ماتمونه من نعمة الشهادة، والانتقال إلى دارة الكرامة التي عرضها السموات والأرض.

وانقطعت أخبار الثلة المعذبة من إخوان الشهداء، حتى كدنا نياس من بقائهم على قيد الحياة وكان محمد قطب أحد الذين شاع نبأ مصرعهم تحت التعذيب، فلم نملك له ولاخوانه سوى العبرات والدعوات الحارة نرفعها إلى الله، مستمطرين لهم الرحمة والمغفرة، ومستنزلين من عنده جميل الصبر والعزاء لمن بقى من أهلهم وأحبائهم.

ولكن.. وما كان أسعدها مفاجأة يوم أعلنت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عن أول محاضرة يلقيها الأستاذ محمد قطب في دار الحديث التابعة لها!

ولأول مرة تلقى هذا الوafd العزيز وجها لوجه، وكأنما أعيد إلينا من عالم البرزخ ليحدثنا عن إخوانه السابقين إلى جنات النعيم.. ولم أتمالك أن عقت على محاضرتة النفيسة يومئذ، فرحبت بالشهيد الحي، وأتبع ذلك بقصيدي (عبر وعبرَات) التي سبق أن صغتها في الشام أيام المحنة في ظل الطغيان الناصري، فبكيت الضحايا، وصورت فظائع المجرمين والمنافقين من أعوانهم، وأبرزت تصميم المظلومين من أبطال الدعوة على الصبر والمصابرة والمrapطة، حتى يأتي الله بأمره على القوم الظالمين، تحقيقاً لوعده الذي لا يتصور منه الخلف.

ومنذ ذلك اليوم تتابع لقائي هذا المفكر الإسلامي الكبير في هذه المملكة، التي أصبحت وطنه الثاني، وبات عمله رئيسياً في جامعة (أم القرى) على مقربة من البيت العتيق، وتلك منحة أكرمه بها الله جزاء صبره على البلاء الذي تحمله في سبيله، وهي في الوقت نفسه فرصة فسحت له مجال العمل لنشر أفكاره النيرة مدرساً ومحاضراً ومؤلفاً ومحدثاً، لاعلى مستوى المملكة وحسب، بل ومبعوثاً إلى العديد من الجامعات والمناسبات.

ولكم كنت أود لو أفردت للشهيد سيد ترجمة صالحة ولكن حال دون ذلك حرمانى لقاءه، وقد ألزمت نفسى ألا أترجم إلا لمن عرفت فلم أشد عن هذه الخطوة في كلا كتابي « علماء ومفكرون عرفتهم » إلا قليلاً مما أشرت إلى

دواعيه في مكانها .. وإن كنت كتبت عن الشهيد كثيراً في تضاعيف كتيبي الأخرى .. ولعلى أكفر عن قصورى في حق آل قطب بكتابتى هذه عن مفكرها الثانى الذى أراه حقيقاً بلقب « الشهيد الحى » .

البيئة الأولى :

أما مترجمنا الذي لايجعله مثقف من المسلمين فهو محمد قطب إبراهيم ، ولد فى ٢٦ / ٤ / ١٩١٩ فى بلدة موشا — من محافظة أسيوط بمصر وكان والده قطب إبراهيم من المزارعين فى تلك الناحية ، لم يتجاوز فى دراسته المرحلة الابتدائية ، ولكنه لم يقف عند حدود التحصيل المدرسي إذ كان محباً للمطالعة مقبلاً عليها ، فهو يُعتبر من مثقفي قريته المهتمين بالأمر العام ، وبذلك كان موضع الاحترام والتقدير من أهلها إذ يعدونه من أصحاب الرأي فيهم ، بالإضافة إلى مكانة أسرته بينهم . أما والدته فهى السيدة فاطمة عثمان تنتمي إلى أسرة عربية محبة للعلم ، وقد تلقى إختوتها دراستهم فى الأزهر ، وبرز منهم أحمد حسين الموشى ، الذي امتاز بمواهبه الأدبية والقلمية ، إذ كان شاعراً أديباً ، وقد اشتغل بالصحافة والسياسة ، فأحرز شهرة فى كلا الميدانين .

ومن هنا كان تأثر السيدة فاطمة فنشأت محبة للعلم والثقافة ، وقررت أن تبعث بولديها سيد ومحمد إلى القاهرة ليتلقيا تعليمهما هناك .

ففى القاهرة بدأ الفتى محمد دراسته من أولها ، فأتم المرحلتين الابتدائية والثانوية ، ثم التحق بجامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها ، وكان تخرجه فيها عام ١٩٤٠ ، ومن ثم تابع فى معهد التربية العالى للمعلمين فحصل على دبلومها فى التربية وعلم النفس .

فى رعاية سيد :

ويحدثنا الأستاذ عن أعمق الرجال تأثيراً فى توجيهه وتفكيره ، فيؤكد أن أعظم الناس تأثيراً فى حياته كلها هو أخوه سيد ، الذي كان يتقدمه بأكثر من اثني عشر عاماً فى الميلاد ، فهو الذي أشرف على تعليمه وتوجيهه وثقيفه ،

وكان بالنسبة إليه بمثابة الوالد والأخ والصديق .

ويقول الأستاذ لقد عايشته أفكار سيد — رحمه الله — بكل اتجاهاته منذ تفتح ذهني للوعي ، ولما بلغت المرحلة الثانوية جعل يشركني في مجالات تفكيره ، ويتيح لي فرصة المناقشة لمختلف الموضوعات ، ولذلك امتزجت أفكارنا وأرواحنا امتزاجاً كبيراً ، بالإضافة إلى علاقة الأخوة والنشأة في الأسرة الواحدة ، وما يهيئه ذلك من تقارب وتجاوب . ويقول الأستاذ : لقد كانت صلة سيد بي من حيث التربية يتمثل فيها العطف والحسب في آن .. فلا هو اللين المفسد ، ولا الشدة المنفرة ، كما أنه كان يشجعني على القراءة في مختلف المجالات ، وكان هو نفسه نهماً إلى القراءة ، فساعدني هذا التوجيه على حب المطالعة منذ عهد الطفولة ..

وخاله الأريب :

وعن تأثير خاله يحدثنا الأستاذ قائلاً : كان لوجودنا مع خالي ، ذي النشاط السياسي والأدبي والصحافي ، أثره الملموس في توجيهنا — أخي وأنا — نحو الأدب والشعر وتغذية ميلنا إلى القراءة والاطلاع ، وإذا كان خالي على صلة وثيقة بالعقاد فقد اجتذبنا إلي التأثير به فكرياً وأديباً إلا أن تأثيره في أخي كان أكبر لطول مصاحبته ومعايشته ، ولا شتر اكهما في النشاط الأدبي والنقد الأدبي بخاصة .

أما أثره بالنسبة إلي فقد بدأ منذ بدأت الاتصال بكتبه وكتب المازني وطه حسين ، وأنا في التاسعة من سني ، إذ كنت أجدها بجانبني في البيت ، فأحاول أن أفهم منها مايتيح لي وعيي وتجربتي ، ويمكنني القول بأن أثر العقاد بي فكرياً إنما يتمثل في الصبر على معالجة الأفكار بشيء من العمق وعدم تناولها من سطوحها ، وأسلوبياً يتمثل في التركيز على الدقة في التعبير .. وطبيعي أن شيئاً من ذلك لم يظهر إلا بعد أن بدأت أمارس الكتابة بالفعل ، وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لأحسب أحداً ترك في نفسي أو فكري طابعاً ملحوظاً ، اللهم إلا بعض اللمسات الهامشية التي لاتعد في المؤثرات الهامة .

مأساة آل قطب :

والكلام عن آل قطب أو أحدهم سيظل أبتر خداجاً ما لم يتصدَّ للأحداث التي جعلت من محنتهم صورة أخرى لمأساة آل ياسر مع أبي جهل .. وعلى الرغم من شهرة هذه المحنة، وكثرة روايتها وتواتر أنبائها، وتوافر الأقلام التي تناقلتها، لن يجد القارئ في أي منها ما يغنيه عن الاستماع إلى خبرها من فم الرجل الذي شارك في معاناتها ومعابيتها في نفسه وأهله .. وهاهو ذا الأستاذ محمد قطب يقص علينا كل ما يتصل بالمحنة من مقدمات وخلفيات ووقائع .

يقول حفظه الله بدأت طلائع تلك الأحداث منذ عودة أخيه سيد من أمريكا، بعد قضائه فيها العامين ٤٩ و ١٩٥٠ فقد شرع قلبه في معركة صحفية سياسية هائلة كانت تعرضه باستمرار لخطر الاعتقال على ذمة التحقيق .. وكانت هذه تجربة جديدة في حياة الأسرة من ناحيتين، أولاهما مواجهة الباطل وجهاً لوجه في ميدان الواقع، بعد أن اقتصر صراعهم إياه على ميدان الفكر وحده، والثانية هي تعرض حرية سيد للمصادرة بين الحين والآخر، وهو رب الأسرة التي يستغرقها الشعور بأنه — بعد الله — معتمداً الوحيد في سائر شئونها الحيوية .

وعلى الرغم من أن التجربة قد مرّت دون أخطار حقيقية، فقد كانت أشبه بالإرهاص لما بعدها .

لقد انفجرت الثورة العسكرية بعد ذلك .. وقامت بينها وبين سيد علاقة مرضية أول الأمر، إلا أن مسيرتها سرعان ما شرعت في الاضطراب، وجعلت تتخذ وجهة أخرى، مما أُنذر بوشك تصادم بينها وبين أصحاب الاتجاه الإسلامي .. وهكذا استمر الخطر يقترب ويتفاقم، حتى كانت مسرحية الإسكندرية الشهيرة في أكتوبر — ت ١ — ١٩٥٤ — التي أعقبت اعتقال سيد والموكب الأول من شهداء الدعوة، ثم جاء دور أخيه محمد بعد أيام، وأُتيح لهما أن يشهدا من فنون التعذيب ما لا يخطر على بال إنسان .. وقد ألحق كل من الأخوين بمكان من السجن الحربي بعيد عن الآخر، وحيل بينهما حتى

لا يعرف أحدهما عن أخيه شيئاً.. ثم أفرج عن الأستاذ محمد بعد فترة غير طويلة، وبقي سيد في قبضه الجلادين طوال عشر سنوات.

ويقول الأستاذ: كانت فتنة السجن الحربي بالغة الأثر في نفسي، إذ كانت أول تجربة من نوعها، وكانت من العنف والضراوة بحيث يمكن لي القول إنها غيرت نفسي تغييراً كاملاً من بعض الجوانب على الأقل.. كنت أعيش من قبلها في آفاق الأدب والشعر والمشاعر المهومة، أعاني حيرة عميقة صورتها في الأبيات التالية من قصيدة جعلت عنوانها (ضلال):

ثم مرت بي دورات الليالي
وانطوى السحر الذي غشى خيالي
فإذا بالحق في الكون بدا لي
وإذا الناس جميعاً في ضلال!
ما الذي يرجون في دنيا الزوال!!
أنا والوهم الذي يشغل بالي
في غدٍ نذهب في طيات هاتيك الرمال
ثم يمضي الكون في التيه المعتمى لا يبالي

وكانت تلك الحيرة تشكل أزمة حقيقية في نفسي استغرقت من حياتي عدة سنوات، غير أن الدقائق الأولى منذ دخولي ذلك السجن، والهول الذي يلقاه نزيله، بدلت ذلك كل التبديل.. لقد أحسست إذ ذاك أنني (موجود) وأن لي وجوداً حقيقياً، وأن الذي في نفسي حقيقة لا وهم.. وهذه الحقيقة هي السير في طريق الله، والعمل من أجل دعوته، وأن السائر في هذا الطريق ليس ضائعاً بل هو المهتدي، وأنه حين يذهب في طيات هاتيك الرمال باللحظة المقدورة له لا يذهب بديداً، وإنما يذهب إلى الله، وهناك يجد وجوده كله.

لقد كانت هاتيك اللحظات مفترق طريق.. وانتهت الحيرة الضالة، ووجدت نفسي على الجادة.

وخرجت، يوم أفرج عني، لأحمل عبء الأسرة التي كانت من مسؤوليات أخي وحده كما عودنا، ومضيت أخوض تجارب الحياة العملية خلال أكداًس من العسر على مدى عشر السنوات، حتى أفرج عن سيد رحمه الله

وتلقيت ذلك الإفراج بكثير من القلق، إذ كنت أحس في قرارة نفسي أنهم لم يخلوا سبيله إلا وهم يدبرون له أمراً أشد سوءاً من السجن، وقد كان ماتوقعت، فما إن انقضى على مغادرته السجن الحربي عام واحد حتى اضطربت الأمور كرة أخرى، وتيقنا أن المؤامرة تحرق بنا من كل جانب، فلما شرعوا في اعتقالات ١٩٦٥ أعيد سيد وأعدت كذلك إلى السجن، وكان نصيبي أن أقضي فيه ست سنوات متصلة، من ٣٠ يوليو — تموز ٦٥ / إلى ١٧ أكتوبر — ت ١ — ١٩٧١، وكان نصيب أخي الإعدام بعد محاكمة صورية مع ثلة من كرام الشهداء، وقتل في هذه المجزرة واحد من أبناء أختي أثناء التعذيب دون إعلان، واعتقلت شقيقتي الثلاث ومنهن الكبرى أم ذلك الشهيد، وعذبت الشقيقة الصغرى ثم حكم عليها بالسجن عشر سنوات، وتعرضنا جميعاً لحملة ضارية من التنكيل الذي لا يخطر على بال إنسان. وكان ذلك كله جزءاً من الحرب المسلطة على الإسلام، يقودها، نيابة عن الصليبية العالمية والصهيونية الدولية، مخلوقون يحملون أسماء مسلمين.

ولكن هذه السنوات الست بكل أحداثها ووقائعها هي في النهاية زاد على الطريق.

مساومات لم تنجح:

وسألنا الأستاذ إيضاحاً لما يشاع من أن طغمة المتسلطين قد حاولت احتواء الشهيد سيد بإسناد وزارة المعارف إليه، فكان رفضه إياها من الأسباب المباشرة لتلك المحنة؟

ويجب الأستاذ إن محاولة احتواء أخي بعرض وزارة المعارف ورفضه إياها حقيقة واحدة من الحقائق الكثيرة المتعلقة بذلك الصراع العنيف الطويل بين العساكر والإسلاميين، إلا أنها لم تكن السبب الأساسي في المحنة، وإنما كان السبب هو اختلاف الطريق، ذلك الاختلاف الذي ظنوا أنهم يستطيعون تجاوزه فيما يتعلق بأخي، فلما تبين لهم إصراره على الحق، وصلابته في دين الله، واستحالة احتوائه أتموا خططهم المقدرة وكان ماكان.. بل إن محاولة الاحتواء قد استمرت حتى آخر لحظة، فبعد إصدار حكم الإعدام سنة ١٩٦٦

عرضوا عليه أن يعتذر لجمال عبد الناصر، ويعلن أن الإخوان كانوا مخطئين، ومقابل ذلك لن يلغى أحكام الإعدام عن كل المحكومين فحسب بل سيفرج عن المعتقلين جميعاً، وبذلك تنتهي القضية كلها.. فلما رفض سيد العرض مضوا إلى آخر الشوط بتنفيذ الإعدام.

في أفكار الشهيد

وكان سؤالنا التالي عن رأى الأستاذ بما نشر في بعض الصحف الإسلامية عن أفكار الشهيد سيد وما نسب إليه من القول بوحدة الوجود في بعض تفسيره، فكان جوابه:

«لقد وردت في (الظلال) عبارات يمكن لمن يفصلها عن القرائن أن يوجه إليها مثل هذا الظن، غير أن الباحث المدقق، فضلاً عن الباحث المنصف، إذا وجد في الظلال عبارات متواترة تبين بصورة قاطعة أن المؤلف يقول إن الله متفرد بكل صفاته، وإن مخلوقاته عارية عن هذه الصفات، فلا بد لهذا الباحث أن يؤول تلك العبارات الموهمة بما يتناسب مع ماتقطع به العبارات الأخرى الكثيرة المتواترة، من أفراد الله وحده بالألوهية والربوبية، ونفي أي اشتراك بينه وبين خلقه في شيء من صفاته التي تفرد بها.

ولنأخذ مثلاً على ذلك قول الحوارين لعيسى عليه السلام: ﴿هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟﴾ ﴿فلو أن إنساناً أخذ هذه العبارة وحدها، فنسب إليها عقيدة الحوارين، وقال إنهم يشكون في قدرة الله.. فهل يكون فهمه سليماً؟.. كلا.. بالطبع، والداعي إلى تنزيههم عن ذلك هو القطع بأنهم كانوا مؤمنين، والمؤمن منزّه عن الارتياح في قدرة الله، ومن أجل ذلك أجمع المفسرون على تأويل هذه العبارة بما يصرفها عن شبهة الشك في قدرة الله.

ومع حفظ المقامات لأصحابها نقول: إذا ثبت في أكثر من مائة موضع في الظلال اعتقاد المؤلف الجازم بأن الله تعالى متفرد في صفاته، لا يشاركه أحد في شيء منها، فقد وجب أن تُحمل تلك العبارات على أنها محاولة من المؤلف للتعبير عن استشعاره لعظمة الله سبحانه، وأن كل المخلوقات إنما تستمد

وجودها من وجوده .. وأنا لأقول هذا دفاعاً عن أخي فهو بين يدي مولاه، وإنما أقوله لأني عايشته السنين الطوال، وأعلم بما لا يدع مجالاً للشك أنه لم يقع في عقيدته شيء من الزيف الذي توهمه تلك العبارات .. ».

ولعل في هذا الايضاح من رفيق الشهيد وتلميذه المقرب، مايكفي للإلغاء كل ما يثار من الشبهات حول الموضوع .. وقد سبق أن ناقشنا هذه الشبهات في مقال واف نشرته جريدة المدينة — في العام ١٤٠٣ — وذيلنا به ترجمة فضيلة الشيخ « محمد ناصر الدين الألباني » في الطبعة الثانية من كتابنا الأول (علماء ومفكرون عرفتهم) الذي نشرته مؤخراً دار (عالم المعرفة) في جده .. وهناك بينا ما انطوت عليه تلك الشبهات من أخطاء مردها إلى عدم التدقيق في نقل عبارات الشهيد من مظانها في تفسير الظلال .. وما أحسب شيخنا الحليل الأستاذ الألباني إلا مقتنعاً بما أوردنا من الحق، وعائداً إن شاء الله عما توهمه في كلام الشهيد من التواء لا مكان له في تفسيره.

في رحاب الأدب

ومثل الأستاذ محمد قطب لا يستكمل الحديث عن خصائصه إذا أغفل منها جانب الأدب، الذي يمكن القول بأنه مفتاح شخصيته، فهو أديب في مشاعره، وأديب في تفكيره، وأديب في فلسفته، وأديب في طريقة تناوله لكل ما ينشئ .. هذا إلى كونه شديد التركيز على أهمية الأدب في مخاطبة القراء والمستمعين، حتى لتشعر، وهو يطالعك بأفكاره في هذه الشؤون، أنه يعتبر الكلمة الجميلة، والعبارة البليغة، والصورة الموحية، هن الوسائل المفضلة التي عن طريقها يتوصل الداعية الإسلامي إلى التأثير المنشود في العقول والقلوب.

ومن هنا كان سؤالنا التالي:

— في نطاق الأدب يلاحظ أنكم كثيراً ما تركزون على ضرورة الالتزام بالتعبير غير المباشر. ومعلوم أن هذا ألصق بفن الشعر منه بالأدب العام، لأن الأدب هو كل تعبير جميل يؤدي إلى المراد بالأسلوب المناسب، فلكل من المباشر وغير المباشر مجاله الذي لا يغني فيه سواه .. فما رأيكم في هذا؟

— غير خاف أن الأدب ألوان مختلفة، ولكل لون خصائصه المناسبة ..
وحين اتحدث عن التعبير غير المباشر فلا يمكن أن يتطرق ذهني إلى المقالة
والبحث والدراسة والموعظة، التي تلقى على الناس مباشرة بقصد التوجيه
والتذكير، إنما أقصد بذلك الشعر والقصة — بأنواعها — والمسرحية .. ففي
هذه الفنون يحسن دائماً أن يتوارى المؤلف، وأن يتوارى القصد المباشر، وأن
يصل المؤلف إلى هدفه من خلال عرضه مشاهد حية، شعورية وفكرية
وحسية، يتصرف الناس فيها تصرفاتهم التي تتناسب مع مواقفهم المختلفة ومن
خلال براعة العرض يتبين الموقف الصحيح، أو الذي ينبغي أن يتجه إليه
الناس، وهي طريقة أكثر تأثيراً في هذه الفنون من التعبير المباشر الذي يفسد
على القارئ أو المشاهد متعة المشاركة مع أشخاص القصة أو المسرحية، ومتعة
استخلاص القصة بنفسه لنفسه. والملاحظ أن الشعر والقصة والمسرحية إذا
لجأت إلى التعبير المباشر تستوي مع الموعظة بكون تأثيرها يكون عابراً مؤقتاً ثم
لا يلبث أن يخفت ويضيع .. على حين تظل مع التعبير غير المباشر مؤهلة للخلود

العلوم الإنسانية في ضوء الإسلام

— في بعض محاضراتكم عرضتم لموضوع علم النفس وعلم الاجتماع،
ودعوتهم إلى تكوين كل منهما على أسس الإسلام، بحيث يكون هناك علم نفس
إسلامي، وعلم اجتماع إسلامي.

فلو تفضلتم بشيء من التفصيل في هذا الموضوع.

— العلوم الإنسانية جميعاً، وهي تشمل فيما تشمل علوم التربية وعلم
النفس وعلم الاجتماع، إنما سميت في أوروبا كذلك لابعني أنها تعالج أموراً
إنسانية، كما يتوهم بعضنا حين يستخدم هذا الوصف، بل بمعنى أن المرجع فيها
هو الإنسان، وليس الله !. وإيضاح ذلك نذكر بأن هذه العلوم نبتت في
أوروبا ضمن جوٍّ معادٍ للدين، بسبب الظروف المحلية القائمة هناك منذ عصر
 النهضة، ونحن نقلناها كما هي، ودرسناها في مدارسنا وجامعاتنا بنفس الروح
المجافي للدين والمعادي له، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر .. وقد آن لنا أن
نتخلص من وطأة الغزو الفكري على عقولنا وأرواحنا، فنتناول هذه العلوم من

منطلقنا الإسلامي، الذي لم يعرف العداوة بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة.

وحين نصنع ذلك فسيتضح لنا أن في هذه العلوم — كما هي في صورتها الأوربية — اختلالات مبدئية تترتب عليها نتائج خاطئة، وإن اشتملت على حقائق جزئية كثيرة، ولكنها حقائق يفسدها اختلال القاعدة التي تقوم عليها، ويمكن الاستفادة منها بتصحيح تلك القاعدة.

وإليك مثلاً واضحاً: منذ دارون سيطرت فكرة حيوانية الإنسان وماديته على الفكر الأوربي في مجال علم النفس والاجتماع والتربية والاقتصاد وما إليها.. وحيوانية الإنسان ليست فكرة علمية صحيحة، والعلم ذاته يتجه الآن تدريجياً نحو تأكيد إنسانية الإنسان، بمعنى تفردّه بخصائص رئيسة لا تتوافر للحيوان.. فكل النتائج المترتبة على تلك النظرة الخاطئة هي خاطئة كذلك، ومن شأنها أن تسقط كل القيم الخلقية، أو لاتعتبرها أسساً ثابتة في الكيان البشري.

وحين نعود إلى مقومات وجودنا الحقيقية، وهي المقومات الإسلامية، فستكون نظرتنا إلى الإنسان مختلفة من جذورها، ومن ثم تصل أبحاثنا العلمية إلى نتائج نهائية مختلفة تماماً عما تصل إليه (العلوم الإنسانية) في مفهوم الغرب.

أعني حين ننطلق من أن (الإنسان إنسان لحيوان) وأن الله خلقه ليكون خليفة في الأرض، أي مسيطراً ومهيمناً عليها ومعمرّاً لها، ومنحه الأدوات والمواهب التي تعينه على عمارتها، من عقل وصلاحية للتعلم، ودوافع وقدرة على ضبط الدوافع وتنظيمها.. وفي الوقت ذاته شق له الطريقتين وألهمه معرفتهما ومنحه القدرة على اختيار أحدهما ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾ سورة الشمس — فصار لأعماله قيمة خلقية مصاحبة لها، نابعة من الفطرة نفسها لا مفروضة عليها من الخارج. ثم إن الله كلفه أن يعبد وحده لا شريك له ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات — والعبادة شاملة لكل أعمال الإنسان ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ الأنعام — فصارت مهمته النهائية هي عمران الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وهي موضع ابتلائه.. أيستقيم على النهج فيفلح في الدنيا والآخرة، أم يزيغ مدفوعاً بشهواته،

فيستمتع في دنياه متاعاً مشقياً مدمراً ويخسر في نفس الوقت آخرته!.

حين نتحرك من هذا المنطلق فلا شك أن علومنا النفسية والاجتماعية وما إليها ستختلف اختلافاً جوهرياً في المبدأ والنهاية، وإن اشتركت مع العلوم التي نعاطاها اليوم في بعض الحقائق الجزئية التي تثبتها التجربة والمشاهدة — كما أسلفنا — وهذا ما أقصد إليه بكلمة (علم نفس) و(علم اجتماع) إسلامي .

ولقد بذلت بعض الجهد في هذه السبيل عن طريق كسبي (الإنسان بين المادية والإسلام) و(دراسات في النفس الإنسانية) و(منهج التربية الإسلامية) في جزئيه الأول في النظرية، والثاني في التطبيق.. غير أن المجال لا يزال واسعاً جداً، ولا يزال في حاجة إلى جهود مكثفة حتى نصل إلى علوم متكاملة في هذا الميدان ..

وفي تراثنا العلمي كنوز

ولعمر الحق إن في هذا البعض من الجهد لذخراً كبيراً من الحقائق العلمية والكشوف النفسية، من شأنه أن يسد فراغاً واسعاً في المكتبة الإسلامية الحديثة، وقد سبق أن قرأت الكثير مما كتبه في نقد الداروينية، ولكن كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) جاء متميزاً عليها جميعاً بإنطلاقه من رؤية إسلامية جمعت فأوعت، إلى جانب الحجج الموضوعية التي لأغالي إذا قلت إنها أتت على كل ما انطوت عليه تلك النظرية التطورية من زائفات الظنون التي لاتقف أمام العلم .

وحبذا لو أتم الأستاذ شوطه في هذا المضمار فراجع بعض المؤلفات المتعلقة بموضوع الإنسان ومناهج تربيته في ضوء الوحيين، وهي غير قليلة في تراثنا الإسلامي، ولكنها تنتظر البصيرة النافذة التي تحسن استخراج كنوزها، وتصنيفها في نسق تربوي يصلح للمطالعة والدراسة .

وأذكر بهذه المناسبة حديثاً جرى في مجلس سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز — أمتع الله بحياته — لفت أثناءه نظر شيخنا إلى كتاب الإمام ابن القيم المسمى (طريق الهجرتين) وما يتضمنه من تحقيقات نفسية بشأن النفس

واحوالها ووسائل تدبيرها ومعالجة نزعاتها وترويضها على المسالك المثلى التي تُؤمِّنُ لها سعادة الدارين .

وقلت يومئذ لسماحة الشيخ: إن في هذا الكتاب لمادة خصبة لتأليف في علم النفس الإسلامي يحمل الخير الكثير..

وأجاب الشيخ إذ ذاك: فعليك به إذن.. فقلت: وأين أنا من مثل هذه المهمة التي تتطلب مجموعة من العزائم.. وخير ما يُخدم به هذا الكتاب وأمثاله من نفائس التراث هو أن يُعهد بها إلى لجنة من خبراء التربية الإسلامية توسعها درساً، ثم تصوغ من مناجمها المناهج التي تنقذنا من سلطان التقليد لأعداء الإسلام.

ولا أزال أكرر هذا القول واذكر به سماحة الشيخ الجليل، الذي لانعرف له نظيراً في الاهتمام بتصحيح أوضاع المسلمين في كل مجال .

الشرق الإسلامي هو الميدان الأول

وخبرة الأستاذ الطويلة والعميقة في ميدان الدعوة تدفعنا لاستطلاع رأيه في مسيرتها الراهنة، وبخاصة في أوساط مفكري الغرب.. وما يقترحه في هذا الشأن.

ومن منطلق هذه الخبرة الحية يرى الأستاذ أن في مسيرة الدعوة هذه الأيام إيجابيات وسلبات، فهي تتطلب مراجعة موضوعية واعية تتناول أحداث نصف القرن الأخير، لتأكيد الإيجابيات ومحاولة التخلص من السلبات وبالنسبة إلى إقبال بعض مفكري الغرب على الإسلام يرى كذلك أن من حقنا أن نبتهج ونرحب بكل مفكر غربي هداة تفكيره السليم إلى الحقيقة، ولكن هذا لا ينسينا أن ميداننا الأصيل في الدعوة ينبغي أن يظل في الشرق في داخل العالم الإسلامي، لرد الناس إلى حقيقة الإسلام التي أصبحت غريبة بينهم، تصديقاً للخبر النبوي القائل: «بدأ لإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء..» الذين يصلحون ما أفسد الناس» ولئن ألجأ الضياع بضعة أفراد وعشرات أو مئات، أو حتى الألوف من الغربيين إلى البحث عن طريق الخلاص حتى يقفروا فوق الحاجز الصليبي، الذي حال في الماضي بين أوروبا والإسلام، ثم

لا يكتفوا باعتناقه حتى يصبحوا من دعائه، لقد كانت الفرص مهيأة لأن يكونوا ملايين بدلاً من الألوف لولا العقبات الأخرى، المتمثلة في الواقع السيء الذي يعيشه المسلمون بعيدين عن حقيقة الإسلام.. ولو كان الإسلام في صورته الحقيقية ماثلاً في واقع حي لانتقل ملايين الأوروبيين اليوم إلى الإسلام. لذلك يقرر الأستاذ ضرورة التركيز على الدعوة في داخل العالم الإسلامي ذاته، وليس معنى ذلك ألا نلتفت إلى الغرب، ولكن معناه فقط أن حصيلتنا فيه ستظل ضئيلة حتى يتغير هذا الواقع الذي يلبس المسلمين.

الإسلام هو المنقذ الوحيد

وعن المحنة التي يمر بها شباب الدعوة وشيوخها في معظم ديار المسلمين، والمصير الذي يتوقعه لها يقول: إن المحنة القائمة في محيط الدعوة تبعث على الأسى الكثير، ولكن لا بد من دراسة أسبابها دراسة موضوعية فبعض هذه الأسباب قد يكون عائداً إلينا نحن، كما أن بقية الأسباب من صنع أعدائنا ولا شك. فمن جانبنا ينبغي أن نتساءل أترانا سلكننا المنهج الصحيح؟ وما المنهج الصحيح؟.. أهو الاستكثار من الجماهير؟ أم هو البدء بإعداد مجموعة قليلة العدد نسبياً، تأخذ حظاً كاملاً من التربية التي أنشأ عليها رسول الله، صلوات وسلامه عليه وآله، أصحابه... ثم تمضي القاعدة في الاتساع خطوة فخطوة ولكن على تمكن..

ويتابع تساؤلاته: وهل بدأنا التحرك الصحيح الذي هو تجلية العقيدة، وتقويم ما انحرف من مفاهيمها، مع التربية على مقتضى هذه العقيدة، تربية تحول مقتضياتها إلى سلوك واقعي؟ أم هو مجرد دروس تثقيفية في شتى المعارف الإسلامية!

وهل الخطو الصحيح هو استعجال الصدام مع الأعداء قبل إعداد القاعدة المناسبة لهذا الصدام، ولا استمراريته في حجمها وصلابتها. حتى يؤتي ثماره المرجوة؟.. أو هو تحاشي الصدام جهد الإمكان حتى تنهأ القاعدة الواجبة؟.. وهل وعينا خطط أعدائنا كيلاً نفأجأ بها، ولا يستغرقنا الذهول كلما نزلت بنا واحدة من ضرباتهم أو خديعة من خدائعهم، مابين محاولات الإبادة ومحاولات الاحتواء؟

وقبل ذلك وبعده هل تجردنا لله حق التجرد، حتى نستأهل أن يمن علينا بالنصر الموعود؟ أو أن أهواءنا الشخصية هي المسيطرة، فمنها نطلق وحوها ندور؟..

أما أعداؤنا فلن يكفوا، وقد علمنا ذلك يقيناً من قوله تعالى ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ سورة البقرة — ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ سورة البقرة.

ويعقب هذه التساؤلات المثيرة بقوله المملوء باليقين: (ولكنني على الرغم من كل شيء أشعر دائماً بالتفاؤل العميق بالنسبة إلى مستقبل الدعوة).

ويعلل تفاؤله باستقراءه لسنن الله والتتبع لظواهر مشيئته وقدره، فلو كان في قدر الله أن ينتهي الإسلام من الأرض لكان زوال الخلافة هو الفرصة الملائمة لذلك، وبخاصة أن ذلك هو مقصد الأعداء من تدمير الخلافة، بيد أن هذا الحدث ذاته هو الذي بعث حسن البنا لإنشاء حركته العالمية.. ولو كان في قدر الله أن تموت الحركة الإسلامية لكان التعذيب الوحشي، ومحاولات الإبادة الجماعية في السجون والمعتقلات كافية للقضاء على كل أمل بحياتها، على حين نرى الضد من ذلك، فبعد كل مذبحه ينبثق مدد جديد من الشباب يعتنق الدعوة ويتفانى من أجلها..

ثم أن المحنة الكبرى التي فتنّت المسلمين عن دينهم كانت هي أوروبا وبريق حضارتها الخاطف.. ولكن أوروبا اليوم قد تجلى عوارها للجسم الغفير من أبنائها، إذ بدأ كثير منهم يبحثون عن طريق الخلاص من أمراض تلك الحضارة المدمرة.

وكذلك الأمر بالنسبة للملاحدة الزعماء الذين بذرتهم أوروبا وأمريكا وروسية في العالم الإسلامي، ليحولوا الناس عن الإسلام بالشعارات المضللة أو بالقتل والتشريد، فقد أثبت هؤلاء إخفاقهم الذريع في حل مشكلات شعوبهم، بل زادوا هذه المشكلات سوءاً وتعقيداً، وزاد هوان المسلمين على أيديهم فضاعت فلسطين، ومضى غيرها في طريق الضياع، واليوم تبدأ على أيديهم عملية التفتيت للدول الإسلامية تحقيقاً لأهداف أعدائهم.. ولم تزددهم تلك الأنظمة المستوردة من مصانع أولئك الأعداء إلا إخفاقاً وهواناً، والنتيجة

واحدة ومشاركة هي اليأس من كل النظم وكل الاتجاهات ، والتطلع إلى الإسلام على أنه هو المنقذ الوحيد ، وما ذلك إلا تأكيد حاسم بأن الحركة الإسلامية هي طريق المستقبل رضي الأعداء وأذيا لهم أم أبوا.. ومع ذلك لا أتعجل النتائج .. وأعرف أن ثمة مخاضاً ضخماً لابد أن تخوضه الأمة الإسلامية وطريقاً طويلاً مشحوناً بالمغاناة والعرق والدماء والدموع ، ولكنه قدرها الذي لامندوحة لها عن سلوكه ، ثم تنزل رحمة الله بالنصر والتمكين ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ سورة النور آية رقم ٥٥ .

آثاره المفصلة

وكان خاتمة الحديث استفسار الأستاذ عن أحب مؤلفاته إليه ، فكان جوابه :

من المعتاد أن يقول المؤلف أن كتبه كلها أبنائه ، وكلهم عزيز عليه . وأنا أيضاً أقول هذا ، ومع ذلك فقد يكون (الإنسان بين المادية والإسلام) وهو باكورة كتبي ، أحبها إلي ، فضلاً عن كونه الابن البكر فهو يشتمل على الخطوط الرئيسية التي انبعثت منها عدة كتب تالية في مجال التربية وعلم النفس ، كما أن كتاب (جاهلية القرن العشرين) له موضع خاص في نفسي كذلك ، ولعل السبب أنه يمثل رؤيتي لحقيقة الجاهلية ، وأنها ليست محدودة بفترة معينة من الزمن ، وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي زمان ومكان ، وأن البشرية تعيش اليوم أعتى جاهلية عرفتها .. كذلك كتاب (دراسات قرآنية) فإنه يحكي قصة حياتي مع القرآن منذ الطفولة حتى النضج .. وأخشى أن يستدرجني السؤال إلي أن أؤثر كل واحد من كتبي على إخوته ، فيضيع معنى السؤال .

أما من حيث الأهمية في تقديري فقد أقدم (الإنسان بين المادية والإسلام) و(منهج التربية الإسلامية) و(منهج الفن الإسلامي) و(التطور والثبات في حياة البشرية) و(جاهلية القرن العشرين) وأخيراً كتاب (المذاهب الفكرية المعاصرة) ..

ومع ذلك فقد يكون للقراء رأي آخر..

تعقيب لاثريب

وأنا بوصفي واحداً من هؤلاء القراء، ومن منطلق تقديري لرأي المؤلف في هذه الكتب، أحب أن أشير إلى ملاحظتين، إحداها وردت في إحدى مُداعات الأديب الكبير الشيخ على الطنطاوي ثم كررها أكثر من مرة، والأخرى لقارئ نشرت في العدد ٩٣١ من مجلة الدعوة — بالرياض — فقد عارض الأستاذ الطنطاوي استعمال كلمة الجاهلية للأوضاع الراهنة في حياة المسلمين، وحيثه في هذه المعارضة فرق ما بين حال الجاهلية السابقة للإسلام وحال مسلمي اليوم، إذ لم يكن أولئك على نور من الكتاب، على حين يحتفظ هؤلاء حتى اليوم بالصفات التي تربطهم بالإسلام الحق عن طريق إيمانهم بالكتاب والسنة.. فأين هم من الجاهلية؟ وهي حجة صحيحة إذا أريد بها ذوو العقائد السليمة من المسلمين، ولكن هناك السواد الأعظم من الذين سلبوا الوعي الصحيح لحقائق الإسلام، وراحوا يضربون وراء كل ناعق، لا يكادون يملكون من صلة بالإسلام خارج حدود الهوية، التي تمنحهم حق الإرث وصلاة الجنازة والدفن في مقابر المسلمين.. وإلا فكيف يُعدّ من المسلمين ذلك الطرقي الذي يقول بالحلول والاتحاد وبوحدة الوجود؟ وكيف يُحسب على الإسلام ذلك الشيوعي الذي أسلم وجهه لماركس ولينين، والآخر الذي آمن بالاشتراكية ورفض نظام الإسلام، وأولئك الذين ربطوا وجودهم بقيود الحزبية، فهم يصلون ويصومون ويحجون، فإذا ألفوا أنفسهم بين دعوة الله ونداء الحزب، لم يترددوا لحظة في الاستجابة للحزب والإعراض عن دين الله.. أفنستكثر على هؤلاء أن يُحشروا مع الجاهليين، والله يقول في وصفهم وأشباههم ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يُضلّهم ضلالاً بعيداً﴾ سورة النساء — ٦٠ .

الحق إنها لجاهلية جديدة لاتقل أثراً عن الجاهلية القديمة، بل لعلها تفوقها خطراً بما تملكه من وسائل الاغراء والتضليل التي لم يعهدها الضالون السابقون..

أما الملاحظة الثانية فحول كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) ويؤكد فيها القارىء على مأخذين أحدهما تعليل المؤلف لأسباب الثورة على ذي التورين بردها إلى بذور التفاوت الاجتماعي، وبأنها ثورة ناشئة عن شعور المسلمين بأن الأمور لا تجري كما ينبغي أن يكون، وأنها تخالف الحق والعدل.. الخ وطبيعي أن هذا التعليل قائم على ادعاء أولئك الثائرين المضللين، وهو ادعاء له ما يحتج به من ناحية التفاوت الاجتماعي الذي جاء به التطور، الذي أعقب أيام الفتوح والاستقرار، فكثرت المال، واتسعت شقة التفاوت بين الناس، حتى كان هناك الطبقة الغارقة في غمار النعيم، إلى جانب الطبقة المتخلفة في ميدان الكسب، فكان مالا مندوحة عنه من شيوع التذمر والتحاسد.. وفي مثل هذا الجو تضطرب المعايير وينفسح مجال النقد، حتى يتوهم الغوعاء من جيل مابعد الصحابة أن الوضع مخالف لما يفرضه الإسلام من الحق والعدل والمساواة، وبذلك يتهاى المجال أمام المفسدين لاستغلال هذه الظواهر، وهو عين ما حدث في عهد الخليفة المظلوم رضي الله عنه.

ويتناول المأخذ الثاني موضوع (الانحراف الذي — يقول المؤلف إنه — امتد أيام الدولة الأموية) فيسوء القارىء ذلك القول لمجرد أن حكاهما من المسلمين.. وكان على هذا الأخ أن يراجع تاريخ الأمويين في مصادره الصحيحة، وبخاصة ألوان المفاسد الممثلة في أنواع التماثيل والزخارف التي خلفوها في مصابفهم بالأردن.. ليستيقن أن في ذلك العهد من الانحرافات مالا تفي بوصفه كلمة الانحراف.

ثم أسأل هذا الأخ ماذا يسمي عمل الحجاج في بقية الصحابة، وفي بيت الله الحرام.. وبأي عبارة يصف استباحة القوم لمدينة رسول الله.. وكيف ينظر إلى مأساة أهل البيت المطهر على أيدي ابن ذي الجوشن ومالك بن البشير، وسنان بن أنس، وبقية الطغمة من كبار القتلة؟!..

ألا فلنذعن للحق، ولنقلها صريحة: إن المسلمين الذين حكموا الدولة الأموية لم يكونوا على سواء في الالتزام بمنهج الإسلام، ولو أننا عزلنا صالحهم وهم الأقلون لم يبق لدينا سوى أولئك الذين مهدوا بانحرافهم لكل مآسي المسلمين.

بقى أن نُذكر الأخ القارىء بأن بعض هذه التشابهات التي يعدها من المآخذ قد استدرکها المؤلف في مابعد الطبعة الأولى من كتاب (الإنسان بين المادية والإسلام) — كما أخبرنا —.

وأخيراً

ذلك هو محمد قطب الذي شَرَّق اسمه وغرَّب مع مؤلفاته الطافحة بالجدید من الفكر الحی النابع من الرؤية الإسلامية، التي خلصت من شوائب التقليد، فكانت إحدى المنارات القليلة التي تبين للقارىء المسلم طريقه الموصول إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

محمّد الصوّان

يقول فضيلته انه ولد من أبوين وفقهما الله إلى الصلاح في أسرة معروفة تعمل في نطاق الزراعة والتجارة وكان مولده في الأول من شوال سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة، وذلك في مدينة الموصل الحذباء الواقعة في شمال العراق .

وقد تلقى دراسته الأولى في المدرسة الابتدائية الأهلية بالجامع الكبير من ذلك البلد، ومنها انتقل إلى مدارس المساجد، التي يشرف عليها العلماء، وفي هذه المدارس وفق إلى ختم القرآن، ومن ثم شرع في المسلك العلمي مبتدئاً بال نحو والسيرة النبوية على يد الشيخ صالح الجهادي، ثم انتقل إلى المدرسة الفيصلية الدينية، التي أسسها علامة الموصل الأكبر الشيخ عبد الله النعمة، الذي يقول المترجم إنه كان رجل دعوة مزوداً لها بالخلق العالي والأدب الجم، مما ترك أعمق الأثر في تكوينه الفكري والعلمي .

وعن الناحية الروحية يحدثنا عن شيخه الآخر الذي يصفه بأنه رجل الموصل وشيخها وإمامها الأكبر الحاج محمد الرضواني .. الذي لازم معه صلاة الفجر لعدة سنوات منذ يفاعته، وكانت صلوات خاشعة يعقبها إقبال على ذكر الله وتحميده وتمجيده إلى قريب من مطلع الشمس، حيث ينصرف الشيخ إلى طلاب العلم، الذين يكونون بانتظاره .. وقد وقف تأثره بهذا الشيخ عند حدود هذه المناسبات التي تركت في قلبه ذكريات وانطباعات لا تمحى .

ولم يتلمذ للشيخ في النواحي التعليمية لأنه كان مستمر الدراسة بالمدرسة الفيصلية، حتى أنهى مقرراتها، وتخرج في الفوج الأول من طلابها، ولم يلبث أن عُين معلماً في بعض المدارس الابتدائية، ثم نقل للتدريس في الثانوية الأهلية بالموصل، بيد أنه لم يستطع البقاء على هذا المستوى فاستقال من عمله، وأخذ سبيله إلى القاهرة، حيث التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر .

وكان عليه أن يتابع دراسته الجديدة هناك طوال ست سنوات، إلا أنه بتيسير الله ثم بجتهاده المتصل، استطاع أن يختصر الزمن إلى نصفه، فأحرز شهادة العالمية ثم تخصص القضاء خلال سنوات ثلاث، وكان ذلك بقرار استثنائي من المجلس الأعلى الذي قدر مواهبه وأجرى له امتحاناً عاماً نجح بكل مقرراته. فكان ذلك موضع الإعجاب الكبير من أساتذته، حتى ليقول له شيخ الأزهر يومئذ: (يا ولدي. لقد فعلت ما يشبه المعجزة).

ولا تنس أن لسابق دراسته على علماء المساجد يداً لاتنكر في ذلك النجاح السريع، وهذا بعض مميزات الطريقة القديمة التي أخرجت للأمة الإسلامية أساطين الأئمة، وأجلة المفكرين، فما زلنا بها مسخاً وتشويهاً حتى استبدلنا بها نظاماً يكاد يعجز عن أن ينشئ لنا عوَيْلاً أو كُوَيْتاً على الرغم من سنواته الطويلة الهزيلة.

مؤسفات

وإني لاكتب هذه الأسطر وفي ذاكرتي بقية الأسى لما سمعته ظهر أمس من حديث إذاعي لاتتجاوز مدته الدقائق الخمس، ومع ذلك لم يستطع صاحبه الدكتور إرسال عبارة واحدة صحيحة التعبير، ولعله لوعوتب في ذلك لقال: أنا لست متخصصاً بالعربية فلي أن أعبر عن فكري بما أشاء وليس علي أن ألتزم قواعد الإعراب.. ولهذا نقول: عندما تعمد إلى التعبير بالأجنبية أنتعرض لمثل هذه العثرات أم تتحفظ لكيلا تتهم بالجهل؟ فكيف تستخف بلغتك التي هي دليل أصالتك، وتوقر الأجنبية وهي لغة عدوك!.. وهذا آخر تخرج بالليسانس في إحدى جامعاتنا الإسلامية، ومع ذلك لايفرق والله بين الناصب والجار. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وليسمح لي القارئ أن أوصل استطرادي هذا فأعقب بكلمة يسيرة على موضوع تلك الأذكار التي كان مترجماً يقضيها في يفاعته مع شيوخه الرضواني في أعقاب صلوات الفجر.

لقد راجعت نفسي طويلاً بالأمس وأنا استعرض واقع حفيدي، هذا اليتيم الذي يعيش معي، فلا أكاد أجد منه أي استجابة لنصائحي وتوجيهاتي. إنه

يلتزم هذا الشيطان الذي يسمونه التلفزيون كلما وجد فرصة لمشاهدته، حتى إنه لينام وهو شاخص إليه.. وحتى ليواصل النوم بسبب ذلك حتى تفوته الصلاة عقب الصلاة دون أن نستطيع إيقاظه أحياناً، فإذا زابله كابوس الكرى نهض يتمطى فيجمع الصلوات الفائتة كأنه لم يأت سوءاً قط!..

وأطرقت أتساءل: أليس من سبيل إلى تقويم هذا العوج الذي هو مرض الجليل كله؟ وانتهت أخيراً إلى القطع بأن الدواء الوحيد لعلاج هذا الداء هو صحة الصالحين وشغل القلب بذكر الله، والتصور الواعي لجلاله وكماله الذي به تحصن نفوس المؤمنين ضد كل المفسدات والمفسدين.

ولكن أين الصالحون الذين يمثلون بسلوكهم النقي الأسوة الحسنة، التي تحب الشباب والمراهقين بذكر الله ومراقبته. لقد فقد البيت - أو كاد يفقد - كل أسباب التربية الصحيحة ولم يبق لنا من أمل في غير المعلم، الذي يستطيع، لو أصلح قلبه أن يصلح قلوب هؤلاء المساكين الضائعين، من أبنائنا الذين أسلمناهم إليه طائعين ومكرهين.

جهاد لا يفتر

ويعود الفتى الأزهرى إلى العراق مزوداً بالعلم الذي يساعده على تحقيق أحلامه البعيدة، وبالبصيرة التي غذتها التربية الصالحة في البيت وفي البيئة الدراسية، التي جمعتها بأفاضل الدعاة والهداة، وبدأ مهامه الإصلاحية عن طريق التعليم، إذ عُيِّن للتدريس بكلية الشريعة الحديثة في بغداد، بعد أن رفض العمل في القضاء إيثاراً لذلك المسلك الذي كان أقرب إلى استعداده وأرحب لأفكاره.. وكان إيثاراً حكيماً إذ وفق الله هذا الفتى المملوء حماسة لدينه، أن يحقق في مجتمع العراق من اليقظة الإسلامية في أوساط الشيوخ والشباب مالا يكاد يصدق، وهذا رفيقه وصديقه الأستاذ على الطنطاوي يعد من مآثره (جمعية إنقاذ فلسطين) و(مؤتمر القدس - ١٩٥٧) الذي يقول إنه كان لولبه ومحركه، ثم الآلاف من الشباب الذين نفعهم الله بتوجيهه فرد بهم للعراق لونه الإسلامي الأصيل، الذي لايزداد على الأحداث إلا تألقاً، ولا عجب (ففيض قلم الأستاذ وفيض لسانه يحى القلوب، وينشئ الله به أنفساً مؤمنة وعقولاً..) حسب تعبير الأستاذ الطنطاوي^(١).

١ - انظر مقدمة الطنطاوي لكتاب الأستاذ الصواف « المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام » ط ٣

وقد شاء الله أن يكون عمله بكلية الشريعة في أشد ظروف العراق، بل البلاد العربية بأسرها، حرارة وأحفلها بالأحداث، فهناك معاهدة بورتسموث التي عقدتها حكومة العراق أيامئذ مع المستعمر الإنجليزي، لإنجاز أمر الاستقلال مقابل بعض الامتيازات التي احتفظ بها الإنجليز للاستفادة منها عند طوارئ الحرب، فلم يتقبلها ساسة العراق على اختلاف وجهاتهم، واستغل الشيوعيون نعمتهم منها، فانطلقت التظاهرات الصاخبة ضد الحكومة التي عقدت تلك المعاهدة، وشارك المترجم بكل طاقته الخطابية والحماسية في تلك التظاهرات التي انتهت بسقوط المعاهدة وإلغائها، ولكن المستعمر الذي أوجعته تلك الصدمة، قرر أن يثأر لنفسه وكرامته عن طريق القضية الفلسطينية، التي كان قد سوى أمرها مع المفاوضين العراقيين بالاتفاق على نوع من الحلول الوسطى، فما لبث أن دبر أمر انسحابه من فلسطين على ذلك الوجه الذي ممكن لليهود من الحصول على ما لم يحلموا به من المصالح، بعد أن رتب مع حلفائه من الأمريكيين والروس والأوروبيين المصير الذي يتطور كل يوم من السيء إلى الأسوأ ومن التشريد إلى الإبادة .

وهكذا كان على الشيخ الصواف أن يتابع جهاده في ميدان فلسطين بعد شوارع بغداد، بكل ما حمله من موحيات الجهاد التي بثها الإمام حسن البنا في نفوس المسلمين لافي مصر وحدها، بل في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وكان من نشاطه في هذا الميدان بعد تأسيس (جمعية إنقاذ فلسطين) العمل الدائب لتجميع المجاهدين وتدريبهم على فنون القتال . ويقول الأستاذ: (لقد وفقنا الله بتجهيز ثلاثة أفواج من المتطوعين بكامل أسلحتهم وعتادهم، ومضيت معهم للمشاركة في واجب الجهاد).

وقد عرض فضيلته أعمال هذه الأفواج، وعلاقتها بالمقاتلين الآخرين من حولها، والمعارك التي خاضتها، والنتائج التي أسفرت عنها في كتابه (معركة الإسلام بين الأمس واليوم) الذي كان سجلاً أميناً حياً لمعارك تلك الفترة التي لم تسجل بحذافيرها حتى الآن، وقد اختلط فيها الحابل بالنابل، فكادت معاملها تضيع بين مختلف الاتجاهات، وكاد الناس ينسون حقيقتها الكبرى، وهي أن الإسلام وحده هو الذي قاتل في فلسطين، ولم تكن مشاركة الآخرين في تلك المرحلة سوى نوع من التظاهر الذي انتهى أخيراً إلى تنفيذ المخطط الصليبي بكل

دقائقه .. فحق لهذا المجاهد، وقد كان مع إخوانه بعض شهود التاريخ لتلك الملحمة أن يؤرخ لها باسم (معركة الإسلام) .

نقاش خفيف

ومعلوم أن مترجمنا لم يقصر اهتمامه قط على أرض العرب وحدها، على طريقة العنصرين الذين أخذوا بإيحاءات الشرق والغرب، لأن نشأته الإسلامية سواء في العراق أو مصر قد وسَّعت مدى رؤيته حتى استوعبت العالم الإسلامي بأسره، ومن هنا كان نشاطه الفكري ممتدا امتداد هذا الوطن الكبير، وبهذا الروح عُني بقضايا الإسلام في كل مكان، ويذكر لنا من الأحداث التي انفلت بها قيام دولة باكستان فيقول: (لقد حضرت المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في كراتشي عام ١٩٥٠ مندوباً عن العراق، وكان من حضوره والمنظمين له رئيس وزراء باكستان الشهيد لياقة علي خان) .

وتشدني من هذا الخبر كلمته في وصف أول رئيس وزارة للباكستان بالشهيد، إذ المعلوم أن كلمة (شهيد) في مثل هذه المناسبة لاتعدو كونها مصطلحاً إسلامياً، يوصف به من قتل في سبيل الله من المؤمنين، أو استحقه بأحد الأحوال التي عينها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .. وقد اتضح من خلال أحداث باكستان أن قادتها الأولين من رجال السياسة لم يكونوا يفقهون عن الإسلام إلا أنه تجمع ملئ من شأنه قيام دولة مستقلة عن سيطرة الهندوس، تتيح لهم أن يحكموا هذا التجمع بأنظمة مستوردة من الغرب أو الشرق، ولم يخطر في بالهم قط أن تكون باكستان يوماً مাদولة إسلامية تحكمها شريعة الله، وتمثل من خلالها حقائق الإسلام، من الشورى والعدالة الاجتماعية، وتربية الأمة على روح التقوى والدعوة إلى الله .

ولا جرم أن تصور لياقة وإخوانه للدولة الباكستانية على ذلك الوجه لايتجاوز نطاق العصبية العمية، التي حذر منها رسول الله، حين حدد صفة الشهيد بقوله (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)^(١) فهل قتل لياقة علي خان لأنه من العاملين لإعلاء كلمة الله ! .

١ - من حديث متفق عليه .

وعن أعماله الاجتماعية في العراق يقول الشيخ: إنه قام بتأسيس جمعية الأخوة الإسلامية بالتعاون مع كبار العلماء وعلى رأسهم علامة العراق الأكبر الشيخ أجمد الزهاوي رحمه الله، ويصف هذه الجمعية بأنها كانت منطلقاً للدعوة الإسلامية في العراق، وتحت لوائها عاش الشباب المسلم وتمرس بمعاني الدين الحق بفضل الله، وتفهم من هذا الوصف أن أولئك الشباب لا يرحون ملتزمين بهذه المعاني لم تزل عزائمهم الأحداث الرهيبة المتتالية.

لقد كثرت الجمعيات في بلاد المسلمين، وكثرت عنواناتها وأغراضها، ولكن قليلاً من هذه الكثرة كانت معنية بتربية الشباب على روح الإسلام، لتجعل منهم فنية آمنوا بربهم وزادهم هدى، وقد تتألف جمعية لهذا الغرض ولكن القائمين عليها لا يرتقون إلى مستواه، ولا يتزودون بالوعي الكافي لمعناه، فلا يعدون واقع ذلك الرجل الذي حفظ كتاب الله ولم يتح لنفسه أن ينتفع بآياته، فهو كما قال فيه أحد العلماء: كان في البلد خمسون نسخة من القرآن فزادها واحدة.

ولقد عرفت أثناء عملي في الدعوة جمعية من هذا الطراز التحق بها الكثيرون، ولكنهم لم يجدوا في ظلها أكثر مما يجد رائد المقهى من الأنس في (تقطيع الوقت).. ثم جاء عهد صرفهم عن الجمعية إلى تنظيمات أخرى لم تلبث أن جعلت منهم أقطاباً في محاربة الإسلام.

وما أقل تلك الجمعيات التي يترى الشباب المسلم تحت لوائها على روح الإسلام، فلا تستهويهم مغريات الدنيا، ولا تغيرهم عادات الأيام!

في حلبة الصحافة

والأستاذ الصواف كإخوانه من رجال الدعوة الذين أدركوا أهمية الكلمة في تكوين الفكر والسلوك، فكانت الصحافة الإسلامية أحد أهم مرتكزاتهم في بث الوعي الإسلامي الصحيح، وقد بدأ عمله في هذا الجانب بإصدار مجلة (الأخوة الإسلامية) التي استمرت لمدة سنتين حتى أوقفت في عهد حكومة نوري السعيد، ولم يقف الأمر عند توقف المجلة؛ بل ألغيت الجمعية كذلك، وصودرت حرية الأستاذ بإدخاله السجن.

ثم جاءت محنة العراق بانقلاب عبد الكريم قاسم، وبرزت مخالب الشيوعيين تهدد كل شيء، فكان على ربيب الدعوة الحق أن يتقدم لتحمل مسئوليته بوجه السيل الأحمر، فأصدر مجلته الأخرى (لواء الأخوة الإسلامية) ولكنها لم تمهل سوى سبعة أعداد، فقط حتى اندفع الشيوعيون إلى مهاجمة المجلة، وتحطيم المطبعة، وتبديد المكتبة.. وراحوا يفتشون عن صاحبها ليسحلوه ويقتلوه كما صنعوا بغيره من أحرار العراق.. ولكن عصمة الله حفظت عبده فصرفت عنه كيدهم، وذلك بادخاله السجن الذي كان له رحمة وحماية من حيث لا يشعرون ولا يحتسب، على الرغم مما لقيه فيه من أنواع العذاب الذي أتقنه الملاحدة من القوميين والشيوعيين.

ذكريات لاتنسى

وهنا نقف قليلاً لتذكر ونذكر القارئ بما لا يحسن بنا أن ننساه من فصول المأساة التي عاناها الإسلام في عراقنا العزيز هاتيك الأيام:

لقد كنا نتلقى أخبار الفجائع التي يقترفها الشيوعيون وملاحدة القوميين في أنحاء ذلك القطر بأسى لا يوصف، دون أن نستطيع حراكاً ولا كلاماً سوى الدعاء الحار إلى الله بكشف الغمة، وقد بلغت تلك الفجائع ذروتها يوم اذاعت محطة بغداد ذلك الحوار الرهيب الذي دار بين ممثلي الطلاب الحمر، الذين نهضوا بأهول الأدوار في تلك المحنة، وبين عبد الكريم قاسم حاكم تلك الفترة الدهياء.

لقد قَدِم أولئك القتلة ليطلبوا من فرعونهم الأكبر مزيداً من الصلاحيات يستطيعون بها تفريغ العراق من كل أثر لعلمائه وشرفائه.. وكان عبد الكريم قاسم على إدراك تام بأن القاعدة التي يستند إليها في حكمه الدموي مهزوزة محدودة الطاقة، لا يمكن أن تستمر إلا ريثما تنجلي الغمرة التي تثيرها الغوغاء، ثم تأتي ردود الفعل أشد من مفاجاته.. لذلك رأى أن يحدث يداً عند الشعب تكسيه بعض الثقة، وتجعل له متكأ يستعمله عند الحاجة، فكان رده على وفد الشياطين مخيباً لآمالهم، ومزلزلاً لأعصابهم، ومباغته لم تكن تُتوقع.

لقد نقلت الإذاعة الحية صوته وهو يقول لهم: إنكم تريدون مزيداً من

الصلاحيات الثورية لتكملوا مهمتهم في تطهير البلاد من الخونة وأعداء الشعب .. وأنا أقول لكم إن أعداء الشعب الحقيقيين هم الذين يُروّعون أمنه ويستبيحون حرمانه .. إنهم أولئك المجرمون الذين باسم الشعب دفنوا في مدينة الرمادة مائة وثمانية وعشرين من الأبرياء وهم أحياء!..

ولا أذكر ماذا أعقب هذه الحمم الحارقة من كلام أو عمل، ولكن أروى نبأها لنذكر جميعاً ذلك الزلزال الرهيب الذي كان يحتاج العراق أيامه، وينذر بقية الأقطار العربية بما ينتظرها من شره إذا استمر في طريقه، واستمرت هي في غفلتها أو تغافلها، ولقد طالما نهبت إخواني ونحن نشاهد طلائع تلك المحنة: وأحس تجاوبهم معها نكايّة بمواقف نوري السعيد وأشباهه من رجال ذلك العهد، طالما نهتهم إلى العواقب الوخيمة التي تنتظر البلاد والعباد من زواله، وما أحسبهم قد نسوا بعد قولي لهم: إن سقوط عهد نوري السعيد إنما هو انهدام للسد الذي يمسك طوفان الفتن .. وأنا لأزعم أن رأيي ذاك كان الصواب كله في مواجهة تلك المقدمات، ومن أين الرأي السديد وقد باتت الأرض على كف عفريت، وأفلت الزمام من قبضة العقل، حتى أصبحنا كضحايا الزلزال يشهدون هلاك إخوانهم وهم ينتظرون مصيرهم، وما كنت بالبعيد عن موقف أولئك الاخوة من نوري السعيد، فأنا على يقين أنه بانخيازه لأعداء الإسلام في الغرب إنما يزيد في تحريض أذنان الشرق لتقريب موعد المحنة .. وما دام الجميع سواء في حرب الإسلام فلن يكون ثمة مهرب من عقاب الله .. ولكن الخلاف بيني وبينهم أنهم يتوقعون من سقوطه خيراً، وأتوقع من خصومه كل شر

وكان بين أنباء تلك الفواجع أخبار عن اخوة لنا في الله أوقع بهم الجزائريون، وفي مقدمتهم مترجمنا الفاضل الذي نُقل إلينا بطريق القطع أنه اختطف من منزله، ومُثل به قتلاً وسحلاً في شوارع بغداد، ثم شاء الله أن يجمعنا به على أتم مانعهده والله الحمد حياة ونشاطاً، ليواصل سبيله في خدمة الإسلام.

وخبراً آخر لأدري كيف أغفله فضيلة الشيخ، وهو ذو صلة وثيقة بأحداث بلده، من جانب، ولما يحمله من تصوير لمؤامرات الشيوعية وأسايلها الشيطانية من الجانب الآخر.

والذي حدثني بهذا الخبر هو الدكتور مجاهد الصواف الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة ونجل فضيلته .

يقول الدكتور مجاهد الصواف : كان بين المواظبين على دروس الوالد في مسجد الصابونجي بالموصل رجل معروف بشهود الجماعات ، وتوقير العلماء ، واسمه عبد الرحمن القصاب ، مايكاد يفوته واحد من دروس الوالد فإذا ما انقضت الحلقة أقبل على يده يقبلها ويسأله الدعاء .. وقد أحرز بذلك ثقة الناس حتى أسندت إليه وظيفة الخطابة والإمامة في مسجد رأس الكور .

ومن الموصل انطلقت شرارة الثورة المضادة لعبد الكريم قاسم بقيادة الضابط عبد الوهاب الشواف ، ولكن شاء الله أن تتم المحنة ، فأخفقت الثورة وقتل قائدها ، وإذا بالشيوعيين يتدفقون على البلد من كل جانب حتى يفرضوا عليها سلطانهم ، ولا يلبثوا أن يعقدوا المحاكم في الشوارع للقضاء على كل مناوئ للشيوعية بيد أن المفاجأة الكبرى هي أن يكون الأمر الأعلى لتلك المحاكم الميدانية هو ذلك القصاب نفسه !

وليس للقارئ أن يدهش لهذه المفاجأة ، فقد عرف تاريخ الإسلام شياطين كانوا يرتدون مسوح الأولياء ، ويطيّلون الاعتكاف في المساجد ، ويسلكون سبيل الزاهدين ، حتى إذا ما استوثقوا من انجذاب العامة وأشباههم إليهم شرعوا ينفثون سمومهم في العقول والقلوب ، طورا باسم التصوف ، وتارة باسم الإمام المستور ، وحيناً باسم الأبواب والحجاب .. وللشيوعية كذلك وسائلها التي لا تتورع عن استغلال الدين على الوجه المرسوم .

إلى الشام فالمملكة

ويتابع فضيلته حديثه عن المحنة ، التي أنقذه الله منها بالسجن ، كما أنقذ عبده موسى من فرعون بإدخاله بيته ، وتنشئته في ظله ورعايته ، وهو الذي يتلهف لقتله ، فكان ذلك سبيله إلى النجاة ، ثم إلى الرسالة التي قضى بها سبحانه على فرعون وجنوده .

يقول الشيخ : لقد يسر الله لي الخروج من العراق على حين غفلة من الظالمين المتربصين بي الدوائر . ولبثت في الشام أربعة أشهر آمناً بين إخواني ،

ومن ثم قدر الله لى الهجرة إلى هذه المملكة الغالية حرسها الله .

وفي ظل الأمن الذي كان أحوج مايتصور إليه، وجد المجال واسعا لنشاطه العلمي والدعوي، فقد بدأ عمله مدرساً في كلية الشريعة بمكة المكرمة، ثم رأى وزير المعارف الصالح حسن عبد الله آل الشيخ أن يعهد إليه بعمل مستشار في وزارته، واستمر على ذلك حتى انتقل معاليه إلى وزارة التعليم العالي، وفي تلك الأثناء صدر الأمر بمنحه التابعة السعودية، فعاد إلى جامعة الملك عبد العزيز متعاقداً ليستأنف عمله في مهمة استشارية ولما أنشئت جامعة أم القرى الحق بها على المهمة نفسها، وحتى الساعة التي تسطر فيها هذه الكلمات لايزال قائماً بعمله ذاك في خدمة العلم.

ولكن نشاط الشيخ لم يقف عند حدود التدريس والإدارة خلال هذه السنين، فقد رأى شهيد الإسلام فيصل بن عبد العزيز، تغمده الله بواسع رحماته، أن يوجهه للعمل في حقل الدعوة فاختره مبعوثاً خاصاً من قبله إلى ملوك المسلمين ورؤسائهم، للتذكير والتبليغ وجمع كلمة المسلمين وتوحيدهم تحت راية القرآن، ونشر الوعي بين شباب الإسلام في مختلف ديار المسلمين.

وقد نهض الشيخ بهذه المهمة على أفضل الوجوه الممكنة، وتابع رحلاته طوال خمس سنوات، زار خلالها أكثر من خمس وثلاثين دولة في أفريقية وغربها وشمالها، كما زار كلا من باكستان وإيران.. وكان من ثمرات هذه الرحلات تكوين منظمة المؤتمر الإسلامي بتوجيه ومجهود الملك الشهيد.. وهي المنظمة التي لم تفتر مساعيها الحميدة في خدمة الشعوب الإسلامية على المستوى العالمي.

وقد أحسن الشيخ صنفاً بتسجيل وقائع ذلك التجوال المبرور في كتابه النفيس (رحلاتي إلى الديار الإسلامية) الذي ظهر مجلده الأول عن (أفريقية المسلمة) في ثمنئة صفحة، وبذلك أتاح للقارئ المسلم أن يعرف الكثير عن وقائع هذه الرحلات ونتائجها وآثارها المباركة على القارة الأفريقية، ولا يقل عن ذلك أثراً مايجمله إليه ذلك الكتاب من أبناء هامة عن إخوانه وأوطانهم وأحوالهم وإمكاناتهم مما لا يحسن بمسلم يهمل أمر أمته أن يكون على جهل به.

مَبْرَّةٌ مَحْمُودَةٌ

وهنا تذكرت خبراً قرأته — أو سمعته — عن جائزة رصدها الشيخ لحفظه القرآن الكريم في تركية الشقيقة فرجوت منه أن يقفنا على جليلة الأمر، فكان جوابه: أنه أثناء تجواله في بعض الحواضر التركية قد أتاحت له زيارة العديد من معاهد التعليم الأهلية، المعنية بتدريس القرآن وتحفيظه، فسرّه كثيراً أن ثمة مايزيد على عشر الآف مدرسة من هذا النوع خاصة بالذكور، وأكثر من ثلاثة الآف مدرسة للبنات، ويضم معظمها أقساماً داخلية لبيت الطلاب والقيام بمئونتهم من الطعام والشراب، وقد راعه مالمسه هناك من عناية بكتاب الله قراءة وتجييداً واستظهاراً وبازاء ذلك يقول الشيخ قررت إحداث جائزة سنوية بمقدار مليون ليرة تركية — في حدود عشرين ألف ريال سعودي — توزع عن طريق الثقة من أهل العلم والدين على طلاب وطالبات هذه المدارس القرآنية، ولضمان استمرار هذه الجائزة أوصيت أبنائي بتعهدها بعد وفاتي^(١).

ويتابع فضيلته: ولقد كان لهذا الخبر أثر طيب في نفس المحسن الكريم الشيخ إبراهيم الجفالي — من أعيان مكة — فلما علم بعزمي السفر إلى تركية في العام التالي حملني مائة ألف ريال لأوزعها بنفسي على هؤلاء الطلاب والطالبات.. وفعلت ذلك بمعونة بعض إخواني من الأتراك، وشمل التوزيع العديد من تلك المدارس على مستوى الدولة، وفي العام التالي أيضاً دفع إلي بمئتي ألف ريال، فأبلغتها مكانها المنشود في مئات المدارس القرآنية، من استانبول وأنقرة وبورصة وبولا وأرضروم وغيرها من المدن.. وقد شاء الله أن تكون وفاة ذلك المحسن الفاضل أثناء ذلك التوزيع، فانتقل إلى جوار ربه مشيعاً بدعاء الألوفا من الذين أحسن إليهم غفر الله له وعوض المسلمين عنه وجزاه خير ما يجزى به عباده الصالحين..

(١) كنت: أنصف عدد ٢٨ / ٦ / ١٤٠٤ من جريدة الرائد الهندية فإذا أنا أواجه على الصفحتين ١، ٢ تقريراً بقلم المترجم عن رحلته إلى مواطن المجاهدين الأفغان، يصور فيه ما لمسه عن عزائمهم الإيمانية، ويهيب بمسلمي العالم أن ينهضوا بواجبهم نحو هؤلاء الأبطال.. ثم يختم إهابته برصد أربعين ألف ريال سعودي سنوياً لهذا الجهاد ما دام قائماً..

فبارك الله بأبي مجاهد وحقق الخير بندياته..

(٢٠٠ م - علماء ومفكرون عرفتهم)

يقول الشيخ: وإن لي وطيد الأمل بأن أخاه الوجيه الكبير الشيخ على الجفالي سيواصل سبيل أخيه وقد أكد لي ذلك بقوله: إنهم سينفذون كل ما كان يفعله أخوهم من هذه الميراث إن شاء الله، وفقهم الله إلى كل ما يحبه ويرضاه.

خطيب ومؤلف

والذين يعرفون الشيخ يعلمون أن الله الذي أعطاه بسطة في الجسم قد آتاه مثلها في العلم وفي النشاط الدائب لخدمة الدعوة حيثما كان، وقد شهدته الأندية الأدبية والعلمية في المملكة ثم في مختلف الأنحاء التي جابها من أقطار المسلمين، خطيباً مفوها حاضر البديهة.. قد يدعى للكلام فإذا هو يتدفق في موضوع لم يعد له، وكأنه يقرأ في كتاب، وما أسرع ما تستجيب له الشواهد من أحداث التاريخ الإسلامي، ومن أخبار الصحابة، فتجري على لسانه ماثجة بالمعاني، باعثة للتفاعل، ماثلة بالصور الحية، كأنك تشهدها بعينيك وفكرك معاً.. ومما يعمق أثرها في السامعين، انفعاله هو بها وعمق واقعها في قلبه، حتى ليغلبه الانفعال فيبكي ويُبكي، وتأخذه الحماسة حتى لكأنه يخطب في كتيبة من المجاهدين.

وقد شاء الله أن يتسع نطاق نفعه، فهو يخطب ويحاضر ويحدث ويؤلف، ويسمى لنا بعض مؤلفاته بالعنوانات التالية/

- ١ — (نداء الإسلام) ٢ — (صوت الإسلام) ٣ — (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) ومن مؤلفاته شبه سلسلة من الكتب في إطار مادعاه (المكتبة القرآنية) وقد صدر منها حتى كتابة هذه السطور ثمانية أجزاء
- ١ — القرآن آثاره، أنواره، فضائله. ٢ — أم القرآن. ٣ — نظرات في سورة الحجرات. ٤ — بين الدعاة والرعاة.

ومن كتبه الأخرى (معركة الإسلام — وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم). ثم (عدة المسلمين في معاني الفاتحة وقصار السور) ثم (تعليم الصلاة) و(الصيام في الإسلام) و(زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن) و(المسلمون وعلم الفلك) وأخيراً (رحلاتي إلى الديار الإسلامية) الذي سلف ذكره وهو أوسع كتبه ولا بد أن يكون من أكثرها نفعاً للراغبين في معرفة أحوال المسلمين وبخاصة في أفريقيا.

التراث الذي نسيناه

وقبل الانتقال إلى تنمة العرض أحب أن أقف بالقارىء هنيهة أمام أحد هذه الكتب وهو (المسلمون وعلم الفلك).

إن المطلع على فهارس المؤلفات الإسلامية قبل سقوط بغداد في أيدي متوحشة التتار، وأثناء اللمعات المتقطعة خلال عصور التخلف والجمود من تاريخ المسلمين؛ يدرك أن علماء الإسلام ومفكري المسلمين لم يدعوا شاردة ولا واردة من علوم الكونيات إلا سجلوا كشوفهم وملاحظاتهم عنها ودراساتهم لها، وقد وقع منها الغربيون على كنوز فتحت لهم أبواباً للمعرفة لم تخطر على أفئدتهم قط، وكان بعضها منطلق وثباتهم الهائلة في قوانين المادة. غير أن جمود السواد الأكبر من المسلمين على محض التقليد وانقطاعهم عن سبيل البحث والكشف والإبداع، أقصاهم عن تراثهم الحضاري الذي أضاء ظلمات العالم.. حتى صاروا يستغربون كل ماهو مألوف عند أهل العلم والخبرة، ويستنكرون كل جديد يحققه الإنسان الطليق من أصفاد التقليد.

وفي موقف بعض مشايخنا الموقرين من موضوع الفلكيات مثل بارز على ذلك الواقع المؤسف الذي انتهينا إليه.

لما بدأت محاولات الرواد في عالم الطيران أثناء القرن التاسع عشر، جعلت الصحف العالمية تنشر أخبار الأخوين (رايت) وتجاربهم في هذا الحقل، كتب أحد كبار العلماء المسلمين في تفسير له للقرآن العظيم ينكر هذه الاخبار، ويؤكد استحالة الطيران على الإنسان، مستدلاً على ذلك بقول تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ سورة الرحمن ٣٣. ثم لم يمض إلا زمن قصير حتى احترق الإنسان الفضاء بأسرع الأجهزة، فقرب الأبعاد، وقصّر الآماد، ولا يزال يتابع السعي لتضييق مساحة الكون بأسره.

ولما تصاعدت الأحاديث عن غزو القمر انتفض بعض شيوخننا نفعا الله بهم يثيرون الزوابع، ويكذبون الوقائع، ويكفرون من يقول بذلك.. وعملية غزو القمر وما وراءه مرتبطة من حيث السنن الكونية بحركة الأرض ودورانها، إذ لا يمكن حسابان العملية إلا على أساس وضع الأرض وما فيها من جاذبية، وما

يحيط بها من أجواء واسعة كونية .. فإذا هم يملئون الفضاء صياحاً بالتحذير من قبول هذه الأفكار ولا يتورع بعضهم عن قذف أهلها ؛ (الصواعق المحرقة) من الطعن والقذف ..

ولو أن هؤلاء الفضلاء أصلحنا الله وإياهم راجعوا أقوال أساطين علماء المسلمين من السابقين ، الذين عاجلوا بعض هذه الموضوعات ، ولو أنهم رجعوا البصر في كتاب الله لرأوا غير مارأوا . وحسبنا أن نذكرهم — في ما يتعلق بدوران الأرض الذي بات من المتواترات بل المشاهدات في هذه الأيام — أن الله لم ينسب السبح للشمس والقمر قط إلا وقبلهما الأرض لفظاً ومعنى ، فليرجع من شاء إلى قوله تعالى ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ في سورتي الأنبياء وياسين حتى يعود إلى القناعة بعد الرفض .

أذكر بهذا كله لأشير إلى تلك الضجة التي أثارها بعض أولئك الفضلاء حول كتاب الأستاذ الصواف (المسلمون وعلم الفلك) وقد ملأت كتابين بحويان مئات الصفحات شحنت بالطعن والتجريح والهجوم على المؤلف ، وهو الذي لم يقل من عنده شيئاً بل نقل أقوال أهل الاختصاص ، ودعمها بما وصل إليه العلم التجريبي من كشوف ، لا يتصور أن يكون بينها وبين حقائق الوحي أي خلاف .. وجزى الله شيخنا الجليل أبا عبد الله عبد العزيز بن باز كل خير لرحابة صدره في نقاش المخالفين ، فقد كان آخر ماسمعت منه في شأن الأرض أنه لا يزال على رأيه في ثباتها أخذاً بظواهر بعض الآي ، ولكنه لا يسيء الظن بمخالفيه بناء على ماظهر لهم من الأدلة .. وأجزل الله أجر فقيه العلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، الذي قال لنا مثل ذلك ، وأضاف إليه أن هذا مبلغ فهمه من الكتاب العزيز ، فإذا تحقق خلافه كان الخطأ في فهمه لكتاب الله ، فهو الغالب وإليه الحكم في كل اختلاف .

أرقام ناطقة

وشئ آخر من حق القارئ أن يقف عليه ، ولا يحسن بترجم لمثل هذا الداعية إغفاله ، ذلك هو ما علمته أثناء وجودي بالقاهرة في المحرم عام ١٤٠٣ هـ من فضيلة الأخ الشيخ حسن أحمد عاشور ، صاحب الاعتصام ومجلتها حين حدثني عن بعض مؤلفات المترجم ومدى انتشارها في مختلف

أقطار المسلمين ، وقد خصّ بالذكر منها الأربعة التالية (القيامة رأى العين) و (زوجات النبی الطاهرات) ثم (بین الرعاة والدعاة) وأخيراً (تعلیم الصلاة) .

يقول الشيخ حسن : لقد بلغ المطبوع من الأول ثلاثمائة ألف نسخة ، ومن الثاني أكثر من خمسين ألفاً ، ومن الثالث عشرات الألوف ، ومن الرابع مائة ألف ، وترجم لأكثر من عشر لغات .

وإنها لشهادة تصور علاقة المؤلف بملايين القراء ، وفي المقادير الهائلة من نسخها دليل كبير على انتشار أفكاره وآثارها في العقول والقلوب ، ومما يؤكد أهمية هذه الشهادة صدورها عن الناشر الذي عن داره صدرت هذه المطبوعات . .

أ نموذج من كتابته :

وأخيراً . . لقد كانت رحلة القارئ مع مترجمنا الفاضل على قصرها كافية لإعطائه الكثير من ملامحه النفسية والعقلية ، ونشاطه الدؤوب في خدمة الإسلام ، فلنختم الآن هذه الرحلة بنموذج من كتابته التي لا أقدرُ منها على تصوير تلك النفس بكل ما فيها من حماسة وإخلاص وصراحة ووضوح ، وقد استنسخناها مما سطره عن مؤتمر كراتشي ، بعد وقفة حائرة بين ما نأخذه وما ندعه ، لأن في كل كلمة مع تلك الصفحات عاطفة تموج ، وروحا تنهج ، وعزيمة تتفجر ، وفي كلها صورة صادقة من مميزات الشخصية تشهد بصحة الرأي الذي يقول : أسلوب الإنسان هو نفسه . .

يقول الأستاذ الصواف في الصفتين ١٦٢ ، ١٦٣ من كتابه (نداء الإسلام) ط ٢ :

« وأود هنا أن أضرب مثلين شهدتهما بنفسي ليرى الناس روح الإسلام في نفوس المسلمين غير العرب ، ومن خلالهما أرجو أن يتبين لنا وجه الحق ونعلم كم هي خسارتنا حينما نقلنا قضية فلسطين من قضية إسلامية إلى قضية عربية خاصة .

قبل عشر سنوات تقريباً دعيت إلى المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد في كراتشي عاصمة باكستان، فذهبت عن العراق أنا وعالم العراق الأكبر الشيخ أحمد الزهاوي حفظه الله وبعض الإخوان المحامين ورجال الصحافة في بغداد، وكانت قضية فلسطين لاتزال طرية جديدة، وشارك في المؤتمر وفود كبيرة من مختلف ديار الإسلام، ومن الوفود البارزة رؤساء قبائل الباتان وهي قبائل ضخمة تعد بالملايين ورجالها أبطال أشداء أولو بأس شديد ترى الرجولة والبطولة والعزة بادية على وجوههم المشرقة بنور الإيمان، وعلى أجسامهم الممتلئة صحة وعافية ويقينا، وتسكن هذه القبائل في الجبال الممتدة بين باكستان وأفغانستان يفصلها مضيق خيبر المشهور، وهم شقر الوجوه، ضخام الأجسام، رجال حرب وضرب، كانوا يدخلون المؤتمر بأسلحتهم ولا يفارقون السلاح وهو من صنع أيديهم وبصورة جيدة جداً ولقد رأيت بعض أسلحتهم بنفسني ولم أرها تختلف كثيراً عن السلاح المصنوع في أوروبا سواء بنادقهم أو مسدساتهم.

وعند مناقشة قضية فلسطين وكان سماحة الحاج أمين الحسيني يومها رئيساً للجلسة احتدم الجدل فقام رئيس هذه القبائل وقاضيهما الشجاع فوقف وسط المؤتمر وتكلم باللغة العربية وقال بحمد وحماس: افتحوا لنا الطريق أيها العرب نحن نكفيكم الحرب، ونحن نقتل ونطرد اليهود والإنكليز ونخلص مسجداً المبارك ومسرى نبينا وحبيبنا وإمامنا محمد ﷺ. وقبلتنا الأولى المعظمة.. افتحوا لنا الطريق لنجاهد في سبيل الله. أعلنوها أيها العرب جهاداً إسلامياً ونحن وحدنا ننقذ الأقصى ولا نكلفكم مالاً ولا رجالاً ولا سلاحاً فنحن سلاحنا معنا ونصنعه بأيدينا منذ مئات السنين. إن الإنكليزي الشيطان ما استطاع أن يدنس أرضنا منذ مائة وخمسين عاماً.

بل نحن فرضنا الجزية عليه. افتحوا لنا الطريق لتتواتر شهداء في سبيل الله.

كيف تضيع منكم فلسطين؟ كيف تضيع؟! كيف تضيع؟؟ ثم دمت عيناه وجلس وساد المؤتمر صمت عجيب وشعرنا نحن العرب بالخجل والأسف ثم أيده رجال القبائل جميعاً ثم كان بيننا بعد الجلسة عناق وبكاء على هذه الروح الإسلامية التي أضعناها بجعل قضية فلسطين قضية عربية فقط»..

الدكتور محمد دناصير

عرفته لأول مرة قبل خمس عشرة سنة ...
وكان ذلك في بيت الطلبة الأندونيسيين ...
دعاني بعضهم للاستماع إلى محاضرة يلقيها الدكتور محمد ناصر ...
ولم يكن ذلك الاسم غريباً عني ، فقد قرأت عنه الكثير خلال مطالعاتي
أنباء الدولة الإسلامية الكبيرة الجديدة أندونيسية ...
وكانت محاضرة رائعة على الرغم من أنني لم أفهم حرفاً من لغتها الأصلية ،
إلا أن الطالب الذي تابعها بالترجمة كان فصيح العربية مبينها ...

لم يبق في ذاكرتي شيء من موضوع تلك المحاضرة ، اللهم إلا أطيافاً لأزال
أتذوق جمالها ، ومرد ذلك إلى أمرين أحدهما الأفكار العالية التي عالجها على
مدى أكثر من الساعة ، وكلها حول أندونيسية ، والصفة الإسلامية التي يجب
أن تتميز بها أبداً وبخاصة في مرحلتها الجديدة بعد الاستقلال ، والثاني عمق الرؤية
التي كانت تظلل تلك الأفكار فيخيل للسامع أنها فلذ من قلبه أكثر مما هي
كلام يقال ...

وكان للرصانة التي تميز صورة الخطيب ولهجته ضرب من الإيحاء قوي
يشد إليه السمع والبصر .. إذ تشعر وأنت تلاحظه وتستمتع إليه أنك تلقاء
شخصية ثقلت موازينها ، فهي أكبر من الكيان الذي تحتله من ذلك الحجم
الأندونيسي اللطيف .. شخصية تتجمع فيها مواهب الجامعي الدقيق العبارة ،
والسياسي البعيد الغور ، والمؤمن الذي يسكب على كل من هاتين الصفتين
الوقار الموجب للثقة والاحترام .

وتكر الأيام ، ويقدر الله لي الشخوص إلى أندونيسية ، فألقى الدكتور
محمد ناصر بمكتبته في المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في جاكرتا ، فإذا هو هو
الذي لقيته في المدينة المباركة قبل هاتيك السنين ، لم يتغير على نظري شيء منه ،
هدوؤه ورصانته ومظهره الجدي الوقور ، بل لكأن الزمن قد وقف به حيث كان

يومئذ، فلم يقربه من الشيخوخة، ولم يبعده عن سن الشباب، ولا غرابة في هذه فهي السمة المميزة للجنس الأندونيسي الذي يحتفظ أبداً برونق الشباب، فلا يكاد يرهقه الكبر...

على أن سنوات الفراق لم تكن لتقطعني عن أخباره، فأنا أعلم من خلالها ضخامة العبء الذي يتحمله في سبيل الإسلام، وشدة البلاء الذي يواجهه من أعدائه، الذين تسللوا إلى القوة عن طريق المنافذ التي خططها لهم الاستعمار، كما فعل في كل قطر إسلامي أكره على مغادرته، فلم يدعه إلا بعد أن أسلم أزمته إلى تلاميذه الذين فاقوه في عمليات التخريب لكل ماهو إسلامي...

لقد استطاع خلال المناصب التي شغلها من إدارات ووزارات ورئاسات وغيرها، أن يرفع راية الإسلام كما أنزله الله ديناً ودولة، وصدع بكلمة الحق في وجه الزعازع الهائلة من مؤامرات المعادين للحق، ولم يستطع رأس طواغيتهم سوكانرو وكل الذين أزروه وحرصوه، إخفات ذلك الصوت إلا بالوسائل التي عرفتھا شعوب الإسلام في كل مكان قفز فيه أعوان الشيطان إلى سدة الحكم بالتزييف وبالحديد والنار.. وكان بوسعه وإخوانه أن يستمروا في نطاق السلطة لو رضوا بما عرضه عليهم أولئك الطواغيت من التخلي عن الصفة الإسلامية التي أقاموا جهادهم السياسي على أساسها. ولكنهم آثروا إسلامهم على كل شيء، وفارقوا مناصب الحكم ليتابعوا سبيلهم لخدمة الدعوة في أوساط الجماهير، التي ستظل الممثلة لمادة الإسلام في سائر البلاد الإسلامية، وعليها يتوقف مصيره أمام الهجمة الشرسة التي يشنها أساطين السلطة الغاشمة على قواعده..

وهكذا انحاز محمد ناصر وإخوانه إلى العمل الصامت عن طريق المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية الذي تنتشر فروعه على مستوى الجزر المأهولة في أندونيسية، يصرون المسلمين بدينهم، ويُعَمِّقُونَ انتماءهم إليه، ويواجهون بصبرهم ودأبهم واستقامتهم أعنف الحملات الصليبية على هذا الدين، الذي تضافرت على حربه كل مراكز القوة من حكام داخليين وأعداء خارجيين، ودعاة للنصرانية لا يقبلون هدنة مع الإسلام، الذي أعلنوا تصميمهم على استئصاله، وأعدوا لذلك عدتهم الهائلة من أساطيل تجوب أقاصي الجزر وأدناها

في الجو والبحر والبر، ومن مؤسسات تعليمية تفوق معاهد الدولة وجامعاتها، إلى وسائل إعلامية تغطي بصحفها ومنشوراتها وإذاعاتها كل مكان من أندونيسية.. وقد اتقنوا فنون الاستغلال للأوضاع الاقتصادية التي ترهق الطبقات المسحوقة تحت عجلات النظام، الذي ضيق عليها سبل الحياة فحرّمها حتى الضرورات الأولية وبذلك هيأها للسير وراء كل ناعق يضمن لها الحد الأدنى من وسائل العيش، وأطمع بها أولئك المضللين حتى استطاعوا تحويل الآلاف بل الملايين من الإسلام إلى النصرانية على مرأى ومسمع من الحكام الذين لم يخفوا تأييد النصرانية الغازية، بل حركوا حتى بقايا الوثنية من باطني جاوة لإعلان نخلتهم، وللمطالبة بالامتيازات التي تمكنهم من إثبات وجودهم وتثبيت شخصيتهم الطائفية في مجلس الأمة وهي المؤامرة التي نفذت بقوة الحراب فسقط ضحيتها الأعداد من شباب الإسلام الذين هبوا للاحتجاج عليها بتظاهراتهم الصاخبة، فجوبهت بالجيش يقتحم عليها ساحات الجامعات ويملاً بجراحهم المستشفيات..

ثم تأتي مع هذا وذاك فتنة (البانجاسيلا) التي اخترعتها الطغمة السوكارنية، لتجعل منها مناجاً جديداً يصرف المسلمين عن دينهم إلى تعاليم يراد منها أن تحل محل الأديان المعروفة في أندونيسية، فتجعل من المائة والأربعين مليوناً من سكانها عجينة موحدة النوع لا تنظر إلى الحياة كلها إلا من ثقب واحد، هو الذي يحدده ذلك الميثاق الخماسي العجيب.. وكأن واضعيه إنما أردوا إحياء بدعة ذلك الأفاق امبراطور الهند (جلال أكبر) الذي أغواه شياطين الجن والإنس، فلم ير لتوحيد شعوب الهند سوى إلغاء انتماءاتهم الدينية بتحويلهم إلى ديانة واحدة لفقها من معتقداتهم جميعاً.. فكان أن زاد الطوائف واحدة تمتاز على الجميع بأنها أشدّ حقداً على الإسلام وعدواناً على المسلمين.

ولقد قيض الله لنا الفرصة المناسبة أثناء زيارتنا أندونيسية، فلمسنا آثار المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في كل بلد حللناه من تلك الجزر، والتقينا بما لايحصى من الشباب العامل في ظله، فأدركنا الحكمة التي حققها الله في انصراف الدكتور محمد ناصر وإخوانه إلى ذلك السبيل الذي اختاروه مخلصين لخدمة الإسلام وإصلاح شأن المسلمين، والوقوف بوجه الغزو الصليبي

الشرس، على الرغم من البون الشاسع بين وسائلهم ووسائل المبشرين .. وكل سلاحهم في هذا المعترك هو وعيهم العميق لحقائق الإسلام، ثم إيمانهم الراسخ بأن الله ناصرهم ماداموا في طاعته، فهم لا يدخرون وسعاً في بذل كل ما يملكون من مجهود في سبيل الدعوة التي شرفهم الله بخدمتها ..

حوارنا مع الدكتور محمد ناصر

س — نرجو التفضل بذكر الاسم والميلاد والبلد والدراسة؟

ج — الاسم محمد ناصر، وقد ولدت يوم ١٧ يولييه من عام ٩٠٨ في بلدة تدعى (الاهان بانجانغ) من أعمال (مانتجاو) في أندونيسية، وتقع على ضفاف البحيرة التي تحمل هذا الأسم، وهي معروفة بطبيعتها الخلابة.

وفهم من كراسة كتبها عنه الأخ الأستاذ محمد أكوسجي أن تلك البلدة في ولاية سومطرة الغربية، وعلى عادة أهلها في تكريمهم للزعماء والقادة اكتسب الدكتور لقب (داتو سينارو بانجانغ).

ويزيد الأستاذ محمد سعيد بأنه نشأ في بيت دين وعلم وجاه، فجده لأمه واحد من علماء مينانكاب أما أبوه فكان أحد اداريي المنطقة، وبذلك اجتمع في الدكتور محمد ناصر رافدا الدين والجاه ثم الثقافة العامة.

ويقول الدكتور أنه تلقى دراسته الابتدائية في المدرسة الحكومية الهولندية (سولوك) ثم انتقل إلى المرحلة الإعدادية في المدرسة الحكومية (ميولو) في بادانغ ومن ثم التحق بقسم الآداب الغربية الكلاسيكية في المدرسة الثانوية المسماة (الكوميني ميد ليارسكول) في مدينة باندونغ والظاهر أن مركز أسرته قد ساعده على هذا الالتحاق، إذ كان الوصول إلى المدارس الحكومية محفوفاً بالمصاعب إذا لم يكن التلميذ من أبناء الذوات وموظفي الحكومة أو كبار الملاك والأثرياء، هذا فضلاً عما يقتضيه التغرب من أعباء تهبط كاهل الأسرة، وقد جمع الفتى بين الدراستين الحكومية والدينية، إذ قسم يومه الدراسي شطرين، فشطره الأول في المدارس الرسمية، وشطره الآخر في إحدى المدارس الأهلية الإسلامية، كشأن أبناء الأسر المسلمة الحريصة على دينها حتى الآن.

يقول الدكتور: إن انتقاله إلى باندونغ المعروفة بلقب (باريس جاوا) آنذاك كان ضرباً من المغامرة وقاه الله شرها بما سبق له من التربية الدينية، ثم بما أتيح له من الاتصال بأحد فضلاء العلماء هو الشيخ حسن أحمد العالم السلفي، الذي ضاعف من زاده الروحي بما تلقى على يديه من علوم الشريعة إلى جانب دراسته العامة. وفي هذا الجو الجاد أتم المترجم مرحلته في تخصص التدريس حتى نال إجازته.

س- وعن الرجال الذين أثروا في توجيهه يقول الدكتور:
ج- أولهم هذا الفاضل الشيخ حسن أحمد، وكان يدير في باندونغ معهد (برساتوان إسلام) أى معهد الوحدة الإسلامية، إلى جانب عمله في تأليف الكتب الإسلامية ونشرها، وقد أعجب الشيخ بالفتى لما وجده من تشبعه بالثقافة وشدة اهتمامه بالعلوم الإسلامية، فلم يدخر وسعاً في تعميق ذلك الاهتمام وإمداده بالغزير من الخير.

ويثنى الدكتور بالحاج أقوس سالم الذى يصفه بالسياسى المسلم الذى جعل همه الأخذ بيد الشباب الناشئ على الثقافة والتربية واعادته إلى الخطيرة الإسلامية، وكان من جهوده الموفقة تشجيع هؤلاء الفتيان على إنشاء منظمة (بونج إسلاميتين بوند) وهو تعبير هولندي يعنى (اتحاد الشباب المسلمين) وكان لهذه المنظمة أثر هام إذ خرجت أفذاذ القادة والزعماء الإسلاميين الملتزمين، الذين تولوا قيادة المسيرة الإسلامية فيما بعد وكان محمد ناصر هو رئيس فرعها في باندونغ، التي تعتبر أحد منطلقات الجهاد الإسلامى فى أندونيسية.

ثم يذكر من ذوى الأثر فى توجيه الشيخ أحمد السركتى الأنصارى السودانى، الذى وفد إلى أندونيسية لنشر العلم والمعرفة.
ويصف هذا الشيخ بأنه من السلفيين، وأنه مؤسس مدارس الإرشاد فى العديد من مدن جاوة.. وقد أتيح لنا زيارة مؤسسة الإرشاد القائمة فى سورابايا، إحدى أروع حواضر أندونيسية، ولمسنا جهودها المباركة سواء فى معهدها التعليمى أو مستشفائها المتكامل، وضاعف إعجابي هناك تلك العربية السليمة التي سمعناها من كل مسئول لقيناه فى تلك

المؤسسة ولا سيما ذلك الحضرمي الكريم الذي أنسيثُ اسمه، وقد سجلت ذلك كله في كتابي (ذكريات لاثنسى ..) ومن هنا تطرقنا إلى السؤال الرابع .

س - أهم الأحداث التي عاصرتوها وتفاعلت معها؟

ج - بعد تخرجي في معاهد العلم الهولندية تفرغت للعمل الإسلامي، وبدأت ذلك في التدريس، إذ افتتحت مدرسة باسم (روضة التربية الإسلامية) استأجرت لها ميني اتخذت قسماً منه سكناً لي ولزوجتي التي اقترنت بها حديثاً...

ويقول الأخ الأستاذ محمد سعيد : لقد أقبل الدكتور على عمله في التدريس بمجد كبير، ولم يكتف بالتدريس بل اندفع بالروح التي ألهبها شيوخه في صدره فشرع قلمه للكتابة في الصحف وألف عدداً من الكتب باللغة الهولندية موجهةً إلى خريجي الثقافة الغربية تعرض لهم حقائق الإسلام ومحاسنه .. ومن روائع كتبه أثناءئذ مؤلفه عن (المرأة المسلمة وحقوقها) و(حضارة الإسلام) الذي اشترك في تأليفه مع البروفيسور الهولندي سخوماكر، ثم كتابه الآخر (هلموا إلى الصلاة) فكان له أثر طيب في خريجي المدارس الهولندية . وقد صدرت هذه الكتب ما بين ١٩٣٢، ١٩٣٦ .

وهكذا بدأت مسيرته العملية في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عن حقائقه بوجه الحملات المسعورة التي تولى كبرها دعاة النصرانية وأذياهم من المتخرجين على أيديهم وقد أصدر من أجل ذلك مجلة سماها «الدفاع عن الإسلام» حملت الكثير من مقالاته فضلاً عن كتاباته الأخرى في العديد من الصحف بتوقيع «أ. مخلص» .

في تلك الأثناء حدثت هزيمة الهولانديين على يد الغزاة اليابانيين وفي ظل التغيرات الجديدة أسندت إلى الدكتور إدارة التربية والتعليم في حكومة بلدية باندونغ .

على أن من أهم الأحداث التي واجهها عقيب ذلك، فكان لها الأثر العميق في مجرى حياته، هو انتقاله إلى جاكرتا، ليتولى سكرتيرية الجامعة الإسلامية، التي أنشئت حديثاً . ففي باندونغ كان متفرغاً للتربية والتعليم

وللدفاع عن الإسلام ومصالح المسلمين، لذلك لم يلتحق بأي من الأحزاب السياسية حتى سنة ١٩٤٠ إذ انضم إلى (الحزب الإسلامي الأندونيسي) برئاسة الدكتور سوكيما.. ومن هنا أخذ سبيله إلى العمل السياسي، فمالث أن برز كأ نموذج للزعيم المسلم النزيه .

وأما الحدث الثاني فقد تمثل في التفاعل الذي حدث بين الدكتور ناصر وسوكارنو. يقول الأخ محمد سعيد: لقد شهدت باندوبغ حركتها الإسلامية بزعامة محمد ناصر، على حين قامت فيها حركة قومية بزعامة سوكارنو، تتخذ من النعرة القومية متكاً لها..

كان سوكارنو يدعو إلى القومية الأندونيسية كسناد لحركة التحرر، على حين كان محمد ناصر وصحبه يدعون إلى الإسلام كمنطلق للتحرر، وقد بذل جهداً عظيماً في شرح حقائق الإسلام وفاعلية تعاليمه في تنظيم الحياة العامة.. وقد بلغ التفاعل بين الحركتين أشده فيما بعد .

حزب ماشومي

عقب استقلال أندونيسية عام ١٩٤٥ وبعد انحسار الاحتلال الياباني اجتمع زعماء الأحزاب والجمعيات الإسلامية السابقة للاحتلال الياباني في مؤتمر عام بمدينة جوكيا كارتا بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩٤٥ وقرروا نبذ الفرقة والانضمام في عمل سياسي يوحد كلمتهم، فكان من ذلك (مجلس ماشومي مسلمي أندونيسية) وفي هذا الاجتماع التاريخي انتخب محمد ناصر ممثلاً للشبان المسلمين في ذلك المجلس، ثم مالث أن يوقع رئيساً عاماً للحزب لفترة امتدت ما بين ١٩٤٩ و ١٩٥٩ ثم خلفه على رئاسة الحزب الأستاذ برادوتو عندما انضم محمد ناصر إلى الثورة الإسلامية بسومطرة لمواجهة المحرقات سوكارنو .

لقد كان لقيام حزب ماشومي هزة عظيمة، إذ كان يمثل مسلمي أندونيسية في وحدة متلاحمة، وكان برنامجها السياسي واضحاً وصريحاً قائماً على الالتزام التام بالإسلام. ومن منطلقاته الرئيسية عدم التعاون مع الشيوعيين ومن يتعاطف معهم. ومعلوم أن ذلك إعلان صريح بالمعارضة لحزب سوكارنو.. الذي اتخذ له واجهة (الديمقراطية الموجهة) فما إن حلت. أواخر الخمسينات حتى بلغ الخلاف بين الفريقين أشده، إذ انطلق سوكارنو في خطه المضاد

للإسلام، راكباً نزواته السياسية وغير السياسية، ومحتضناً الحزب الشيوعي الذي أثره بالرعاية، وأصر على اشتراكه في الحكم.. وكان ذلك من سوكارنو إيذاناً بالحرب الحزب ماشومي، ثم لم يتورع عن استخدام كل أنواع الأهراب في تعامله مع زعمائه، ومن ذلك استخدامه شباب الشيوعيين والمرترقة. للتضييق عليهم وتهديدهم، مما اضطر كثيراً منهم للنزوح إلى سومطرة، في حين برزت في الأقاليم انتفاضات بقيادة قواد المناطق العسكريين تطالب بعودة محمد حتا إلى الحكم وإقصاء الشيوعيين عن مراكز السلطة.. بل لقد بلغ الأمر إلى حد إعلان بعض المناطق تمردھا ورفضھا الخضوع لأوامر السلطات المركزية.. فكان هذا نذيراً بمضاعفات خطيرة تفسح السبيل للاستغلال الأجنبي، فكان على محمد ناصر وصحبه وجوب التدخل لتلافي ما يمكن من الأخطار المتوقعة، والعمل على ضبط الأمر في الطريق الصحيح.. وطبيعي أن يكون موقفهم مبنياً في الأساس على الوقوف بوجه الخطر الشيوعي، الذي كانوا يحسبون له ألف حساب. وقد برهنت الحوادث التالية على صدق توقعاتهم حين انفجر الانقلاب الشيوعي عام ٦٥، واغتال الشيوعيون العديد من قادة الجيش، وكادوا ينجحون في اغتصاب السلطة لولا رحمة الله، الذي تدارك الخطر الماحق بيقظة العناصر الإسلامية، ثم استمرت مواجهة الإسلاميين لنزوات سوكارنو حتى تمت الاطاحة به عام ٩٦٦.

س- لو تفضلتم بالكلام عن آثاركم العلمية والفكرية.

ج- وأجاب فضيلته بأن ثمة عدداً من المؤلفات والرسائل منها:

- ١- (كتاب الصوم) ٩٣٢ / ٢ - (إسلاميتين ايديال)
- ٢- (المرأة المسلمة وحقوقها) ٩٣٦ / ٤ - (ببيلوفيليزم)
- ٣- (الحضارة الإسلامية) ط ٣ من مجلدين - ٩٤١ / ٥
- ٤- (التركيب الطبقي لمجتمع الإسلام ٩٥٠ / ٧ - (البناء وسط الانقراض)
- ٥- (خطبة عيد الفطر) ٩٥١ / ٩ - (هل يمكن فصل الدين عن السياسة ؟) ٩٥٣ / ١٠ - (إسهام الإسلام في السلم العالمي)
- ٦- (الثورة الأندونيسية) ٩٥٥ / ١٢ - (الدينية)
- ٧- (أو اللادينية) ٩٥٧، وقد ترجمت إلى العربية وصدّرت منها طبعتان وقد صدر له في الستينات الكتب الآتية: (الأخلاقيات الحديثة) و (العلم

والسلطة والمال أمانة) (وحدة الدين والدولة) و(ابذروا البذور) و(الإسلام والنصرانية في أندونيسية) وفي السبعينات صدرت له المؤلفات التالية : (ابنوا العالم بأعمالكم وأضيئوا الزمان بإيمانكم) و(أعيدوا المثالية مرة أخرى) و(معقل الدفاع الفكرى) و(الإسلام والفكر الحر) و(القلق الروحي ومسئولية الأسرة الجامعية والمعاهد العليا) و(طوبى للغرباء) و(حينما لا يستجاب الدعاء) و(آثار الرسالة وأسس الدعوة) و(في ظل الرسالة) و(قضية فلسطين) و(المسجد والقرآن والانضباط) و(الخوف والاستعمار) و(الدين والأخلاق) و(الدعوة والتنمية) و(المحمدية رائدة تجديد الفكر الإسلامى) و(اليد التى لم يتقبلها أحد) و(الإيمان مصدر القوة الظاهرة والباطنة) وتبلغ هذه المؤلفات خمسة وعشرين عنواناً ، وتحت بعضها أكثر من كتاب ، ولعلنى نسيت بعضها عند النقل ويلاحظ القارىء من خلال هذه العنوانات ملامح الجدة والعمق والشمول التى يمتاز بها فكر الدكتور محمد ناصر فهمى من هذه الناحية لا تخص أندونيسية وحدها بل تمس واقع العالم الإسلامى بأسره ، بل إنها لتتسع حتى تشمل تطلعات الإنسان أياً كان وأينما كان .

وطبيعى أن شخصية هذه بعض آثارها لا بد أن تتعدد أعمالها ذات الأثر العميق فى حياة المجتمع لذلك طرحنا بين يدى الدكتور السؤال التالى :

س — إن المطالع لترجمتكم لا بد أن يتساءل عن الأعمال التى توليتموها حتى الآن ؟

ج — ومضى الدكتور فى سرد هذه الأعمال منذ تخرجه فى التعليم حتى يوم لقائه هذا : ١ — إدارة مدرسة (روضة التعليم) فى باندونغ . ٢ — مدير مصلحة التربية والتعليم فى باندونغ . ٣ — أمين سر الجامعة الإسلامية فى جاكارتا . ٤ — عضو المجلس الأعلى الإسلامى الأندونيسى . ٥ — وزير الإعلام فى ثلاث وزارات . ٦ — عضو اللجنة الوطنية الأندونيسية — البرلمان المؤقت . ٧ — عضو البرلمان الأندونيسى . ٨ — رئاسة مجلس وزراء أندونيسية . ٩ — رئيس حزب ماشومي . ١٠ — عضو المجلس

التأسيسي المنتخب. ١١ - رئيس المؤتمر الإسلامي بدمشق. ١٢ -
نائب رئيس المؤتمر الإسلامي حتى الآن. ١٣ - عضو المجلس التأسيسي
لرابطة العالم الإسلامي حتى الآن. ١٤ - مستشار عام رابطة العالم
الإسلامي. ١٥ - رئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية في أندونيسية.
١٦ - مستشار في عدد من المنظمات والمعاهد والجامعات الإسلامية
بأندونيسية وبخاصة اتحاد الجامعات الإسلامية الأهلية واتحادات المعاهد
الإسلامية ..

ونجد في ماكتبه الأستاذ محمد سعيد عن (محمد ناصر) مالا غنى عن
ذكره لسد بعض الفجوات التي تركها جواب الدكتور الآنف، وبخاصة في
الجانب السياسي، وما رافقه من ألوان الصراع بين إرادة سوكارنو الاستبدادية
واستظهاره بالشيوعيين والقوميين، وبين المنهج الشوري الذي التزم به حزب
ماشومي وأنصاره على مستوى الدولة الأندونيسية كلها.

لقد وجد سوكارنو في حزب ماشومي وأنصاره سداً منيعاً بوجه
انحرافاته، فحشد كل ماحوله من الطاقات لتعويق مسيرته الإسلامية، وإقامة
العقبات في طريقه، واستعان لذلك بالنصارى والشيوعيين وبذل المستحيل
لتفتيت الوحدة الجامعة داخل ماشومي، حتى استطاع أخيراً انتزاع جماعة
نهضة العلماء من صفوفه، فأعلنت استقلالها عن ماشومي وأصبحت بذلك
حزباً سياسياً مستقلاً، وبذلك أتيح لسوكارنو أن يدعم مركز الشيوعيين
ويفتح لهم السبيل للتغلغل في مختلف القطاعات حتى أصبح الشيوعيون أكبر
حزب شيوعي في بلد غير شيوعي خلال عقد واحد من السنين، بعد أن كان
موصوفاً بالخروج على القانون بسبب ثورته التي سدّد بها عام ١٩٤٨ طعنة
غادرة إلى قلب أندونيسية قبل أن تستقر أوضاعها، وعندما كانت مهددة
بعودة الاستعمار الهولندي، الذي حدث فعلاً في شهر ديسمبر من تلك السنة.

وما إن استوثق سوكارنو من قوته بالشيوعيين والقوميين حتى شرع في
مطاردة زعماء ماشومي، وذلك بتسليط الفوضيين ممن يسمونهم (فيلق
الطلبة) وميليشية الشيوعيين، على هؤلاء الرجال يهاجمون بيوتهم لاختطافهم،
مما اضطرهم إلى التواري والهجرة إلى سومطرة وغيرها، وأشيع أن هناك محاولة

لاعتقال محمد ناصر، فاتصل به سفراء بعض الدول الإسلامية يعرضون عليه حق اللجوء السياسي إلى بلادهم، ولعل بعض هذه العروض قد أريد بها تنفيذ رغبة سوكارنو ومن وراءه من الدول الشيوعية في استبعاده ليخلو الجو أمام نزوات سوكارنو وأعوانه، ولكن محمد ناصر قابل تلك العروض بالشكر والاعتذار، لأنه لا يستطيع مفارقة الساحة وهي أحوج ما تكون إلى العنصر الإسلامي الصادق

في هذا البحران الهائل من الاضطراب والانحراف انطلقت في سومطرة ثورة أعلنت رفضها للحكومة جاكرتا التي ألغىها سوكارنو على أنقاض البرلمان المنتخب، وشكلت حكومة مناوئة للوضع الاستبدادي، غير أن قادة الثورة قبلوا نداء رئيس الوزراء جواندا، الذي أعلن العفو عن الثوار ووعد بالعمل على تصحيح الأوضاع.. ولكن سوكارنو لم يلبث أن نقض ذلك العفو بفرض الإقامة الجبرية على رجال الثورة باسم الحجز السياسي، ثم مالبث أن ساقهم معتقلين إلى السجن الحربي الذي لم يغادروه إلا بعد الإطاحة به في أعقاب الإخفاق الذي انتهت إليه محاولة الانقلاب الشيوعي في ذلك العام.

وهكذا تحررت أندونيسية من كابوس العهد السوكارني وتنفس محمد ناصر وإخوانه الصعداء إلى حين، بعد أن سلب أعوان الطاغية أموالهم وأمتعهم ومساكنهم فأصبحوا ولا مأوى لهم، بيد أن البلية الكبرى التي واجهتهم في هذه المرحلة هي الدمار الذي أصاب المجتمع الأندونيسي في العقيدة والأخلاق، فكان على هؤلاء المصلحين أن يوجهوا طاقاتهم لتدارك هذا الخراب الرهيب.. ومن هنا كان بروز (المجلس الأعلى الأندونيسي للدعوة الإسلامية) الذي أسلفنا ذكره، ومهمته الأولى بناء الكيان العقائدي للأمة، وتصحيح المنطلقات الأساسية التي تلاعب بها سوكارنو والذيداد عن الإسلام ضد خطر التنصير الذي استفحلت ضراوته في ظل ذلك العهد البغيض.

ولن يفوتنا أن نذكر بموقف محمد ناصر كان ضرباً من الإنقاذ العام لأندونيسية جميعاً ذلك أن المفاوضات التي سبق أن دارت بين هولندا وممثلي الأندونيسيين عام ٩٤٥ قد استقرت على قيام عدة دويلات في رباط فيدرالي. ولكن هذا الترتيب قد جوبه بانتفاضات حادة في تلك الدويلات، إذ أبت جماهيرها ذلك التقسيم، وطالبت بتوحيد الجزر كلها في جمهورية واحدة على أن

هذا الانتفاض سرعان ما جر اضطرابات أخرى ولاسيما في شرق أندونيسية، وقد بات الوضع مهدداً بتسلل الشيوعيين للاستغلال الذي هم أقتن الناس له.. فالخطر أذن رهيب ولا بد من تداركه وهذا يقتضي تحويل المسيرة نحو الوحدة مأمكن، ولكن وراء التقسيم قوى لامندوحة من النظر إليها بعين الاعتبار، وبخاصة أن الجيوش الهولندية ماتزال رابضة تراقب الوضع في حال تهيئها للجلاء، ولا يستبعد أن تستعيد تدخلها عن طريق بعض الموتورين من معارضي الوحدة.

في هذا الجو المتلبد باكداس التوقعات تقدم محمد ناصر بالحل الشافي، وذلك بأن عرض على البرلمان — وهو أحد أعضائه — اقتراحاً مفصلاً يقضي بأن تحمل كل دولة من مجموعة الاتحاد نفسها، على أن تشكل عقب ذلك الجمهورية الموحدة..

ووفق الله فاستجابت الحكومات إلى ذلك الاقتراح دون تحفظ، وأخذت كل دولة بتنفيذ ما يخصها منه، وتمت صياغة الدستور الجديد على أساس الدولة الموحدة، وبموافقة الجهات المتعددة، وبناء على هذا التراضي انتخب سوكارنو رئيساً لجمهورية أندونيسية، ومحمد حتا نائباً للرئيس، وأسند إلى محمد ناصر الأمر بتشكيل أول وزارة للدولة الموحدة، فلم يُشرك فيها أحداً من الشيوعيين ولا القوميين — جناح سوكارنو — لأن هؤلاء قد بدؤوا يتحولون نحو اليسار..

وهكذا كان مشروع محمد ناصر بمثابة زورق الإنقاذ لجمهور الأندونيسيين، إذ حقق لهم أهم الأهداف وأجلها دون أن تسفك قطرة دم، أو يراق ماء وجهه.. ولولا انحرافات سوكارنو، ونزواته الاستبدادية، وغروره الذي قاده إلى اختلاق ميثاق (البانجاسيلا) الذي سلف ذكره، إذ أوهمه أنه به يستطيع أن يحول طوائف البلاد كلها عن دياناتهم وتقاليدهم ومواريتهم دفعة واحدة إلى قطيع لا يهيمه إلا بطنه، ولا يفكر ولا ينظر إلا من خلال الثقب الذي يحدده ذلك الميثاق، الذي سرعان ما ولد موثيق ماثلة في العديد من بلاد العرب والمسلمين!..

أجل.. لولا تلك الانحرافات وهاتيك النزوات، وذلك الغرور، لانتهى الأمر بأندونيسية ذات المائة والأربعين مليوناً إلى قيادة المسيرة الإسلامية الحديثة

على مستوى العالم كله ..

س — إنك تشهد كيف أن المعركة بين الإسلام والجاهلية الحديثة قد بلغت أشدها .. فكيف تتوقع أن تكون النهاية؟

ج — النهاية ستكون نفس ماصارت إليه الجاهلية الأولى، لأن المعركة فكرية، والفكر الإنساني قطع مراحل طويلة في مسيرة التقدم والنضج، والبراهين الناصعة التي قدمها الإسلام عن الكون والعلوم والإنسان تزداد نضاعة وإقناعاً، وإذا قارنا أوضاع العالم الإسلامي اليوم بما كان عليه قبل نصف قرن من الزمن لما وسعنا إلا أن نحمد الله جل وعلا، فقد استقلت الشعوب المسلمة وزاد تعداد دولها على الأربعين، وفتحت أمام أبناء هذه الشعوب فرص التزود بالثقافة الفكرية الرفيعة وطرق البحث والتزود العلمي، وتخرج الكثيرون من أبناء المسلمين في مختلف التخصصات العلمية البحتة كالطبيعة والفيزياء والذرة، وكل هذا كفيل بمواجهة ودحض دعاوى الجاهلية الحديثة إن شاء الله.

وقلنا لفضيلة الدكتور:

س — هناك تطور ملموس في اتجاهات الشباب المسلم في كل مكان، فما السبيل إلى ضبطها في طريق الإسلام الصحيح؟

ج — السبيل إلى ذلك هو التدريبات العملية المنظمة، والتوجيه المستمر كي يعايش الشباب المسلم جوهر تعاليم الإسلام، وذلك بعرض التماذج المثالية من حياة الرعيل الأول لشباب محمد ﷺ، والمهم في إعداد وتربية هذه الكوادر أن تتاح لهم فرص الاطلاع بالمسئوليات حين تعهد إليهم مهمات محددة لخدمة الأمة «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» ويجب أن تتاح الفرص أمام الكوادر لتدريب أنفسهم على الإحساس بالمسئولية، إن مجرد القيام بالواجب دون الإحساس بالمسئولية لن يسفر عن قيام زعامة وارثة منضبطة بالإسلام.

س — المتصدرون للإصلاح من مفكري الإسلام مختلفون في نظرهم إلى الواقع فمنهم من يرى البدء بتصحيح العقيدة واستبعاد التأثير الصوفي، وآخرون يرون تجميع القوى لمواجهة العدو المشترك — استعماراً أو أفكاراً —

دون تعرض للخلافات الداخلية، فما حكمك على الموضوع؟

ج — في الواقع كثيراً ما نحس بضيق النفس والشدة حين نرى أنفسنا نواجه ونجابه الكثيرين من الأعداء من مختلف الأشكال والنواحي، بحيث يتشابه الأمر علينا في تحديد من أين نبدأ؟ ولكن يجب أن نكون على ثقة، بأن ما نحتاجه من قوة لمواجهة أي عدو، لا يمكن أن يفيد دون أن تكون لتلك القوة عقيدة صحيحة. إذن فموضوع تصحيح العقيدة وإن كان مقصوداً على فئة قليلة هي البطانة يعتبر شرطاً ضرورياً على الإطلاق، وتنشئة الكوادر المبنية على تصحيح العقيدة ليس من الضروري أن يثير التناقض فيما بيننا بله العداوة والخصام والمجابهة الداخلية، بل علينا أن نسلك الطريق الذي أشار إليه مالك إمام المدينة رحمه الله بقوله (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها) فنتقصى الأشياء التي صلح بها أوائل هذه الأمة، لأن عليها يتعلق أمر إصلاح الأواخر، وكل ما عدا ذلك لا يلتفت إليه.

س — إلى أي حد يمكن للعالم الإسلامي أن يفيد من ثورة إيران الإسلامية؟
ج — إننا مسلمي أندونيسية طبعاً نتعاطف ونعطف على ثورة إيران الإسلامية لاننا نعلم أن إخوتنا الإيرانيين لا قوا العنت والعناء الكثير تحت وطأة حكم الشاه الظالم ثلاثين عاماً. وقد سبق أن عانينا شيئاً قريباً من ذلك الظلم أيام الاستعمار الهولندي والاحتلال الياباني، ثم أخيراً وليس آخراً تحت نظام الديمقراطية الموجهة لسوكارنو، لذلك فإننا نتعاطف مع إخوتنا الإيرانيين الذين يبذلون جهدهم الآن لاعادة تنظيم شؤون حياتهم بإقامة دولة عادلة، والدرس الذي يمكننا أن نفيد منه في أي انتفاضة ضد الظلم والغشامة وهو أن كل سلطة متعسفة ظالمة غير عادلة لا بد لها — على المدى القريب أو البعيد — من أن تجري عليها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

أما السؤال الخاص بمدى استفادة العالم الإسلامي من الثورة الإسلامية الإيرانية في تطور العمل الإسلامي فهو يتطلب دراسة مستفيضة في وقت ليس بالقصير لأنه ليس بإمكاننا تقييم أمر من الأمور بناء على معطيات من بلد مازال يعيش ثورته وقبل أن تستقر الأمور فيه.

وإذا تذكرنا أن هذا السؤال طرح على الدكتور محمد ناصر في مطلع الثورة

الإيرانية ثم نظرنا إلى تحفظاته الأخيرة بشأن معطياتها ، أدركنا بعد نظره والعمق الذي تبلغه حنكته السياسية في تقييمه للأمور .

لقد خيست الثورة الخمينية الكثير من آمال المسلمين بسيرتها المضطربة ، وطريقها الدموية التي شوهت مفهوم الحكم الإسلامي بنظر الملايين الذين كانوا يتطلعون إلى حقيقته في نطاق التطبيق ، فجاء تطبيقها العملي صورة رهيبة ضاعفت من آلام دعاة الإسلام ، إذ دفعت الحكام المنحرفين إلى زيادة التنكيل بهم ، واتخذوا من أخطاء تلك الثورة ذريعة مسوغة لمحاربة الإسلام نفسه .

س — ماتوقعاتكم بالنسبة إلى تطبيقات الشريعة الإسلامية في الباكستان ؟
ج — إننا نسأل الله مخلصين أن يوفق الباكستان في جهودها لتحقيق تطلعاتها ، لإثبات أن الشريعة الإسلامية وتعاليم الإسلام ، هي التي تستطيع أن تكون خير نظام للحياة وتلك مهمة صعبة جداً ، لأننا نعيش الآن وسط خِصَمٍ من الناس لا يعلمون بعامة ماهي حقيقة الإسلام ، إننا لانواجه الخطأ في فهم الإسلام أو قلة الفهم له فقط بل نواجه أناباً يعتمدون النيل من الإسلام .

إن تدوين الأحكام واختبار الحكام أمر غاية في السهولة ويمكن تحقيقه في أسرع وقت ممكن ، ولكن بناء الأمة التي ستكون المحكومة بذلك الحكم ، بحيث ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ فذلك الذي يتطلب الكثير من الوقت إلى أسلوب في العمل دقيق التخطيط والتوجيه .

س — تكاثرت المؤتمرات الإسلامية في أواخر القرن الرابع عشر ولا تزال تنكاثر فما رأيكم إجمالاً في هذه المؤتمرات ؟ .. وما مردودها للإسلام ؟ ثم مارأيكم في المؤتمرين الأخيرين حول موضوع الغزو الشيوعي لأفغانستان ومحصولهما للقضية ؟

ج — إن عقد المؤتمرات يعني أن هناك فكرة هامة وهذا بحمد ذاته سيحقق أمراً ، أولاً — حدوث لقاءات بين العلماء والمفكرين المسلمين ، القادمين من

مختلف بقاع العالم ليتعارفوا بينهم ويتدارسوا أمورهم ، وهذا سيكون المنطلق بإذن الله في المستقبل إلى التعاون والعمل المشترك البناء ، والثاني إتاحة الفرصة للمؤتمرين من أجل البحث في قضايا تهم المسلمين وتعلق بمصالحهم المختلفة سواء مايتصل بشئون دينهم واقتصادهم وشئون سياستهم ، ولكن كان مثل هذه المؤتمرات لم تنجح بعد في حل تلك المشكلات ، فإن إحساس الجميع بوجود تلك المشكلات نفسها ، سيفتح الطريق الموصل إلى حلها مستقبلاً .

من - يلمس الزائر لاندونيسية شعوراً إسلامياً قوياً .. فهل ترون وراء هذا الشعور رصيذاً كافياً من الوعي الإسلامي الصحيح ؟

ج - نعم هناك رصيد كاف إن شاء الله ، وقد حدثت حالات برهنت على ذلك ، وهي أنه كلما حدث مايمس الكرامة الإسلامية نجد المسلمين شباباً وشيخاً يهبون للذود عن تلك الكرامة ، وإليك مثلاً عن ذلك عندما تجرأ أحد القسس النصارى - وهو مدرس في مدرسة حكومية للتجارة في ماكاسار - على اتهام الرسول ﷺ أنه كان يعاشر بعض النساء سفاحاً ، طالبه تلامذته أولاً بسحب اتهامه ذلك ، وحين عارض وأصر طالبوا الكنيسة المستولة عنه أن تلمزه بسحب كلامه ولما تملصت الكنيسة عن الاعتراف بمسئوليتها آذن التلامذة إخوتهم وكبارهم فهبوا هبة رجل واحد وقدموا مطالبهم باتخاذ الإجراءات الرادعة تجاه هذا القسيس الأرعن ، ولما أحسوا بعدم جدوي ذلك ، أحرقوا عدداً من الكنائس في مدينة ماكاسار (أوجونغ باندتن حالياً) ومثلاً آخر عندما حاول البعض في البرلمان تقديم مشروع بقانون مدني للزواج يسرى على كل مواطن أندونيسي بغض النظر عن دينه وعقيدته ، طالب المسلمون بتعديل ذلك المقترح أو سحبه ، أصلاً ولكن أصحاب الاقتراح نظراً لأنهم يملكون أغلبية ساحقة صمموا وأصرروا على المواصلة في مناقشة المشروع ، وهنا هب المسلمون والشباب منهم بشكل لافت للنظر وقاموا بالتظاهرات التي عمت شوارع العواصم ، تشدد النكير على المقترح وتنادى بسحبه ، وكان هذا العمل تلقائياً ، دون أن يوعز إليهم أحد بذلك ودون أن يثيرهم لذلك أحد ، وفي إحدى التظاهرات وقفت إحدى الفتيات تصيح منفعة : إننى لأرضى لنفسي قراناً هو السفاح عنه .

وحين أحس الشباب المسلم أن هناك موعداً في البرلمان لمناقشة المقترح
 حضروا إلى البرلمان كأبي مواطن يشهد جلسة من جلسات البرلمان،
 واحتلوا شرفات الضيوف هادئين دون أن يبدو عليهم أي شيء يثير
 الاشتباه فيهم، وحين افتتحت الجلسة وكانت برئاسة الحاج أدهم خالد
 (من نهضة العلماء) وأعلن عن موضوع الجلسة، إذا بالشرفات تهدر
 هديرًا، وإذا باللافتات تخرج من وراء القمصان وتُنشر، وفيها التنديد
 بالقانون المقترح، وقفزوا فوق حواجز المشرفات لينزلوا إلى حلبة البرلمان
 وهم يرسلون هتافات صارخة أثارت المخاوف في أعضاء البرلمان
 ورئيسه، بله وزير الشؤون الدينية الحاج الدكتور البروفيسور عبد المعطي
 على، فغادروا قاعة البرلمان لا يلوون على شيء، بل إن رئيس الجلسة
 نسي أن يرفعها وهكذا احتل هؤلاء الشباب حلبة البرلمان ولم يمكن
 إجلأؤهم إلا بعد استقدام فرقة من القوى الضاربة بالمصفحات، ودخل
 الجنود حلبة البرلمان وناشدوا الشباب أن يغادروها، وانفعل أجدهم
 حين سمع إحدى الفتيات تستصرخ الضمائر تجاه هذا القانون الذي يريد
 التلاعب بأقدس مؤسسات المجتمع المسلم، فذرفت عيناه، وناشدها
 مغادرة البرلمان وخرجوا وحين وصلوا إلى ساحة البرلمان وكان هناك
 بركة ماء قالوا: نريد أن نتوضأ ونصلي فقد حان وقت الصلاة، فلم
 يسع الجنود إلا أن يستجيبوا لهم وسمحوا لهم بالصلاة ثم غادروا البرلمان
 سالمين، واضطرت الحكومة في النهاية، وبخاصة أولئك الذين يريدون
 استضعاف المسلمين، إلى سحب القانون المقترح واستبدال آخر به لم
 يكن صارخاً بتجاهل تعاليم الإسلام.. فلولا وجود رصيد كاف من
 الوعي الإسلامي الصحيح لما واجهوا كل هذه التعسفات وهم عزل من
 السلاح، ولما تحركوا تلقائياً لمقاومة ذلك المشروع، علماً بأن النظام
 القائم، قائم على القوة والحديد والنار، وأنه يُكْمَّم كل وسائل الإعلام
 من إذاعة وتلفزيون وصحافة وكل نأمة معارضة. أرجو أن يكون في
 هذا ما يثبت وجود الرصيد الكافي من الوعي الإسلامي الصحيح لدى
 الأندونيسيين.

س- كيف تتصورون مستقبل الإسلام في أندونيسية على المدى القريب؟

ج - الإسلام في أندونيسية في الوقت الحاضر يعاني الكثير من النكسات، وذلك بعد أن سدد سوكارنو الضربة القاضية إلى حزب ماشومي بتحريض وتأيد الشيوعيين، وكان الحزب مركز قيادة المسلمين الواعية. لم يحل سوكارنو حزب ماشومي ولكنه خيّر بين أن يحذف أساسه الإسلامي ليؤذن له بالبقاء، أو الحظر، فاحتار قادة الحزب عدم إلغاء الأساس الإسلامي وحل نفسه، ولا يزال الوضع القائم حالياً شبيهاً بالبارحة مع فارق واحد عدم وجود الشيوعية، ولكن جاء بدلها التنصير والنصرانية والعلمانية ومذاهب الجاوية التي تسمى نفسها (اتباع المعتقدات) والباطنية وغيرها، وكلها أسماء لمسمى واحد، وأن ماسوف يحدث على المدى القريب هو الصدام والصراع في المجالات السياسية، وحيث المسلمون ضعفاء جداً وفي الاقتصاد حيث أصبح ٨٠٪ من شئون التجارة والصناعة والأعمال بيد الصينيين، الذين نالوا حظوة لدى العهد الجديد بفضل ما يقدمون من إتاوات ورشوات. غير أنه على الرغم من كل ذلك فإننا معشر المسلمين غير يائسين ولا متشائمين، على المسلمين مهما كانوا أن يدافعوا عن دينهم وكيانهم وكيانه، ونجحوا والله الحمد وقد صمدوا في الدفاع عن شئون التربية والتعليم ونحن متفائلون أننا سننجح بإذن الله قريباً أو بعيداً، لقد حاول العلمانيون تطبيق علمانيتهم في التربية والتعليم ولكن الله وفق فأبطل كيدهم، ونحن واثقون من أن التطورات السياسية ليس من السهل برمجتها ولا التكهن بساعة حدوثها، وما الذي يمكن تطبيقه وتحقيقه وفي أى ظرف ووقت، ولكننا أحسننا الكثير من التحقيق لوعده الله القائل ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ فقد حدث قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضي أن تكهن بعض رجال الغرب، قائلًا: قد يكون من الممكن أن تستقل أندونيسية بعد أربعين عاماً أي سنة ١٩٧٠، ولكن خاب فأله واستقلت أندونيسية سنة ١٩٤٥ أي بعد ١٥ عاماً من توقعاته، وذلك بعد أن اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ووصل لهيها إلى الشرق الأقصى، باندلاع حرب آسية الشرقية العظمى، ثم انتهت تلك الحرب بسقوط القنبلة الذرية على ناغازاكي وهيروشيما، التي مهدت لأندونيسية السبيل

للتحرر من ربة الإستعمار كلياً.

س — هل يصح القول بأنكم انصرفتم عن السياسة نهائياً لتتفرغوا لتنظيم الدعوة الإسلامية؟ وما تعليل ذلك وما مردوده؟

ج — عدم قيامي بالتحرك السياسي المباشر، يعني عدم قيامي بقيادة حزب سياسي كما كنت سابقاً، ومعلوم أن الحزب السياسي (ماشومي) الذي شاركت في تأسيسه وقيادته مدة عشر سنوات قد أجبر من قبل سوكارنو على الخيار بين أمرين، إما التخلي عن أساس الإسلام أو الحل، فاخترت الثاني كما أسلفت، ولكن هذا لايعني أنني تخليت أصلاً عن التورط في العمل السياسي الوطني والعالمي، ففي الحالات التي تتعرض فيها للخطر مصالح الإسلام والمسلمين في أندونيسية بخاصة أتصدي للعمل ولتحريك الرأي العام لمواجهته واستخدام كل مايمكن استخدامه للذب عن مصالح الإسلام، وإن لم أقد حزباً سياسياً، وكثيراً ماوقفني الله في هذا وله الحمد والشكر، ثم هل في الإسلام تفريق بين السياسة والدين، وهل لديه شيء لقيصر وشيء لله، حتى يعطي مالمقيصر لقيصر وما لله لله!.. فالأمر كله لله في الإسلام، والعمل الإسلامي يشمل كل شيء في هذا الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

الشيخ محمد بن ناصر العبودي

إن الحديث عن الشيخ محمد بن ناصر العبودي — مثل ترجمتي للإمام الجليل الشيخ عبد العزيز بن باز — إنما هو حديث القلب عن ذكريات شغلت من حياتي السنين الطوال، وتركت بصماتها عميقة في كياني كله، ذلك أن وجودي في الجامعة الإسلامية، الذي استمر عشرين عاماً متصلات، لم يكن وجود مدرس عادي يقوم بواجبه في تدريس المواد التي تسند إليه مدى العام، فإذا انتهى بدأ عاماً جديداً حتى يقضي الله بانتهاؤه عقده، فيغادر الجامعة والمدينة ليُشغلَ عنهما بأعمال جديدة في وطن آخر.. كلا فذلك لا يمثل إلا وجهها واحداً محدوداً من حياتي خلال هذه السنين العشرين، وقد انقضت بسبب السن فغادرت الجامعة مدرساً ولكنني لم أغادر المدينة مقيماً، فحياتي لم تزل متصلة في هذا الجو العابق بالذكريات على تعدد مصادرها وأنواعها، فذكريات الماضي العظيم الذي أستنشق شذاه المحيي في كل نفحة نسيم ومن كل ذرة رمل تحرك في مشاعري الأطياف السعيدة فتجدد صلتني بذلك الماضي، فتعمل في أعماقي عمل الشحنة الكهربائية تجدد الطاقة المدخرة لتستأنف فاعليتها من جديد.

ثم ذكريات أخرى متصلة الوشائج بتلك تربط بين الماضي والحاضر، هي ذكريات الجامعة الإسلامية التي تعددت أعمالي فيها، فمن التدريس إلى القبول والتسجيل، إلى دراسة المناهج والمعادلات، إلى تأليف البرامج والمقررات، إلى الإعداد لبعض المؤتمرات.. وذلك غير الإشراف الاجتماعي الذي ألقى على عاتقي على مدى ثمانية عشر شهراً دون مساعد سوى بعض المراقبين من أشباه العامة، يشغلونني ليلاً ونهاراً بأخبار المشاكسين والمتهاوتين بحقوق الصلاة من الطلاب، حتى أسلموني بذلك إلى مرض لم أخلص منه إلا بجراحة كبيرة.. ولكن هذه المهام المضنية حفلت بالكثير من الجمال والراحة النفسية لأنها كانت

تربطني بكبار المسئولين في الجامعة، فلا تكاد الصلة بيني وبينهم تنقطع يوماً واحداً.. ثم زادت هذه الصلة قوة بمشاركتي في مجلس الجامعة الأسبوعي التي استمرت عدداً من السنوات فجعلت منا أسرة واحدة تتداول الآراء في كل مايتصل بمصالح الجامعة، وتندارس المشكلات الطارئة حتى أثناء العشاء المشترك الذي تقرر أن نتناوله في هذه الاجتماعات..

إنها صحة سنين ليس من السهل زوال آثارها، وبخاصة من مثل نفسي التي كأن المتنبي لم يرد سواها بقوله :

خُلِقْتُ أَوْفَا .. لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبَى مَوْجَعِ الْقَلْبِ بَاكِياً

كثير من ذكرياتي هذه تقترب بشخص الشيخ محمد ناصر العبودي ، الذي كان أياًمئذ يجمع بين الأمانة العامة للجامعة ووكالتها ونيابة الرئاسة للشيخ عبد العزيز ابن باز ، كلما اضطرتة المسئولية للغياب عن الجامعة .. ولم تكن صحبتي إياه طوال إحدى عشرة سنة على أتم الصفاء، ولكنها كانت متسعة للخلاف والوفاق، حتى إذا فهم كل منا صاحبه أخذت سبيلها الآمن في غمرة سعيدة من الاحترام والتقدير، وبخاصة أني كنت أكتشف كل حين من مواهبه جديداً يزيد من انسجامنا وتفاهمنا .. فأنا إذ أكتب ترجمته الآن سأحاول أن أجرد قلمي من موحيات الحب الذي أكنه لهذا الصديق، فلا أتجاوز حدود الواقع، الذي آليت أن ألزم به نفسي في كل ماأكتبه من تراجم العلماء والمفكرين على امتداد العالم الإسلامي ..

إنه محمد بن ناصر العبودي، ولد في شوال من عام ١٣٤٥ هـ في مدينة بريدة، وهي إحدى حواضر القصيم ..

وفي بريدة تلقى دراسته حتى نال الشهادة الثانوية سنة ١٣٧٧ هـ من معهد بريدة العلمي عن طريق الانتساب . ومن ثم أقبل على الدراسة المكثفة في علوم الشريعة الإسلامية والديانات السماوية، ثم اللغة العربية وآدابها على أيدي العلماء من أهل البلاد الذين يعتبرون حججاً في اختصاصهم ..

ومن أساتذته الذين تلقى عنهم هذه الدراسات المغفور له العلامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، الذي تولى رئاسة الشؤون الدينية في المسجد الحرام، ثم رئاسة المجلس الأعلى للقضاء، إلى جانب عضويته في هيئة كبار

العلماء بالمملكة العربية السعودية .

ثم الشيخ صالح بن أحمد الخريصي رئيس محاكم القصيم ، فالعلامة الكبير الشيخ عبد العزيز بن باز ، رئيس الجامعة الإسلامية السابق ، ثم رئيس مجلس الدعوة والإرشاد والإفتاء ، ورئيس هيئة كبار العلماء في المملكة . ويعد من أساتذته العلامة الشهير شيخ علماء المملكة ومفتيها ورئيس قضائها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، رحم الله موتاهم وبارك في حياة الأحياء منهم .

أما الأعمال التي مارسها في المملكة فهي :

- ١ - قوامة المكتبة العامة في مدينة بريدة لمدة سنة ، وكانت تدعى من قبل مكتبة المسجد الجامع .
- ٢ - تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية لمدة سنتين في المدرسة السعودية الرسمية في بريدة .
- ٣ - إدارة المدرسة المنصورية الرسمية في بريدة كذلك مدة خمس سنوات .
- ٤ - إدارة المعهد العلمي الثانوي في بريدة مدى ثمان سنوات .
- ٥ - الأمانة العامة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ثم وكالتها ، مع النيابة عن رئيسها أثناء غيابه ، وذلك منذ قيام الجامعة في العام ١٣٨١ هـ وحتى انتقاله عنها في العام ١٣٩٤ .
- ٦ - الأمانة العامة للدعوة الإسلامية ، وكذلك الأمانة العامة للهيئة العليا للدعوة من العام ١٣٩٤ - حتى ١٤٠٣ بالرياض .
- ٧ - وأخيراً منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي وقد تولاه منذ العام ١٤٠٤ .

وعندما نعيد النظر في هذا الجدول من أعمال الشيخ العبودي نشعر أن من المتعذر إغفال آثار كل منها في تكوينه الفكري وخبراته التي نواجهها في مآنتجه حتى الآن من مواقف ومطبوعات ..

فالقيام على المكتبة العامة مطلع حياته قد منحه فرصة صالحة للاتصال بالكتب وتعرف العقول التي أملتها ، والموضوعات التي احتوتها ، والأذواق التي صاغت عباراتها .. ولم يكن مثل ذلك الاتصال بالأمر الميسور في تلك الأيام ، فلا عجب أن تزوده هذه الفرصة بالخوافز التي تدفعه إلى إدمان المطالعة ، ثم إلى

مباشرة الانتاج الأدبي، الذي بدأ نشره في مجلة المنهل. ثم الاتصال الشخصي بطائفة من كبار الأدباء كالمرحوم الشيخ عبد القدوس الأنصارى والشاعر اللغوى الكبير المرحوم الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي، والمحقق الشهير الأستاذ حمد الجاسر والشيخ صالح بن عثيمين ..

وكان من آثار هذه المرحلة إقدامه على التأليف مبكراً، فأنتج عدة كتب في موضوع الأدب الشعبي وبيان علاقته بالأدب الفني وباللغة الفصحى ..

وكذلك الأمر بالنسبة إلى عمله في التدريس، فقد كان لزاماً عليه أن يضاعف عنايته بتثقيف نفسه فيضاعف من اتصاله بالكتب، وبخاصة في نطاق المواد التي عهد بها إليه من العربية والعلوم الإسلامية ..

وفي إدارته المدرسية أتيح له أن يضيف إلى مطالعته في المؤلفات ألواناً من المعرفة لأخلاق الناس ومسالكهم المختلفة، وهي معرفة لاتغني عنها الكتب، ولا يمكن تغذيتها إلا من خلال الواقع المتحرك ..

ومن هناك، من خلال هذه الخبرات الحية، والتجارب المكثفة، والاستعداد النفسي، والنشاط الدؤوب، كان مترجماً مؤهلاً للقيام بمهامه في كنف الجامعة الإسلامية ..

ولقد كانت نقلة الشيخ من بريدة إلى المدينة قفزة عالية وضعته في صميم العالم الإسلامي كله، إذ أصبحت الجامعة من يومها الأول ملاذاً لطلبة العلوم الإسلامية، يفدون إليها من أربعة أنحاء المعمورة، ولكل فريق منهم عاداته وطرائقه في الحياة، وسلوكه الذي يجعله نوعاً متميزاً .. وكان على مسئولي الجامعة ومدرسيها أن يحسنوا التعامل مع كل هؤلاء وأولئك في حكمة وصبر لايتوافران إلا لأولي العزم ..

يضاف إلى ذلك كله ظروف المدينة التي جعلها الله مأرز الإيمان، فهي ملتقى المسلمين في مواسم الحج والزيارة، والجامعة ملتقى النخبة من هؤلاء المسلمين، يقصدون إليها للتعارف، وللتزود بالمطبوعات الإسلامية، ولاستطلاع الواقع المتميز لذلك المركز الذي يتطلع إليه العالم الإسلامي من شتى الأنحاء .. فيها هنا فرصة نادرة المثل لا بد أن تترك أثرها عميقاً في طبيعة الرجل الذي من طبيعة عمله الاحتكاك بكل زائر للجامعة من رجالات الإسلام .

وكان على هؤلاء المسئولين والمدرسين أن ينهضوا بكل هذه الأعباء في وقت لم تكن الجامعة قد تجاوزت بعد طور التكوين الأولي ، فهم يواجهون كل يوم مسئولية جديدة وعبئاً لا عهد لهم بمثله ، ولكن الذي أعانهم على تحقيق مهامهم هو إخلاص المسئولين لتبعاتهم ، وتعاونهم الشامل الرائع لإنجاح مهماتهم ..

ولقد قدر لي الله جلت حكمته أن أدرك عمق هذا الدور فأشارك في أعبائه التي كثيراً ماتسهرني الليالي لصياغة منهج ، أو تعديل مقرر ، أو المشاركة مع زملاء في عمل كُلفنا به .. وما كان أسعدنا في هذا الجهاد الذي جمعنا كالأسرة المنسجمة في كنف الشيخ عبد العزيز بن باز ، الذي كان للجميع بمثابة الولي الحميم ، بل الوالد الكريم الرحيم .

والحق لقد أثبت الشيخ العبودي في هذه المرحلة كفاية جدية . بالتقدير ، إذ كان يواجه مسئولياته بعزم لا يعرف الكلل ، ولا تزيده أعباء العمل المتنامي أبداً إلا مزيداً من الحنكة وجديداً من الحذق والخبرة .

وكان على الجامعة أن توثق صلاتها الحديثة بأخاء العالم الإسلامي ، فبعثت بالوفود إلى هنا وهناك ، وكان للشيخ نصيب كبير من هذه الرحلات ، لأنه كان الوحيد في أسرة الجامعة الذي يحسن الإنجليزية ، إلى جانب مراته الملموسة وقدرته على إحسان التفاهم مع العلماء وكبار المسئولين ، الذين سيواجههم في هذه الرحلات .. وتتابع رحلاته ، وتعددت مواطنها ، وآت ثمراتها الطيبة صلات وطيدة مع وجوه البلاد التي زارها ، مالبثت أن استحالت صداقات كان لها ولا يزال أثرها الصالح في مسيرة الجامعة حتى الآن ..

على أن هذه التحركات لم تقف عند تلك الحدود وحدها ، فقد كان من ثمراتها أيضاً عدد من المؤلفات قدمت للراغبين في المعرفة عطاء ثراً من المعلومات الصادقة عن واقع المسلمين في تلك المناطق كما شاهده على الطبيعة .. وفي هذه المؤلفات لم يقتصر على سرد المشاهد ، بل أتخف القارئ خلالها بدراسات تحليلية لمشكلات تلك الشعوب بقلم يسيل حناناً وغيره ، ولا يكتفي بالدراسة والتحليل بل يُردفهُمَا بالعلاج الذي لا يختلف معه على وجوبه وضرورته ..

ولقد كان من لوازم عمله في الجامعة ثم في رحاب الدعوة بالرياض ، ثم في رابطة العالم الإسلامي ، مواصلة ذلك التطواف في أقطار الأرض مستطلعاً

أحوال المسلمين ودارساً أوضاعهم وحاجاتهم، فهو من ذلك أبداً بين حل وارتحال، لا يثوب من سفر إلا ليستأنف سफراً آخر.. أضيف إلى ذلك انتدابه من قبل هذه المؤسسات الثلاثة لحضور المؤتمرات والندوات العالمية التي تعقد في مختلف القارات والدول لدراسة الشؤون الإسلامية.

فمن مؤتمر الإعلام الإسلامي في جاكرتا - أندونيسية - إلى المؤتمر الإسلامي الأول في سان باولو - البرازيل - إلى المؤتمر الإسلامي في دول البحر الكاريبي - ترينداد - إلى مؤتمر التعليم الإسلامي لعموم الهند - حيدر آباد - ثم مؤتمر التربية والتعليم بالهند - بنارس - فمؤتمر جامعة عمر آباد الإسلامية بالهند أيضاً.. إلى مؤتمرات اتحاد الطلبة المسلمين في أنديانا بولس - أمريكة - إلى مؤتمر الطلبة المسلمين في بريطانيا، إلى المؤتمر الشعبي الإسلامي في بغداد.. إلى العديد من المؤتمرات الأخرى في جوهانسبرج وكوالا لامبور وموريشيوس وتونس والسنغال ولاهور، ولكناو، والتي كان من أواخرها حضوره مهرجان دولة بروناي الإسلامية بمناسبة استقلالها الحديث..

والذين يعرفون الشيخ العبودي عن كتب لابد أنهم يتوقعون من وراء هذه الجولات المردود الذي يتناسب مع مواهبه الفطرية ونشاطه الفكري وملاحظاته التي لاتنقصها الدقة ولا العمق، هذا فضلاً عن المردود الآخر الذي ستركه هذه المناسبات في ذاتية هذا الجوال الحساس، فتوسع محيط معرفته، وتعمق رؤيته في شؤون أمته..

كثيرون الذين يجوبون أرجاء العالم في سياحات تكاد تكون متصلة.. ولكن لا يعودون من سياحاتهم بغير النصب وإضاعة المال، مقابل بعض المتع العابرة، التي يستشعرونها أثناء تغير المشاهد..

وكثيرون الذين يشهدون المؤتمرات الإسلامية هناك وهناك، ويشاركون في مناقشاتها ومآدبها، حتى إذا انقضت انفضوا إلى قواعدهم دون محصول ولا مردود..

أما مترجمنا فهو من القلة التي تجد في هذه المناسبات فرصها المنشودة لخدمة الدعوة ولتقييم الأحداث المشاهدة، ثم تصويرها في كتب قيمة تشدد من

روابط الاخوة بين المسلمين وتحفز ذوى القدرة على التفكير في قضاياهم والبحث عن أفضل الوسائل لتحسين مستوياتهم.

ومن هنا كان نظري إلى تنقلاته الكثيرة على أنها مناسبات للعطاء النافع إن شاء الله ..

وإني لأكتب هذه الأسطر، وأنا في حاجة إلى استيضاحه عن بعض المعلومات، فأسأل به مقر الرابطة هاتفياً فيأتيني الجواب بأنه مسافر.. وقد كنت أعلم بسفره إلى الصين الشيوعية مندوباً من قبل الرابطة، ثم قيل لي إنه عاد من رحلته تلك، والظاهر أنه ماكد يستقر به المقام حتى استأنف السير، فهو أبداً في رحلة بعد أخرى لمصلحة المسلمين، وإمداد القارىء المسلم بما يُعوّزُه من علم بأحوال إخوانه المجهولين.

والآن لنلق نظرة عجلي على بعض الآثار التي قدمها هذا الجواب إلى المكتبة الإسلامية والعربية.. ولن نتوقف عند الجانب الخاص بهذه الرحلات، بل سنختار من مصنفاته مايساعدنا على الإحاطة بشخصيته الفكرية ذات الجوانب المتعددة. وأنا مضطر لإيثار الاختيار، لتعذر الإحاطة بكل مؤلفاته التي بلغت حتى الآن الأربعة والأربعين ما بين مطبوع ومعد للطبع.

وإلى القارىء أولاً هذا البيان بالمطبوع من هذه الآثار:

- ١ — (الأمثال العامة في نجد) ظهرت طبعته الأولى في مجلد واحد قبل ربع قرن، ثم عمد المؤلف إلى استيفاء بحوثه حتى بلغ خمسة مجلدات طبعت بمعونة تقديرية من دار الملك عبد العزيز عام ١٤٠٠.
- ٢ — (كتاب الثقلاء) وهو دراسة أدبية لثلاثة من الكتب القديمة في موضوع الثقلاء، مع إضافة نصوص من الأدب العربي القديم، ظهرت طبعته الأولى عام ١٣٩٩ في ٢٥٠ ص.
- ٣ — (أخبار أبي العيناء اليمامي) وهو من الكتب الأدبية وطبع عام ١٣٩٨.
- ٤ — (معجم بلاد القصيم) تاريخي جغرافي بلغت مجلداته ستة ونشرته دار اليمامة.
- ٥ — (نفحات من السكينة القرآنية) موضوعات تفسيرية في أسلوب أدبي طبع عام ١٣٩٨ في أكثر من مئتي صفحة ثم تكرر طبعه.

- ٦ — (صور ثقيلة) في النقد الاجتماعي ..
- ٧ — (مأثورات شعبية) وهو مجموعة من قصص العامة يجرى الكثير منها على ألسن الحيوان والطيور، وقد قصد منشئوها إلى العبرة والموعظة والتوجيه الاجتماعي، عرضها المؤلف في أسلوب فصيح مبسط وتبلغ صفحاته ٣٨٨.
- ٨ — (في أفريقية الخضراء) وهو باكورة ماكتبه في الرحلات بعد انتقاله إلى الجامعة الإسلامية، وقد طبع للمرة الأولى عام ١٣٨٤ ثم تالت كتبه الآتية في هذا الموضوع.
- ٩ — (مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين) صدر في منشورات نادي أبها وتكرر طبعه.
- ١٠ — (رحلة إلى جزر المالديف).
- ١١ — (جولة في جزر البحر الزنجي).
- ١٢ — (أيام في مسقط آدم — سيلان).
- ١٣ — (في نيبال بلاد الجبال).
- ١٤ — (صلة الحديث عن أفريقية).
- ١٥ — (مشاهد في بلاد العنصرين) صدر في منشورات (نادي القصيم الأدبي).
- ١٦ — (اطلالة على نهاية العالم الجنوبي) صدر في منشورات (نادي مكة الأدبي).
- ١٧ — (رحلات في أمريكا الوسطى).
- ١٨ — (شهر في غرب أفريقية).
- ١٩ — (زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية).
- ٢٠ — (سياحة في كشمير).

وقد أحصيت بين الأربعة والعشرين كتاباً المعدة للطبع أربعة عشر في موضوع الرحلات، وبذلك تبلغ مؤلفات الأستاذ العبودي في هذا الجانب سبعة وعشرين كتاباً. وما أحسب جوالاً في الأرض سجل مثل هذا الثبت في هذا الموضوع إلا إياه.. وهي ظاهرة تسترعي الانتباه وتستدعي الدراسة.. وقد كان بودي لو أقف على كل واحد من مصنفاته المطبوعة — على الأقل — لأعرض مكنوناته، وأستكشف دلالاته على عقلية مؤلفه وخصائصه الأدبية، ولكن تلك رغبة تتطلب كتاباً برأسه لافصلاً من كتاب.. ومع ذلك فلن

يفوتني أن أقف بعض الحديث على بعض هذه الكتب عملاً بقول القائل:
(مالا يدرك كله لا يترك جله).

ولأبدأ بكتابه الضخم (في أفريقية الخضراء) وحسب القارئ أن يعلم من شأنه أنه طبع أكثر من مرة، وترجم إلى أكثر من لغة، وقبل أيام جاءني أحد الاخوة الهنود يخبرني أن والده، وهو من أهل العلم، والمتصلعين من اللغتين العربية والأوردية، قد بدأ ترجمة هذا الكتاب إلى الأوردية ويوشك أن يفرغ منه.. وقد أصدرت وزارة معارف المملكة طبعة منه خاصة وزعتها على مكاتب المدارس على اختلاف مراحلها، وقررت الأكاديمية العربية العسكرية في القاهرة على طلابها.. وما أراني بعد هذا في حاجة إلى التوكيد على أهمية هذا الكتاب، ومع ذلك فهل يصدق القارئ أنني وجدت غير قليل من العتات إذ كتبت عنه بعض ما يستحق من التقدير في مجلة الجامعة الإسلامية إثر صدوره! ولعل لا أذيع سرا إذا زعمت أن ذلك المقال قد جر علي خصومة لم تزل تلاحقني بآثارها حتى آخر يوم من وجودي في الجامعة.. إلا أن ذلك لم يمنعني من الإصرار على تقديره بما كتبت عنه ثانية في كتابي (الأدب العربي) الذي درس في الجامعة على مدى عدة سنوات.. وفي نفسي قول جرول بن أوس:

ويعذلني أفتاء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

وأنتى بالإشارة إلى كتابه الآخر عن (مدغشقر ..) التي ألحق بها ذلك النعت المأسوي اللاذع (بلاد المسلمين الضائعين) وحق لمسلمي مدغشقر أن يوسموا بالضياح، فإن واقعهم الذي عرضه الأستاذ مما لانكاد نتصور مثله حتى في منظمة المحاخام كاهان، الذي يعلن تصميمه على استئصال بقايا الجنس العربي في فلسطين الشهيدة، وحتى في أوساط وثني الهند الذين يتلذذون بإحراق المسلمين وهم أحياء.. وكما أتمنى لو يتيح الله لهذا الكتاب محسناً يطبع منه مئات الألوف من النسخ. ثم يوزعها بالجان على حجاج العالم الإسلامي، عسى أن يحرك في أتريائهم غيرة الإيمان على هؤلاء الضائعين المعذيين!

وهكذا يمضي الأستاذ العبودي في تسجيل مراثيه وتصوير انطباعاته عن القارة التي أحبها فأعطاه جزءاً كبيراً من تفكيره واهتمامه، فكلما فرغ من رصد جانب منها استأنف جهوده في الكلام عن الجانب الآخر.. وبذلك أمد

المكتبة العربية بله الإسلاميه بخير كثير يدرك أهميته ذوو الاهتمام بأمر هذه القارة
وحياة المسلمين في أرجائها ..

ولكتاب (الثقلاء) علاقة وثيقة بطبيعة الأستاذ العبودي كما أعرفها، فهو
في حديثه عن الثقلاء إنما يعبر عن ضيقه بهذا الضرب من البشر الذين غلظت
مشاعرهم، ففقدوا القدرة على تقييم أعمالهم، ففهم ملاح من أولئك الذين
يصفهم البارئ المصور بقوله العميق الدلالة ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن
لا يشعرون﴾ (سورة البقرة) والذين يعرفون حساسية الأستاذ يعذرونه إذا هو
ضاق بهذا الصنف من الخلق، الذين سبقه إلى الضيق بهم أئمة العلم من أهل
الفضل كالأعمش سليمان بن مهران، الذي رويت عنه الطرائف في هذا
الباب ..

أما (الأمثال العامية في نجد) فقد كان أول ما طلعت عليه من مؤلفاته، إذ
كان قد صدر في مجلد واحد، ثم عاد إليه بالتوسعة والاضافات كما أسلفنا حتى
صار إلى خمسة مجلدات، ويقول في تعريفه إنه يشتمل على ثلاثة آلاف مثل
مرتبة على حروف المعجم، ومشروحة الألفاظ والمعاني، وقد رد عاميها إلى
الفصح، وأورد لها الشواهد من الآثار والأشعار والأقوال القديمة، وقارنها
بالأمثال العالمية في بعض الأقطار العربية، وأحدث لها ترتيباً آخر على أساس
الموضوعات .. وما يلحق بهذا الموضوع كتابه الآخر (لهجاتنا العامية وصلتها
بالفصحى) وعنه يقول: (إنه بحث في أصول الكلمات المستعملة في اللهجات
النجدية، وبيان جذورها الفصيحة، وتطورها عن لهجات قديمة صحيحة
كانت معروفة في جزيرة العرب إبان نزول القرآن الكريم، غير أنها مخالفة للهجة
قريش ..).

ولا جرم أن لهذا النوع من التحقيقات قيمته العلمية المساعدة على
استقصاء التطورات التي طرأت على الفصحى فحرفت لهجاتها الشعبية عن
الأصالة إلى الأوضاع الملحونة الراهنة. ويعرف قدر هذا الجهد أولئك المعنيون
بدراسة الأسس المعنوية لهذه اللهجات، وبخاصة في نجد وأعماق اليمن، حيث
لاتنفك العامية محتفظة بالكثير الوفير من جذور الكلمات الأصلية كما تداولها
الأولون منذ الجاهلية، وقلما نفع عليها خارج نطاق النصوص التراثية. ولا
ننسى هنا كتابه ذا المجلدات الستة (معجم القصيم) الذي يقول في وصفه إنه

يحدد أماكن القصيم وما ألحق به ، ويحاول جمع المعلومات الجغرافية والأدبية التي وعثها المراجع المطبوعة والمخطوطة عن هذا الموضوع من شعر ونثر وأمثال ، مضيفاً إلى ذلك ما يتعلق به من معارف صحيحة يتناولها شعب المنطقة .. هذا إلى دراسة تحليلية نقدية للمسائل التي اختلف فيها العلماء في هذا الشأن ، كما أنه يوضح أموراً غامضة حول هذه الأمكنة وتعتبر من المعلومات الجديدة في هذا الباب .. واستكمالاً للفائدة زود الكتاب بالخرائط اللازمة لمنطقة القصيم وحمى صَريّة والمواطن التي شهدت حروب الردة في هذه الأرض ..).

ولا جرم أن معجماً كهذا يستدعي الثناء من كل من يعنيه أمر هذه البقاع ، التي كانت ولا تزال مهد العربية ، والميدان الذي ازدهر فيه شعر الأولين ، فكان مرجع كل دارس للبيان العربي بعد القرآن الكريم .. وفي ظني أنه مع مؤلفات العلامة حمد الجاسر وتحقيقاته الخاصة بهذه الجزيرة ، يؤلف ردفاً قيماً لقراء الشعر الجاهلي ، يريهم على الطبيعة معاني ألفاظه ، ومدارج صباه ، والرحاب التي نشأ فيها صانعو ذلك التراث الخالد ..

وأخيراً لعلّي قد حققت بغيتي من هذه التّبذّ السيرة عن بعض آثار هذا الأديب المفكر ذى المواهب العديدة ، وهي أن تشد بيد القارئ النهم إلى المعرفة للعودة بنفسه إلى مؤلفاته ، فيرى ويسمع من خلالها ما لا تتسع لاستيعابه هذه الأوراق .. ويومئذ سيعلم بيقين أن ماناله من تكريم المؤتمر الأول للأدباء السعوديين في البلد الأمين عام ١٣٩٤ لم يكن إلا بعض ما يستحقه من تقدير المسؤولين والمفكرين .. وحسناً فعل نادي القصيم الأدبي عندما اختاره لعضويته الإدارية ، وكذلك نادي الرياض حين استقبله عضواً كاملاً في هيئته التي تضم صفوة خيار أهل العلم ..

ولعلّي لأتجاوز حدود الإنصاف إذا توقعت لآثاره الفكرية والأدبية والإسلامية أن ترشحه لجائزة الدولة التقديرية في نطاق الأدب ، والله الموفق والمستعان ..

الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء

م — ننتظر من فضيلة الأستاذ أن يقدم نفسه للقارئ اسماً وبلداً ومولداً ودراسة .

مص — اسمي مصطفى ووالدي هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الزرقاء وبلدي حلب، وقد ولدت في العام (١٩٠٧ م). واضطرت لتغيير ذلك التاريخ فيما بعد عندما أردت الالتحاق بالمرحلة الثانوية من الدراسة الخاصة، إذ كانوا لا يقبلون طالبا يتقدم لامتحان البكالورية العامة من ذوى الدراسة الشخصية إلا إذا استوفى الثالثة والعشرين، فأصبح مولدى رسمياً هو (١٩٠٤). أما الدراسة فقد بدأت على طريقة ذلك العهد في كتابيب القرآن، فكان الكتاب الذي التحقت به هو الذي خرّج والدي رحمه الله، ويقوم عليه شيخ مُسنّن من أمهر وأحفظ مستظهري الكتاب الكريم في حلب، هو الشيخ محمد الحجار الذي سبق أن علّم والدي وإخوتي قبلي، ففي هذا الكتاب تلقيت القراءة والكتابة وتلاوة القرآن والحساب وما إلى ذلك من مقررات الكتابيب في ذلك العهد...

والظاهر أن والدي عليه رحمة الله كان بعيد النظر، فلم يلحقني بأى من المدارس الأميرية — الحكومية — المعتادة بل ألحقني بمدرسة الفرير الفرنسية بحلب وأنا دون العاشرة، ومن هذه المدرسة تلقيت مبادئ اللغة الفرنسية ..

م — لقد تلاقينا على السن فكلانا ولد في العام السابع بعد المائة التاسعة، وكلانا رشح للدراسة في الفرير بعد الكتاب، ولكنني استبعدت عنها بعد أن أعدت كل أسباب سفري إليها في طرابلس — لبنان — إذ غلب الخوف على والدي أن يؤثر ذلك على ديني، فألغى ما عزمه في اللحظة

الأخيرة، وأمضى والدكم عزيمته فأتم ماأراده من تلك الدراسة بالفريز التي لابد من التساؤل عن سبب اختياره إياها، وهي من المعاهد التبشيرية الخطيرة؟..

مص— لأعلم لذلك تفسيراً إلا بُعِدَ نظر الوالد، إذ كان يحس أن التطور السريع الذي يعترى كل شيء في تلك الفترة، التي تمخضت عن انطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى، يستدعي تزويد النشء بشيء من الثقافة الحديثة إلى جانب الثقافة الشرعية الأصلية، التي نشأ جيله عليها، وفي طليعتها اللغة الأجنبية، وكانت الفرنسية تعتبر— آنذاك— لغة الثقافة العالمية.. ومن حيث الخطر التبشيري، الذي تنطوي عليه تلك المدارس، فالذي يظهر لي أن الوالد كان واثقاً من قدرته على تحصيني.

م — وصفت والدك بالحكمة، ويبدو ذلك من أثره في ولده، أفلم يكن من الحكمة أن يتذكر أن إدخاله ابنه في مدرسة تبشيرية من هذا النوع مشجع غيره على مثل مسلكه؟!.

مص— لابد أنه تذكر ذلك ولعله لم يكن يرى بأساً في تشجيع غيره في الحدود التي يتصورها.. أعني تزويد النشء بالوسائل التي تستدعيها حياته المقبلة، وفي مقدمتها اللغة الأجنبية

م — يراودني هنا خاطر آخر هو أن المرحوم والدكم وأمثاله إنما أقدموا على ذلك ثقة منهم بأن الجو الإسلامي الذي كان ميزة ذلك المجتمع لا يمنح المبشرين من الفرص مايمكنهم من نفث سمومهم في أبناء المسلمين..

مص— لاشك أن هذا ملحوظ أيضاً..

م — حتى الآن كان كلامكم حول الدراسة الأولية.. ثم..

مص— بعد سنتين من دخولي مدرسة الفريز انفجرت الحرب العالمية الأولى، ومنذئذ أخذ القائمون على المدرسة من (الإخوة الفرنسيين) جنوداً إلى فرنسا، وخلفوا عليها بعض الحلبين من البصارى، فاستمرت على ذلك فترة غير طويلة، ثم أغلقت مع سائر المدارس الأجنبية والوطنية جميعاً، وتحولت المدارس الكبرى ثكنات عسكرية.. وكنت قد انتقلت بعد

إغلاق الفرير إلى المدرسة الرشدية، التي سميت بالثانوية فيما بعد، ولكنها لم تستمر سوى أشهر قليلة حتى أُغِلِّت أيضاً، واستحالت ثكنة عسكرية.. وهكذا انتهى الأمر بالدراسة إلى التوقف التام.

م - وكيف استأنفتم هذه الدراسة بعد ذلك؟..
مص - قبل دخول الفرنسيين سورية استقبلت البلاد عهد الأمير فيصل بن الحسين رحمه الله، الذي لم يستمر سوى سنتين فلم يتح له مجال للاستقرار، وقد انتهى بدخول الجنرال غورو الفرنسي دمشق بعد معركة ميسلون، التي قضت على نواة الجيش السوري بقيادة الشهيد يوسف العظمة، وكان ذلك تنفيذاً لمؤامرة الحلفاء على البلاد العربية، فكانت سورية ولبنان تحت الاحتلال الفرنسي، وشرق الأردن وفلسطين والعراق تحت الكابوس الإنجليزي.

عقب ذلك فكر بعض رجالات حلب من أهل الإيمان والوعى، وأذكر منهم بخاصة مرعي باشا كبير أسرة آل الملاح، وهو من أصحاب الوجاهة الموروثة في حلب، وقد سبق له تسلم مناصب عالية في العهد العثماني، وبعد الاحتلال عين مديراً لأوقاف حلب، ثم أسندت إليه ولاية حلب. ومن مزايا هذا الرجل مخالطته لأهل العلم وتقديره إياهم، وقد فكر في إعادة مؤسسات التعليم التي توقفت كل تلك السنين بسبب الحرب والأحداث التي تلتها، وفتح جدي ووالدي بأن طبقة العلماء الحلبيين في طريقها إلى الزوال، وهم ركائز العلم والفقه والقضاء الشرعي، فإذا هم ولّوا انقطع حبل العلم ولم يبق من يخلفهم.. وبعد الاتفاق مع الوالد والجد أقدم على افتتاح مدرسة شرعية، وأقامها على أسس مخالفة للطريقة القديمة، التي درجت عليها مدارس الأوقاف، حيث كان الدرس أشبه بحلقات المساجد دون تنسيق ولا توقيت، فجعلها صفوفاً ومراحل، يتعاقب عليها المدرسون في حصص يومية، ومقررات نظامية تشمل مختلف العلوم والفنون. وقد وقع الاختيار على المدرسة الخسروية، لتكون مقراً لهذا المشروع، وهي المدرسة المنسوبة إلى خسرو باشا، والتي تتنازع بسعتها وبنائها، وفيها الجامع والقبة الأثرية المشهورة، وتقع على مقربة من القلعة التاريخية.

وما لبثت المدرسة الجديدة أن افتتحت لاستقبال الطلاب الراغبين في الدراسة الشرعية، ولم يخطر في بالي أول الأمر أن أكون بينهم، لأن رغبتى كانت موجهة إلى التجارة التي سبقني أخي إليها، ولكن جدي أصرَّ على والدي بأن يسجلني في المدرسة الشرعية. وبجهد جهيد جمعوا لها من الطلاب ما يشغل السنة الأولى، فكان عدد من الشباب الناشئين، إلى جانب آخرين في الخمسينات، والذين سبقت لهم دراسة شرعية على الشيوخ وفق الطريقة القديمة، وكنت أنا أحد الناشئين المبتدئين ..

وقد جُعِلت مدة الدراسة ست سنوات، يقبل في أولها من كان في مستوى نهاية الابتدائي، إذ يكون مؤهلاً لتلقي الدراسة الشرعية، وقد اعتبرت المدرسة بعد تلك الأيام على مستوى الثانوية، وحتى اليوم تحمل اسم (الثانوية الشرعية).

م — وهل كان ثمة امتحانات منتظمة ..

مص — بلى هناك امتحانات دورية وسنوية يرتقي فيها الطالب من سنة إلى أخرى حتى ينتهي إلى التخرج، ويحصل على شهادتها النهائية ..

م — وما قيمة هذه الشهادة عملياً؟

مص — لم يكن لها من قيمة رسمية لأن الدولة لم تعترف بها، ولكن إدارة الأوقاف قد أولتها العناية، فهي تفضل خريجها لوظائف الإمامة والخطابة .. وليس لهم أي اعتبار أو وزن في دوائر الدولة الأخرى، التي تتطلب الشهادات التعليمية الرسمية، اللهم إلا دائرة الإفتاء التي تقبل لوظائفها خريجي هذه المدرسة.

م — وبعد حصولكم على شهادة هذه المدرسة أين اتجهتم؟

مص — خلال وجودي في المدرسة الشرعية لم أكن لأقتصر على دروسها، بل كنت أتابع دروس الوالد في مختلف المساجد علاوة على دروسه التي أتلقها منه في المدرسة، التي كان يدرسنا فيها مقررات الفقه .. فكنت أحضر عليه في الجامع الأموي — بحلب — دروس الفقه والحديث في يوميه المقررين من كل أسبوع، وفي (جامع الخير) كذلك كنت

أحضر دروسه التي كانت خاصة بأمثالي من الطلاب، وكان له درس يومي في المدرسة الشعبانية ورثه عن والده ففيها كان جدي يقوم بتدريس الفقه والأصول والحديث للرجال الذين بلغوا مستوى عالياً من التلقي، فيقرؤون عليه حاشية ابن عابدين وشرح الزيلعي في الفقه الحنفي وصحيح البخاري، وهي دروس لأعرف أحداً من القضاة والمفتين في حلب وأقضيتهما إلا وهو تلميذ لجدي فيها، ولما تقدم جدي في السن حتى تجاوز الثمانين تخلّى عن دروسه لوالدي، فكان هؤلاء ومن في طبقتهم يحضرون عليه، وأحضر أنا معهم، فلا أفوت واحداً من دروسه هذه علاوة على دروس المدرسة الشرعية المذكورة وأريد من هذا إلى القول بأن معظم دراستي الأولى إنما بدأت على الرُكْب والحصر والبساط، على طريقة الأولين من طلاب العلوم الإسلامية.

م — ومن هنا بدأنا نحن أيضاً.. فماذا عن دراستكم الجامعية..؟
مص — لم تصرفني دراساتي الشرعية والعربية عن متابعة الفرنسية، فقد اتفقت مع بعض الأساتذة النصارى على تدارك ما فاتني منها، فكانوا يزورونني في غرفتي بالخسروية وتارة في بيتنا لهذا الغرض لقاء أجر معلوم، وكانت الخسروية — كما أسلفت — قد أدخلت إلى مناهجها بعض العلوم العصرية كالحساب والحديث والجغرافيا والتاريخ والصحة.. وما إلى ذلك من العلوم التي فرضها التطور على المدارس الإسلامية، بعد أن اقتنع المسؤولون فيها أن من الخطأ بقاء الشيوخ بعيدين عن مجرى الثقافة الحديثة العامة.

وكنت كثير التطلع إلى أن يكون لي من تلك الثقافة الحديثة مثل الذي أراه عند خريجي الثانويات العامة، وبخاصة أن لدي من اللغة الفرنسية الأساس الذي لا بد منه لهذا الأمر، وأفضيت بذلك إلى صديقي ورفيق صباي الدكتور معروف الدواليبي، فاتفقنا معا على متابعة هذه الدراسة، إلا أن عقبة السن قد صدمتنا، إذا كان علينا أن نبدأ من الصفر بعد مرحلة الابتدائي، ولم تكن سننا تساعد على أن نتنظم في مدرسة تبدأ من الأولى بعد الابتدائية، وهي ما يُسمى الآن بالأولى الاعدادية، ومع ذلك لم نلبث أن عقدنا العزم على تحقيق الغاية لإيماننا

بأنها ضرورة لامعدى عنها خلال تلك الظروف، التي اهتزت فيها أوضاع المجتمع تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، الذي شجع عناصر الانحلال والإلحاد، وبخاصة بين الدارسين في الغرب، على مهاجمة الدين، واتهام علماء الإسلام بأنهم لا يفقهون من الحياة سوى أحكام الصلاة والصوم والطهارة والنجاسة.. وأنهم بعيدون عن الثقافة التي لا يجوز لإنسان أن يجهلها.. وكثيراً ما يقارنون بينهم وبين القسوس ودعاة المسيحية ليرزوا الفرق بين الفريقين في هذا الجانب، حيث يصورون القسيسين مزودين بكل جديد من العلوم الحديثة، فمهم الطبيب، ومنهم المهندس، ومنهم الماهر في الرياضيات.. على حين جمد شيوخ المسلمين عند أسفارهم وعلومهم الدينية، فلا يكادون يفقهون في هذه الأمور حديثاً. ومن هنا ينطلق أولئك العصريون لبث سمومهم ودعايتهم الشيطانية ضد الدين كله..

ويقول الشيخ: لقد كنا نحس هذا الواقع الأليم أثناء دراستنا الثانوية، ومنذ ذلك اليوم قدرنا أن السلاح الوحيد الذي يُعوز المؤمنين لمواجهة هذا التهجم الوقح هو أن نجتمع بين حقائق الإسلام وحقائق العلوم الكونية، وهكذا جاء قرارنا توكيداً لأفكارنا تلك بعد دراستنا الشرعية فأتخذنا من غرف الإسماعيلية في حي القلعة مقراً، وأتينا بما يلزم من سبورة وكراريس وكتب، واتفقنا مع بعض أساتذة الثانوية العصرية الوحيدة في حلب، فرتبوا لنا جدولاً دراسياً وزعت فيه المواد على الساعات كشأن ثانويتهم نفسها.. فخصص للفيزياء وأخرى للرياضيات.. وهكذا في سائر المقررات التي لا بد لها من أستاذ، وتولينا نحن دراسة المواد الأخرى التي لا عسر فيها علينا، كالتاريخ والأدب العربي، الذي ولعت به منذ نعومة أظفاري، حتى تفوقت به على أساتذتهم.. حتى الهندسة المسطحة لم نحتاج فيها إلى مدرس لأن المقرر منها مبادئ أولية لا يتعذر علينا فهمها. وصبرنا أنفسنا في هذه السبيل حتى أنهينا البرنامج كله، وتقدمنا إلى الامتحان على نظام البكالورية الرسمية، وقبله كانت المدارس الثانوية هي التي تمنح الشهادات، فتعرض امتحاناتها لأنواع من التلاعب، منها بيع

الشهادات نفسها، فكان نظام البكالورية الذي أحدثه الفرنسيون هو الذي قطع دابر الغش والتلاعب ..

ودخلنا الامتحان العام أنا والدكتور الدواليبي بعد تصحيح أعمارنا بزيادتها ثلاث سنوات على قيدها الأصلي في دائرة النفوس كما أسلفت حتى أتيت لنا القبول حسب النظام .

وكانت البكالورية ذات شقين الأولى ، وتستمر الدراسة فيها إلى السنة الحادية عشرة، ثم الثانية ويتم منهجها في الثانية عشرة . وتقسم الأولى إلى شعبة العلوم وشعبة الآداب، والثانية إلى الرياضيات والفلسفة، وقد دخلت أنا الامتحان في شُعْبَتِي الأولى معاً، وقدر الله لي النجاح بالدرجة الأولى على طلاب سورية جميعاً، على الرغم من دراستهم النظامية طوال سني المنهاج .. ولم يكن للبكالورية الثانية سوى فصل واحد في دمشق، وعلى من نجح في الأولى وأراد المتابعة أن يأتي إلى دمشق لينتظم في هذا الصف، وقد فعلت ذلك، وشجعني على هذه المتابعة تفوقي في العربية وآدابها كما ذكرت، إذ كنت منذ العاشرة أحفظ الآلاف من أبيات الشعر، وأقبل على قراءة القصص، حتى لاستظهر مجموع الأشعار الواردة في قصة عنترة الشعبية، ولما بلغت العشرين كنت أزاحم كبار الشيوخ من أقران والدي على حل المشكلات اللغوية، فيلجئون إليّ كلما استشكلوا قاعدة أو معنى ليعلموا رأيي فيه .. وهذا مادعا مدير معارف حلب الدكتور كامل أشرفية بعد إحرازي التفوق في امتحان البكالورية الأولى على طلاب سورية، دعاه ليعرض عليّ أن أكون مدرساً للأدب العربي في أنطاكية التابعة لحلب آنذاك، فاستأنيت ريثما أؤتشر والدي، وشدّ مادهاش الدكتور أشرفية لتردد في قبول عرضه مثل ذلك العمل الذي يتمناه كبار العلماء، ومن جهة راتبه الذي يعدل واردات والدي بأجمعها .. وبعد تأمل طويل رفع والدي رأسه ليقول لي: يا بنيّ أنا أعلم الناس بك وعموهبتك، ولاشك أن هذه الوظيفة أكبر منك اليوم وهي بالنسبة إلى سواك حلم وغنم، ولكني أراها تحم مسيرتك وتلزمك مكانها أستاذاً في الثانوية فقط .. فيتعذر عليك متابعة دراستك بعدها، فتغلق بوجهك

الفرص التي تنتظر استعداداتك .. والذي أراه لك هو انتهاز فرصة
البكالورية الثانية، فإذا أحرزتها تابعت عليك الفرص حتى ترقى أعلى
المناصب إن شاء الله .. ومع ذلك فارجع إلى نفسك واختر ماتشاء ..
قلت للوالد رحمه الله : بعد أن أبديت رأيك وآثرت لي ما آثرت لم يعد
لي مجال للاختيار، ولا شك أن الخير في ما هو أَرْضَى لك ..

وفي غده اليوم التالى قصدت إلى مدير المعارف فأبلغته قرار الوالد
وايثاره لي متابعة الدراسة .. فاستغرب ذلك بل دهش ودعا لي
بالتوفيق ..

ومن ثم توجهت إلى دمشق وتم تسجيلي بين المقبولين داخلياً ، ولم يكن
الجمع بين فرعي البكالورية الثانية ممكناً ، فأثرت قسم الفلسفة، وقدر
الله لي نجاحاً كالأول في نهاية السنة، إذ أحرزت الأولية على طلابها
جميعاً والله الحمد .. وكان بين الطلبة الذين تخرجوا معي عدد من الرفاق
تسلموا فيما بعد أسمى المناصب فكان منهم وزراء وأساتذة جامعيون .

م — ومن ثم أخذتم طريقكم إلى الجامعة ..

مص — أجل .. لقد التحقت فور تخرجي بالجامعة السورية التي سُميت فيما
بعد جامعة دمشق بعد إنشاء جامعة حلب، وكانت تحتوي عدة كليات
أقدمها كلية الطب، التي انشئت منذ الحرب العالمية الأولى ..

م — والحقوق هي أولى الكليات التي أنشأها الفرنسيون، وكان غرضهم
منها تأمين حاجتهم من الموظفين الصالحين للإدارة ..

مص — هو كذلك .. وتبعها كلية الصيدلة، وقد أنشئت كلية الآداب قبل
التحاق بالجامعة بعام واحد وسميت مدرسة الآداب العليا ..

م — أكان عميدها الأستاذ عبد القادر العظم ؟.

مص — كلا .. بل الأستاذ شفيق جبري، وهو من كبار شعراء الشام وأدبائها،
وكان من أساتيدها الشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ عبد القادر
المبارك، الملقب بالقاموس الحي، والأستاذ سليم الجندي، وهو من
كبار أساتذة الجيل وأساطينه أما الأستاذ العظم فكان عميد كلية
الحقوق .

وقد جمعت بين الحقوق والآداب ، فكنت أحضر دروس الحقوق قبل الظهر ، ودروس الآداب العليا بعد الظهر ، وكان بين المنتسبين إلى الآداب كثير من الموظفين الذين وجدوا في فسحة مابعد الظهر متنسعا لحضورهم .

وفي العام ١٩٣٣ تخرجت في كلتا الكليتين ، وأحرزت الدرجة الأولى في كليتهما أيضاً بفضل الله ، ومما يسرني أني لأزال أحفظ بخطائين يسجلان لي التقدير والثناء على ذلك ، أحدهما من عميد الحقوق الأستاذ عبد القادر العظم ، والآخر من عميد مدرسة الآداب الأستاذ جبرى .

م — سؤال بين معترضين : إن بحوثكم القيمة في الثقافة الإسلامية تقتضي أن يكون وراءها ذخير كبير من القرآن الكريم ، فهل قدر لكم حفظه ؟ .
مص — لم أوفق إلى ذلك ، ولكنني أحفظ منه أقساماً كثيرة بحمد الله ..

م — والحديث الشريف ؟ ..
مص — لقد عُنيت بالحديث الشريف كثيراً ، ولكنني لم أحفظ منه إلا ما أتاحت لي الدراسة الشرعية وحاجتي المتجددة إليه ، فأنا كثير الاطلاع ولست بكثير الحفظ .

م — هل تشعرون بأن ذاكرتكم تسعفكم بالشواهد اللازمة من الوحيين عندما تقبلون على كتابة البحوث ؟ ..
مص — أشعر دائماً والله الفضل والمنة ، أن الشواهد تسعفني ، وأن أفكاري يستدعي بعضها بعضاً ، عندما أقوم بالكتابة ..

م — ولكن المعلوم عند أصدقائكم أنكم أحد المبتليين بضعف الذاكرة ..
مص — هذا الضعف يكاد ينحصر في ناحية الحوادث والوقائع وتحديد أزمنتها ، ففي هذا الجانب أشعر بأني سيء الحفظ ، وأما في الجوانب العلمية والفقهية وأمور الأحكام وما إليها ، فإن ذاكرتي قوية ولبقة وعالية الضبط والله الحمد .

م — لقد آن لنا أن نعرف بعض الأنباء عن الرجال الذين أنزوا في توجيهمكم ..

مص - لعل أعمق الرجال تأثيراً في نفسي هو الرجل الذي لم أدرس عليه . انه جدى رحمه الله ، أدركته وأنا شاب وقد حصلت ماحصلت من الدراسة الأولى وهو حي ، إذ كانت سنه تقارب الخامسة والثمانين ، إلا أنني كنت أرى واستشعر مابلغه من العلم حتى لقد استدعني إلى استأبول ليكون أميناً للمشايخة الإسلامية ، وقد بلغ بمزايه الفقهية النادرة منزلة لا حاجة للتحديث عنها ، لأنها مشهورة لدى العلماء وكان رجال القانون في حلب يعدونه مرجعاً لاغنى عنه في كل مايريدون استخراجاً من الأحكام الشرعية ..

وكنيت أشهد وقاره وما يتمتع به من احترام مهيب ، فقلما ورد حلياً أحد إلا كان أول عمله زيارته وتقبيل يده وطلب الدعاء منه ، فكان بمركزه المرموق يُعد فوق جميع المستويات . وكثيراً ما سألت نفسي ، وأنا ألحظ هذه المكانة : هل يأمل أحد أن يبلغ مثلها ؟ .. وهل أطمع مثلاً أن أبلغها في حياتي ؟ ..

فأنا أعتقد أن جدى رحمه الله ، بهذه المزايا التي كنت ألمسها منه هو أكبر مؤثر وحافز لي .. وقلت إنني لم أدرس عليه لأني لما بدأت الدراسة في مطلع شباني كان هو قد اعتزل التدريس لتقدم سنه ، إلا درساً واحداً في الأسبوع يتطوع به لكبار أهل العلم من طبقة والدي .. وأذكر أنني حضرت عليه في إحدى المرات فترك في نفسي صورة نموذجية له ، ثم لم يلبث بعدها إلا قليلاً حتى انتقل إلى جوار ربه ، وأنا في السنة الثانية من الثانوية الشرعية ، فرثيته بقصيدة سكبت فيها كل مشاعري نحوه رحمت الله عليه ، وكانت من بواكير شعري ..

م - كان هذا الجد غفر الله لنا وله أول الرجال أو أعمقهم أثراً في نفوسكم . ثم من ؟

مص - ثم يأتي الأساتذة الذين أفدت من دروسهم ، وفي طليعتهم والدي ، وبخاصة من الناحية الفقهية ، فقد كان يقضي معي الليالي الطوال ، وربما امتد السهر إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ونحن في نقاش فقهي ، يبلغ بنا أحياناً إلى التشاد ، كل مع دليله وطريقة فهمه ، وقد

ينحاز إلى رأيي بعد طويل جدال، وقد يكون الانحياز مني إلى رأيه أخيراً، وعلى كل حال كان معي مثل المدرّب الرياضي الذي يريد تخرج الأبطال يشجعني على النقاش، ويمرّني على استخلاص الأحكام من خلال الأدلة والحجج.. تمرين خبير أوتي صبراً وسعة إطلاع حتى لا يكاد يوجد كتاب في الفقه ولا من أمهاته الأولى إلا وله فيه لأقول دراسة، بل حرائة، وكان أحسن من رأيت بعد جدى رحمهما الله ثقافة في الفهم الفقهي، والتخريج وتنزيل المسائل والحوادث على القواعد، ولا أعلم أحداً بعده له مثل دقة نظره في هذه الجوانب.. ولقد آنس مني استعداداً للاستزادة من علمه وتدرياته فأرى أن تكون ملازمتي له أطول ما يمكن، لذلك استخرج سرير أمني من غرفته ليجعل مكانه سريراً لي فأبيت بجواره، فلا نضيق فرصة دون فائدة أو مذاكرة. وكان ذا ولع بالأدب والشعر وذا بصيرة منقطعة النظر في نقد الشعر، يطربه منه الفحل الجزل فيكاد يرقصه إعجاباً.. إلا أنه لم يجرب قرض الشعر فيما أعلم.

م — ليس ضرورياً أن يكون الفقيه من صاغة الشعر بل المهم أن يتذوقه كي يفيد في دراسة النصوص العالية.

مع — وكذلك كان فهو على مستوى رفيع من هذا الذوق.. ولم تكن مذاكرتنا كلها في حقول الفقه، بل كانت متنوعة الأشكال، وربما أنفقنا الساعات والأيام والليالي في مطالعة الروائع من كتب الأدب، كالأغاني والعقد الفريد وما إليهما.. وقد كان لهذه المشاركات أثرها الفعال في تكويني الأدبي، إلى جانب المناقشات الفقهية التي لم تكد تنقطع.. ثم هناك أساتذة آخرون تركوا بصماتهم على فكري من جهات أخرى..

م — إن نشأة في مثل هذا الجو الرفيع لا بد أن تسترعي الانتباه وتستدعي الدراسة.. فقد تبين لي من خلال عرضكم الدقيق للعلاقة التي كانت بينكم وبين والدكم أنه من طراز خاص نادر الوجود بين الآباء. إنه يحترم شخصيتكم وإنسانيّتكم، ويثق بعقلكم فهو لكم كالصديق

الممتاز الذي خلت نفسه من آثار العنف، وتحلت بالصبر والدمائة والمرانة.. فكان بذلك خير معاون على تنمية مواهبكم وتوسيع آفاق تفكيركم، فلا عجب والحالة هذه أن يكون الرباط بينكم وبينه رباط أبوة وبنة وأخوة معا.. وجدير بهذا الضرب من التربية أن يترك آثاره كأعمق ماتكون المؤثرات..

مص- ولقد ارتفعت الحجب بينه وبينني في نطاق المناقشات العلمية، مع الحفاظ التام على كرامة الأبوة ووقارها:

م - بقي أن نسألكم عن علاقتكم مع أبنائكم هل تطبقون معهم المنهج التربوي نفسه؟..

مص- نعم.. إنه المنهج نفسه، على أن الفرق الذي لا يمكن تداركه هو فقدان المناسبات التي أتاحت لي مع الوالد. فالدراسة كما تعلمون قد تطورت اليوم فسلبت البيت الكثير من حرية الحركة مع الأولاد، وهم في مراحل الدراسة، فالأنظمة مرهقة، والالتزامات المدرسية ثقيلة، والساعات محدودة، فلو أخذت من ولدك ساعة لعطلت عليه واجبه، ولعرضته للسقوط في الامتحانات..

م - تلك ظروف يستحيل التغلب عليها بعد أن تجاوزت إمكانات البيت، ولكن يبقى الجانب الثاني من التربية وهو نوعية العلاقة بين الوالد والولد.. فهل جريتم مع بنيكم على طريقة أبيكم اللينة الحليمة البعيدة عن الشدة والعنف؟..

مص- تماماً، فانا رفيق صغيرهم في ألعابهم ورياضاتهم، وصديق كبيرهم في دراستهم ومشكلاتهم..

م - فهنيئاً لذلك البيت السعيد إذن!..

مص- نعم والله الحمد إنه لبيت قريب من حدود السعادة إن لم يكن في صميمها.. إذ لم يُبق التطور في الحياة من سبيل إلى استعادة الجو الذي عشناه في ظل الوالد كاملاً، فقد أغرقت الدراسة الأولية معظم أوقات الأولاد، ثم جاءت المرحلة الجامعية لتبتلع سائرهم.. حتى إذا ما أتم

أحدهم دراسته الجامعية أخذ سبيله إلى أمريكا، وتبعه الآخر إلى كندا.. لاستكمال الدراسات العليا التي أصبحت ضرورة لامتدوحة عنها، وما إن يفرغ الواحد من تلك المرحلة حتى ينصرف إلى الجهة المهيأ لها. وهكذا فرقت الحياة شمل الأسرة، ففقدت معظم المقومات التي كانت تحتفظ بها حتى عهد قريب، ولعلي أنا آخر حلقة في هذه السلسلة بين القديم والحديث..

م — أشرتم في ماتقدم إلى آخرين كان لهم أثرهم في نشأتكم وفكركم، فلو تفضلتم بشيء من التفصيل عنهم..

مص— أذكر من هؤلاء اثنين تركا أثراً قوياً في تكويني الفكري والاجتماعي، وكان لأسلوبهما العلمي يد لاتنسى في بنائي الذهني. أحدهما الأبلغ أثراً هو الشيخ محمد الحنفي رحمه الله، تتلمذ على جدي، ثم التحق بالأزهر، وتخرج على علمائه، ومنهم الإمام محمد عبده، الذي أخذ عنه رسالة التوحيد وكثيراً من التفسير، ثم عاد إلى حلب ليكون واحداً من رعييل الأساتذة الذين جيء بهم للتدريس في الخسروية أول نشأتها، فكان يدرسنا التفسير والتوحيد والبلاغة.

لقد امتاز هذا الأستاذ الفاضل بحسن البيان وفصاحة اللسان وانطلاق الفكر وتسلسله، إذ كان يُيسط الأمور المعقدة فيمضي بها من البسيط إلى المركب، حتى ليصور لنا أعقد المشكلات ماثلة بمنتهى الوضوح، فمن هنا كان إبحاؤه عميقاً في ذهني، وطريقة أدائي وفي التزامي البيان الناصع.

ومن مواقف هذا الشيخ معنا أتذكر ساعة كنا بين يديه على الحصير في المدرسة الخسروية، وذلك قبل إدخال المقاعد إلى قاعات الدرس، وقد شرع في شرح إحدى القضايا العلمية، فعرض لي خاطر يختلف عن مرئياته فيها، فاستأذنته لإبدائه، فأذن وأصغى إلي باهتمام وأنا أعالج المشكلة وكيفية حلها في تقديري، فاستقبل ذلك مني بالرضى والإعجاب، وقال لي تلك الكلمة التي تركت صداها مدويا في نفسي: (يامصطفى.. سيكون منك واحد من رجال العلم إن شاء الله..).

أما الآخر فهو الشيخ محمد راغب الطباخ المؤرخ المشهور وصاحب كتاب (إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء) سبعة مجلدات، وكان ذا ولع كبير بكتب الحديث ومخطوطاته، وله تتبع في مخطوطات التاريخ والسيرة النبوية، ويحرص أن يستخرج لنا العظات من حوادث السيرة فيقف بنا على مواطن العبرة فيها مما يسمى اليوم بفقه السيرة، وكذلك يعمل في درس الحديث الشريف، إذ كان ينهنا إلى العميق من علومه وكنوزه.. هذا إلى تنوُّر في الفكر، وانفتاح على حاجات الزمن، كشأن شيخنا الحنفي، رحمهما الله جميعاً ومن هنا كان أثره في توجيهي إلى حرية التفكير والبحث، وإلى ربط العلم بالحياة.. فلهذين الأستاذين بعد والذي أكبر الأثر في تثبيت خطاي في الطريق العلمي الصحيح..

م — وما أهم الأحداث التي عاصرتها وما انفعلمت بها؟
مص — سأكتفي من هذه الأحداث بوحدة كان انفعالي بها كبيراً جداً، وكان من آثارها أنها عنمتني دروساً جديدة في الحياة والسلوك وفي أخلاق الناس.

بعد وفاة والدي حللت مكانه في المدارس التي كان يعمل فيها.. وتوليت القيام بالدرس الذي كان له في الجامع الأموي بحلب، وكذلك في جامع الخير والمدرسة الشعبانية، والمدرسة الخسروية النظامية، التي سبق ذكرها وسميت فيما بعد بالثانوية الشرعية.

في هذه الفترة من عام ١٩٣٨ كان قاضي حلب الشرعي رجل من جسر الشغور هو الشيخ محمد الأهدي، ثم مالبت أن نقل من القضاء إلى إدارة الأوقاف، وكان رجلاً تقدماً محباً للإصلاح، فتذاكرنا وإياه مع بعض الزملاء من الشباب المتطلعين إلى الإصلاح، وتلاقينا في التفكير على مشروع عظيم الأهمية، هو تجميع المدارس الوقفية القديمة تحت نظام دراسي موحد يجعل منها كلية شرعية ذات مرحلتين ثانوية وعالية..

وقبل المضي في الحديث أحب أن أذكر بأوضاع المدارس الوقفية إذ

ذاك، ليتضح أكثر الهدف الذى اتفقنا عليه يومئذ..

هذه المدارس كان معظم الطلاب المجاورين فيها — المقيمين في غرفها — من الكسالى الذين يتخذون من غرفها مأوى لهم باسم الدراسة، وقلما يلقى فيها درس، وإنما هي أشبه بملجأ عجزة، ولا سائل ولا مسئول، مع أن في أوقافها خيراً كثيراً، ولكنها مقصورة النفع على متوليها إذ يأكل المتولي تسعة أعشار غلتها، ويتناول أولئك الكسالى العشر الباقي لطعامهم دون أن يناقشوه بشيء، ولو تجرؤا على مناقشته لاستبعدهم وجاء بغيرهم .

فالجميع والحالة هذه متواطئون على الرضى بالواقع ، الطلاب ساكتون عن تصرف المتولي احتفاظاً بمنفعتهم القليلة التي لا يستحقونها، وهو راض عن كسلهم وبطالتهم لأنهم يتيحون له الذهاب بحصة الأسد دون مناقشة ولا حساب .

كان هذا شأن الكثير من المدارس الوقفية ، التي لوضُبطت وارداتها لأنشأت جامعات .. وقد تم الاتفاق بيننا وبين مدير الأوقاف الجديد على القيام بهذه المهمة بحيث نحقق غايات الواقفين لهذه المدارس فنوحدها في تنظيم دراسي حديث، ونبدأ ذلك في توسيع نطاق المدرسة الحسروية بإحداث مرحلة عالية للدراسة الشرعية، وهي مرحلة لاوجود لها في سورية حتى ذلك العهد، ينتقل إليها خريج الثانوية الشرعية لمتابعة دراسته العالية على مستوى الكلية ضمن أربع سنوات، فيكون المتخرج في هذا القسم مستحقاً صفة العالم، بعد أن كانت الثانوية الشرعية تقف به في منتصف الطريق، فلا هو بالعالم ولا هو بالجاهل، وليس لشهادتها أي قيمة عملية كما أسلفنا.. وتعتبر بقية المدارس الموحدة بمثابة مدرسة ثانوية، وكل واحدة منها يؤلف طلابها واحداً من الفصول الثانوية المتدرجة في الارتقاء.

وطبيعى أن هذا يقتضى إنشاء صندوق موحّد تُجسبى إليه غلات تلك الأوقاف، وتصرف في تخطيط حسابي دقيق على هذه الإحداثيات التي ستكون الدراسة فيها متابعة في ارتقاء الطالب دون توقف، حتى

يتخرج.. وإذا رسب في امتحان إحدى السنين يمنح مهلة سنة أخرى،
فإن رسب بعدها دون عذر مقبول فصل لكسله أو لعدم قابليته .

ولما عرضنا هذه الأفكار على مدير الأوقاف طار بها فرحاً ، وكلفنا أنا
وزميلين السعي لتحقيق هذه الغاية، وقمنا نحن مع بعض فضلاء
الشيوخ بوضع البرنامج اللازم، وفي مقدمة هؤلاء الفضلاء الشيخ عبد
الحميد الجابري رحمه الله وقد تم ما أردنا فجاء البرنامج على الغاية من
التوفيق، وبدأ مدير الأوقاف الشيخ الأهدلي خطواته الأولى في طريق
التنفيذ فأصدر قراراً بتوحيد هذه المدارس الوقفية، وطلب إلى المتولين
أوقافها أن يقدموا مخصصاتها التالية إلى صندوق خاص أعد لهذه الغاية
في إدارة الأوقاف .. ولكن .. مناهو إلا أن أعلن هذا التخطيط حتى
قامت قيادة ذوي العلاقة بالموضوع، من الطلاب المجاورين في تلك
المدارس ومن الشيوخ المدرسين فيها، ذلك لأن التنظيم الجديد سيفرض
دراسة وتدريساً بصورة جديدة، وسيميز بين الكسالى والجادين من
الطلاب، وبين الأكفاء وغيرهم من الشيوخ المدرسين. فمن كان
مستعداً للمتابعة النظامية وكفوفاً لها فالباب مفتوح أمامه، وإلا فنصبيه
الفصل والتسريح، فليفتشوا لهم عن عمل آخر خارج هذه المدارس
التي إنما وقفت ورصد لها الأموال للتعليم والتعليم الشرعيين، وتخرج
العلماء الذين تحتاج إليهم الأمة، ولم توجد للبطالة وشرب الشاي .

وبلغت ثورة الانتفاعيين يومئذ ما لا يتصور، فقد حشدوا كل طاقاتهم
لمقاومة ذلك التنظيم الإصلاحى، واشتروا بعض فاسدى الذم من
الصحفيين لهاجموا المشروع، فراحوا يشنون عليه الغارات، ويسميه
بعضهم (خطة إلحاد) لأنه يزعمهم يخالف شروط الواقفين لتلك
المدارس، كأن من شروط الواقفين تجميع الكسالى وشباب البطالين
والمرتزقة على حساب العلم والدين !.

ويالها معركة شغلتنا وقتاً غير يسير بالرد على أباطيل المرجفين ،
ومغالطات المشبوهين وافتراءات الكاذبين وكان نصيب مدير الأوقاف
منها متاعب كثيرة، وقد زاد من قوة الخصوم دعم السلطات الفرنسية

إياهم .. حتى انتهى الأمر بإعادة مدير الأوقاف إلى القضاء، والإتيان
بآخر من دمشق لم يلبث أن انحنى للعاصفة فقد كان امرءاً ملايناً أكثر
من اللازم، ولم يجد في نفسه — على الرغم من طيبته وحسن خلقه —
القدرة على متابعة خطى سلفه مع يقينه بصحتها، فوقف المشروع ثم
دفن في مهده .. وكان ذلك نصراً للباطل الصريح على الحق الصحيح .
ولكن بعض مناوئيه استيقظوا بعد سنوات فأدركوا خطأهم، وندموا
على فعلتهم، وبخاصة عندما أنشيء القسم العالي للدراسة الشرعية في
دمشق، فاضطر العديد من أبناء حلب للهجرة إليها لمتابعة التحصيل
الشرعي العالي، الذي أتاحه ذلك القسم لطلاب العلوم الشرعية .. على
أن كثيرين من أولئك المعارضين ظلوا على عنادهم وحقدهم .. وبذلك
انطوى مشروع توحيد المدارس الوقفية في حلب نهائياً، ثم أعقبه بعد
ذلك توقف القسم العالي للدراسة الشرعية الذي أنشأته الإدارة العليا
للأوقاف في دمشق ..

م — خلال حياتكم المباركة مررتم بظروف خَصَّتْ العالم وأحدثت كثيراً
من التغيرات في المجتمعات العربية، فيرجى التفضل بعرض انطباعاتكم
في هذا الصدد .

م — في المرحلة الأولى من هذه الظروف كنت في بداية نشأتي، فلم يكن
لديّ الوعي الكافي، ولا قدرة الاستيعاب التي تمكنني من الربط بين
الأحداث وبين مسبباتها ونتائجها .. وإنما بدأت أعي هذه الأمور منذ
الاحتلال الفرنسي في أول العشرينات، ولاشك أن لهذا الاحتلال تأثيراً
كبيراً في نفسي، وفي تكوين مفاهيمي السياسية، وفي إدراكي لمصائر
الأمم التي يحتلها الأعداء كما حدث في سورية ولبنان، وقد شهدت
وسمعت الكثير من وحشية المحتلين وفقدانهم الإنسانية ومدى مطامعهم
في بلادي، وهذا مادعاني إلى الانغماس مبكراً في الأعمال السياسية،
وفي النضال الوطني ضد الفرنسيين، وكنت أنا والدكتور الدواليبي
وعدد قليل من الشباب في صفوف الكتلة الوطنية، وقد توثقت صلاتنا
بقادتها أمثال إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وإخوانهما، ومن خلال
هذه المشاركات الوطنية عرفنا المزيد من نفسية المستعمرين كما وصفها

شوقي بقوله :

وللمستعمرين وان الانوا قلوب كالحجارة لا ترق

م — إن هذا التصوير الحي لأيام النضال ضد الفرنسيين يدفع إلى سؤال آخر نستوضح به رأيك في المقارنة بين عهد المحتلين وعهد الانقلابيين ..

مص — أول ما يواجهه المفكر الاختلاف بين العهدين في نطاق الحرية التي تتاح في ظلّهما . وما لاختلاف عليه أننا كنا أيام الفرنسيين نملك القدرة على التعبير عن أفكارنا ومطالبنا المشروعة أما في ظل الانقلابيين فتحت ستار الوطنية ومصلحة الأمن ومقاومة العدو ، يكتمون الأفواه ، ويخنقون الأفكار ويلغفون من الاعتداء على الحريات الشخصية والفكرية ما لم يبلغ بعضه الفرنسيون ذلك لأن الانقلابيين يمارسون هذا الضغط باسم المصلحة العامة ، فيخترعون لمعارضهم ما يريدون من التهم ، ولا يسمحون لثّهم بالدفاع عن نفسه .. وحسبك ما كانت تتمتع به المعارضة أيام الفرنسيين من حق الكلام في صحافة خاصة بها ، على حين يقبض الانقلابيون على أزمة الإعلام كلها مسموعة ومنظورة ومقروءة ، حتى لا يسمع غير صوتهم ، ولا يرى سوى وجوههم ، ولا يُقرأ إلا كلامهم . فأنا الآن أشعر أن حرية النضال ضد الظلم وضد السياسة الاستعمارية والانحرافات ، كان لها مجالها وحريتها في عهد الفرنسيين ، والإنسان المعارض لهم يجد القدرة على ابداء رأيه بكل وسائل التعبير . وسأحدثك بمثل من ذلك .

رأى الفرنسيون ذات يوم أن يعلنوا ما يسمونه بقانون الطوائف ، ويريدون به توحيد أحكام الأسرة بين المسلمين والمسيحيين ، فما إن علمنا بهذا الأمر حتى خرجنا للاحتجاج عليه بتظاهرة تضم عشرات الآلاف ، وعلى درج الحكومة ألقى خطبة نارية ضد الفرنسيين ومفوضيهم وعلى مسمع منهم ومرأى ، فأهبت الجماهير حماساً ، ولم ينلني من جراء ذلك أي أذى . وبهذه التظاهرة منعنا صدور هذا القانون ونفاذه بالصورة التي كانوا يريدونها .. فأين هذا من العهود

التي سدت المنافذ بوجه كل حر، وجعلت الموت والتعذيب جزاء كل كلمة لا يرتضونها!

م — بقي أن تحدثونا عن آثاركم العلمية الأدبية .

مص — سأحدثك بآثاري التي أنجزتها في كلية الحقوق، إذ لاحتاجة إلى إعادة الكلام عما سبق هذه المرحلة. عندما عينتني جامعة دمشق أستاذاً لتدريس الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية، كان أساس هذه الحقوق مجلة الأحكام العدلية المستمدة كلياً من الفقه الإسلامي، وقد سبق أن تلقيت دراستها في الكلية طالباً، واليوم كلفت تدريسها أستاذاً. وكان لدى شعور بالحاجة إلى عرض أحكام هذه المجلة ومرتكزاتها من الفقه الإسلامي بأسلوب عصري جديد، على نسق مانراه من عرض الأحكام في القانون المدني الفرنسي وشروحه، وقد ضاعف من شعوري هذا ولعي الفطري أو الكسبي بعرض الأفكار مرتبة بحيث تتدرج من البسيط إلى المركب، يضاف إلى هذا الولع ذخيري من الدراسة القانونية وبحوثها ومناهجها ونظرياتها.. ولهذا رأيت أن أفيد من هذه الفرصة فأستخدم إمكاناتي واختصاصاتي في خدمة الفقه الإسلامي، وبخاصة فقه المجلة، عن طريق عرضه في ذلك الأسلوب الذي اتصوره. وقد أعانني الله على هذه المهمة الجسيمة بمدد من الصبر والجهد واستلذاذ العمل، حتى لقد كنت أقضي فيه الليالي الطوال دون كلل ولا ملل. وأذكر أنني في ليالي الشتاء القارسة كنت أصلي العشاء في وقتها، واقعد بجانب المدفأة مكباً على أوراق ومراجع، أحرر وأكتب وقد انصرف عني أهل البيت ليأخذوا حقهم من النوم، وانصرف عنهم إلى المراجعة والكتابة فلا أنتبه من استغراقي إلا وقد كادت تطلع الشمس، فأنب ذاهلاً لأدرك صلاة الصبح قبل فوات وقتها..

في هذه المرحلة وفقني الله لإخراج سلسلتين من المؤلفات، أولاهما هي السلسلة الفقهية، وعنوانها العام (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وقد بلغت أجزاءها أربعة مجلدات، وقدر الله لها البقاء والذیوع فهي مرجع للتدريس إلى اليوم — ١٤٠٠ هـ في جامعة دمشق، وفي الجامعة الأردنية

وغيرهما، وتعتبر من المراجع المعتمدة لدى القانونيين والشرعيين والأساتذة المدرسين لموضوعاتها في جامعة دمشق، ولاسيما النظريات الأساسية في الفقه الإسلامي، وهي مؤمنة في جامعة دمشق..

هذه السلسلة بما تنطوي عليه من التجديد في أسلوب عرض الفقه وتبسيطه قد أوضحت المعقدات من القضايا الفقهية، التي كانت تستعصي على غير طلاب الفقه القارحين، حتى باتت بمتناول أفهام غير ذوي الاختصاص..

أما السلسلة الثانية فتتألف من ثلاثة مجلدات في شرح القانون المدني السوري، الذي حل محل مجلة الأحكام الملغاة بالقانون المدني عام ١٩٤٩. عرضت فيها النظريات القانونية الوضعية بصورة مبسطة كذلك، ولم أجر فيها على غرار مايفعله الكثيرون من القانونيين العرب، إذ يأخذون المصادر الأجنبية ويترجمونها حرفياً بل سلكت مسلكاً حراً في شرح القانون وفي عرض أحكامه ونقدها.. وقد أودعتها آراء وبحوثاً قد تخالف آراء أولئك القانونيين الذين نقلوها بمحض التقليد للأجانب في مصر وغيرها.

وهكذا امتازت السلسلتان بخصائص واضحة من التجديد، جعلت الكثير من الدارسين يرجعون إليها لتكوين الفهم السليم، ومن ثم ينصرفون إلى الكتب المقررة عليهم..

م — إن انصرفكم للعلوم الحقوقية لم يخدم ميلكم الأدبي إذا لم يساغد على تعميقه.. فهل ثمة أثر أدبي تحدثوننا عنه؟

مص — لقد درست الأدب العربي في المدرسة الحسرية عقيب دراستي الجامعية، ولكنني لم أولف أي كتاب في الأدب وعلى الرغم من ولعي بالشعر وممارسته لم أخرج فيه ديواناً حتى يومي هذا، لأن عملي العلمي وانشغالي بالتأليف القانوني لم يدع لي مجالاً لشيء من ذلك.. بل لقد حافا على ميولي الشعرية فقل إنتاجي منه بإزاء ماسبق لي من المنظوم.. وقد نشرت من شعري بعض القصائد أو المقطوعات، وهي قليلة بالنسبة إلى ما لم ينشر، والمحفوظ لديّ منه لا يعدو أوراقاً مبعثرة يعوزها

التصنيف والتنسيق.. وفي النية أن أنتهز لها بعض الفرص التي تمكنني من جمعها في إطار منظم، وربما فكرت بتقديمها للنشر في ديوان....

م — لو تفضلتم ببعض الحديث عن الأعمال التي توليتموها..

مص— هذه الأعمال تتألف من ثلاثة أقسام (١) التدريس . (٢) النيابة . (٣) الوزارة .

أما القسم الأول فبدأ بانتقالى إلى دمشق للتدريس في الجامعة السورية . لقد عينت أستاذاً في كلية الحقوق عام ١٩٤٤ م . لتدريس القانون المدني والشرعية الإسلامية، وعندما أنشئت كلية شريعة سنة ١٩٥٤ م في الجامعة السورية كان لي فيها عدد من المحاضرات، وعلى الرغم من دخولي الانتخابات البرلمانية ونجاحي فيها ممثلاً عن مدينة حلب، لم أتنخل عن التدريس في الجامعة، لأن النظام السوري كان يسمح بالجمع بين التدريس الجامعي والنيابة، إذ يرون أن في هذا الجمع مزيداً من الخبرة للأساتذة يستفاد منها في ميدان الأعمال العامة..

وفي هذه الفترة النيابية ما بين (٩٥٤ — ٩٥٨) كنت مع فريق من الأصدقاء المنسجمين تشكل في مجلس النواب ماسميناه بالجهة الإسلامية .

م — كان الدكتور مصطفى السباعي معكم في هذه الجهة؟
مص— بل الذي كان معنا هو الأستاذ محمد المبارك أما الدكتور مصطفى السباعي فقد كان في هذه الجهة قبلنا بمرحلة سابقة..

وقد أسندت إلى عام (١٩٥٦ م) من هذه الفترة وزارنا العدل والأوقاف إلا أن هذه المرحلة لم تستمر سوى أقل من سنة، تحرك خلالها المكتب الثاني للمخابرات العسكرية برئاسة عبد الحميد السراج، فاستقالت الوزارة، وقامت مكانها وزارة أخرى بتوجيه المخابرات، ثم ألغيت هذه الوزارة بقيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ ولم تستمر إلا قليلاً حتى حصلت الانتفاضة التي قضت على هذه الوحدة في ٢٩/٩/٩٦١ ووضعت البلاد تحت حكم

عسكري غير دستوري قرابة سنة أعيدت في نهايتها الحياة الدستورية من جديد، وأجريت الانتخابات العامة ونجحت فيها عن حلب أيضاً، وتألّفت الوزارة الجديدة برئاسة أئحينا الدكتور معروف الدواليبي، وقد أسندت إليّ فيها وزارتا العدل والأوقاف كرة ثانية، ولكن مالبت العسكريون أن تحركوا وألغوا الحياة النيابية واعتقلوا النواب والوزراء ورئيس الجمهورية الأستاذ ناظم القدسي، وبذلك انتهت أعمالى السياسية فى النىابة والوزارة، وعدت إلى قواعدى الأولى فى التدريس الذى لم أنقطع عنه خلال ذلك ..

م — هناك جانب رابع من أعمالكم لا يقل أهمية عن هاتيك الثلاثة هو مشروع الموسوعة الفقهية التى قمتم عليها عدد سنين فى الكويت، ثم الجمع الفقهى بمكة المكرمة، ثم عملكم الراهن فى الجامعة الاردنية ..

مص — بعد إنشاء كلية الشريعة الإسلامية فى جامعة دمشق عام ١٩٥٥ فكرنا أنا وإخوان من زملائي الأساتذة فيها، هم الدكتور معروف الدواليبي والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك، بمشروع موسوعة للفقه الإسلامي تقوم به كلية الشريعة، يعرض فيه الفقه الإسلامي على مختلف مذاهبه، مرتبة مسائله وفق أسمائها الاصطلاحية حسب الحروف الهجائية ليستطيع غير فقهاء الشريعة من رجال القانون والإدارة، أو القضاة والمحامين وأساتذة الجامعات وشرح القانون فى البلاد العربية والأجنبية كالمستشرقين، أن يرجعوا إلى فقهنا الإسلامي فيتبينوا مافيه من ذخائر النظريات القانونية والحلول المنطقية السديدة فى مشكلات التعامل وقضاياه، وفى العبادات كذلك لتتضح سعة الآفاق فى فقه الشريعة، ولتتمكن الاستفادة من مختلف المذاهب والآراء الفقهية . فمن أراد العلم مثلاً بأحكام العدة فى الطلاق أو وفاة الزوج يرجع إلى حرف العين من هذه الموسوعة فيستخرج كلمة (عدة) كما يستخرجها من معجم اللغة، فيرى أحكام العدة بمختلف أنواعها وفى مختلف المذاهب، ومن شاء معرفة مافى الفقه الإسلامي عن أحكام الركاز، أو عن تقادم الحقوق المانع لسماع الدعوى رجع إلى كلمة (ركاز) فى

حرف الرء أو إلى كلمة (تقادم) في حرف التاء المثناة، فيجد أحكامهما المفصلة.. وهكذا. فهذه الموسوعة أصبحت ضرورة إسلامية حين ندعو إلى تطبيق الفقه الإسلامي واستمداد التقنيات الزمنية منه، ولا سيما القانون المدني العام. فقد بدأت مصر في القرن الماضي بأخذ قانون مدني أجنبي الأصول، ثم انتشرت العدوى في أواخر الأربعينات من القرن الحاضر إلى كثير من البلاد العربية، فأخذت بالقانون المدني المصري الأجنبي الأصول، وانقطعت عن تراثها الفقهي العظيم .

وقد كان تفكيرنا بمشروع الموسوعة الفقهية نتيجة لتوصية مؤتمر (أسبوع الفقه الإسلامي) الذي عقد في كلية الحقوق بالسوريون من العاصمة الفرنسية في تموز ١٩٥١ وشار كنا فيه أنا والدكتور معروف الدواليبي عن الجامعة السورية. فقد أردنا أن تقوم كلية الشريعة الحديثة في جامعة دمشق بتحقيق هذه التوصية. فعملنا على إنشاء لجنة رسمية لمشروع الموسوعة واستصدرنا به مرسوماً تنظيمياً، ورصدت له ميزانية مالية خاصة، وقطعنا فيه مرحلة تحضيرية هامة، وضع فيها الهيكل اللفظي الشامل لجميع الكلمات الاصطلاحية الفقهية في المذاهب الأربعة كما وضع في هذه المرحلة معجم للفقه الظاهري من كتاب (المحلي) لابن حزم، وفيه خلاصات لأحكام المذهب في كل موضوع ومسائله مرتباً كذلك على حروف الهجاء، ومحالا في كل منها على التفصيل في مكانه من المحلي، ليكون مساعداً لمن يكتبون موضوعات الموسوعة الفقهية في الرجوع إليه، باعتبار أنه من أمهات الكتب في الفقه المقارن .

ولما حصلت الوحدة بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ رغبت وزارة الأوقاف المصرية أن تشارك في هذا العمل وتقوم بتمويله، فألفت لجنة موحدة جمعت بين أعضاء لجنة دمشق وآخرين مصريين، منهم الأستاذان الكبيران الشيخ علي الخفيف والشيخ محمد أبو زهرة، رحمهما الله، وفي هذه المرحلة سرنا في مشروع الموسوعة الفقهية سيرا حثيثا، وخرج منه جزء نموذجي يتضمن عددا من الموضوعات من

حروف شتى غير مقيدة بالتسلسل الهجائي، لثرى فيه طريقة معالجة الموضوعات وعرض مسائلها في مختلف المذاهب.

ولما وقع الانفصال بين مصر وسورية عام ١٩٦١ على يد الضباط السوريين توقف عمل الموسوعة في مصر وسورية.. وفي آخر العام ١٩٦٦ فكرت وزارة الأوقاف في الكويت أن تبني هذا المشروع العلمي العظيم، فاستطلعت رأي شخصيات عديدة في البلاد العربية، ثم وقع اختيارها عليّ، فاستعارتني من جامعة دمشق لكون خبيراً للموسوعة الفقهية وتنفيذ هذا المشروع لديها، فقممت بتأسيس جديد لسير العمل والاستكتاب فيه مدة خمس سنوات أنجزنا خلالها مايعادل ربع المشروع كتابة.. وكنت قد قدرت لهم أن يخرج في ثلاثين مجلداً، في كل مجلد ألف صفحة، وفي كل صفحة مابين ٢٥٠ و ٣٠٠ كلمة.

و ذات صباح من صيف ١٩٧١ فوجئنا بقرار من وزير الأوقاف الجديد، وهو غير الذي بدأنا العمل معه، يقضي بإلغاء المشروع!!!.. وعلى أثر ذلك استدعيتني الجامعة الأردنية للتدريس في كلية الشريعة التي أنشأها في ذلك الحين، فالتحقت بها حيث لأزال، وكنت قبل هذا قد أجليت على المعاش من جامعة دمشق لبلوغ السن القانونية خلال وجودي في الكويت.. ثم جرى تبديل وزاري آخر في الكويت، فعرفوا خطأ الوزير السابق في إلغائه مشروع الموسوعة الذي سيكون من المآثر الخلدلة لذكر الكويت على الأجيال، فقرروا استئناف العمل فيه، واتصلوا بي، ولكن ارتباطي بالجامعة الأردنية كان حائلاً دون العودة، فألفوا لجنة للموسوعة، وتابعوا العمل بصدق وجدية، وهو الآن ماضٍ بطريقة تختلف عن طريقتي التي أسستها، وأثناء وجودي في الكويت أنجزنا معجماً للفقه الحنبلي من كتاب المغني لابن قدامة المقدسي، على غرار معجم الفقه الظاهري من كتاب المحلى لابن حزم الذي أنجزناه بدمشق.

م — هذه معلومات هامة عن مشروع الموسوعة الفقهية ودوركم فيها ، فماذا عن الجمع الفقهي بمكة المكرمة ؟ ..

مص- إن المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة قرر في سنة ١٣٩٨ هـ إقامة مجمع للفقهاء الإسلاميين بمكة ووضع له نظاماً للنظر في المشكلات العصرية وقضايا الساعة وتقرير الحلول الشرعية فيها على ضوء نصوص الشريعة ومبادئها العامة واجتهادات الفقهاء وهذه بداية تفتح الطريق للاجتهاد الجماعي الذي نحن بمسيس الحاجة إليه في ظل هذا التطور السريع للحياة العصرية وقد اختارني مجلس الرابطة لعضوية المجمع .

م - أتذكر أنكم من أول المنادين بفكرة الاجتهاد الجماعي فألى أين وصلت هذه الفكرة في مجال التطبيق ؟ .

مص- حقاً . كنت في طليعة الذين فكروا وكتبوا في هذا الموضوع منذ ثلاثين عاماً وقد وجد القناعة المنشودة والله الحمد . ومن ذلك أن السيد محمد سرور الصبان رحمه الله قد طلب إلي وضع مشروع ونظام لإنشاء مجمع فقهي فوضته وقدمته إليه في بيروت . وللمجمع دورة سنوية في مكة يتدارس فيها البحوث المقدمة إليه ويقرر فيها ما يرى . وقد قدمت إليه عدة بحوث هي الآن قيد النظر منها بحث ضاف عن المصارف ومعاملاتها والفوائد التي تتعامل على أساسها والحكم الشرعي فيها ومنها أيضاً بحث عن التلقيح الصناعي البشري وأطفال الأنابيب وهو من أهم قضايا الساعة . . ولهذا كله صلة وثيقة بقضية الاجتهاد الجماعي الذي أصبح هذه الأيام هو الحل الأمثل لحماية العلم الشرعي من فوضى الاجتهادات الفردية .

م - بقي أن نحدثونا عن مشروع القانون المدني الموحد في جامعة الدول العربية ..

مص- في العام ١٩٧٥ قررت جامعة الدول العربية توحيد القانون المدني ، وهو القانون العام لجميع المعاملات ونتائجها المالية في البلاد العربية ، وألفت لذلك لجنة تجتمع في دورات سنوية بمقر الجامعة ، ولم تكن فكرة الفقهاء الإسلاميين والتراث وارداً في الأذهان ، بل بدعوا على أساس اختيار النصوص الأنسب من مجموع القوانين المدنية القائمة في البلاد

العربية، وكلها أجنبية الأصول منقطعة عن تراث الفقه الإسلامي، وأساسها القانون المصري الجديد كما أسلفنا، وبعد سير اللجنة عدة سنوات في وضع النصوص الموحدة نُبِيت فانتبِيت إلى أنه من غير الممكن قبول قانون مدني موحد في جميع البلاد العربية، إذا لم يكن قائماً على أساس التراث، ومستمداً من الفقه الإسلامي، ومؤصلاً على أصوله بمذكرة أيضاً تربط مواده جميعاً واحدة فواحدة بمراجعها الفقهية ووافياً أيضاً بالحاجات الزمنية.. وعندئذ قرروا — عام ١٩٧٨ — تحويل شراع السفينة، وتأليف لجنة خبراء من فقهاء الشريعة والقانون لتضع النصوص وتوصلها على أساس الفقه الإسلامي، ولجنة عامة تُعرض عليها أعمال لجنة الخبراء لإقرارها بالصيغة النهائية، وقد اختاروني عضواً خبيراً في لجنة الخبراء هذه، من حيث كوني أجمع الصفتين الشرعية والقانونية، ولكن لم نمارس العمل في هذا الشأن إلا في السنة ١٩٨٠ بعد انتقال الجامعة العربية إلى تونس إثر انفراد مصر بالصلح مع إسرائيل.. ونحن الآن ماضون في هذا العمل، وقد قطعنا في الطريق الصعب منه مرحلة طويلة، مرحلة وضع نصوص النظرية العامة وتأصيلها.

م — هذه المعركة الضارية بين الإسلام والجاهلية الحديثة.. كيف تتوقعون نهايتها؟...

مص — إنها معركة مؤسفة، وما سميت أنت بالجاهلية الحديثة أسميه أنا جاهلية العلم، وهي أشد خطراً من جاهلية الجهل، ذلك أن أصحاب هذه الجاهلية ركبهم الغرور بما عندهم من العلم، وإلحادهم قائم على أسس فلسفية، فهم أشد عناداً وأشرس عداء للإسلام من أهل الجاهلية الأولى، التي كان علاجها التوعية والتنوير بخلاف هؤلاء الذين يستعصون على الإصلاح. ومهما يكن فأنا لست متشائماً كثيراً، لأنني أشاهد اتجاهات جديدة في الشباب المسلم وفي الرأي العام نتيجة للكوارث العظيمة التي ألمت بالأمة الإسلامية وبالبلاد العربية على أيدي أولئك المغرورين المبهورين بتقاليع الغرب.. الذين جمعوا في قلوبهم بين الغرور بمظاهر المدنية والجهل التام بحقائق الإسلام، أجل.. إن هناك

إدراكاً جديداً ووعياً أكيداً في البيئة الإسلامية نلمسها في أوساط الشباب وفي أوساط بعض الحكام أيضاً . وقد اتسعت معلومات هؤلاء وأولئك عن الإسلام فازداد إقبالهم عليه وثقتهم به ، فنفضوا أيديهم من الأمل بأولئك الذين لا يزال دم الاستعمار وشهوته يجريان في عروقهم ، فيدفعانهم إلى الإيقاع بأهل الإسلام ، ولكن بأسلحة غير التي جربها أسلافهم في عهود الاستعمار العسكري ، ويتضح ذلك في أساليبهم الشيطانية التي يريدون بها تسميم أفكار المسلمين ، وإفساد مجتمعاتهم .. غير أن محاولاتهم الهدامة التي سجلت كثيراً من النجاح لهم قد بدأت تنكشف لأعين الغافلين ، فيزدادون كل يوم حذراً منهم واقترباً من دينهم وأصالتهم الإسلامية .

وإن أملى لكبير إن هذا التفتح الذي نشهده بين المثقفين من الشباب والفتيات وبعض الحكام ، سيؤتي أكله قريباً إن شاء الله ، ومن دواعي التفاؤل هذا الاتجاه الذي نراه اليوم لدى بعض حكام المسلمين نحو تطبيق الشريعة الإلهية في بعض الدول العربية والإسلامية ، وننتظر أن تنعمهم في ذلك دول أخرى ، وأن تتابع خطوات الخير في هذا الطريق حتى تشمل البيت والشارع والمصنع ومؤسسات الدولة كلها بفضل الله وتوفيقه .. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

يقول مؤلف الكتاب :

ولقد شاء الله جلت حكمته أن تكون خاتمة هذه الصفحات إحدى البشريات التي من حقها أن تبعث الرضى في كل نفس تقدر العلم وأهله ، وذلك بمابشته إذاعة الرياض من أن اللجنة النازرة في جائزة الملك فيصل — رحمه الله — قد وقع اختيارها على علامتنا هذا فائزاً وحيداً بجائزة هذا العام — ١٤٠٤ هـ — للدراسات الإسلامية على كتابه (المدخل إلي نظرية الالتزام العامة

في الفقه الإسلامي) وهو الحلقة الثالثة من سلسلة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) آخذة في الاعتبار ماللاستاذ من جهود متعددة في هذا الميدان ..

فللأستاذ الصديق تهانينا القلبية على هذا التقدير الذي صادف أهله ، وللجنة الحكيمة أخلص الشاء على قرارها الذي وافق محله ..

القرآن العظيم

كتاب من العلم المحيط مداده
فآياته مرآة صدق جليلة
عظاات وأمثال وهدي وحكمة
ألا إنه القرآن، فاعلم، ملاذنا
به قارعات كالصواعق قوة
بلاغ كساه الله ثوب بلاغة
علاج لبؤس البائسين محقق
كفاء لحاجات الحياة جميعها
شفاء لأدواء النفوس ورحمة
تراه جديداً كلما جئت سامعا

به صفحات الكون تتلى وتسمع
يُرى ماضى فيها وما يُتوقع
وشرع جليل نير الحكم مُبدع
فما دونه خير، ولا عنه منزع
ونور رفيق بالعيون (مشعشع) !
ترد بليغ القوم عياً فيخضع
ورُوح لروح اليائسين مشجع
فللفرد تقويم وللقوم مَهيع
وتكراره أحلى لسمع وأمتع
كأن المعالي من مثانيه تتبع

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الإمام أبو الأعلى المودودي	٥
الأستاذ أحمد أنور الجندى	٤٥
الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك	٦١
الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار	٦٩
الشيخ أحمد عيسى عاشور	٩٥
السيد أمين مدنى	١٠٣
الشيخ حافظ سلامة	١١٥
السيدة زينب الغزالى	١٢٣
الشيخ صلاح أبو إسماعيل	١٤١
الشيخ عبد الحميد عباس	١٦١
الأستاذ عبد الرحمن باسويدان	١٨٧
الشيخ عطية محمد سالم	٢٠١
الأستاذ عمر التلمسانى	٢٢٧
الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٢٤٧
الدكتور محمد الرشيدى	٢٥٥
الأستاذ محمد قطب	٢٧٥
الشيخ محمد محمود الصواف	٢٩٥
الدكتور محمد ناصر	٣١١
الشيخ محمد ناصر العبودى	٣٣١
الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء	٣٤٣

* * * *

بعض آثار المؤلف المطبوعة

- مشكلات الجيل في ضوء الإسلام .
- تأملات في المرأة والمجتمع .
- كلمات من القلب .
- كلمات مضیئة .
- أضواء على حقائق .
- مشاهد من حياة الصديق .
- تحفة اللیب من ثقافة الأديب .
- ذكريات لا تنسى « من الفلین وأندونيسية وتركية وقبرص » .
- مشاهداتی فی الهند .
- مع المجاهدين والمهاجرين فی باكستان
- علماء ومفكرون عرفتهم ج ١ .
- دروس من الوحی .
- نظرات تحليلية فی القصة القرآنية .
- أفكار إسلامية .
- همسات قلب « شعر » .
- نار ونور « شعر » .

فی القصة

- صور من حیاتنا .
- قصتان من الماضي .
- القصص الأربع للشباب والطلاب .
- قصص من سوریه .
- قصص من مجتمعنا .
- الآیات الثلاث .

بطل من الصعيد .
دماء وأشلاء .
الألغام المتفجرة .
اللقاء السعيد .
من أجل الإسلام .
قصص في تاريخنا .
بطل إلى النار .

* * * *